المركز القومى للترجمة
المشروع القومى للترجمة
آميتاف جوش
فى البلاد العتيقة
ترجمة
آمال على مظهر
1791

فى البلاد العتيقة

فى البلاد العتيقة

تـأليف: آميتاف جوش

ترجمة: آمال على مظهر

2011

جوسن، أميتاف.
فى البلاد العتيقة/ تأليف: أميتاف جوسن؛
ترجمتها للعربية وقدمت لها: آمال على مظهر. -
القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١١.
٤٨٨ص؛٢٠ سم. - (المشروع القومى للترجمة)
تدمك ٢ ٩٠٩ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - القصص.
أ - مظهر، آمال على. (مترجم)
ب - العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ١١٤٥٨/ ٢٠١١

I. S. B. N 978 - 977 - 421 -909 - 2

ديوى ٨٠٨,٨٣

المحتويات

تقديم المترجمة

ينتمى كتاب «فى البلاد العتيقة» إلى أدب الرحلات الذى يسعى للتعرف على ثقافات وعادات وتقاليد شعوب أخرى، إلا أنه يمكننا وبحق أن نطلق عليه «رحلة عبر الزمان والمكان»، ويتأتى ذلك من خلال رحلة عبر الزمن والوثائق والخيال يقوم بها الكاتب الرحالة فى محاولة لإعادة صياغة وتفهم أحداث الماضى السحيقة، وإن كانت سلسلة الرحلات تتم فى الواقع عبر رحلة حقيقية يقوم بها المؤلف إلى مصر، إلا أن الرقعة الجغرافية تشمل مصر وعدن والهند (مانجالور) وأمريكا وإنجلترا.

يتعرض الكاتب لسرد تجربة السفر إلى مصر ورصد أحوال المصريين المحدثين فى القرن العشرين فى الكفور والنجوع وذلك بأسلوب روائى تحليلى وليس عن طريق تسجيلى أصم. من الملاحظ أن جوش الذى عُرف عنه أنه روائى يتمتع بحس درامى من الدرجة الأولى نجده يستخدم مفردات مسرحية مثل «البرولوج» «الإبيلوج» حيث يرى أن هناك تشابهًا بين الواقع التاريخى والمسرح ـ فلذلك

نجده يبدأه بمشهد درامى مثير يكتنفه الغموض ويثير شهية القارئ لفك طلاسم هذا اللغز المتعلق بالعبد الذى يذكره فى أول سطور الكتاب. كان المحرك الرئيسى وراء هذه الرحلة هو قيام الكاتب آميتاف جوش ببحث أكاديمى بصفته باحثًا فى الأنثروبولوچيا الاجتماعية، وقد اختار جوش مصر لرصد أحوال المصريين فى الكفور والنجوع المصرية فى قريتى لطيفة ونشاوى فى البحيرة، ولذا يحق لنا أن نطلق على هذا الكتاب أنه النسخة المعدلة العصرية أو المكملة لكتاب إدوارد لين «عادات وتقاليد المصريين المحدثين» الذى صدر منذ حوالى مائة عام قبله، إلا أن تقاليد وخصائص الشخصية المصرية الحديثة كما رصدها جوش لا تغطى فقط هذه الفترة الزمنية المحدودة، عبر الرحلات الثلاث التى قام فيها بزيارة مصر بدءًا من أوائل الثمانينيات حتى ١٩٩٠، ولكنها تبدأ منذ القرن الثانى عشر حتى عاصفة الصحراء فى ١٩٩٠ فى مزيج رائع بين ما شاهده الرحالة بعينه وما ترسب فى وجدانه وعقله وذاكرته من قراءات فى كتب التاريخ والأنثروبولوجيا الاجتماعية.

الملاحظ أن هناك رقعة اهتمامات واسعة يتناولها الكتاب فهو لا يهتم فقط برصد أحوال وتقاليد المصريين فى القرن العشرين ولكنه يتناول بالإضافة إلى ذلك أشياء فى غاية الخطورة مثل تاريخ الصراع الفلسطينى/ الإسرائيلى من خلال هذه الرحلة فيقوم باستخدام لفظ فلسطين «Palestine» حتى يدلل أن هذا الكيان الجغرافى كان موجودًا قبل عام ١١٤٨ ميلادية لدحض المزاعم الإسرائيلية بعدم وجود كيان اسمه «فلسطين»، ويربطه كذلك ربطًا

وثيقًا بما حدث فى الماضى القريب نسبيًا بدءًا من عام ١٩٤٢ وفى أثناء الحرب العالمية الثانية فى العلمين.

يمكن القول إن نقطة الانطلاق الحقيقية لهذه الرحلة والتى بدأ جوش رحلته بسببها والتى كانت بمثابة لحظة فارقة هى المخطوطة الموجودة حاليًا فى المكتبة الوطنية بالقدس، وكذلك كتاب العلامة جويتين بعنوان «رسائل التجار اليهود فى العصور الوسطى» الذى وقع فى يد جوش عندما كان الأخير يدرس فى جامعة أكسفورد بإنجلترا شتاء عام ١٩٧٨ فى منحة أنشأها الهنود المغتربون فى إنجلترا، وكما يقول هو بنفسه «فى هذا الوقت كان الشىء الوحيد الذى أعرفه عن مستقبلى أنه كان منتظرًا منى أن أقوم بأبحاث تؤدى إلى رسالة الدكتوراه فى مجال الأنثروبولوجيا الاجتماعية. ولم أكن قد سمعت عن الجنيزة الموجودة فى القاهرة، ولكننى فى غضون أشهر قليلة سافرت إلى تونس لكى أدرس اللغة العربية. وفى نفس الوقت تقريبًا من العام التالى أى ١٩٨٠ كنت فى القاهرة متواجدًا فى قرية اسمها لطيفة فى البحيرة، على بعد ساعتين جنوب شرق الإسكندرية».

يربط جوش بين المخطوطة H6 الخاصة بعبد يهودى فى القرون الوسطى (القرن الثانى عشر) وبين الواقع التاريخى المعاصر الحى فيقول «لم أكن أعرف حينذاك عن العبد المذكور فى المخطوطة H6 أى شىء إلا أنه قد منحنى الحق فى أن أكون هناك (أى فى مصر)».

يُعنى جوش بعمل بحث مدقق لمعنى الترحال إلى مصر فيوزرد معلومات عن تاريخ الرحالة إلى مصر. إلا أن المدهش حقًا أن جوش

قد أعطى كتابه عنوان «فى البلاد العتيقة» وقد آثرت أن أحتفظ بهذا العنوان كما هو لما له من دلالات عميقة. فكما هو معلوم فإن هذا المقطع «فى البلاد العتيقة» مأخوذ من قصيدة معروفة للشاعر الإنجليزى الرومانسى الشهير شللى فى قصيدته الشهيرة Ozy-mandias to Egypt وفيها يصف إحساس رحالة إنجليزى بالدهشة والانبهار إزاء الحضارة المصرية القديمة الضاربة فى أعماق الزمن والمتمثلة فى تمثال أبى الهول. إلا أن تجربة جوش فى الترحال إلى مصر فإنها مختلفة كل الاختلاف، ذلك لأن تجربته تمثل مثالاً فريدًا لأدب الرحلات حيث إنه، بخلاف الرحالة الأجانب إلى مصر (الإنجليز والفرنسيين بصفة خاصة) لا يهتم بالآثار الفرعونية (المصرية القديمة) أو الإسلامية أو القبطية، ولكن بالمصريين أنفسهم فخلافا للرحالة الإنجليز فإن جوش الهندى ذا الثقافة الإنجليزية يعتبر ذا رؤية مزدوجة فهو المنتمى للعالم الثالث ويسعى لرصد التقاليد والعادات المصرية المعاصرة آنذاك (فى القرن العشرين)، خلافًا للرحالة الإنجليز الذين ارتحلوا إلى بلاد الشرق وخاصة مصر منذ القرون الوسطى وقاموا بسرد أحداث «غير واقعية» ومتجنية فى كثير من الأحوال تجنح إلى سرد السلبيات فقط دون التعرض للإيجابيات، وفى هذا السياق يعتبر كتاب آميتاف جوش بمثابة تاريخ أو سرد تصحيحى أو مناهض لما قام به الرحالة الإنجليز كما تشهد بذلك إحدى أكبر الصحف البريطانية «الجارديان» فى تعليقها على الكتاب. هناك شىء آخر جدير بالاهتمام ألا وهو أن عنوان «فى البلاد العتيقة» يبدو أنه ينحصر

فقط على مصر، إلا أن الكاتب يُقسم الكتاب إلى جزءين يقع الجزء الخاص بمصر فى فصلين «لطيفة» و «نشاوى» أما الجزء الثانى تحت عنوان «مانجالور» فتقع أحداثه فى الهند حيث ترحل الشخصية المحورية بن بيچو ويقيم لفترة من الزمن حيث يتزوج ثم يتناول الجزء بعنوان «العودة» الأحداث فى مصر مرة أخرى عندما تعود الشخصية المحورية بن بيچو إلى مصر مرة أخرى، وتتكشف أحد اهتمامات جوش بجانب اهتمامه الأساسى برصد تقاليد المصريين المعاصرين وهو محاولة الربط بين حضارتين فى «بلدين عتيقين» ألا وهما الهند ومصر. ومما يؤكد ذلك أن جوش، بصفته الرحالة يحاول التعرف على حضارة مصر بالإضافة إلى رصد تقاليد المصريين المعاصرين، بينما يحاول المصريون بدورهم تفهم الحضارة الهندية ويعطون أنفسهم حق التعرف على الحياة والثقافة فى الهند وكذلك عادات الهنود وتقاليدهم إذا فهذا ليس حوارًا من طرف واحد كما هو الحال مع رحالة سابقين ولكنه من طرفين، ومن أشد ما يشدهم لمعرفته هو حقيقة وفلسفة الهندوسية فى حرق موتى الهنود أو رصد النظافة الشخصية والعلاقات الزوجية الحميمة والختان.

وبقدر ما يسعى أدب الرحلات المتمثل فى هذا الكتاب للتعرف على ثقافات وأعراق تختلف عن الأديب/ الرحالة/ المغامر الذى يقوم بهذه الرحلة/ المغامرة، فإن الآخر، أى الشعوب التى يذهب إليها تسعى هى الأخرى للتعرف على هذا الزائر الذى يحمل تراثًا ثقافيًا مغايرًا له، فمثلاً يقوم أهل قرية لطيفة بسؤال الكاتب/

الرحالة عن هويته الثقافية والدينية مما يثير شهيتهم أكثر فأكثر للمعرفة.

يحتل موضوع الروابط التاريخية بين مصر والهند مساحة كبيرة، ولذلك فإن جوش يشعر بألم حقيقى عندما يحتد الصراع بينه وبين إمام القرية المتشدد ويعلق قائلاً «بدا لى إننى أنا والإمام قد ساهمنا فى إحداث هزيمتنا القاضية الأخيرة، تمثلت هذه الهزيمة فى تدمير قرون من الحوار ربطت بيننا».

هناك أوجه شبه أخرى بين الحضارتين المصرية والهندية، وهى الإيمان بكرامات ومعجزات أولياء الله سيدى عباس فى مصر وكذلك يوجد ما يماثله فى الثقافة الهندية.

مما هو جدير بالذكر أنه عندما يتعرض جوش للعنف الطائفى بين الهندوس والمسلمين ويتحدث بأسى وحزن عن تقسيم الهند عام ١٩٤٦ إلى باكستان وبنجلاديش، يخلص إلى أن المصريين لا يمكن أن يتفهموا هذا العنف الطائفى لأنه ليس من طبيعتهم الوديعة السمحة.

وفى أحد مشاهد الكتاب نرى الأستاذ مصطفى ابن القرية المثقف يدعو جوش للذهاب معه إلى المسجد لكى يتعرف على الإسلام، وليس بدافع دفعه للتحول إلى الإسلام، إلا أن جوش يعتذر مبررًا ذلك بعدم وجود مبررات حقيقية تدعوه إلى التعرف على الإسلام.

يستغرق هذا الموضوع، أى محاولات الأستاذ مصطفى لتعريف جوش بالإسلام، عدة صفحات حتى تنحل نقطة الخلاف بينهما عندما يتيقن الأستاذ مصطفى أن تحول جوش عن ديانته الهندوسية قد تثير حفيظة أبا جوش، وأنه يجب المحافظة على اعتبارات القرابة والدين.

يهتم جوش برؤية أوجه الشبه بين مصر والهند وكأنه يثبت بطريقة عملية أن معرفة النفس الحقيقية لا تتأتى إلا عن طريق معرفة الآخر عندما يذهب لرؤية قبر سيدى أبو حصيرة فى دمنهور، ويتم القبض عليه هو والسائق المصرى، وبينما هو فى الغرفة ينتظر قيام أحد لاستجوابه يصف الغرفة والمبنى أنه كبير الشبه بينه وبين مبان موجودة فى الهند حيث إنهما يرتبطان بالحقبة الكولونيالية (الاستعمارية) عندما كانت مصر والهند خاضعتين للاستعمار الإنجليزى ومتأثرتين بنفس الطابع المعمارى، وهذه التفصيلة الصغيرة لها مدلولها فهى تبدد الشعور بالوحشة فى نفس جوش عندما يرى مواطن التشابه بين تاريخ البلدين.

ومن المواقف الطريفة التى تحدث فى الكتاب وترصد رأى المصريين المتمثلة فى المثل الشعبى المصرى عندما يشاكسه جابر بقوله «أنه هندى» أى شخص لا يعرف أى شىء ومن الملاحظ أن جوش لا يتحرج من ذكر ذلك ولا يظهر أى نوع من الامتعاض أو الغضب. وعلى الجانب الآخر يرصد جوش نظرة المصريين للأجنبى بصفته خبيرًا أجنبيًا، حتى لو كان هنديًا، يحدث هذا عند

شراء مضخة المياه وما يصاحبها من احتفال يظهر سلامة نية وطيبة القرويين المصريين وثقتهم فى الغريب، ويعتبرون أى أجنبى متخصصًا وخبيرًا أجنبيًا، حتى أن الصبى جابر الذى يشاكس جوش دائمًا يذهب إليه ليطلب منه مد يد المساعدة عندما يشترون ماكينة الرى الخاصة بهم.

يتمثل اهتمام جوش الأساسى برصد عادات وتقاليد المصريين المعاصرين وذلك بأن يقيم فى قرية صغيرة أو بالأحرى نجع تسمى «لطيفة» ويهتم برصد الحياة اليومية المصرية بكل حذافيرها وتفاصيلها الصغيرة، فيصف طريقة معيشتهم وأكلهم واهتماماتهم ومشاكستهم اليومية مما يضفى مصداقية على وصفه، ومثالاً على ذلك عندما يساوم على دفع أجرة الحجرة التى يقطنها. ويهتم كذلك بوصف نماذج مختلفة من البشر لكى تكون الصورة مكتملة بقدر الإمكان وعندما تصف صحيفة الصنداى تايمز هذا الكتاب بقولها إنه «كتاب رائع» فإن هذه الصفة لابد وأنها تتعلق بمقدرة جوش على التوغل إلى أعماق المجتمع المصرى ممثلاً فى الريف والتعرف على الفلاحين البسطاء فى نبرة تخلو من الاستعلاء التى صبغت كتب الرحلات التى قام بكتابتها كثير من الرحالة الإنجليز أو الفرنسيين. فيبدو جوش من جهة مشاهدًا محايدًا للأحداث كأنه بمثابة كاميرا ذكية تلتقط الأحداث بدقة ثم تصفها وتشرحها وتعلق عليها، إلا أنه على الجانب الآخر يبدو متفاعلاً ومندمجًا مع الأحداث، عندما يحضر حفل زفاف قرويًا بسيطًا فيقوم بإشارات بعيدة جدًا خاصة بأحاسيسه هو كرجل يحضر حفل زفاف. يتطرق جوش أيضًا

لوضعه بصفته أجنبيًا ففى وصفه لعلاقته كغريب بنساء القرية، فإنه كان حريصًا على عدم النظر إلى أى واحدة منهن والمحافظة على التقاليد المصرية وذلك استنادًا لما قد قرأه عن العادات المصرية والتى تمسك هو باحترامها ومراعاتها.

لا يهتم جوش كثيرًا بالعاصمة أو بالإسكندرية فلا يبدو منبهرًا بالعاصمة وإنما يقوم بوصف تاريخى لمدينة القاهرة منذ أيام الفاطميين مما يضفى على الكتاب صفة أدب الرحلات الذى ينتمى إليه بحق وهى صفة البحث الأكاديمى المتبحر. يتناول الأسماء الأوروبية المختلفة التى ارتبطت باسم مصر والمفاهيم السلبية المتعلقة بالاسم اليونانى الذى أطلق على مصر. وبعد أن يستعرض الأسماء الأوروبية لمصر وبكل ما تحمله من نواحى سلبية مثل ارتباط الاسم اليونانى لمصر بالغجر، يبدأ جوش فى ربط الحاضر بالماضى، أى مصر الحديثة أو المعاصرة بالمخطوطة التى وقعت تحت يده وجعلته يبدأ رحلة الاكتشاف والتنقيب فى مصر.

قد يصدم القارئ المصرى أو العربى من بعض الأوصاف السلبية مثل تلك المتعلقة بالقذارة فى حصن بابليون فى مصر القديمة أو فى القرية أو وصفه للبط المصرى أنه «قبيح المنظر لأنه قصير وتخين» إلا أن دور الكاتب كمشاهد موضوعى يتيح له ذلك. وبالإضافة إلى ذلك فإن الكاتب يظهر الجانب الأكاديمى المتبحر، فيقوم مثلاً بربط تقاليد وعادات المصريين المعاصرين التى رآها وعايشها بقراءة تاريخ المصريين سواء الحديث أو فى العصور

الوسطى فيذكر الرحالة ابن جبير والبلادوهرى والمسعودى، بالإضافة إلى الإشارات إلى الحروب الصليبية والحروب العربية الإسرائيلية... إلخ.

يرتكز الكتاب على محورين هامين يمتزجان ويتلاحمان معا وهما:

أولاً: معايشة الكاتب/ الرحالة للقرويين المصريين البسطاء للتعرف على عاداتهم وتقاليدهم المعاصرة وهذا ما أشرنا إليه سابقًا، وذلك لإجراء بحث فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية وقد اختار مصر لأهميتها.

ثانيًا: المعايشة المتخيلة للأحداث التى حدثت للشخصية الرئيسية فى مخطوطة H6 وهو إبراهام بن بيچو ومحاولة إعادة الكاتب إعادة تركيب وتخيل أحداث حياته - ولذلك فإن إبراهام بن بيچو هو البطل المحورى فى هذه القصة التى يعيد جوش بعثها إلى الحياة حتى يخيل لنا أن الكاتب قد عايشها فى زمنها.

يتأتى ذلك من خلال قراءة الكاتب لمخطوطة H6 المذكورة آنفًا، ويؤكد ذلك عندما يزور الكاتب حصن بابليون والجنيزة التى تجعلنا نبحر عبر الزمان والمكان، ومن خلال إعادة تركيب الأحداث (المتخيلة) التى يمر بها بن بيچو وعبده يفجر جوش مشكلة وأمورًا ذات أهمية كبرى مثل مشروعية وجود وثائق الجنيزة فى متاحف خارج مصر مثل مكتبة جامعة كامبردج على الرغم من أنها تمثل جزءًا مهمًا من تاريخ مصر حيث إنها تراكمت عبر حقب زمنية على أراضيها.

ولذلك فإن تسرب أو سرقة أو تهريب المخطوطات الأثرية التى كانت موجودة فى الجنيزة تمثل بالنسبة للمصريين مشكلة قومية مصرية فى غاية الأهمية والخطورة حيث إن بعض الأشخاص قاموا بنقلها عبر فترات زمنية مختلفة من مصر إلى جهات عديدة مثل أوروبا وأمريكا. وبذلك يتم تبديد جزء مهم من ثروة مصر الثقافية. يقول الكاتب فى هذا الشأن، وقد نختلف معه اختلافًا كليًا «على أية حال، لم يلاحظ أى شخص ولو بطريقة عابرة، أن تلك المخطوطات قد تعرضت للنهب والتبديد فى موطنها الأصلى مصر».

إذا كان آميتاف جوش قد صرح بوضوح تام سبب قيامه برحلة إلى مصر لرصد عادات وتقاليد المصريين المعاصرين فإنه لا يقرر صراحة اهتمامه بالشق الثانى وهو ما يمثل حوالى نصف اهتمامه فى الكتاب المتمثل فى تتبع قصة اليهودى بن ييجو وعبده وتعايش اليهود فى مصر فى القرون الوسطى وكذلك اهتمامه بزيارة قبر (ضريح) أبو حصيرة فى دمنهور.

أهمية الكتاب أنه يثير الدهشة حتى بعد الانتهاء منه، فبقدر استمتاعنا بما يثيره من قضايا وبما يصوره ويرصده من أحداث، إلا أنه يدعونا للتدبر وإعادة النظر فى الكثير من القضايا ومن أهمها السبب الحقيقى الذى يكمن وراء تقصى جوش لقصة بن ييجو وعبده (ذى الأصول الهندية). هل لتوكيد العلاقات الأزلية بين بلدين عتيقين أم لتقصى تاريخ اليهود فى مصر، وهذا ما أظنه شأن كل كتاب هام يسعى لتحريك رواكد الفكر.

تمهيـد
(برولـوج)

خطا العبد المذكور فى المخطوطة رقم H6 أولى خطواته على مسرح التاريخ الحديث عام ١٩٤٢، كان انطلاقه الأول على المسرح قصيرًا وبالغ الغموض، ولم يكد يخرج من كواليس المسرح حتى أختفى مرة أخرى. كان أشبه ما يكون بهمسات الملقن أكثر من كونه وجهًا محدد المعالم ضمن فريق الممثلين.

ظهر العبد لأول مرة فى مقالة قصيرة بعنوان «مصادر جديدة لتاريخ اليهود فى الشرق الأوسط» كتبها العلامة شتراوس نُشرت عام ١٩٤٢ فى صحيفة يهودية تسمى «صهيون» كانت تصدر فى القدس، وتضمنت كتابات لعدة مخطوطات من العصور الوسطى. كان من ضمن تلك الكتابات خطابًا كتبه تاجر يعيش فى عدن، هذا الميناء الذى يقع مثل ذبابة فوق قمع، فى تلك البقعة حيث تلتقى المقدمة الضيقة للبحر الأحمر بالمحيط الهندى وهذا الخطاب الذى يحمل الآن رقم H6 فى قائمة تصنيف المخطوطات فى مكتبة جامعة القدس كان قد قام بكتابته تاجر يسمى خلّاف بن إسحاق وكان

موجهًا إلى أحد أصدقائه اسمه آبراهام بن ييجو. ويظهر العنوان المكتوب على ظهر الخطاب أن بن ييجو كان يعيش فى مانجالور وهو ميناء يقع على الساحل الجنوب غربى من الهند. وطبقًا لتقديرات شتراوس، فإن الخطاب كان قد كتب فى صيف ١١٤٨ ميلادية.

فى هذا الصيف عندما كُتب الخطاب كانت فلسطين معبرًا أو ممرًا للجيوش الأوروبية. كان جيش ألمانى قد وصل فى شهر أبريل بقيادة الملك العجوز كونراد الثالث سليل عائلة هوهتستوفن، وكان العرب يطلقون لفظ ألمان عليهم. وكان بصحبة الملك ابن أخيه فردريك من سوابيا وكان شابًا يتمتع بجاذبية خاصة . ألقى الألمان الرعب فى قلوب السكان المحليين وطبقًا لما كتبه مؤرخ عربى «فى هذا العام قدم الفرنجة من الألمان وهم صنف مرعب من الفرنجة». وبعد ذلك بفترة وجيزة زار الملك الفرنسى لويس السابع القدس مصحوبًا بجيشه وحاشيته المكونة من النبلاء. وكان بصحبته فى هذه الرحلة زوجته الساحرة الأخاذة إليانور من أكويتان، أعظم وريثة فى أوروبا والتى قُدر لها بعد ذلك أن تصبح ملكة فرنسا وانجلترا على التوالى.

كان موسمًا مشحونًا فى فلسطين. ففى يوم ٢٤ يونيو التقى حشدًا عظيمًا من ملوك أوروبا المتوجين بالقرب من عكا، فى الجليل استقبلهم الملك بولدوين والملكة مليسندة اللذان حكما القدس كما استقبلهم البارونات والأساقفة بالإضافة إلى السادة العظام من

فرسان المعبد والمستشفى. كان بصحبة الملك كونراد أقاربه هنرى جاسوميرجوت من النمسا وأوتو من فرايسنجن، وفردريك من سوابيا، ودوق ولف من بافاريا وكذلك نبلاء من فيرونا ومونتفيرات. ومن ضمن النبلاء المصاحبين لملك فرنسا ومليكته كان روبرت من درو هنرى من شامبانى وكذلك ثيارى كونت الفلمنك.

تخللت الاحتفالات اجتماعات عقدها قادة الجيوش الصليبية للتشاور بشأن خطة استراتيجية شاملة للمستقبل القريب. لاحظ أعداؤهم «أن هناك انشقاقًا فى الآراء فيما بينهم إلا أنهم بعد لأى وفى نهاية المطاف توصلوا إلى قرار تمت الموافقة عليه هو أن يقوموا بمهاجمة دمشق». بالنسبة للحكام المسلمين من الأردن وسوريا الذين كانوا قد بدأوا فى استعادة عافيتهم وتوازنهم بعد المائة سنة الأولى من الحروب الصليبية، كانت هذه ضربة حظ غير متوقعة لأن دمشق كانت فى هذا الوقت هى الدولة المسلمة الوحيدة فى المنطقة التى كانت تقيم علاقات ودية مع الممالك الصليبية.

فى يوم ٢٤ يوليو ١١٤٨ ميلادية نصب أكبر جيش صليبى على الإطلاق تم تجميعه خيامه فى البساتين حول دمشق. أصاب قادته بعض النجاح على مدى اليومين التاليين إلا أن الدمشقيين ردوا العدوان بعزيمة وإصرار شديدين وبعد مدة وجيزة اضطر الصليبيون أن يقوموا بفك معسكراتهم وجمع عتادهم، إلا أن الفرسان التركمان رفضوا التخلى عن جناحى الجيش عند الانسحاب، ممطرين إياهم بالسهام، وسرعان ما تحول التقهقر إلى

هزيمة منكرة. بعد هذه المعركة كتب المؤرخ العربى الذى اعتراه الرعب من مددهم بقوله «عاد الفرنجة الألمان إلى بلادهم التى تقع بعيدًا وجنب ووقى الله المؤمنين هذه المصيبة».

لم ير الشرق الأوسط هذا التجمع والحشد الكبير والمتنوع من الأجانب، كان ذلك فى عام ١٩٤٢، وهو نفسه الصيف الذى وجد خطاب خلاّف سبيله للنشر بطريقة هادئة فى مطبوعات من القرن العشرين. لم يكن هناك حشدًا أكبر من ذلك ولا أكثر من هذا الذى كان فى المنطقة حول الإسكندرية متمثلاً فى الفيلق الأفريقى والجيش السادس الإيطالى تحت قيادة أرڤين روميل الذين كانوا متمركزين على بعد حوالى ٤٠ ميلاً من المدينة، فى انتظار الأوامر التى ستجعلهم يغزون مصر، أما فى داخل المدينة فقد كان عساكر الجيش الثامن البريطانى مازالوا يتوافدون من كل صوب من العالم مثل الهند وأستراليا وجنوب أفريقيا وبريطانيا وأمريكا . وبينما كانت مصائر الجيشين لم تحسم بعد ومازالت تتأرجح فى كفتى الميزان كانت الإسكندرية تشهد آخر مظاهر البهجة الرائعة التى اشتهرت بها المدينة من تعدد الأعراق والأجناس من خلال هذا الإعصار المتعلق بالخطط الكبرى والمصائر التاريخية بدا خطاب خلاّف بن اسحاق وكأنه يفتح بابًا مسحورًا يطل على شبكة ضخمة مترامية الأطراف من جحور الثعالب بينما تستمر الحياة الحقيقية دون توقف. ومن المحتمل أن خلاّف كان على دراية كاملة بالأحداث التى تدور فى أقصى الشمال: فى عدن المدينة التى كان يقطنها، والتى كانت بمثابة الممر الرئيسى لتدفق التجارة بين البحر المتوسط

والمحيط الهندى، وكان لدى خلاف وزملائه من التجار شبكة واسعة من المعارف فى جميع أنحاء شمال أفريقيا والشرق الأوسط وجنوب أوروبا. جعلوا شاغلهم الأكبر أن يطلّعوا على شتى الأخبار والمعارف فعلى سبيل المثال كانوا متابعين لتأرجح أسعار الحديد والفلفل والحبهان فى أسواق القاهرة من موسم إلى موسم آخر. وكانوا يسارعون بنقل تلك الأخبار إلى أقرانهم أينما كانوا، وكانوا أيضًا واثقين أنهم على دراية تامة بالأحداث الجارية فى فلسطين وسوريا.

إلا أنه فى صيف ١١٤٨ عندما كتب خلاّف لإبراهام بن ييچو فى مانجالور، فإنه لم يضع وقتًا فى سرد الأحداث فى الشمال. بدأ بإطلاع صديقه على أخبار خاصة بأخيه مُبشّر (الذى شد الرحال بطريقة مفاجئة إلى سوريا) معلمًا إياه أنه بصحة جيدة. ثم ينتقل بعد ذلك للحديث عن شئونه فإنه يُشّعِر بن ييچو أنه قد قام باستلام بعض البضائع مثل شحنة من بندق شجر الأريقه وقفلين تم تصنيعهما فى الهند وكذلك سلطانيتان من مصنع نحاس الذى كان يستهوى بن ييچو. ويطلع بن ييچو أنه سوف يرسل له بعض الهدايا مع الخطاب «وهى أشياء لا سعر ولا قيمة لها». ويبدو أن القائمة تشير إلى أن بن ييچو يميل إلى أكل المأكولات ذات المذاق الحلو أو السكرى مثل «جّرتان من السكر، جّرة واحدة من اللوز وجّرتان من الزبيب، فيكون بذلك المجموع ٥ جرّات».

وعند نهاية الخطاب فإن العبد يقوم بالظهور فخلاّف بن اسحاق يبدو مهتمًا بصورة خاصة بإرسال «التحيات الكثيرة» له تحديدًا.

هذا هو كل ما فى الأمر: لا شىء أكثر من اسم وتحية إلا أن هذه الإشارة تأتى إلينا فى لحظة من الزمان عندما كنا بدأنا فى تخيل أن الأناس الوحيدين الذين يمكن أن نطلق عليهم صفة إنسانى بحق هم فقط المتعلمون وذوى الشأن مثل الوزراء والسلطان والمؤرخين والكهنة ـ هؤلاء الأشخاص الذين كانت لديهم المقدرة على فرض أنفسهم واقعيًا على الزمن. إلا أن العبد المذكور فى المخطوطة خطاب خلاّف لم يكن على هذه الشاكلة، وفى حالته فإنه لم يكن من قبيل الصدفة أن هذه الآثار التى يمكن أن يلاحظها الأشخاص العاديون ثم تركها فى العالم، أن يحدث أن يتم الحفاظ عليها. وهو شىء أقرب إلى المعجزة أن يكون أى شىء على الإطلاق معروفًا عنه.

مرت إحدى وثلاثون سنة قبل أن يتسنى للعالم الحديث أن يرى ملمحًا من العبد المذكور فى المخطوط H6: كان ما يسمى يوم كيبور أو عيد الغفران قد انتهى لتوه ليرتفع سعر البترول إلى ٣٧٠ فى المائة خلال سنة واحدة.

حدث ظهور العبد للمرة الثانية، مثله مثل المرة الأولى من خلال خطاب كتبه كاشف بن إسحاق فى عدن، وهذا الخطاب موجود ضمن مجموعة بعنوان «خطابات التجار اليهود فى العصور الوسطى» وهذه المجموعة قام الأستاذ الجامعى فى جامعة برنستون البروفيسور العلامة س. د جويتين بترجمتها وتنقيحها. ومثله مثل الخطاب الأول كان موجهًا إلى آبراهام بن ييچو الذى يعيش فى مانجلاور، إلا أنه خلال الأحد والثلاثين عامًا التى انقضت ما بين

نشر الخطاب الأول والثانى فإن العبد توارى للخلف فى الزمان، مثل طرد غريب رابض فوق الحزام الكهربائى المستخدم فى نقل الطرود. كان فى هذا الخطاب أصغر بتسع سنوات وكان خلاّف بن اسحاق قد ذكر اسمه فى هذا الخطاب عام ١١٣٩.

كان هذا عاما مشهودا فى الشرق الأوسط: فقد اغتيل حاكم دمشق وأدت الحروب إلى تمزيق بلاد الشام فيما بين الولايات الإسلامية. ولكن كان خلاّف فى عدن كعادته دومًا غير مكترث بأمور السياسة، والآن وأكثر من الخطاب الآخر، كانت أمور أعماله تشغل باله بشدة، ذلك لأنه فقد شحنة من الفلفل الهندى كان هو وبن ييچو قد اشتركا متضامنين فى استثمار أموالهما فيها، إلا إنها فقدت عندما غرقت السفينة خارج البوغاز الضيق المؤدى إلى البحر الأحمر. والتيارات البحرية هناك لديها سمعة سيئة لكونها مهلكة، فقد اكتسب هذا البوغاز اسمًا كئيبًا أو مقبضًا وهو بوغاز باب المندب، بكل ما يحمله اللفظ من كآبة وتعاسة. تمكن الغطاسون من إنقاذ بعض القطع الصغيرة من الحديد، ولكن لا شىء أكثر من ذلك. وفى نفس الآونة تم تسلم شحنة من الحبهان فى عدن أرسلها بن ييچو وفى المقابل تم إرسال شحنة من الحرير. ومذكور أيضًا بيان كامل مكون من قائمة طويلة من الأدوات المنزلية التى طلبها بن ييچو وكان ذلك مشفوعًا باعتذار عن الحادث الخاصة بطاسة القلى «لقد طلبت منى شراء طاسة قلى مصنوعة من الحجر وموضوعة فى صندوق. بعد ذلك كُسر الصندوق ولهذا فقد اشتريت لك طاسة مصنوعة من الحديد وهى على أية حال أفضل من الطاسة الحجرية».

على الرغم من كل الأمور التجارية التى ترد فى الخطاب فإن الروح السائدة فيه كانت أبعد ما تكون عن الأمور المادية التجارية: فالدفء يسود الخطاب والذى استطاعت ترجمة جويتين أن تجعل الروح السائدة فيه نابضة ومتأججة على الرغم من كونها مكتوبة بكلمات إنجليزية باردة، كتب اسحاق بن خلاّف «سررت عندما وقعت عينى على خطابك حتى قبل أن أقرأ محتوياته. ثم قرأته والسعادة تغمرنى وبينما كنت أدرسه بعناية اعترانى السرور والبهجة... لقد ذكرت يا سيدى أنك مشتاق إلى، أرجو أن تصدقنى عندما أقول إنى أشتاق إليك أكثر من هذا بكثير سواء تحدثت عنه أو وصفته».

وللمرة الثانية يظهر العبد قرابة نهاية الجزء الأصيل من النص، ومرة أخرى يرسل خلاّف «تحياتى الوافرة» ذاكرًا إياه بالاسم. لم يكن دور العبد فى ظهوره للمرة الثانية أقصر من المرة الأولى إلا أنه الآن وقد نال مركزًا أكبر من ذى قبل فقد اكتسب مكانه فى الحاشية.

كانت الحاشية قصيرة ومقتضبة للغاية، فهى تشير إليه بصفته «العبد الهندى لبن ييجو ووكيل أعماله وهو عضو محترم فى منزله».

للخطاب تمهيد بعبارات قليلة عن بن ييجو، فتذكرة هذه العبارات أنه تاجر يهودى من أصل تونسى، وأنه سافر إلى الهند عن طريق مصر بصفته تاجرًا، وأنه أمضى سبع عشرة سنة. وهو شخص متعدد المواهب فهو خطّاط متميز بالإضافة لكونه علاّمة

وشاعرًا. عاد بن ييجو إلى مصر بعد أن قام بجمع ثروة هائلة فى الهند .امضى سنواته الأخيرة فى مصر، ثم وجدت أوراقه سبيلها للمعبد الذى أقامه فى القاهرة، وتم اكتشافها فى حجرة يطلق عليها اسم «جنيزة».

وجدت كتاب بروفسير جويتين المترجم بالمصادفة فى مكتبه فى أكسفورد شتاء عام ١٩٧٨ . كنت آنذاك طالبًا أبلغ الحادية والعشرين من العمر، وكنت قد نلت لتوى منحة دراسية من مؤسسة قامت عائلة من الهنود المغتربين بتأسيسها. كنت قد سافرت من الهند منذ ستة أشهر فقط، ولذلك ربما كنت مشوشًا من موقفى هذا أكثر مما اعتاده الطلبة الآخرون. فى هذه اللحظة كان الشىء الوحيد الذى كنت أعرفه عن مستقبلى أنه كان من المتوقع منى أن أقوم بإجراء أبحاث لنيل درجة الدكتوراه فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية. لم أكن قد سمعت بجنيزة الكائنة فى القاهرة حتى ذلك اليوم، ولكن بعد شهور قليلة كنت فى تونس لأتعلم العربية. وفى نفس الوقت تقريبًا بعد ذلك بعام أى فى ١٩٨٠ كنت فى مصر مقيمًا ومتمركزًا فى قرية مصرية اسمها لطيفة على بعد ساعتين من الإسكندرية وتقع فى الجنوب الغربى منها.

لم أكن أعرف أى شىء عن العبد المذكور فى المخطوطة رقم H6 سوى أنه قد أعطانى الحق أن أكون هناك، وهو إحساس بالامتنان له.

لطيفة

١

كنت قد بدأت أحلم بالقاهرة فى الأمسيات، عندما كنت أجلس فى غرفتى استمع إلى توبيخ أبى على لزوجته أو عندما ينفجر فى وجه زبون سيئ الحظ أثار سخطه بينما كان يبتاع من محله. كنت أحول دون سماعى هذا اللغط بالتركيز على الكتاب الذى أقرأه، أو قراءة مذكراتى أو برفع صوت الراديو الترانزستور، إلا أن صوت أبى على كان مهيمنًا دائمًا، على الرغم من حوائط منزله الطينية السميكة بالرغم من الأصوات الحادة العالية الصادرة من البط والأوز الذى يعيش حول غرفتى.

لم يحظ أبو على بحب أحد فى لطيفة سواء كانوا أقرباء أو جيرانًا ولا أى أحد فى الكفر، بل ومن المحتمل أيضًا حتى زوجته وأولاده، كرهه البعض بطريقة واضحة، بينما حاول البعض الآخر ألا يعترض طريقه طريقهم، كان من الصعب أن يحدث غير ذلك فقد كان مكروهًا بشدة.

على الرغم من كراهيتهم البالغة تلك فقد كان أبو علي يثير الرعب فى نفوس جيرانه وأقاربه. كان أطفال الكفر يحرصون أن يكونوا حذرين عندما يقلدونه: فقد كانوا ينظرون فى جميع الاتجاهات للتأكد أنه لا أبو على أو ابنه الأكبر الفظ على مرأى منهم، وبعدئذ يبدأون فى تقطيب وجوههم فى محاولة لتقليد عبوس وجهه، مكونين من أصابعهم وإبهامهم نظارات شمسية متخيلة، ثم كانوا يقوسون ظهورهم ويترنحون وهم يمشون مبتعدين فى الحارة، وهم يمشون بمشقة من عناء بطونهم الضخمة.

كان الكل فى هذه المنطقة على دراية بعصبية أبو على وكان معظمهم يحاول قدر المستطاع أن يتحاشاه. أما بالنسبة لى فلم يكن لدى خيار فى هذا الأمر، فعندما تسنى لى أن أتعرف على سمعة أبو على كنت بالفعل أسكن فى منزله، وكان هو وبمبادرة منه، قد أعطى لنفسه دور الأب البديل بالإضافة إلى كونه صاحب البيت.

لم أكن أول شخص فى الكفر يجد نفسه مقحمًا فى هذا القرب غير المرغوب منه من أبو على. فما حدث أن منزله كان مقامًا عبر الطريق الرئيسى الوحيد فى المنطقة، وهو طريق ضيق أقرب ما يكون مدقًا قذرًا وبه أخاديد كثيرة، وهو متسع بما فيه الكفاية للسماح بمركبتين صغيرتين أن يحشرا أنفسهما وهما يمران فى محاذاة بعضهما البعض دون أن يقعا فى القناة التى تمر بمحاذاتهما، كان الطريق يخدم شبكة كبيرة من القرى حول لطيفة وكانت المواكب المشعثة المكونة من عربات نقل ذات صناديق خلفية

تهدر وتزمجر جيئة وذهابًا طوال النهار، وهم يحملون الناس من وإلى دمنهور عاصمة المحافظة وأكبر مدينة فى المنطقة.

كان منزل أبو على يحتل مكانًا يسمح فيه برؤية واضحة للطريق وبما أنه كان من هو، فقد كان أبو على نشيطًا فى استغلال الإمكانيات الاستراتيجية لهذا الموقع، فقد كان يمضى وقتًا طويلاً على الفراندا الصغيرة الواقعة فى واجهة منزله، مستلقيًا على كنبة بينما يتابع حركة المرور بيقظة تامة. وفى الأوقات التى تكثر فيها الحركة كان يستلقى على أحد جانبيه، واضعًا ذراعه على فخذه الضخم المتورم وهو يشاهد عربات النقل المارة أمامه من خلال نظارة شمسية ذات حواف فضية، وفى العصارى بعد أن يكون قد تناول غداءه مباشرة، يستلقى على ظهره ويغلبه النعاس بعينين نصف مغلقة، مثل ثعبان قام بالتهام فريسته ويحاول اختلاس فترة راحة بعد تناوله وجبته الشهرية.

ذات مرة قال لى الشيخ موسى، وهو أحد كبار الكفر بينما كنت أتناول العشاء فى منزله أن أبا على كان دائمًا سمينًا، حتى عندما كان صبيًا. لم يكن بمقدوره أبدًا أن يعمل فى الحقل لأنه أصيب بجرح فى رجله عندما كان طفلاً، وسرعان ما أصبح وزنه أكبر بكثير من أقرانه من نفس السن. فى بداية الأمر كان الناس يشفقون عليه، ولكن اتضح بعدئذ أن هذه الإصابة تمثل ميزة لدرجة أن الجميع كان يتساءل عن مدى حقيقتها: فهى قد أعطته ذريعة للتهرب من العمل فى الحقل أى فى فلاحة الأرض، وكنتيجة لذلك

سمح له أبوه أن يتعلم بالمدرسة. ولم تدر أى أحاديث بعد ذلك عن إصابته. حتى أنه انخرط فى الدراسة الجامعية فى دمنهور، وكان هذا أمرًا غير معهود بالنسبة لابن فلاح غير متعلم. ومن المؤكد أنه اهتم كثيرًا أن يكون الوقت الذى يمضيه فى الكلية وقتًا سعيدًا: فلقد نمى علاقات مع طلبة ينتمون لعائلات ذات نفوذ وكذلك مع موظفين ومسئولين فى دمنهور. ولذلك فلم يصب أحد بالدهشة عندما تمكن من أخذ تصريح بفتح دكان أشبه ما يكون بالجمعية التعاونية يبيع السلع بالتسعيرة.

وكان هذا التصريح لفتح المحل بمثابة جواز السفر للرخاء فلقد كان محله هو الوحيد من نوعه فى المنطقة (ولقد تأكدت لى هذه المعلومة) وكان على الجميع أن يقصدوه إذا ما أرادوا شراء السكر أو الشاى أو الزيت وما إلى ذلك بأسعار خاضعة للتسعيرة تفرضها الحكومة، وكان كثيرًا ما يكون زبائنه مثل الشحاذين أكثر من كونهم زبائن، فلم يكن هناك أى شىء يمنعه من اختيار من سيبيع لهم: فكثيرًا ما اكتشف هؤلاء الناس الذين لم يكونوا على وفاق معه أنه لا يوجد لديه شاى أو كيروسين (جاز) أو أى شىء آخر كانوا يريدون شراءه. لم يكن يعنيه الأمر أبدًا بالنسبة لأبى على فلديه زبائن كثيرون وكانوا إما أن يأتوا إليه أو يذهبوا إلى نشاوى وهى القرية التالية التى تقع على بعد ميل ونصف الميل.

قال لى الشيخ موسى وبهذه الطريقة اكتنز أبو على الشحم، وكان الشيخ موسى عادة ما يكون كارهًا للغاية لمناقشة أمور أبى على، إلا

أنه فى هذه المناسبة فإنه سمح لنفسه أن يتندر عليه، فعلى مدى سنوات كان معتادًا على التهام اللحوم مثلما يأكل الناس الآخرون الفول وبالتالى فإنه اكتنز وتورم مثل الوز «المتزغط» الذى تقوم زوجته بتربيته فوق السطوح.

أضاف أحمد ابن الشيخ موسى بقوله تستخدم النسوة الإصبع الأمامية لإدخال الذرة فى حلوق تلك الأوز. وكما تعلم جيدًا فإن الذرة يتم حصادها مباشرة قبل الشتاء، أى حول بداية السنة القبطية التى تبدأ فى شهر «توت»، كان أحمد شابًا جادًا مهتمًا بأمور ما يتعين على جمعه من المعلومات أكثر منى بكثير.

كان مما يدعو للزهو والفخر عند أبى على أنه يمتلك الكثير جدًا من الأدوات والآلات، أكثر من أى شخص فى لطيفة، ولذلك كان مما سبب ألمًا ومرارة عنده أنه لم يكن أول شخص فى القرية يشترى جهاز تليفزيون حيث قام أحد إخوانه غير الأشقاء يعمل مدرسًا فى التفوق عليه فى هذا الأمر.

كان كثيرًا ما يذكّره جابر، وهو ابن أحد أبناء عمومته بهذا الأمر. كان جابر فى مرحلة المراهقة له عينان تلمعان بخبث كما كان يتميز بلسان سليط. وفى بعض الأحيان بينما كنا نجلس ليلاً فى حجرة الضيوف فى منزل أبى على، كان كثيرًا ما ينظر إلى جابر ويسألنى سؤالاً مثل «ايه اسم كابتن فريق كرة القدم الجزائرى؟» أو «مين هو ريس الهند؟ مش هى أنديرا غاندى؟» كانت الأسئلة بلاغية محضة، فهو دائمًا ما يقوم بالإجابة على تلك الأسئلة بنفسه، ثم بعد ذلك

يتنهد بسرور إلى عمه ويقول «فيه كتير ممكن نتعلمه من التليفزيون احنا محظوظين أنه فيه هناك تليفزيون فى البيت اللى بعدنا».

وكان دائمًا ما ينجح هذا الأسلوب.

وكان أبو على دائمًا ما يراه يصرخ بقوله: «أنا مش عارف حكاية التليفزيون دى. إيه اللى يخلينى اشترى تليفزيون دلوقتى ومفيش كهرباء فى بلدنا؟».

وبابتسامة هادئة كان جابر يجيب أن جهاز التليفزيون ممكن أن يعمل بكفاءة عالية على بطارية العربية.

وكان رد أبى على عليه هو صوت زفرة تتحشرج بالسخرية «بطارية العربية! دى زى ما أكون بحرق فلوسى. أنا أقول لك واسمعنى كويس. أول ما تدخل الكهرباء قرية لطيفة زى ما وعدتنا الحكومة، ساعتها ممكن تتفرج على أكبر وأفضل جهاز تليفزيون فى حياتك، فى المكان ده والغرفة دى، إن شاء الله. حيكون أحسن جهاز تليفزيون فى نشاوى، إن شاء الله، وحيكون تليفزيون ملون كمان».

عندئذ تظهر ابتسامة ماكرة على وجه جابر ذى الملامح الواضحة، المغطى بشعيرات خشنة وبشرة خشنة تنبئ عن وصوله لمرحلة البلوغ وكان كثيرًا ما يرد بقوله «حيكون هنا قريب أجهزة تليفزيون ملونة كثيرة» يقول ذلك بينما يكسو وجهه إحساس بالرضا، بينما يستند بظهره إلى مسند الكنبة ويواصل كلامه «عمى مصطفى حيشترى لنا تليفزيون قريب جدًا، إن شاء الله».

وأقصى ما استطاع أبو على أن يفعله على سبيل الانتقام هو الحملقة فيه، فقد كان يعلم أنه لن يستطيع مجاراة أو التفوق على لسان جابر. كان ليروق له لو استطاع منع جابر من دخول منزله، إلا أن أبا جابر كان ابن عم أبو على، وبذلك يكون فردًا فى العائلة الممتدة، وكان أبو على يمثل رأس تلك العائلة الكبيرة، ولذا فإنه لم يكن يستطع أن يطرد جابر من بيته دون أن يثير حفيظة ويجرح شعور قبيلة من الأقارب. بالإضافة إلى ذلك، فإنه تصادف أن جابر كان صديقًا مقربًا لأحد أبناء أبى على، وكان طالبًا من نفس عمر جابر، أى فى حوالى السادسة عشرة. كان الإثنان دائمًا معًا، تلتف يد كل منهما حول كتف الآخر بينما هما يتضاحكان أو يتكلمان بهمسات ماكرة يختلسانها. فلذلك لم يكن بمقدور أبى على عمل أى شىء ليتخلص منه خارج منزله، حيث إنه كان مقيدًا بقيود القرابة، فلذلك كان يتعين عليه أن يختنق يوميًا ويتجرع المرارة عند سماعه عن مباريات كرة القدم التى يشاهدها ابنه وجابر فى تليفزيون فى المنزل المجاور.

وكثيرًا ما كان أبو على ينفجر قائلاً «عايز اعرف أنتم شايفين إيه فى العبط اللى بتسموه كرة قدم، أنتم مفيش عندكم شغل تعملوه؟ يا الله! هى الدنيا والناس حتعيش على كرة القدم؟ إيه اللى حيحصل لـ...؟».

وعلى الرغم من أن أبا على من الممكن أن يكون قد تأخر فى أمر التليفزيون، فإنه كان أول شخص فى الكفر يقتنى شكلاً من أشكال

المواصلات التى تعمل بواسطة موتور، كانت تلك قسبا يابانية شكلها الخارجى يوحى أنها ضعيفة، إلا أنها كانت ذات بنية متينة. كان عادة ما يستخدم القسبا أحد أبنائه الأكبر سنًا عند ذهابه اليومى للكلية فى دمنهور.

كان يستحوذ استحواذًا تامًا على المركبة ولا يمكّن أحدًا من إخوانه أو أبناء عمومته من استخدامها... لكن بالطبع كانت المسألة بالنسبة لأبيه شيئًا آخر تمامًا.

وكثيرًا ما حدث أن ترك أبو على جلسته المفضلة على الأريكة ويطلب من زوجته إحضار أفضل نظاراته الشمسية وينادى عاليا لإحضار القسبا إلى الفناء. كان يمسك طرف جلابيته بأسنانه ثم يرفع إحدى رجليه ثم يمتطى المركبة بقفزة صغيرة جانبيه، بينما يمسك ابنه القسبا لكى تكون ثابتة. وبالنسبة لى عندما كنت أشاهده من فوق السطح كان الأمر يبدو غير معقول بالمرة إذ كيف يتأتى لتلك المركبة الرقيقة أن تتحمل شخصًا بحجم أبى على وهو يسير بها على الطريق القذر الملئ بالمطبات غير الممهد، ولدهشتى، فإن كثيرًا ما حدث ذلك الأمر فهو ينطلق بسرعة فى الطريق، بينما تنتفخ جلابيته حوله مثل البالونة. بينما تظهر القسبا من زاوية جانبية وقد تضاءلت فى حجمها لتظهر على هيئة خط حاد رفيع - كان مشهدًا يُشبه مصاحبة ضخمة للغاية تحملها عصا رقيقة.

لم يكن الأمر مصادفة أن أبا على قد اقتنى الكثير من الممتلكات: فقد أجمع الجميع أنه كانت لديه مهارة خاصة فى اعتصار آخر

قرش من أى فرصة سانحة، كان الناس كثيرًا ما يرددون أنه لا جدوى من القيام بأى مساومة مع أبى على، فهو فى نهاية المطاف سوف يحصل على ما يريده لا محالة.

وسرعان ما تبينت هذا الأمر من تلقاء نفسى.

ذات مساء وبعد وصولى لقرية لطيفة بحوالى شهر أو أكثر، جاء أبو على لزيارتى. كان هذا أمرًا غير معتاد لأنه تطلب منه أن يتسلق سلالم ضيقة. كنت أقطن فوق سطح هذا المنزل فى إحدى عشش الفراخ التى كانت تستخدمه زوجته لتربية الدواجن. البط والفراخ والحمام والأوز إلى عشة أخرى كبيرة فى أقصى ناحية من السطح وتم تحويل العشة إلى حجرة مؤهلة لكى استخدمها بوضع سرير ومكتب وكرسى.

كنت قد اكتشفت منذ أن حللت بهذه الحجرة منذ تلك الزيارة المسائية التى قام بها أبو على أن هذا الأمر كان يدعو إلى الريبة أو التخوف ففى هذا الوقت من اليوم كان عادة ما يُشاهد مستلقيًا على الكنبة وهو فى حالة خمول، لأخذ قسط من الراحة وقت القيلولة بعد الغداء، كان أمرًا غير معهود عنه بالمرة أن يبذل جهدًا للتقلب على جنبه، ولذا كان أمرًا غير متوقع على الإطلاق أن يقوم أبو على بحركة الهجوم على السلم الذى يؤدى إلى السطح. كان قد قام بزيارتى مرتين فى فترة المساء وفى المناسبتين كان يريد أن يناقش أمرًا ما بيننا بعيدًا عن الفضوليين بينما كان أولاده فى مدارسهم أو أعمالهم. وفى إحدى المناسبتين كان يحاول الاستيلاء على الراديو

الترانزستور الخاص بى والذى كان أعز ما أملك، أما فى المناسبة الأخرى فقد أشار بعد مناقشة طويلة وملتوية إلى أن الإيجار الذى أقوم بدفعه لم يكن ملائمًا وأن الأمر يستدعى أن نفعل شيئًا سواء من طرفى أو مش طرف «الضكتور» الذى أتى بى إلى هذا المنزل.

كان قد أحضرنى إلى هذا المكان الدكتور على عيسى، وهو أستاذ بجامعة الإسكندرية، وأحد أهم علماء الأنثروبولوجيا فى الشرق الأوسط. أخذنا أحد معارف دكتور عيسى إلى أبى على الذى قال بصوت جهورى «والله العظيم يا ضكتور عيسى، الهندى حيسكن فى بيتى وأنا حاخلى بالى منه، زى أولادى علشان خاطرك يا ضكتور لأننا بنحترمك جدًا».

وبما أن الدكتور عيسى كان من أفضل وأكرم الناس فقد صدق كلام أبى على، تم الاتفاق على كل شىء بسرعة فائقة ـ كل شىء، ما عدا الإيجار الذى يتعين على دفعه. أزاح الدكتور قلقى جانبًا بهذا الشأن بقوله:

«الاتفاق عن الموضوع ده حيتم بسهولة، أنا حاكتب له جواب ـ مفيش داعى للقلق».

وتم ذلك فعلاً، إلا أن أبا على لم يعير خطاب دكتور عيسى أى اهتمام. والآن بعد أن استقر فوق سريرى أخرج الخطاب المطوى من جيب جلابيته مرة أخرى. وقرأه حتى النهاية ثم طقطق بلسانه وعبس قائلاً:

«قل لى، أنت كنت ساكن فين فى الإسكندرية؟»

رددت «فى لوكاندة صغيرة».

«وكنت بتدفع كام فيها؟»

«٢ جنيه فى الليلة».

هز رأسه بطريقة تنم عن الرضا ثم وضع الخطاب فى جيبه. قال «اللوكاندات بتكلف كتير. أنت محظوظ لأنك ساكن عندنا. احنا حنطبخ لك ونغسل لك هدومك ونعطيك أى حاجة تحتاجها. لازم تطلب أى حاجة تحتاجها فى أى وقت. أنت بالنسبة لنا زى أولادى، وممكن نعطيك فلوسنا إذا احتجت».

أخذ يبحث فى جيوبه بحثًا عن حافظة نقوده ثم أمسك بها أمامى وهو يبتسم، بينما كانت عيناه تتوارى وتختفى تحت طيات وجهه الضخم السمين. قال لى «اتفضل خد ده ـ ممكن تاخد فلوسنا».

حملقت فى حافظة النقود وأنا فى دهشة بالغة، متسائلاً بينى وبين نفسى ما إذا كان من المعتاد أو اللائق أن أقوم بلمس النقود أو القيام بأى حركة رمزية تدل على القبول أو الخضوع مثل الركوع عند قدميه.. رأيت نفسى أنكمش وأنكمش لأتحول إلى أجنبى غريب ضئيل اعتراه الرعب كهؤلاء الذين يمسك بهم بالفراعين من شعورهم فى اللوحات الجدارية الغائرة التى تنتمى إلى الدولة الحديثة فى العصر الفرعونى.

إلا أن حافظة النقود اختفت مرة ثانية داخل جيبه فى غمضة عين قبل أن يتأتى لى وقت كاف للإجابة، قال لى: «دلوقت شفت ازاى بنحبك».

وبعد فترة همهمت قائلاً «أنا كنت بأفكر دلوقت إنى ممكن اشترى أكلى بنفسى».

أجاب غاضبًا ثائرًا لكرامته «ازاى ممكن تقول كده؟ المحلات بعيدة عن هنا، وأنت تعرف أن ده حيكلفك على الأقل جنيه يوميًا إذا كنت عايز تشترى أكلك من البلد. لا، لا، أنت حتاكل معانا».

«لا، أنا أقصد أنا ممكن أعطيك فلوسى».

وعندئذ بدأت لغتى العربية تتهاوى وتتقلص تحت وطأة المساومة، وبدأت فى الاستغراق البطئ الحثيث فى صمت وأنا معقود اللسان.

رد على قائلاً، «لا، لا. الموضوع مش مسألة فلوس، أنت ضيفنا المكرّم.أنت ممكن تشوف أنى لا اهتم بالفلوس فأنا عندى محل كبير تحت البيت، وعندى بضاعة كثيرة والسنة الجاية إنشاء الله حاقوم ببناء دور تانى فى نفس البيت. أنت عارف انى باعلم أولادى فى المدارس والكليات، أنت شايف بنفسك أنى لا اهتم بالفلوس أبدًا».

قلت له «من فضلك قل لى المفروض ادفع كام؟».

أطلق زفرة تنم عن تفكير عميق بينما كان يحك شاربه قائلاً: «لا، أنت اللى لازم تقول لنا عايز تدفع كام».

وهكذا استمر الحديث لمدة ساعة أو ما يقارب الساعة قبل أن يسمح لنفسه أن يصرح برقم معين.

وفى هذا المساء عند الغروب كنت واقفًا على السطح أشاهد حقول القطن القابعة فى هدوء الغسق عندما سمعت صوت أبى على ينطلق مثل القذيفة فى الصالة السفلية وهو يزمجر بسيل من الشتائم موجهة لزوجته. عدت مرة أخرى لغرفتى، وفى محاولة منى لإبعاد الضجيج عنى أدرت مؤشر الراديو فى محاولة لإيجاد موجة يصدر منها صوت يتحدث بلغة مفهومة لكى استمع إلى كلمات قد تبدد عنى إحساس الوحدة. وبتقدم الليل أصبحت فكرة سماع صوت أبى على لمدة شهور، ربما لسنوات فكرة لا تطاق مطلقًا.

كانت فى ليالى مثل تلك الليلة تراودنى أحلام مفعمة بالحياة عن القاهرة.

٢

القاهرة هى ما تراه مصر رمزًا لنفسها. ففى كل مكان فى البلاد، فيما عدا العاصمة نفسها، فإن القاهرة هى مصر، فالناس يتحدثون عنهما بنفس الاسم، «مصر» وهو اسم مناسب بالإضافة إلى أنه عتيق، وهو مشتق من مصدر يعنى «يستقر» أو «يُحضّر». وهذا الاسم له تاريخ طويل فى اللغة العربية فهو يرد ذكره فى القرآن، إلا أنه كان مستخدمًا حتى قبل ظهور الإسلام. وهو اسم أطلق على البلاد بنفس لغة أهل البلاد ولمدة ألف سنة على الأقل، ومعظم الثقافات والحضارات التى ارتبطت بوشائج قديمة مع مصر ارتضت وصف مصر لنفسها. فعلى سبيل المثال فإن اللغات الهندية تعرف مصر بتنويعات على الاسم العربى: مثل «ميشور» باللغة

البنغالية أما فى اللغة الهندية والأوردو فهى «ميصار» وأوروبا هى الوحيدة التى أصرت على تعريف مصر ليس من وجهة نظر مصر نفسها، ولكن بصفتها الوجه الداكن أو الأسمر لأوروبا. فمثلاً يرد فى قاموس أوكسفورد الإنجليزى مستشهداً بالإنجيل «ظلام دامس» (انظر سفر الخروج) أو «الأيام المصرية» وهما يومان فى كل شهر يعتقد أنها أيام نحس وكذلك «العبودية المصرية»: مثل تلك التى عانى منها اليهود فى مصر».

وعلى نفس نمط اللغة الإنجليزية فإن أهم اللغات الأوروبية تشتق اسم مصر من الكلمة الإغريقية (اليونانية القديمة) «آيجيبتوس»، وهو اسم له صلة بكلمة «قبط»، وعادة ما يستخدم للإشارة إلى مسيحيى مصر من السكان الأصليين، ولذلك فإنها فى اللغة الألمانية «آجيبتون» وفى اللغة الهولندية فهى «أيچيبت» وفى اللغتين البولندية والآستونية فهى «اچيپت» وكل هذه الكلمات لها نفس الإيقاع ولها مدلول موحى وتاريخ أكثر بكثير من تلك الأسماء المرتبطة بأسماء دول أخرى. فعلى سبيل المثال فكان يوجد قانون إنجليزى فى القرن السابع عشر ينص على الآتى فى حالة نقل داخل إنجلترا أو ويلز فإن أى شخص منحل أخلاقيًا يطلق على نفسه لفظ «مصرى» عليه دفع أربعين جنيهًا. وفى هذا إشارة إلى أن ألفاظ أو كلمات «چيبسى» (غجر) و«چيتسانو» مشتقة من «إچيبسيان» (مصرى).

أن كلمة أو لفظ «إچيپت» التى تبدو ظاهريًا كلمة بريئة والتى تطلقها أوروبا هى إذن رمز أو علامة بقدر ما تمثل كلمة مصر رمزًا

آخر، إلا أن الأولى كلمة شريرة أقل براءة ذلك لأنها تمثل سلاحًا بنفس قدر ما تمثل ككلمة وعلى النقيض من ذلك، فإن رمز مصر للتعبير عن نفسها لا يضع حدًّا فاصلاً بين مدينة القاهرة أو العاصمة والبلد ككل وهو استخدام مفعم بالتوازنات المحببة وغير المتوقعة فى آن واحد.

ومثل باقى مصر فإن القاهرة تنكمش لتأخذ شكل شريط ضيق من المبانى السكنية فى أقصى الجنوب، أما فى اتجاه الشمال فهى تتسع تدريجيًا مثلها مثل البلد نفسها لتأخذ شكل الكوز المتسع ذى الكثافة السكانية العالية. يقع الصعيد أو مصر العليا فى الجنوب كأنها سجادة طويلة رفيعة تكسوها الخضرة على ضفتى نهر النيل، وقد كون نهر النيل مثلثًا يقع فى الشمال وهو بالغ الكمال والروعة وهو ما يطلق عليه اسم الدلتا إما رمزًا لمصر، أو بالأحرى مصر نفسها، فهى تقع بينهما مثل مفصلة تربط الخط الوهمى المتخيل الذى قسم البلاد منذ فجر التاريخ إلى جزءين، وكل منهما يتميز بخصائصه، إلا أنه فى الوقت نفسه فإنه يتكامل مع الجزء الآخر بصورة فريدة.

بالنسبة لغالبية المصريين من خارج القاهرة فإن القاهرة كرمز تشير إلى مصر بأكملها فالجميع يطلق عليها اسم مصر - أما اسمها الرسمى «القاهرة» فهو مستخدم بصورة غير منتظمة. وفى الحقيقة فإن القاهرة مثلها مثل دلهى أو روما لا تمثل مدينة واحدة بقدر ما تمثل أرخبيل أو مجموعة جزر تضم مدنًا أو مناطق شتى

أقيمت على مواقع متجاورة بواسطة عائلات حاكمة مختلفة ومتباينة.

عندما يتحدث الناس عن مصر فهم دائمًا ما يفكرون فى ضاحية معينة من المدينة، وهى تقع إلى الجنوب ولديها عدة أسماء ففى بعض الأحيان يطلق عليها اسم «مصر القديمة» أو «مصر عتيقة» وفى أحيان أخرى يطلق عليها اسم مار جرجس وفى أحيان كثيرة يطلق عليها اسم فسطاط مصر أو اختصارًا «الفسطاط». يظهر هذا الحى صغيرًا جدًّا أصغر بكثير من أن يطلق عليه كل تلك الأسماء. ولكن فى الواقع، على الرغم من صغر حجم الحى، فإن المساحة ليست عبارة عن جزيرة واحدة داخل القاهرة، ولكن بالأحرى أرخبيل أو مجموعة جزر ثانية داخل الأرخبيل الأول.

لقد كان داخل هذا البناء الذى أصبح فى نهاية الأمر سكنًا ومقرًا لإبراهام بن ييجو سيد العبد المذكور فى المخطوطة H6 وهو حصن رومانى اسمه بابليون. قام ببناء هذا الحصن الإمبراطور تراقان فى ١٣٠ ميلادية، على موقع تكوين أكثر قدمًا، ويقال إن المصريين أطلقوا عليه اسم بابليون مصر لتمييزه عن بابليون الواقع فى بلاد الرافدين أو العراق. ومن المحتمل أن نشأة هذه التسمية تعود إلى الاسم العربى «باب الأون» أى «بوابة أون» على اسم المعبد القديم المقام لرب الشمس فى عين شمس أو هليوبوليس، إلا أنه يوجد الكثير من النظريات المتعارضة ولا يعلم أحد على وجه اليقين صحة هذه النظريات.

أُطلق على الحى عدة أسماء ـ كان أهمها اسم «قصر الشمعة» إلا أن اسم بابليون التصق به دومًا.

كان على جانبى مدخل حصن بابليون فى الماضى برجين ضخمين مدعمين بقوة: أصبح الآن أحدهما أطلالا، بينما أصبح الآخر جزءًا من كنيسة تابعة لليونانيين الأرثوذوكس منذ عدة قرون. وفى الوقت الحاضر أصبح البرجان والممر الواقع بينهما على بعد عدة مئات من الأمتار من النيل. إلا أنه وقت بناء الحصن كان النيل يسرى بجانبه مباشرة، وكان السبب الذى دعا إلى البناء المتين للبرجين أنهما كانا يمثلان الضفة الرئيسية لحصن بابليون لصد فيضان نهر النيل السنوى. فى السنوات الأولى التى أعقبت بناء حصن بابليون كان يوجد ميناء يحيط بالبرجين. وبمضى الزمن والنمو المتزايد فى الحجم والأهمية للتجمعات السكنية حول الحصن فإن النهر تراجع من ناحية الغرب، بينما تزايدت المراسى والمخازن على الأراضى التى بدأت فى الظهور والتكوين فى الضفة فى عصر بن بيچو كان الميناء أحد أكثر الموانئ نشاطًا وحركة فى الشرق الأوسط، ويقال إن الميناء كان تمر به بحارة وسفن أكثر من تلك التى تمر عبر بغداد البصرة مجتمعين.

وفى الوقت الحاضر توجد بوابة حديدية ضخمة بين برجى بابليون المتماثلين والتى يحلو لملايين الزائرين أن يتدفقوا من خلالها سنويًا. إلا أن البوابة الضخمة الثانية للحصن والتى تقع عند الحائط الجنوبى لا تستخدم فى الوقت الحالى وذلك لأن أرضيتها

مغمورة تحت المياه الآن، من جراء ارتفاع منسوب المياه الآخذ فى الازدياد فى القاهرة. تلمع طبقة كثيفة من الطين الأخضر الموجودة بالداخل المغطى بقبو مرتفع، ويحيط بالطين إطارات سيارات قديمة وزجاجات بلاستيك تم التخلص منها بإلقائها هنا.. وقد يبدو أن هذا أمر غريب أن هذه الحفرة المغطاة بالعفن هى نفس الموقع لما كان على الأرجح يمثل أهم حدث فى تاريخ القاهرة، بل فى مصر، فالاعتقاد أنه من خلال تلك البوابة مر الفاتح العربى عمرو بن العاص ليصل إلى بابليون عام ٦٤١ ميلادية، وهى حدث حاسم فى الفتوحات الإسلامية فى مصر.

ومن المفارقات أن سقوط بابليون يمثل علامة بارزة فى الفتوحات الإسلامية، لأن هذا الحدث جعل هذا الحصن الصغير يتبوأ مركز الثقل للبلاد ككل منذ هذا التاريخ. كانت الإسكندرية فى السابق أهم مدينة مصرية قبل الفتح العربى، وكان قد قام بتأسيسها الإسكندر الأكبر عام ٣٣٣ قبل الميلاد، وظلت عاصمة البلاد لمدة تناهز الألف عام. وعلى النقيض من ذلك، كان حصن بابليون مجرد حامية إقليمية بمثابة القاعدة العسكرية الصغيرة. ولذلك، فإنه كان يحق للإسكندرية أن تقم بهذا العمل لاستيعاب الوافدين إليها .

إلا أن القائد المسلم المنتصر عمرو بن العاص كسر هذه القاعدة المعمول بها من قبل الغزاة وذلك بأن اختار أن يتمركز جيشه فى مدينة جديدة تمامًا وليس فى عاصمة البلاد، الإسكندرية، وكان الموقع الذى اختاره هو الواضح، وهو الموقع الذى استخدمه الجيش

العربى ليعسكر فيه بينما كان يعد العدة لحصار بابليون. ولهذا فإن الحصن كان بمثابة اللسان الداخل فى البحر لكى يقوم بعملية تثبيت لمجموعة الجزر المكونة للقاهرة، والتى أصبحت فيما بعد هذا التاريخ عاصمة لمصر، والتى أصبحت بدورها رمزا للبلاد ، وكانت تقع على بعد عدة أميال قليلة من بابليون.

وحسب ما ترويه الأساطير، فإنه فى صبيحة اليوم الذى كان عمرو بن العاص يعتزم قيادة جيشه ليغزو الإسكندرية، استيقظ من نومه ليجد يمامة وقد بنت عشها فوق خيمته. وبما أنه كان يكره أن يجلب سوء الطالع بإزعاج الطائر فإنه ترك وتخلى عن خيمته. وعند عودته لبابليون بعد إحرازه للنصر فى الإسكندرية، قام بتأسيس مدينته الجديدة حول خيمته التى أقامت فوقها اليمامة. يعتقد القاهريون اعتقادًا شديدًا فى هذه الأسطورة، وعندما يرددها أى شخص فإنه لابد وأن يضيف أن اسم الفسطاط وهى المدينة التى أقامها عمرو بن العاص مشتق من الاسم العربى للخيمة. ولكن، فى الواقع فإن القصة أصبحت متداولة بعد هذا الحدث وعلى الأرجح فإنها مشكوك فى صحتها. ومن المحتمل أن الاسم غير مشتق من مصدر عربى على الإطلاق، حيث إنه على الأرجح مشتق من الكلمة اللاتينية والأغريقية «فوساطون»، وهى فى نفس الوقت تتشابه مع الكلمة الإنجليزية العتيقة وغير اللطيفة «خوص» وهى تعنى خندقًا أو مصرف مياه.

كانت الفسطاط عاصمة لمصر قرابة ثلاثة قرون، ولكن من جراء غزو جديد وغزاة جدد فإن مركز الثقل، تحرك بضعة أميال تجاه

الشمال. كان الفاطميون هم الحكام الجدد وهى عائلة حاكمة يرجع أصلها إلى شمال أفريقيا مقصورة على طائفة شيعية تسمى الطائفة الإسماعيلية. فى عام ٩٦٩ ميلادية قاد أحد قادة هذه الطائفة، والذى كان فى الأصل عبدًا يونانيًا اسمه جوهر الرومى (الصقلى) واتجه لغزو مصر على رأس جيش قوامه مائة ألف رجل هزم هذا الجيش المصريين فى معركة بالقرب من الفسطاط وسرعان ما التمس أهل القاهرة منه السلام. ومثله مثل عمرو بن العاص من قبل، فقد حدد جوهر الصقلى حدود المدينة الجديدة بجانب المدينة مباشرة. ويقال إن المنجمين هم الذين أطلقوا اسم القاهرة على هذه البلدة، أى بمعنى المنتصرة بسبب النجم القاهر الذى لمع عاليًا فى السماء فى وقت تزامن مع احتفالات تأسيس المدينة.

ولقد كان هذا الاسم نفسه الذى استخدمته بعض اللغات الأوروبية بألفاظ مختلفة للإشارة للقاهرة مثل «كايرو»، «لوكاير» وما إلى ذلك.

كانت القاهرة فى التصور المبدئى لها كعاصمة تم التخطيط لها بعناية وهى الشكل أو النمط الأولى لمدن كبرى مثل نيودلهى وكانبرا وبرازيليا ومقار رسمية أخرى. كان مقر الخليفة هناك فى القاهرة التى كان يوجد بها مبان فخمة، إلا أن كل شىء هناك كان ملكية شخصية للحكام حيث إن الحوانيت والأسواق كانت موجودة فقط لكى تقوم بخدمة الحاكم وحاشيته. وبمرور الوقت طرأ تغيير كلى

على شخصية القاهرة لكى تصبح ضاحية مزدحمة تتسم بالصخب والبؤرة الصاخبة لمجموعة المدن المكونة للقاهرة. ولكن حدث كل هذا فى زمن لاحق، ففى السنوات الأولى من القرن الثانى عشر عندما حضر بن ييچو إلى مصر لأول مرة كانت القاهرة على الأرجح ماتزال مكانًا يتسم نسبيًا بالجدية والبيروقراطية. فى هذا العهد دأب الفاطميون منذ زمن طويل على إحداث كوارث تؤدى إلى الانهيار، وكانوا يتشبثون بأهداب آخر ما يمتلكون من قوة، وكانت عاصمتهم ماتزال تتسم إلى حد بعيد بالمظاهر الاحتفالية والإدارية كمدينة وربما كانت الفسطاط حينذاك تتسم ببعض من خصائص القاهرة فى الوقت الحاضر، لكونها شبيهة بالسوق المزدحم.

وعلى الرغم من كونها مركزًا يموج بالحياة، فإنه من المحتمل أن الفسطاط فى العصور الوسطى لم تكن باهرة الجمال، ذلك لأن الحفريات الأثرية كشفت أن معظم منازلها كانت مبنية من نفس الخامات التى مازالت مستخدمة ونشاهدها فى ريف مصر فى الوقت الحاضر وهى عبارة عن طمى جاف وقش، وهى خامة تبدو أنها أخاذة عندما يشار إليها بلفظ «الطوب اللبن» واللفظ الأجنبى «آدوب» هو لفظ مناسب هنا حيث إن هذه الكلمة من الأرجح مستمدة من الكلمة العربية «الطوب» ومن المحتمل أن الفسطاط قد اتسمت ببعض الخصائص المميزة للريف أو القرية المصرية. من حيث المنظر الأشعث الشبيه بالشعر الكثيف الذى يميز منازل الفلاحين حيث توجد أكوام كبيرة من القش والخشب مكدس فوق أسطح منازلهم يستخدم لإيقاد الأفران.

ولكن، للأمانة فلم يكن هناك من بعيد أو قريب أى سمة ريفية ملتصقة بالفسطاط فى القرون الوسطى أيا كان نوعها وبصعود نجم الإمبراطورية الفاطمية السياسى، أصبحت القاهرة تلعب دورًا محوريًا فى الاقتصاد العالمى بصفتها همزة الوصل بين البحر المتوسط والمحيط الهندى، وكانت التجارة التى تتدفق إلى أسواقها قد جلبت من أماكن بعيدة جدًا مثل شرق أفريقيا وجنوب أوروبا وجنوب الصحراء الكبرى والهند والصين وأندونيسيا. وفى الزمن الذى ظهر فيه بن ييجو كانت الفسطاط قد أصبحت بالفعل، ومنذ زمن بعيد أكبر «الجزر» فى مجموعة المدن المتناثرة التى تكّون مصر، إذ أنها كانت بمثابة همزة الوصل لبعض أهم طرق التجارة فى العالم المعروف آنذاك بالإضافة لكونها محورًا لإحدى أغنى المدن فى العالم بالإضافة إلى كونها تتسم بتعدد الأعراق والجنسيات بها.

ولكن على الرغم من أن أسواق الفسطاط هى التى أثارت اهتمام بن ييجو لمصر فى أول الأمر، فإن بابليون هو الذى كان مُقدرًا له أن يكون المكان الذى هوى إليه فؤاده. كان الحصن على نفس حاله دون أن يطرأ عليه تغيير يذكر لمدة قرون عديدة وكانت غالبية سكانه من المسيحيين من ملل ونحل مختلفة، إلا أن الأقباط من المسيحيين الأرثوذكس على وجه خاص كانوا يكّونون الغالبية. بالإضافة إلى ذلك كانت هناك على الأقل ثلاث طوائف يهودية فى بابليون ولكل طائفة منهم معبد تؤمه، كانت هذه الطوائف هى «العراقيين» و «الفلسطينيين» و «القرآئين». وكانت طائفة «الفلسطينيين» تقيم وتتبع طقوس مدرسة القدس، وعلى الرغم من اسمها فإنها كانت

تضم اليهود المصريين الأصليين. كان المعبد الفلسطينى هو الذى أقام بن بيچو شعائره فيه.

وعندما حضر بن بيچو إلى مصر كان نجم بابليون قد أفل منذ زمن طويل بسبب ازدهار وصعود نجم الفسطاط. ولكن فى نهاية المطاف فإن الحصن الصغير شديد القوة هو الذى أثبت قدرته على الصمود، وفى الوقت الحاضر فإن المدخل المؤدى إلى ما تبقى من الفسطاط يقع على مقربة من أبراج بابليون، إلا أن القليل جدًّا من السائحين يمرون عبرة، وذلك لأنه يمكننا أن نشم رائحة الفسطاط قبل أن نراها حيث تفوح من الفسطاط رائحة قوية فهى عبارة عن صندوق نفايات ضخم ومقلب زبالة هائل.

تقوم على حراسة المكان بوابة حديدية ضخمة تبدو كأنها بوابة سجن. إلا أنها تفتح بسهولة بمجرد أن يدفعها أى شخص دفعة بسيطة، ويتعرج طريق ملىء بالتراب بين أكوام النفايات فى اتجاه مكان أشبه ما يكون بالمستنقع الملئ بالعشب، وفى بعض أماكن منه تتحلل بعض المواد مما يؤدى إلى اندلاع النار بصورة تلقائية من جراء شمس القاهرة الحارقة، بعدها ينبعث دخان خفيف يأخذ شكلاً حلزونيًا صاعدًا إلى السماء. يلهو الأطفال فى بركة من الطين الرمادى اللون بينما يظهر بعض الأشخاص مرتدين جلاليب رثة فضفاضة وهم يتحركون ببطء عبر هذه النفايات وهم يسحبون وراءهم أكوامًا من الكرتون والبلاستيك. وعلى الرغم من أن الأمر يبدو غير قابل للتصديق، فإن الحفريات فى هذه الأرض الخراب

الملىء بالعفن قد كشف عن كميات ضخمة من أوان فخارية خزفية بالإضافة إلى أشياء ثمينة أخرى، فعلى سبيل المثال فقد تم هناك اكتشاف بعض من قدم بقايا المنسوجات الهندية وأكثرها قيمة.

تقع آخر حدود المدينة التى كانت يومًا ما سوقًا لأفضل ما أنتجه العالم أجمع فى الطرف الأبعد على نفس هذا الطريق: فهناك خطوط تحدد معالم بعض الأساسات لمبانى وكذلك بعض الأسوار المبنية من طوب وأقواس غائرة فى برك هى مزيج من الطين والزيت وهى تتشبث بقوة إلى الأرض، وعلى مبعده من ذلك توجد بعض الأكواخ المقامة فوق أرض مرتفعة فوق الأطلال، وبدورهم يتلاشون تدريجيًا بطريقة غير ملحوظة حتى يتلامسوا مع البنايات الخشنة فى أفق القاهرة ـ بحيث يكّونون مشهدًا يضم التحلل والبعث، وهما، معا، يكوّنان مجازًا يرمز لمصر.

٣

كثيرًا ما راودتنى فكرة أن أبلغ الشيخ موسى برغبتى فى أن أترك منزل أبى على، ولفترة من الزمن فكرت أن أطلب منه أن يساعدنى لعمل بعض الترتيبات الأخرى. كان دائمًا ما يغمرنى بإحساس بالطمأنينة نابع من صداقتى له، ومنذ أن تقابلنا لأول مرة كان ينبعث منه مزيج من الرقة وروح المرح فى شخصيته تدعو إلى الوثوق به، شىء ما خاص بالطريقة التى يهزبها جسده القصير المكتنز يمينًا ويسارًا بينما نتحدث، والطريقة التى يسلم بها ويشد على يدى كلما تقابلنا بينما يتغضن وجهه المستدير الذى لفحته

الشمس فى شبه ابتسامة وهو يصيح «أنت كنت فين كل الزمن ده؟ ليه ما حضرتش لزيارتى؟».

فى بعض الأحيان كان يراودنى شعور واضح أن الشيخ موسى يحاول أن يحذرنى من أبى على. كان الاثنان من نفس السن فى منتصف الخمسينيات وشبوا معًا وربما كان الشيخ موسى يعرفه أكثرمن أى شخص آخر فى الكفر.

وذات مرة بينما كنت أتناول غدائى مع الشيخ موسى وعائلته غمرنى إحساس أنه يقوم بتحذيرى بطريقة غير مباشرة وملتوية من أبى على، إلا أن سلسلة من المقاطعات السخيفة تسببت فى الحيلولة دون أن ألح عليه أن يجد لى منزلا آخر لأقيم فيه.

كنا نجلس فى غرفة نومه هذا المساء. كان الشيخ موسى وابنه أحمد وأحفاده الاثنان وأنا نجلس ونأكل من نفس الصينية، بينما تأكل نساء المنزل من صينية أخرى وهن جالسات فى الطرف الآخر من الغرفة. كانت هذه بمثابة المناسبة الخاصة وذلك لأنى كنت قد تخطيت حاجزًا غير مرئى. كنت قبل ذلك كلما تناولت غدائى عند الشيخ موسى كان ذلك فى المندرة وهى غرفة الجلوس الخاصة بالضيوف وتقع خارج المنزل، والمواجهة للحارة. كان بكل منزل مندرة خاصة به لأن هذه كانت الحجرة الخاصة حيث يتم استقبال الضيوف الرجال بها. ولكن فى هذه المناسبة وبعد أن أدى صلاة العشاء، وقف الشيخ موسى وأخذ بيدى لنخرج من غرفة الجلوس إلى داخل منزله المضاء بلمبات الجاز.

اتجهنا مباشرة إلى غرفة نومه وكان يدفع بخروف مقيد بحبل ناحية الباب، قام الشيخ موسى بطرد صغار الفراخ من فوق جلد خروف قديم مما جعلهم يهرعون تحت سريره، بعدئذ جلسنا على الأرض ولاعبنا أولاد أحمد الاثنين الصغار بينما كنا ننتظر بقية العائلة، بعد رجوع أحمد من الجامع، دخلت الغرفة امرأتان وهما تحملان صينيتين محملتين بالطعام. وضعتا الصينيتين على الأرض وتجمعت النساء حول إحدى الصينيتين، بينما جلس الرجال حول الثانية، كانت كل صينية فى حجم عجلة العربة التى يجرها الحصان، وكان هناك المتسع من المكان ليستوعبنا جميعًا .

كانت هناك ثلاث نساء الآن، وكن جميعهن صغيرات السن، كانت الأولى فى أوج المراهقة وكانت ذات وجه رقيق وبرىء وبشرة وردية وهذه خاصية مشتركة موروثة بين الكثيرين من سكان لطيفة، ومن ملاحظتى للشبه الكبير بينها وبين أحمد أدركت على التو أنها أخته. كانت الامرأتان الأخريان أكبر بكثير ربما كانتا فى منتصف العشرينيات. كانت إحداهما شاحبة ولكن جميلة على قدر كبير من الثقة بالنفس، وكانت ترتدى جونلة طويلة بها نقوش ورسومات، أما الأخرى فكانت سمراء ومكتنزة وكانت ترتدى فستانًا أسود وهو رداء ثقيل ليس له موديل محدد وهو الرداء التقليدى للفلاحات المصريات.

كنت قد قابلتهن جميعًا من قبل سواء بالمصادفة عند مدخل بيت الشيخ موسى أو فى بعض الأحيان فى حجرة الجلوس عندما كن

يقدمن الشاى لنا. فى بعض الأحيان كان يراودنى إحساس إنى قابلتهن مصادفة فى حوارى الكفر، إلا أننى لم استطع أن أجزم بذلك، كان الخطأ خطئى أنا وحدى، فلم تكن أى واحدة منهن، شأنها فى ذلك شأن جميع النساء الأخريات فى لطيفة، يرتدين الحجاب، إلا أن فى هذا الوقت عند أول حضورى وإقامتى فى المكان كنت وجلاً وخائفًا، من كل ما قرأته عن التقاليد العربية التى تتعلق بالخجل والحياء مما دفعنى ألا أفكر فى النظر إليهن خوفًا من إيذاء مشاعرهن. بعدئذ أصبحت أنا الذى أصابه الخجل عندما أتذكر دهشتهن وضحكهن الذى تسببت فيه عندما كنت أمر بجانبهن وأنا أنظر للأرض ولا أنبس أو أغمغم بكلمة أكثر من تحية عابرة، وبعد أن صافحتهن باليد الآن بينما كنا نجلس لتناول غدائنا حاولت أن أتفهم وأفك طلاسم العلاقات بينهن وبين بقية أفراد العائلة. كانت السيدة الجميلة ذات الرداء المزركش هى زوجة أحمد، وقد أيقنت أن ثيابها وكذلك وقوفها ومشيتها وطريقة جلوسها تنم عن أنها حصلت على تعليم جامعى أو على الأقل تعليم ثانوى. وبما أن أحمد قد حصل على تعليم ثانوى وجامعى أيضًا مما جعلنى أيقن أنهما متزوجان. وبالنسبة للمرأة الأخرى وهي السيدة السمراء ذات الرداء الأسود فلم يحتج الأمر أكثر من تفكير لبرهة لأصل للاستنتاج أنها كانت زوجة ابن الشيخ موسى الثانى وهو حسن، أخو أحمد الأصغر.

لم أكن قد قابلت حسن من قبل لأنه كان غير موجود حيث كان يؤدى فترة تجنيده فى الجيش، إلا أننى كنت قد سمعت الكثير عنه.

كان الشيخ موسى كثيرًا ما يتحدث عنه بقدر أكبر من الأحاسيس المعتادة لأب يتذكر ابنه الغائب. عرض على الشيخ موسى ذات مرة صورة حسن: كان شابًا وسيمًا للغاية ذا وجه عريض قوى ومعالم محددة، وفى الحقيقة فإنه كان هنا تشابه واضح بينه وبين صورة الشيخ موسى فى شبابه المعلقة على الحائط فى غرفة الجلوس أو غرفة المسافرين وكان يرتدى الملابس العسكرية.

وعلى عكس أحمد الذى تلقى تعليمًا مدرسيًا وجامعيًا فإن حسن لم يحصل على تعليم. اضُطر لترك المدرسة عند بلوغه سن صغيرة نسبيًا، فقد رباه الشيخ موسى على أن يكون فلاحًا حتى يتمكن أحد الأبناء على الأقل أن يستفيد من الأرض التى ورثوها عن أجدادهم. وربما كانت هذه الأرضية أو العوامل المشتركة بين الشيخ موسى وحسن التى أضفت على صوت الشيخ موسى نبرة حب خاصة عندما كان يتحدث عن حسن: كان أحمد ابنًا بارًا جدًا وكان يساعد أباه الشيخ موسى فى فلاحة الأرض كلما أمكنه ذلك، إلا أنه كانت هناك فجوة لا يمكن إغلاقها بينهما الآن بسبب التعليم الذى تلقاه أحمد، كان أحمد موظفًا فى مصنع بالقرب من دمنهور ولذلك كان يُصنف فى مرتبة الموظفين وهو الشخص المثقف الذى يحصل على ماهية شهرية ومثله مثل الموظفين الآخرين فى القرية كانت ملابسه وأسلوبه فى الكلام واهتماماته وكذلك وسائل الترفيه بالنسبة له كانت جميعها مختلفة تمامًا عن الفلاحين، أما بالنسبة لحسن فإنه على النقيض من ذلك حيث كان على جانب أبيه فى هذا التقسيم،

وكان من السهل أن نلحظ رؤيتهم المشتركة لأمور الحياة وهى ما كونت رابطة ووشيجة خاصة بينهما.

سرعان ما أيقنت أن السيدة ذات الملابس السوداء هى زوجة حسن. سمعت الشيخ موسى يقول بعض كلمات لها، وعندما تبينت نبرة تنم عن عدم الكلفة بينهما، عزوت ذلك إلى العلاقة الحميمة بينه وبين ابنه الأصغر. ولكنى بدأت أتعجب الآن لماذا لم تظهر زوجة الشيخ موسى ولماذا لم تشاركنا فى تناول الغداء.

كان الغداء الموضوع فى صوانى أمامنا غداء جيدًا بالفعل: فحول كومة هائلة من الأرز كانت هناك أطباق مملوءة بالبطاطس المحمرة، والجبن المحفوظ فى الشرش (ماء مضاف إليه ملح)، وسلطة مكونة من طماطم مقطعة ومخللات طازجة، وأطباق مختلفة من الخضراوات المطهوة وخبز كبير مستدير مصنوع من الذرة وأطباق من سمك البلطى صغير الحجم مطهو بالطماطم والثوم. كان كل شىء طازجا وذا رائحة ذكية وبه نكهة، هذه الخاصية التى لا أجد لها اسمًا والتى تجعل من أى شىء ينمو فى تراب مصر له مذاق أكثر حلاوة وثراء أكثر من أى مكان آخر.

عندما قلت كلمات مديح عن الأكل للشيخ موسى رفع رأسه فجأة كأنما خطر له خاطر مفاجئ للتو قال لى «الحاجات أرخص فى الريف ـ أرخص بكتير من المدينة، ففى المدينة ـ لازم الناس يشتروا أى حاجة من السوق ويدفعوا فيه فلوس، ولكن هنا الأمر مختلف، فأحنا بنحصل على كل شىء من الغيطان، فلذلك مش لازم تتوقع

أنك تدفع نفس الثمن هنا زى المدينة. ده مجرد كفر صغيرده حتى مش قرية كبيرة فى نشوى».

ولبرهة قصيرة أصبت بالدهشة، ولكن بعدئذ أدركت أنه يشير بطرف خفى إلى أبى على: فلقد سألنى ذات مرة كم أدفع له ثم استغرق فى صمت يشوبه التعجب عندما ذكرت له المبلغ، ولكن قبل أن أقول أى شىء حوّل الشيخ موسى مجرى الحديث: مستعينا بإحدى حيله وأساليبه المفضلة وبدأ فى التحدث عن الزراعة قائلاً وهو يشير إلى الخيار على الصينية «اسم الخضار ده خيار. وأحسن نوع هو اللى يتجمع بدرى فى الربيع فى شهر أمشير حسب التقويم القبطى».

اشترك كل الموجودين فى حديث من هذا النوع فأضاف أحمد بقوله «أمشير بعد شهر طوبة لما الأرض تصحى من نومها، حسب تعبيرنا، وبعد أمشير برمهات...».

بعد تناولنا الغداء بفترة عندما ظللت أنا والشيخ موسى بمفردنا لفترة، ترك العنان لنفسه وانطلق فى الحديث متحدثًا عن فترة طفولته فى لطيفة وعن أبى على كطفل، ولكن بمجرد رجوع العائلة توقف فجأة عن الكلام، ولم تكن هناك فرصة للتحدث فى هذا الشأن مرة أخرى لأنه بعد ذلك بقليل نهض وخرج من الغرفة.

لم يكد الشيخ موسى يخرج حتى بدأ أحمد فى التحدث إلىّ عن زراعة القطن بالتناوب مع البرسيم المستخدم كعلف للحيوانات، قائلاً لى وهو يناولنى دفتر أوراق «اكتب الكلام ده ولا حتنساه».

بدأت فى الكتابة على نحو متعجل ومتقطع لفترة، ثم بدأت فى البحث عن موضوع آخر للتحدث فيه، ثم سألته ما إذا كانت أمه موجودة فى الكفر.

خيم الصمت فجأة على الغرفة، ثم بعد فترة تنحنح أحمد قائلاً: «أمى الله يرحمها أتوفت من سنة».

تلا ذلك فترة صمت قصيرة ثم مال ناحيتي سائلاً وهو يشير إلى المرأة ذات الفستان الأسود.

«انت شايف سكينة هناك؟ أبويا اتجوزها السنة دى».

ولمدة دقيقة لم استطع أن أنبس بكلمة: فلقد عقدت الدهشة لسانى. كان الشيخ موسى طاعنًا فى السن، مهيبًا ومحترمًا جدًا وكان مما أربك تفكيرى فكرة زواجه من سيدة تصغره كثيرًا.

لاحظت زوجته دهشتى وابتسمت بحياء. ثم استدارت زوجة أحمد، الشابة الصغيرة المختالة بنفسها ذات الرداء القطنى، قائلة «هى سمعت عنك من عيلتها. أنت قابلت عمها الأستاذ مصطفى - مش كده؟».

ومرة أخرى اعترتنى دهشة بالغة. إلا أن الأمور بدأت فى التكشف رويدًا رويدًا.

٤

ذات صباح وبعد وصولى للطيفة بوقت قصير أيقظنى جابر قريب أبى على الشاب قائلاً «اصحى يا مستر. اصحى علشان تقابل عمى».

نهضت بينما كانت عيناى ماتزالان غائمتين من أثر النوم ووجدت نفسى أنظر إلى رجل قصير مكتنز ذى تشابه عائلى شديد مع جابر، فلقد كان له نفس البشرة الوردية، ونفس الملامح المحددة والعينان السوداوين اللتان تشعان بريقًا. كان له أيضًا شارب محفوف ومشذب بعناية وحالما رأيت هذا الشارب كنت أعلم أنه نفس الشارب الذى يتطلع إليه ويتمناه جابر قطعًا بعد أن يتمو ويتطور زغب المراهقة إلى شارب.

فى هذا الوقت كنت مازلت أجهل الاختلافات الدقيقة بين الموظفين والفلاحين، إلا أنى كنت أستطيع أن أتبين على الفور من جلابيته الزرقاء المكوية والطاقية الشبيكة التى يرتديها أن عم جابر لم يكن يكسب قوت يومه من فلاحة الأرض، وقد أوضحت الطريقة التى قدم بها عمه لأنه أضاف كلمة «أستاذ» أى «مدرس» لاسم عمه ـ وهو لقب غالبًا ما يضفى على الرجال المتعلمين الحاصلين على تعليم حديث وليس على التعليم التقليدى.

قال جابر «ده عمى الأستاذ مصطفى.. هو درس القانون فى جامعة الإسكندرية».

ابتسم الأستاذ مصطفى وهز رأسه بشدة ثم وجه إلى كلامه بالعربية الفصحى «لقد تشرفنا بوجود حضرتك بيننا».

استأت وفزعت عندما تحدثوا إلى بهذه الطريقة فلقد ركزت على تعلم اللهجة التى يتحدثون بها فى القرية لدرجة أنى سمحت أن تتوارى دراستى للعربية الفصحى فى طى النسيان. تلعثمت وذلك

لأنى لم أكن متأكدًا كيف أرد عليه، ولكن وعلى غير توقع أنقذنى جابر عندما ربت على ظهرى قائلاً لعمه «هو بيتعلم ازاى يتكلم زينا».

أشرق وجه أستاذ مصطفى صائحًا «إنشاء الله. بعون الله حيكون واحد منا».

لاحظت أنه كانت لديه لازمة فى إزاحة أسورة كم جلابيته من حين لآخر لكى يختلس نظره إلى ساعته. اكتشفت بعد ذلك أن هذه الحركة كان مصدرها قلق يعتريه دائمًا طوال يومه وكان مرده إلى تخوفه أنه قد تفوته صلاة من صلوات اليوم الخمس. ولهذا كان تظهر عليه مظاهر الانشغال أكثر من أى شخص آخر فى لطيفة فلقد كان دائمًا فى عجلة من أمره ليصل إلى الجامع. قال الأستاذ مصطفى وابتسامة هادئة تكسو وجهه «أنا قريت كل حاجة عن الهند، الأكل الهندى فيه شطة كتير، وعند موت الرجل بياخدوا زوجته وتحرق معاه».

قلت محتجًا «مش دايما، فعلى سبيل المثال فإنا جدتى...».

كان جابر يتشرب كل ما يسمعه وهو منبهر، أكمل الأستاذ مصطفى حديثه قائلاً: «وبالطبع، فأنتم عندكم أنديرا غاندى وابنها سنجاى غاندى اللى كان معتاد على إخصاء المسلمين...».

قلت «لا، لا، لقد أخصى الجميع».

عندما بدت عليه أمارات الدهشة تداركت سريعًا بقولى: «لا، مش أنا طبعا، ولكن...».

قال بنبرة الحكيم العارف وهو يهز رأسه موافقًا «أيوه، أنا عارف كده، أنا أعرف كل حاجة عن الهند لما كنت أدرس بالكلية فى الإسكندرية».

قال إنه كان قد أمضى عدة سنوات فى الإسكندرية عندما كان يدرس هناك وتخصص فى دراسة القانون والشريعة، ويعمل الآن فى محكمة دمنهور، تكلم بإسهاب عن حياته الجامعية، والغرفة التى كان يقطنها والكتب التى قرأها، وفى هذه الأثناء حضر إلينا اثنان من أبناء أبى على وهما يحملان صينية لينضما إلينا.

وسرعان ما اتخذ الحديث مجرى آخر عندما تحول إلى الشائعات عن القرية ولفترة، ولحسن حظى، نسونى ولم أكن محور حديثهم، إلا أن جابر لم يكن ليسمح لى بالهروب بهذه السهولة: فلقد لاحظ أن أسئلة الأستاذ مصطفى قد تسببت لى فى الشعور بعدم الراحة، وكان جابر يتطلع للحصول على المزيد من الاستمتاع.

همس فى إذن عمه قائلاً: «اسأله أكتر عن بلده. اسأله عن ديانته».

لم يكن هناك حاجة لهذه التذكرة، فكما اكتشفت بعد ذلك فإن موضوع الدين كان يراود الأستاذ مصطفى دائمًا. قال موجهًا الكلام لى، مشيرًا إلى الأولاد أن يصمتوا «طيب، طيب قل لى، هو أنت مسلم؟».

أجبت نافيًا ذلك «لا» إلا أنه فى الحقيقة لم يكن بحاجة إلى رد وذلك لأن كل شخص فى الكفر كان يعلم ذلك بالفعل.

«طيب، إيه هو دينك؟».

أجبته على مضض «ديانتى عند مولدى هندوسى» وذلك لأننى إذا كان لدى أى هوية دينية فإنها حدثت بمحض الصدفة.

سادت فترة صمت طويلة حاولت جاهدًا خلالها أن أفكر فى كلمات لا تثير انتباههم، وأن يتجه الحديث إلى موضوع ريفى لطيف خاص بالزراعة. إلا أن اللحظات مرت، وبصوت مضطرب قال الأستاذ مصطفى «إيه الكلام ده عن الحاجة دى اللى اسمها الهندوسى؟» أنا سمعت عنه قبل كده ومع ذلك مش فاهم. إذا ما كانش دينك المسيحية أو اليهودية أو الإسلام فإيه يكون دينك، مين هم أنبياء الدين ده؟».

أجبته قائلاً «هو مش كده. مفيش أى أنبياء أو رسل...».

أجاب وعيناه تلمعان «إذن أنت زى المجوس اللى بيعبدوا النار؟».

هززت رأسى بطريقة غامضة، إلا أنى قبل أن أرد نقر ذراعى بأطراف أصابعه قائلاً وهو يبتسم بحياء «لا، أنا عارف أنكم بتعبدوا البقر، مش كده؟».

صدرت شهقة جماعية حادة من الكل بينما تراجع الصبية الآخرون وهم يهمسون داعين الله سبحانه أن يعيذهم ويحميهم من الشيطان.

تنحنحت فلقد كنت أعلم أن هناك أشياء كثيرة تترتب على إجاباتى. قلت: «الحكاية مش كده. ففى بلادى هناك بعض الناس لا

يأكلون لحم البقر لأن... لأن البقر بيمدنا باللبن وبيقوم بحرث الحقول وما إلى ذلك، ولهذا فالبقر له فوايد كثيرة».

إلا أن الأستاذ مصطفى لم يكن ليقتنع بهذا الدفاع الزائف عن البيئة فقال «لا يمكن يكون ده هو السبب»، وحينئذ وقعت عيناه على ساعة يده فاكتسى وجهه بسحابة من التوجس تحرك إلى الأمام، حتى جلس غير ثابت على حافة السرير.

قال «ولكنك حتى الآن ما شرحتش لى حكاية «الهندوسى» دى. وربنا بتاعكم شكله إيه».

حاولت متلعثمًا أن أجد أى إجابة، ولكن لحسن الحظ فإن الأستاذ مصطفى لم يعد يعيرنى أى اهتمام بعد الآن.

قال بكلمات سريعة وهو ينظر إلى ساعته «الحمد لله ـ دلوقت وأنت بيننا ومعانا ممكن تتعرف على الإسلام وتفهمه، وبعدين ممكن تقرر إذا كنت عايز تخليك على دينك».

قام واقفًا ومد يديه إلى قائلاً «تعال معى دلوقت نروح الجامع علشان نصلى صلاة الضهر. أنت مش مطلوب تعمل أى حاجة بس راقبنا واحنا بنؤدى الصلاة، وبسرعة حاتفهم إيه هو الإسلام».

ترددت لبضع لحظات ثم هززت رأسى قائلاً: «لا، لا، مش حأقدر أنا عندى حاجات كتير لازم اعملها».

صاح الأستاذ مصطفى «حاجات تعملها؟ وإيه هى الحاجة دى اللى مش ممكن تأجلها لبعد كده؟ تعال معنا. ده أمر مهم جداً مفيش حاجة زيه فى الأهمية».

رددت عليه قائلاً: لا، مش حاقدر».

ولكنه، بإلحاح وهدوء قال «ليه لأ أنت مجرد تعال وراقب، ده كل اللى باطلبه منك».

وعند هذه اللحظة بالذات تدفق صوت المؤذن آتيا من مسجد قريب، داعيًا النّاس للصلاة بنبرات مُنغمة، وقبل أن أتمكن من التفوه بكلمة أخرى كان الأستاذ مصطفى والصبية قد اختفوا من الغرفة.

إلا أنى لم أستطع أن أستأنف العمل مرة أخرى حتى بعد أن أصبحت بمفردى مرة أخرى. بدأت فى التعجب والتساؤل لماذا لم أقبل دعوة الأستاذ مصطفى لزيارة المسجد ومشاهدته وهو يؤدى الصلاة، كانت نيته سليمة وعلى أى حال، فقد كان يريد أن يعرفنى على أهم عامل فى حياته الروحية. كان جانب منى يريد أن يذهب، ولم يكن هذا الجانب يمثل لى مجرد واجب وجزء من عملى على أن أؤديه بالذهاب إلا أنه عندما حانت اللحظة عرفت أنه لا يمكننى أن أفعل ذلك: فلقد كنت خائفًا جدًا، ولعمرى لم أستطع أن أفهم ما هى الأسباب وراء ذلك.

إلا أن بعد فترة قصيرة جدًا رجع الأستاذ مصطفى ليتحدث إلى مرة أخرى. فى هذه المرة كان يحمل طفلاً بين ذراعيه قال «ده ابنى» قالها وهو يقرص خد الطفل بينما ينظر إلى الطفل بنظرات يشع حبات.

قال للطفل «قول سلام عليكم للمستر» إلا أن الطفل كان مذعورًا فلامس كتف أبيه.

ضحك الأستاذ مصطفى قائلاً لى «أنت وحشتنا الأيام اللى فاتت، أنا كنت مشغولاً فى المساء كنت مضطر أروح أقابل شخص فى نشاوى وعلشان كده ما قدرتش أحضر اتكلم معاك، ولكن اليوم قررت أحضر لك أول ما أرجع من الشغل».

كنت هذه المرة أكثر استعدادًا له، فبدأت التحدث بإسهاب عن تاريخ الكفر ونسب عائلته. إلا أن الأستاذ مصطفى لم يكن لديه وقت كاف لأمور بهذه الشاكلة. وسرعان ما كان يختلس نظرات ملهوفة إلى ساعة يده من وراء ظهر ابنه.

فى آخر الأمر أزاح الثرثرة جانبًا وبدأ فى طرح الأسئلة، أولاً عن عائلتى ثم بعد ذلك عن السياسة الهندية ـ وما هو رأيى فى أنديرا غاندى، هل كنت معها أو ضدها، وما إلى ذلك. وبعد ذلك وبابتسامة خبيثة تحمل فى طياتها التهكم بدأ يسألنى عن رأيى عن «الرجل المنوفى» وهو الاسم الدارج للرئيس ـ وهو يصيغ أسئلته بطريقة بها إشارات غامضة ملتوية، بها قدر كبير من أشكال الحذف مما أدى إلى كونها نوعًا من الألغاز والأحاجى كما لو أنه كان يسخر من عادة الرئيس لنشر عيون وآذان بديلة له فى كل مكان، إلا أن إجاباتى تسببت له فى خيبة الأمل وذلك لأن الكثير من ألغازه كانت لها إجابات جاهزة، والتى لم أكن على دراية بها حينئذ.

وفجأة، اختفت نبرة التهكم من صوته:

قال: «قول لى، هو أنت شيوعى؟»

كان يستخدم كلمة شيوعية والتى ممكن فهمها واستخدامها على محمل «الشيوعى» أو «الملحد» أو «الزانى» فى لغة قريته، بينما فهمى لهذه الكلمة كان يشير إلى أناس لا يؤمنون بأى قوانين أخلاقية.

أجبته قائلاً «لا».

فقال: «طيب، إذا ما كنتش شيوعى، قول لى مين خلق العالم ده، ومين كان أول رجل وأول ست إذا ما كانوش آدم وحواء؟».

أصابتنى الدهشة من جراء هذا التحول المفاجئ. بعد هذا تأقلمت على فكرة تحولات من هذا الشكل فى أحاديث مع أشخاص أمثال الأستاذ مصطفى، فسرعان ما تبينت أن هؤلاء الذين يتقاضون رواتب ومن يُطلق عليهم موظفون فى الأرياف، كانوا جميعًا وتقريبًا بدون استثناء مستغرقين فى اهتمام واحد لا يتجزأ - وإن بدا ذا وجوه متعددة لأشخاص متعددين ألا وهو الاهتمام بالدين والسياسة - بحيث يؤدى الحديث فى أحدهما تلقائيًا إلى الموضوع الآخر. ولكن فى هذا الوقت كنت فى حيرة من أمرى. هممت بكلمات لا يمكن أن تسئ إلى أحد عن مفهوم الخلق والخليقة كما يتردد فى بلدى الهند.

عندما سمع إجابتى جعلته يجفل ثم احتضن ابنه النائم بقوة إلى صدره قائلاً «هم مفيش عندهم أى فكرة عن رب المسلمين، مش كده؟ هم عايشين بس فى الحاضر ومش بيشغلوا بالهم بالآخرة».

بـدأت فـى الاعـتـراض إلا أن الأسـتـاذ مـصـطـفـى لم يـعـد مـهـتـمًـا بإجاباتى. ألقى بنظرة على ساعته ثم انتصب واقفًا قائلاً «بكرة أنا حآخذك للجبانة، وممكن تشوفنى وأنا بارتل القرآن على قبر أبويا.. حتشوف بنفسك ازاى أن الإسلام أفضل من ديانتك «الهندوس» دى».

عندما بلغ الباب التفت إلى للحظة قائلاً: «أنا عندى أمل أنك حتؤمن وتعتنق الإسلام. مش لازم تحبطنى».

ثم ذهب بعد ذلك، وبعدها بلحظة سمعت صوت المؤذن وهو يتهادى من بعيد منشدًا الآذان.

كان الأستاذ مصطفى يعنى كل ما قاله.

حضر مرة أخرى مساء اليوم التالى، حاملاً قرآنه فى يده قائلاً «يللا، خلينا نروح.. الجبانة».

قلت سريعًا «مش ممكن، أنا لازم أروح للغيطان».

تردد للحظة ثم وببعض الامتعاض قرر أن يصاحبنى. وللحقيقة فإن المشى فى الحقول كان بمثابة معاناة للأستاذ مصطفى: فقد تطلب ذلك الانتباه الدائم من جانبه لكى يبعد جلابيته عن بقايا القاذورات، مثل نفايات الخرفان أو روث البقر، لأن ذلك كان سوف يضطره لتغيير ملابسه قبل أن يذهب إلى المسجد مرة أخرى. وكان ذلك يعنى أنه كان يجب عليه المشى بحذر شديد فى تلك الحقول المليئة بالسباخ، وطرف جلابيته مرفوعًا فوق مستوى الكاحل بطريقة تشابه كثيرًا الطريقة التى تستخدمها النساء فى كلكتا بالهند فى رفع السارى الهندى أثناء الرياح الموسمية.

قبل أن نبتعد بعيدًا قابلنا بعض أقاربه يعملون فى رقعة من الأرض مزروعة بالخضراوات. دعونا لنجلس معهم وبدأوا فى طرح بعض الأسئلة عن طبيعة الأرض والمحاصيل الزراعية فى الهند ولكن سرعان ما فقد الأستاذ مصطفى اهتمامه بهذا الحديث وأخذنى بعيدًا.

قال بنبرة اعتذار «هم فلاحين، هم مش بيهتموا كتير بالدين أو بأى حاجة مهمة».

قلت بهدوء «أنا كمان زيهم».

رد على الأستاذ مصطفى وهو مشدوه «حقيقى؟» مشينا ونحن صامتون لفترة، ثم قال لى «أنا بديت أفقد الأمل أنك حتكون مسلم»، ثم خطرت له فكرة فاستدار ليواجهنى قال لى «قل لى، هو أبوك حيزعل منك إذا تحولت عن ديانتك؟».

رددت قائلاً «يمكن».

استغرق فى التفكير وهو صامت لمدة بضع دقائق ثم سألنى باهتمام شديد «هو أبوك قرا الكتب الإسلامية المقدسة ؟».

أجبته «ما أعرفش».

رد علي الأستاذ مصطفى «إذن، لابد له يقراهم، إذا عمل كده حيتحول للإسلام بدون شك».

قلت: «ما اعرفش، هو له تفكير خاص به».

أدار الموضوع فى رأسه وفى طريق عودتنا للطيفة قال لى: «طيب، مش حتكون حاجة كويسة إذا ضايقت أبوك. ده حقيقى».

بعد ذلك كانت محاولاته لتحويلى عن دينى خالية من الحماس، فلقد كان هو نفسه له ابن، وكان شيئًا مخالفًا للغريزة الأساسية أن يحث الإنسان شخصًا آخر لمخالفة أبيه. وهكذا، تلاشى تدريجيًا هذا الصراع بين الاعتبارات الأخلاقية المختلفة المتمثلة فى الدين والقرابة، وبهذا استطعنا أنا والأستاذ مصطفى أن نصل إلى تفاهم واتفاق.

كانت هناك بالفعل رابطة تتكون فى عقلى ووجدانى عندما استدرت ناحية زوجة الشيخ موسى سألتها «هو الأستاذ مصطفى حقيقى عمك؟»، ولم أكن متأكدًا أن كانت تستخدم كلمة «عمى» فعليًا أو مجازيًا. أعدت عليها السؤال «هل هو أخو أبوكى، يعنى عم شقيق؟».

كانت خجولة لدرجة أنها لم تستطع أن توجه لى الكلام مباشرة، على الأقل فى وجود أحمد الذى تولى الكلام بالنيابة عنها، فقال «الأستاذ مصطفى عمها الحقيقى. أمهم شالتهم فى نفس البطن، ولسه عايشين فى نفس البيت».

تساءلت فى دهشة «ولكن فى الحالة دى فإن جابر يبقى ابن عمها. ولابد أنهم اتربوا فى نفس البيت؟».

رد على أحمد قائلاً: «أيوه، هى بنت عم جابر، بنت أخو أبوها».

كان بوسعه أن يقول «إذا كان جابر أكبر من كده لكان تزوجها هو نفسه» وعلى الأرجح فإن أهل جابر وأقاربه لم يكونوا ليتمنوا شيئًا أفضل من ذلك، يعتبر الزواج من أولاد العمومة من الدرجة الأولى، فطبقًا للتقاليد المتوارثة هو الشكل المثالى لرابطة الزواج.

سألت أحمد «إذن فهى من نفس العيلة اللى بينتمى لها أبو على؟».

رد بقوله «أيوه، فأبو على هو ابن عم أبوها «وأخته غير الشقيقة هى جدتها وجده جابر كمان. وهى لسه بنعيش فى بيتهم، أنت قابلتها».

وفعلاً كنت قد قابلتها، وهى ربة العائلة ذات الطلعة المهيبة التى كانت ترتدى ملابس سوداء، وكانت ذات ملامح جميلة وبشرة ناعمة ملساء، ولم يكن هناك أى شبه بينها وبين أبى على. تذكرتها بسبب الروح القيادية التى ظهرت فى جلستها وبطريقة طبيعية للغاية، وذلك بأن جعلت إحدى ركبتيها مفرودة على الأرض، بينما كانت الثانية مثنية لكى تسند عليها ذراعها وقبضة يدها المضمومة، وكانت مجرد نظرة منها كفيلة بأن تجعل حتى جابر يلتزم الصمت.

قال أحمد «أيوه، كان والد أبو على أخ لجدها الكبير، وطبعًا، فإن أبوه، وهو جد أبو على هو أخ لجدى الأكبر من تلات أجيال».

عند هذا الحد كنت قد ضللت طريقى فى متاهة القرابة هذه. ولكن بعد ذلك بفترة طويلة استطعت أن أفهم من الشيخ موسى وذلك بأن شرح لى السلالة الكاملة لكفر لطيفة (وكان كل سكانها

ينتمون بالطبع وفى نهاية الأمر لعائلة واحدة تُسَمى لطيف)، وعندئذ استطعت أن أتفهم لماذا كان يحرص كل الحرص على ألا تصدر منه أية كلمات تنتقد أبا على فقد كانت زوجته سكينة حفيدة أخته، أدت خيوط الأنساب بالضرورة إلى الخلاصة أن أبا على قد لعب دورًا محوريًا فى الإعداد لهذا الزواج.

أصبحت حينئذ الحقيقة واضحة أن هناك تشابكات فى علاقة الشيخ موسى بأبى على والتى لم استطع أن أفهمها فى هذا الوقت أو مستقبلاً: لدرجة أن الأمر سوف يكون محرجًا له أن طلبت منه أن يساعدنى فى إيجاد مأوى آخر لى أو عائلة أسكن معها.

٥

بالنسبة لابن بيچو فإنه كان من المحتمل أن وسط القاهرة كان مجرد مبنى متواضع على مقربة من الأسوار الشرقية لحصن بابليون، وهو معبد بن عزرا، وهو المعروف أيضًا باسم «معبد الفلسطينيين». كان من المقدر له أن يصمد لعدة مئات من السنين حتى بعد رحيل بن بيچو، وكان مازال فى مكانه حتى مرحلة متأخرة أى حتى القرن التاسع عشر. فى ١٨٨٤وصفه البريطانى أ. ج. بطلر، وهو مؤرخ وعالم آثار أنه نموذج مصغر ومبسط لكنيسة أو بازيليكا قبطية، وبحلول هذا الزمن كانت معظم الأجزاء المصنوعة من الخشب قد اندثرت، وفى «الحقيقة فإنه لم يتبق الكثير منه».

عندما رأى بن بيچو الحصن لأول مرة، كان المبنى يتمتع بلمسة خفيفة من الحداثة، حيث إنه كان قد تم إعادة بنائه قبل حوالى مائة

سنة أى حوالى عام ١٠٢٥. كان من المعروف أنه كان لديه مدخلان فى هذا العهد: البوابة الرئيسية وكانت مخصصة للرجال، و«باب سرى» يؤدى إلى منصة خشبية داخل المبنى وكان هذا هو بهو للنساء. كانت الحجرة الرئيسية فى المعبد ذات سقف مثلث الزوايا ونوافذ زجاجية وكانت مزينة بأجزاء خشبية من نوع فاخر: البعض منها مازال موجودًا ويمكن رؤيته فى متحف اللوفر بفرنسا؛ وكذلك فى متاحف فى القاهرة والقدس.

وبالنسبة لابن بيچو فإن ارتياده هذا المعبد كان على الأرجح أمر يتعلق بميلاده أكثر من كونه اختيارًا شخصيًا، كانت أصوله ترجع إلى إقليم كان يُعرف آنذاك باسم أفريقيا فى العالم العربى إبان القرون الوسطى - وهى منطقة تحيط بما يُعرف الآن بتونس، لم يكن قدر هذه المنطقة حسنًا فى القرن الحادى عشر وعلى مدى عقود عديدة، وذلك لأن قبل مولد بن بيچو كان التجار يتجهون شرقًا فى اتجاه مصر. كان اليهود يمثلون النسبة الأكبر من هؤلاء النازحين، وكانت الغالبية من بينهم الذين اتجهوا إلى مصر قد اختاروا أن ينضموا إلى «المجمع الفلسطينى» فى بابليون، وكان بن بيچو بذلك يسلك دربًا معروفًا.

بالنسبة لمعبد بن عزرا فإن تدفق النازحين من أفريقيا كان بمثابة نعمة من الآلهة أو نفحة آلهية، فقد أثبت القادمون الجدد أنهم كانوا أكثر الأعضاء همة ونشاطًا فى المجتمع وسرعان ما تقلدوا مناصب قيادية به، صار مثلاً للآخرين فى أمور اللغة والثقافة، بالإضافة إلى

التجارة. ويبدو أن الآتين من شمال أفريقيا كان لديهم تشابه خاص. فى مجال نمو التجارة المزدهرة بين البحر الأبيض المتوسط وبين المحيط الهندى، ولفترة تمتد لعدة قرون. كان التجار اليهود المقيمون فى الفسطاط يُعدون جزءًا أصيلاً لا يتجزأ من الكيان المكون لمجموعة التجار المتميزة بالتنوع الغنى والتى كانت لهم صلة فيما يتعلق بتسيير الأمور فى بحار آسيا. أدى تحركهم من خلال دائرة التجارة هذه إلى أن جعل الكثير منهم يسافر بصفة منتظمة بين ثلاث قارات ـ وكان الرجال الذين لهم أسماء عائلات كثيرًا ما تُقرأ مثل عناوين الفصول فى الملاحم ربطت بينهم وبين الواحات القابعة فى هدوء وأيضًا للمدن التى تقوم على الأسواق فى الصحراء الكبرى.

ولذلك فإن الطائفة التى انضم إليها بن بيچو فى مصر لم تكن بالطائفة العادية: فقد كانت مكونة من مجموعة من الناس كانت أسفارهم رحلاتهم واتساع رقعة خبراتهم وتعليمهم مثارًا للدهشة حتى فى يومنا هذا، على ظهر كوكب الأرض الذى يُعتقد أنه قد انكمش مؤخرًا. ولكن بخلاف آخرين فى نفس هذه الفترة الذين تركوا بصماتهم فى التاريخ، فإن أعضاء هذه الطائفة لم يستطيعوا تحقيق أى امتيازات أو ألقاب: فهم لم يكونوا من الطبقة الارستقراطية ولا عسكريين ولا مدرسين محترفين. كانت الأغلبية العظمى منهم من التجار، وبينما تمكن البعض منهم من تحقيق ثراء ونجاح، فإنهم لم يكونوا بأى حال من الأحوال، ضمن أكثر التجار سطوة وتأثيرًا فى زمانهم ـ فلقد كان معظمهم تجارًا صغارًا يديرون

تجارة عائلة صغيرة. ولكنه، وعلى الرغم من أحوالهم المتواضعة عامة فقد كان غالبية الرجال يتمتعون بقدر وافر من التعليم، وكان البعض منهم ضمن أفضل علماء عصرهم. فعلى سبيل المثال كان أطباؤهم قد درسوا هيبوكراتس وجالين فى الترجمة الغربية، بالإضافة إلى الكتابات الطبية للأطباء والعلماء العرب مثل كتب ابن رشد (والمعروف فى الغرب باسم آفيروس) والرازى. وفى الواقع، فإن أحد أعضاء هذه الطائفة التى كانت تؤم هذا المعبد يُعتبر واحداً من أفضل العقول فى القرون الوسطى وهو الطبيب العظيم العلامة والفيلسوف موسى بن ميمون والمعروف باسم مايمونيدس. ومثله مثل كثيرين آخرين فى مجتمعه، فإنه كانت لديه صلات وثيقة للغاية بالتجارة الهندية.

إلا أن أعظم إنجازات طائفة بن عزرا كانت غالبًا ناتجة عن ظروف أو أمور مصادفة بحتة. كان الجمهور الذى يؤم هذا المعبد يتبع عرفًا كان منتشرًا على نطاق واسع فى هذا العهد إذ كانوا يودعون كتاباتهم فى غرفة خاصة فى المعبد بحيث يتمكنون من التخلص منها بعدئذ بأداء طقوس معينة. وكان المقصود بهذا التقليد الذى مازال متبعًا من قبل بعض الطوائف اليهودية حتى يومنا هذا هو الحيلولة دون أى تلويث غير متعمد لأى كلمة مكتوبة باسم الرب. حيث إن معظم الكتابات فى هذا العهد تضمنت على الأقل ابتهالاً أو دعاء لله سبحانه فى سياق النص، فإن هذا العرف كفل وبطريقة فعالة، أن يتم إيداع كل الوثائق المكتوبة من كل نوع بداخل المعبد. كانت الغرف التى تودع فيها الوثائق تعرف باسم «جنيزة»، وهى كلمة

يعتقد أنها دخلت اللغة العبرية ومأخوذة عن أصل فارسى »جاد«؟ ويعنى «المستودع» ـ وهى عامل مشترك فى أسماء الأماكن فى الهند وإيران وهى كلمة مفضلة لدى البريطانيين الذين استخدموها بكثرة فى مستعمراتهم الهندية بأشكال إنجليزية تتسم بالغرابة مثل «باليجنج» و «دالتونجنج».

كان لكل معبد يهودى فى الشرق الأوسط يوم ما للجنيزة الخاصة به، وطبقا للعُرف، فإنه كان يتم إخراج محتوياتها وحرقها بصورة منتظمة. أضيفت الجنيزة التابعة لمعبد بن عزرا عند إعادة بنائه عام ١٠٢٥ ميلادية، ولكن لسبب ما ـ ربما كان ذلك من باب تبجيل وتوقير الماضى، وربما كان ذلك سهواً ـ فإنه لم يتم التخلص من هذه الأوراق أبداً لمدة ثمانية قرون تراكمت الأوراق داخل الجنيزة. تدفقت أعداد من المخطوطات لداخل المعبد عند أوج ازدهار هذه الطائفة، خلال قرنين ونصف القرن بعد إعادة بناء المعبد فى ١٠٢٥. وبعد ذلك، نحو منتصف القرن الثالث عشر، انكمش هذا التدفق ليصبح مثل رذاذ المطر الخفيف ولم ينم مرة أخرى إلا بعد ثلاثمائة سنة بعدها، عندما تسببت محاكم التفتيش الإسبانية فى الدفع بموجة أخرى من المهاجرين اليهود الذين تدفقوا داخل مصر. استمر تراكم الأوراق (وبعد ذلك الكتب) بصورة متقطعة داخل الجنيزة حتى القرن التاسع عشر، وبحلول هذا الوقت كانت الفسطاط قد أصبحت مكاناً مهملاً وفقيراً لا يمارس أى تأثير فيما أطلق عليه أرخبيل الحكومة للقاهرة والذى كان يتوسع بطريقة سريعة للغاية. والوثيقة التى يعتقد أنها الأخيرة التى تم إيداعها فى الجنيزة تحمل تاريخ ١٨٧٥: كانت وثيقة طلاق مكتوبة فى بومباى.

ولمدة عدة قرون ظل معبد الفلسطينيين منسيًا مهملاً داخل الفناء شبه المهجور التابع لحصن بابليون العتيق. حوالى عام ١٨٩٠ تم أخيرًا هدم المبنى الذى شُيد فى القرن الحادى عشر، وهو البناء الذى رآه بن بيچو وتم تشييد (بناء) آخر مكانه؛ وهو مازال موجودًا فى الموقع حتى يومنا هذا.

وحتى وقت قريب، كان موقع معبد بن عزرا عند نهاية هضبة مكونة من الركام، وهى أرض واسعة مليئة بالطوب والحجارة المكسورة، وبدت هذه الأرض كما لو أن شاكوشًا هائلاً للغاية قد انقض عليها وسواها وجعلها مسطحة. أما بالنسبة للمعبد وهو مبنى مستطيل ليس به أى شىء يميزه، فقد بدا أن شيئًا يسيرًا للغاية منه قد نجا من التدمير، فقد تهاوى الكثير من البناء وكذلك الحوائط ووقع شيش معظم نوافذه. كانت أكثر شىء لافت للنظر بوابتين من الحديد المطاوع. وعلى الرغم أنهما فقدتا لونهما وتآكلا وأصابهما الصدأ، فإنهما ظلتا جميلتين، ذلك لأن الأشكال الموجودة بهما كانت متعرجة وتنم بشدة عن فن راق وبدتا كأنما قام فنان بجلبهما من باريس فى فورة حماس بعد قضاء إجازته هناك. وفوق الممر الضيق كانت هناك نجمة داود التى تم تثبيتها بواسطة عامود حديدى أسطوانى وبعض الأحجار الثقيلة كانت النجمة المثبتة تبدو أنها مائلة نوعًا ما وتحيط بها بيوت العنكبوت.

اليوم تم تجديد وإعادة الشباب للمبنى وذلك بكشط وتنظيف الواجهة الخارجية تنظيفًا تامًا والمحافظة عليها بحالة جيدة.

تناثرت العشش المكونة من مواد سابقة الصنع فوق الركام بالخارج حيث وقفت مجموعة من المهندسين الشبان أمام طاولات للرسم الهندسى، بينما كانت أطراف أصابع أرجلهم تدق بهدوء على الأرض على أنغام موسيقى الروك، كان هؤلاء المهندسون فريقًا من الخبراء ومرممى الآثار الكنديين الذين حضروا للقيام بإنقاذ المعبد من هجمات الزمن التى تركها فوقه.

ينتظر بعض الناس والسائحين عند مدخل المعبد حيث يوجد بعض الباعة الواقفين وراء طاولات وضعت فوقها الخرز وبعض الحلى والجعران المصنوع من البرونز وتمثال نصفى للملكة نفرتيتى. أمضى أحد الرجال هناك ردحًا من الزمان، كان رجلاً مكتنزًا تعلو وجهه ابتسامة دائمة وهو يرتدى قميصًا وبنطلونًا. لم تتغير الحلى الصغيرة والهدايا التذكارية التى يقوم ببيعها عبر أعوام كثيرة ـ فى الواقع يبدو أنه لا يتكسب أبدًا من بيع هذه الأشياء ـ إلا أنه يبدو مبتسمًا دائمًا ودودًا ويهب لمساعدة الآخرين. يقوم بتوضيح معلومة أن عم شحاتة، التربى الموجود داخل المعهد يمكنه أن يأخذ الزوار للداخل ويقوم بعملية الشرح لكل شىء فهو يهودى ملّم بكل شىء عن المعبد.

وفى لحظة يظهر عم شحاتة وهو رجل عجوز مفعم بالنشاط والحيوية، نحيف للغاية وبظهره انحناءة قليلة. وهو أيضًا يرتدى قميصًا وبنطلونًا، والطاقية التى يرتديها تبدو شبيهة كل الشبه بتلك التى يضعها المسلمون المصريون على رؤوسهم. يتبادل الرجلان بعض

الدعابات بطريقة تنم عن صداقتهما؛ لا يبدو أى اختلاف بين اللغة العربية التى يتحدث بها عن تلك التى يتكلمون بها، وهى لهجة تستخدمها الطبقة العاملة القاهرية. يقول لك إن «اسمه بالعبرية هو ثاثان، أما فى العربية فهو شحاتة». وعندما تقترب منه جداً يبدو عجوزاً بطريقة غير متصورة، فليس له أسنان وعروق جبهته نافرة.

سرعان ما يعلن عم شحاتة، أنه رجل مشغول: فليس لديه وقت لإضاعته؛ فهو يدلك على الطريق بطريقة رشيقة من خلال البوابة ويأخذك للحجرة الرئيسية من المعبد حيث يتسلل الضوء من خلال النوافذ ذات الزجاج الملون؛ أنت الآن فى حجرة ذات سقف عال للغاية، إلا أنها ذات حجم صغير متواضع كأنها فصل مدرسى يوجد فى الوسط مذبح مرتفع ذو ثمانية أضلاع، بينما اصطفت دكك على الجانبين. تتكون الغرفة من مستويين المستوى الأعلى هو البهو المخصص للنساء ويحيط بثلاث نواحى من الغرفة. أما فى أقصى اليسار من البهو فتوجد فتحة صغيرة فى الحائط على ارتفاع عال: وهى تفتح على غرفة شاغرة بمحاذاة الحائط الخلفى. يشير عم شحاتة إلى الفتحة قائلاً لك «دى هى الجنيزة، وجدت فيها أوراق كتيرة من سنوات بعيدة».

تتمنى لو كانت هذه هى فعلاً الجنيزة القديمة، ولكنها لا يمكن أن تكون كذلك، فارتفاعها لا يكاد يصل إلى ستة أقدام أونحو ذلك، بينما كان المعروف عن الجنيزة القديمة فى المعبد القديم أنها على الأقل بنفس ارتفاع بقية المبنى، أى حوالى ارتفاع طابقين ونصف

الطابق. وعلى الأرجح تركت الجنيزة القديمة لفترة من الزمن، بعد أن تم هدم باقى المبنى، ولكنها ولابد أنها اندثرت بعد ذلك.

ومما لا شك فيه، فأنت لا يوجد لديك أى سبب لتصاب بالإحباط، فموقع المعبد لم يتغير مهما كانت التغيرات فى الشكل الخارجى، ففى الحقيقة فإنك تقف على نفس الموقع تمامًا الذى حوى أعظم مجموعة من وثائق العصور الوسطى التى اُكتشفت على وجه الإطلاق.

لقد كان هنا، فى هذا المكان القصى من مصر الذى احتضن وحافظ على ذكريات إبراهام بن ييچو وعبده لمدة أكثر من سبعمائة عام.

٦

ذات مرة، بعد ظهر أحد الأيام القائظة، شديدة الحرارة وبينما كان العرق يتساقط من على وجهى ليقع على مفكرتى يأست من محاولة الكتابة وجلست فى غرفتى تاركًا الباب مفتوحًا على أمل اقتناص نسمة هواء، كان الهواء ساكنًا للغاية هذا اليوم، بالإضافة إلى الرطوبة المنبعثة من حقول القطن التى تم ريها حديثًا، وكذلك حقول الأرز وهى محملة بمياه كثيرة فى الهواء. وعلى فترات متقطعة كانت الفراخ والبط التى تشاركت معها وقاسمتها السطح تطلق صرخات كأنما أصابها الفزع من الصمت وتندفع خارج العشش وهى ترفرف بأجنحتها محدثة عاصفة من الصرخات التى تدل على انفعال شديد وهى غير عابئة بحرارة ما بعد الظهيرة الخانقة.

وبينما كنت جالسًا أشاهدها، بدأ زوج من البط فى التسابق حول السطح فى حركة دائرية وكل واحدة منها تقتفى الأخرى. كانا من فصيلة لم أكن قد رأيتها قبل مجيئى لمصر: فالبط قصير وتخين، قبيح المنظر، وفوق رقابها توجد بقع حمراء كبيرة، أما أجسامها فكانت خليطا من السواد الكالح والبياض، كان المهاجم هو الأكبر حجمًا، وسرعان ما لحق بالأخرى وثبتها على الأرض بواسطة منقاره. ثم بعد أن ارتفع عاليًا رفع إحدى رجليه وفجأة ظهر قضيبه ذو اللون الوردى الصارخ بطول ظافر الإصبع رفرف بريش ذيله لوهلة وهو يضغط على البطة الأخرى ثم تدحرج ووقع على الأرض ونظرة ذهول تكسو وجهه شاهدت الموقف وأنا مشدوه، فلم أكن أدرك أن البط لديه أعضاء تناسلية مثل الإنسان!

وحدث أنى نظرت لأعلى فى هذه اللحظة فرأيت جابر واقفًا أعلى السلم وهو صامت ينظر إلى، ثم استغرق فى الضحك.

قال ضاحكًا «أنت كنت بتتفرج على الموقف وكأنه فيلم يا صاحبى، أنت ما شفتش المشهد ده قبل كده؟».

قلت «لا».

أصابتنى عدوى الضحك ووجدت نفسى أضحك معه.

دخل الغرفة وجلس على الكرسى، مراعيًا ألا تلامس جلابيته النظيفة أرضية الغرفة.

قال وهو ينظر بنظرة هى مزيج من التساؤل والاهتمام «طيب قل لى، إيه اللى تعرفه عن موضوع الـ....؟».

كان قد استخدم كلمة لم أكن قد سمعتها من قبل. ولابد وأنه قد بدت على مظاهر الذهول، فقد أطلق شهقة تنم عن عدم التصديق قائلاً «أنت عايز تقول إنك ما سمعتش عن...؟».

كانت نفس الكلمة مرة أخرى.

هززت رأسى فرجع للوراء فى الكرسى، وهو يخبط على رأسه بقبضة يده، مما جعل الطاقية تهتز فوق رأسه وكانت على وشك الوقوع.

قال بنبرة يأس مفتعلة «يا صاحبى. حاتعمل إيه فى الحياة إذا ما كنتش عندك دراية بالأمور دى؟».

قلت «عن إيه؟».

جعل ردى عليه فى أن يستغرق فى الضحك وهو يغمغم بنبرة غامضة «إذا ما كنتش تعرف يبقى ما بتعرفش».

قلت وقد اعترانى الغضب والقلق «ما أعرفش إيه؟».

قال وهو يبتسم ابتسامة عريضة وهو يلجأ لأسلوب الحذف فى الكلام «ده مش مهم، هى حاجة كويسة أنك تحط فاصل بين أفكارك وحاجات زى دى، ولكن قل لى - طبعًا عندكم فى الهند عمليات ختان زينا هنا، مش كده؟ مش كده؟».

كنت متخوفًا لفترة طويلة من هذه النوعية من الأسئلة وأنا أعلم إلى أين ستؤدى بنا.

قلت «بعض الناس بيعملوا عملية ختان، والتانيين لا».

قال بنبرة عدم تصديق مبالغ فيها «أنت تقصد. أن فيه بعض الناس فى بلادكم ما بيعملوش عمليات ختان؟».

فى اللغة كلمة «ختان» أو «طهارة» مشتقة من كلمة تعنى «التطهر»: ولذلك فعندما يقال أن شخصًا ما لم يتم طهارته فهذا يعنى بصورة أو بأخرى أنه غير طاهر.

أجبته قائلاً «أيوه، فيه ناس كتير فى بلادى «لم يتطهروا»»، لم يكن لدى بدائل فقد كنت مقيدًا بقيود اللغة.

«ولكن طبعا مش أنت...» ولم يستطع أن يكمل الجملة.

قلت «أيوه». كان وجهى ساخنًا من أثر الإحراج وأصبح حلقى جافًا «أيوه، أنا كمان كده».

أطلق شهقة وجالت عيناه بنظرات عدم تصديق على مقدمة بنطلونى. ولمدة دقيقة حدق فى بنظرات فضولية غير مصدقة، وبعد أن بذل مجهودًا قال «ولما بتروح للحلاق علشان تقص شعرك، مش بتشيل شعر باطك زينا؟».

قلت «لا».

وفى هذا المساء قرابة الغروب ذهبت للتمشية فى الحقول، وعلى مسافة قريبة من الكفر قابلت جابر وصبية آخرين من نفس عمره، جالسين على ضفة الترعة. كان معهم كتبهم وكانوا يستغلون الهدوء النسبى الذى يسود الحقول لكى يتمكنوا من الانتهاء من دروسهم

المدرسية. توقفت تمامًا عندما رأيت جابر؛ فلم أكن متأكدا أننا يمكننا تبادل الحديث. ولكنه لوح بيده وهو يبتسم عندما رآنى قادمًا تجاهه مما جعلنى أشعر بالارتياح، ثم وقف هو ورفاقه واتجهوا ناحيتى.

قلت لهم «لازم تستمروا فى دروسكم لسه فيه نور كتير».

قال جابر «لازم ترجع دلوقت، فبعد شوية حتدخل صلاة المغرب. بص ـ القمر طلع فى السما فعلا».

نظرت للسماء فرأيت بدرًا كامل الاستدارة ينير على خلفية من سماء المساء التى يميل لونها إلى البنفسجى الباهت. كان الجو هادئًا، فيما عدا أصوات صرير صادرة من الساقية البعيدة، أما فى لطيفة الواقعة على البعد فقد كانت المصابيح الأولى بدأت تلمع.

كان جابر يضع ذراعه على كتف الصبية الآخرين قال لهم «عايزين تسمعوا حاجة؟» كان يهمس فى آذانهم، إلا أننى استطعت أن أسمعه بوضوح فى الهدوء الذى يخيم وقت الاصيل.

قال لهم وهو يشير إلى بذقنه «كنت باتكلم معاه انهارده العصر. تتصوروا أنه ما يعرفش إيه هو الجنس».

بحثت فى القاموس بمجرد أن ذهب مباشرة: كان يستخدم نفس الكلمة التى استخدمها عصر هذا اليوم.

صاح أحد الصبية: «إيه ده اللى بتقوله يا جابر؟ ما يعرفش معنى الجنس؟».

رد جابر قائلاً «حأقول لكم إيه؟ هو ما يعرفش أنا سألته».

«بالرغم أنه راجل ناضجٌ ومكتمل الرجولة».

رد جابر «ولكنه ما يعرفش أى حاجة. لا دين، ولا سياسة، ولا جنس. بالضبط زى الطفل».

خيم صمت يكسوه توجس عندما سأل أحد الصبية هامسًا «تفتكر إنه ما يعرفش عن «ضرب العشرة» كمان؟ لم أكن أعرف هذا التعبير حينئذ، إلا أن حركة قبضة يده التى صاحبت كلامه اعطتنى فكرة معقولة عن معناها.

قال جابر «لا. أنا قلت لكم إنه زى الطفل. وعلشان كده دايما بيسأل أسئلة».

سأل أحد الصبية «مش لازم نقوله؟ ازاى حيكبر إذا لم «يضرب العشرة؟».

قال جابر «مفيش فايده. هو مش حيفهم. هو ما يعرفش أى حاجة. بصوا، أنا حاوريكم، أنا حاثبت لكم».

ابتعد عن الآخرين وصاح مناديًّا على: «يا آميتاب ـ وقف عندك لحظة واحدة».

أخذ يجذبنى حتى أخذنى إلى حافة الترعة ثم قال وهو يشير إلى انعكاس البدر فى كامل استدارته على صفحة المياه «بص هنا، إيه ده؟ تعرف ده إيه؟».

قلت ساخراً «طبعا، اعرف إيه هو. ده أحمد، ابن الشيخ موسى وهو بينور نور بطاريته فى الميه».

خيم صمت مطبق على المكان ونظر جابر إلى الآخرين نظرة انتصار بينما أخذت فى المشى مسرعًا.

قال أحد الصبية وهو يجرى خلفى وصوته مختنق من شدة الاهتمام «لا، يا اميتاب الحكاية مش كده، ده مش أحمد وهو بينور نور البطارية على وش الميه ـ ده انعكاس البدر على وش الميه».

قلت «لا، أنتم غلطانين جدا. أحمد قال لى أنه حيقوم بجولته انهارده وهو معاه كشاف النور».

رد متسائلاً «ولكنه إذا كان أحمد ازاى ماشفناهوش؟».

«ما شفناهوش علشان هو بعيد جدًا وكشاف النور جامد جدًا لأنه بيشتغل بأربع بطاريات. هو توه اشترى بطاريات جديدة امبارح من دمنهور».

وهكذا دار الجدل إلى أن وصلنا إلى لطيفة حيث كنت تقريبًا قد أحرزت انتصارًا فى هذا الجدل.

٧

ولمدة طويلة بعد ذلك ظللت فى نظر جابر طفلاً صغيرًا.

ذات مساء، بعد بداية شهر رمضان بقليل (والذى امتد على مدى جزء من شهرى يوليو وأغسطس هذا العام) اصطحبنى جابر لمولد

مقام فى قرية على الجانب الآخر من الحقول. جاء معنا صبية عديدون آخرون من لطيفة، منهم محمد أخو جابر الصغير وكذلك مبروك ابن أخ الشيخ موسى وهو صبى هادئ خجول يبلغ حوالى الخامسة عشرة من العمر.

وبينما كنا نعبر الحقول فى اتجاه أضواء المولد البعيدة، روى لى جابر والصبية الآخرون أسطورة سيدى عباس أبى النخلتين، والذى كان المولد يقام باسمه.

عاش سيدى عباس فى منطقة نخلتين منذ زمن بعيد جدًا، أبعد من أن يتذكره أحد، وكان يشتهر فى كل المنطقة بطيبته وورعه: كان الناس يقولون عنه أنه «رجل طيب» وأنه «رجل مبروك» بمعنى القدرة على منح البركة للآخرين، كانت تلك شهرته التى جعلت أناسًا كثيرين يحتشدون فى قريته عندما توفى، وكان ناس كثيرون شهود عيان على المعجزات والكرامات التى صاحبت جنازته. فمثلاً عندما حاول رجال القرية أن يحملوا نعش سيدى عباس اكتشفوا لدهشتهم أنهم لا يستطيعون زحزحته مطلقًا، حاول الكثيرون ذلك ليكتشفوا أنهم لا يستطيعون زحزحته قيد أنملة. وعندما مد ابن سيدى عباس يد العون عندئذ فقط بدأ الجثمان فى التحرك، وحتى حينئذ لم يكن الابن هو الذى حرك الجثمان فلقد تحرك سيدى عباس من تلقاء نفسه وبإرادته هو.

قاد جثمان سيدى عباس أهل القرية الذين أصابهم الذهول إلى جامع، وهناك تواصل سيدى عباس معهم قائلاً لهم أن يبنوا مقامًا

باسمه، وأن يقام مولد سنوى باسمه. نفذ أهل القرية ما أمرهم به سيدى عباس، وفى الأعوام التالية برهن سيدى عباس على قدراته لهم عدة مرات من خلال معجزاته وكراماته. فعلى سبيل المثال فى إحدى المرات قام بعض لصوص الماشية بالهروب بقطيع من الجاموس قاموا بسرقته، حينئذ تسمروا للأرض هم والماشية التى سرقوها عندما كانوا على مقربة من مقام سيدى عباس. كانت تتجلى قدرة سيدى عباس بحيث إذا ترك أى شىء وهو ملامس لقبره كان ذلك كفيلا بجعله فى مأمن: كان الفلاحون العائدون فى وقت متأخر من الليل عادة ما يتركون أشياء ذات قيمة مثل فئوسهم الخشبية وهى مستندة على حوائط المقام، وذلك لعلمهم أنه لن يجرؤ أحد حتى على لمسها. فى إحدى المرات قام أحد الأشخاص بترك فأس بسير جلدى مرتكز على المقام. بعد فترة جاء فأر وبما أن الفئران تحب قضم الجلود، فقد قام بقضم سير الفأس، إلا أنه لم تكد أسنانه أن تلمس السير الجلدى حتى تسمر للأرض، هكذا وجدوه صبيحة اليوم التالى بأسنانه مغروزة فى السير الجلدى فحتى الحيوانات لم تكن معفاه من هذه القاعدة المعمول بها فى هذا الحرم المقدس.

كان من الممكن رؤية المقام من على بعد، عبر الحقول: كان بناء بسيطًا ذا شكل مستطيل تعلوه قبة قصيرة وساحة واسعة مفتوحة أمام المقام حيث تقوم ساحة عامة وهى تستخدم كمكان لدرس الحبوب، بالإضافة لاستخدامها كمكان لإقامة سوق القرية الأسبوعى، الآن أصبح أعلى المقام مزينًا بلمبات صغيرة كثيرة، أما

حوائط المقام المدهونة باللون الأبيض فكانت بها بقع من الأنوار الملونة. كان الميدان أمام المقام يزدحم بالناس حيث يحتشد البعض منهم دخولاً إلى المقام، بينما يتحلق الآخرون حول الأكشاك التى أقيمت فى جميع أرجاء المولد.

نادى علينا أحد مالكى الأكشاك بينما كنا ندخل للميدان قائلاً «يللا يا شباب ورونا إيه اللى تقدروا تعملوه؟».

كانت هناك بنادق رش عديدة مصفوفة على منضدة خاصة به وهم فى اتجاه لوحة بها بالونات مدلاة وشمع. وبابتسامات موحية بالتشجيع وضع فى أيدينا مسدسين. كنت أهم بالانحناء إلى الأمام لأقوم بالتصويب على الهدف عندما سمعت صوت جابر من خلفى يقول:

«من الهند...».

نظرت متلفتًا إلى الخلف ومرة أخرى رجعت بسرعة إلى ما كنت عليه. احتشد حولى ناس كثيرون، أكبر بكثير من أى حشود فى الأكشاك الأخرى. سمعت جابر يقول «ما يعرفش أى حاجة...» ضغطت على الزناد، محاولا تركيز نظرى على بالونة كبيرة.

قال جابر «ما عرفتش تنشن صح».

همس وهو يستدير إلى جمهوره متجاهلاً ردى الذى غمغمت به «مش قلت لكم؟ ما يعرفش حاجة خالص».

حاولت أن أركز مرة أخرى على البالون، بينما احتشد أناس حول جابر وهم فى حالة فضول شديد «هو ولا بيصلى ولا يعرف حتى ربنا...».

«أنت بتقول إيه؟ ما يعرفش ربنا؟».

ضغطت على الزناد، ومرة أخرى اصطدمت الرش باللوحة الخشبية بعيدًا تمامًا عن البالون.

«ما يعرفش حتى ربنا! يا مغيث! يا مغيث!».

ابتعدت مسرعًا إلى الكشك التالى حيث كان أحد الصبية يبيع غزل البنات، إلا أن صوت جابر ظل يتابعنى شارحًا للآخرين «هو بيقرا كتب وبيسأل أسئلة طول النهار، ولكنه مش بيشتغل أى حاجة...».

سأل شخصًا ما «ممكن نتكلم معاه؟».

رد جابر بعظمة «لا. هو مش حيفهم أى كلمة تقولها احنا بس فى لطيفة اللى ممكن نفهمه».

بدأت فى شق طريقى مسرعًا خلال جموع البشر فى اتجاه الناحية الأخرى من الميدان: آملاً أن أبتعد عن جابر، إلا أنه لم يكن ليهتز ولذلك فقد اقتفى أثرى تبعنى وعن قرب. ولكن عندئذ ولحسن الحظ أخذت قسطًا بسيطًا من الراحة بعيدًا عنه عندما رأى هو وأبناء عمومته المراجيح على أحد أطراف الميدان وانطلقوا مسرعين للوقوف فى الطابور.

وعندما استطعت شق طريقى عبر جموع الناس كان دورهم قد أتى وكانوا يدفعون بأنفسهم للأمام وللخلف مما جعل جلابيبهم تمتلئ بالهواء مثل البالونات، ويحاول كل واحد منهم التفوق على

الآخرين، بدأ الناس فى الصياح والتهليل لتشجيعهم حتى أن أحد الصبية تأرجح عاليًا جدًا لدرجة اللف حول الحاجز الحديدى أعلى الأرجوحة فى دائرة كاملة. حاول جابر مرتين الارتفاع عاليًا ولكن دون طائل، مما جعله يقفز خارج الأرجوحة وهو يهز كتفيه كأنه غير مكترث. قال وهو ينفض يديه «أنا ما حاولتش بجد، أنا ممكن اعمل اللى بيعملوه إذا حاولت بجد».

ثم جعلنا نعبر الميدان مرة أخرى فى اتجاه مقام سيدى عباس. قال لأبناء عمومته بنبرة جدية «لازم نتفرج على الذكر، ده هو أهم جزء من المولد».

اجتمعت مجموعة من حوالى ثلاثين رجلاً من جميع الأعمار حول المقام. كانوا يقفون فى صفوف وأرجلهم مفتوحة يتمايلون برؤوسهم إلى ناحية بينما كانت جذوعهم من الناحية الأخرى بينما كان رجل يلبس عمة بيضاء ينشد فى الميكروفون، كانوا يتمايلون على أنغام المنشد، كانت رؤوسهم والجزء الأعلى من أجسادهم تتحرك، أما أرجلهم فكانت ثابتة تمامًا على الأرض.

قال جابر موضحًا لى «دول من الصوفية، هم بيبتهلوا لله بالغناء والذكر بأسماء الله الحسنى».

كان بعض منهم قد أغلق عينيه، أما الآخرون فكانوا فى حالة نشوة واستغراق كأنما تسمروا من أثر الإيقاع والحركة. وكلما أسرع المنشد بالإيقاع كانت رؤوسهم تهتز بسرعة أكثر ليتوافق مع النغم، وكانت عيونهم تلمع إلا أنها بدت كأنها لا تبصر شيئًا.

سرعان ما دب الملل داخل جابر وأبناء عمومته من مشاهدة الذكر. قال أحدهم «الذكر بيخلينى أدوخ».

فذهبنا لمشاهدة الأكشاك مرة أخرى.

وسرعان ما وجد جابر لنفسه جمهورًا يستمعون إليه:

«ما يعرفش ربنا، ما يعرفش أى حاجة... إذا سألته ازاى ساقية الميه بتشتغل حيرد عليك ويقول لك إن عندها أولاد؟».

«يا نهار أسود!».

«لا!».

«طيب روحوا اسألوه كده!».

سألنى أحد الصبية.

«يا ضكتور هو ساقية الميه عندها أطفال؟».

قلت «لا. دول بيفقسوا بيض».

«سمعتم؟ هو بيفتكر أن سواقى الميه بتفقس بيض».

بدأت أتوق للهدوء فى غرفتى، ولحسن حظى، فلم اضطر أن أنتظر طويلاً وذلك لأن الأولاد قرروا أن يرجعوا مخترقين حقول القطن.

فى ساعة مبكرة من صبيحة اليوم التالى اندفع جابر داخلاً غرفتى وكان وجهه يعلوه احمرار من جراء انفعال قال لى وهو يهزنى لأقوم من السرير «أنت عارف حصل إيه امبارح بالليل؟ كان فيه جريمة قتل ـ فيه راجل انقتل فى المولد».

قلت وأنا غير مصدق «إيه اللى حصل؟».

قال لى جابر أن الجريمة حدثت بجوار المراجيح بالضبط حيث كنا ليلة الأمس، كان الرجل الذى قتل يجلس على أرجوحة عندما جاءه شخص ما وطلب منه ترك الأرجوحة. وعندما رفض دفعه الآخر مما جعله يقع ويرتطم رأسه بحجر مما أدى إلى وفاته.

قال جابر وهو يقف منتصبًا «ودلوقت حيكون فيه تار، ده هو العرف والقانون عند العرب: «أنا واخويا على ابن عمى؛ وأنا وابن عمى على الغريب». كان هذا أمرًا مهمًا: إذا قام أحد بقتل شخص ما يؤدى ذلك أن الرجال من عصبته، من ناحية الأب ممكن أن يُقتلوا كنوع من الثأر من أسرة القتيل، كان يتحتم عليهم أن يختبئوا لدى أقاربهم من ناحية الأم حتى يتسنى للأعمام والشيوخ أى كبار القوم أن يتفاوضوا مع عائلة القتيل فى محاولة منهم لحضور جلسة صلح. وبعد أن يخف حزن عائلة القتيل قليلاً يتم الإعلان عن العفو. ومن التقاليد المتعارف عليها أن تتقابل العائلتان فى مكان آمن متوسط، وفى حضور كبار السن والشيوخ الذين يقومون بعملية مفاوضات حول الدية الواجب دفعها لعائلة القتيل. ويطلق عليها لفظ الثأر أو القانون المتعلق بالدم وهو قانون العرب الثابت قديم قدم الأزل، لم يتغير أبدًا.

سألت وعيناى ما زالت بهما أثر النوم «كل ده علشان راجل تم دفعه بره المرجيحة؟».

توقف جابر للحظة ليفكر ثم قال بنبرة حزن فى صوته «ماشى، يمكن يكون حاجة صغيرة مجرد دية صغيرة».

«هو مين كان القتيل؟».

قال جابر «كان اسمه فتحى ولكن الناس كانت بتسميه «العصفورة» كان من نشاوى وهى القرية آخر الطريق ودلوقت حيكون فيه عملية تار».

كنت متشككًا إلى حد ما فيما يقوله، ولكن نظرًا للاهتمام الذى أولانى جابر إياه كنت طفلاً غرًا فى نظره.

٨

كان مبروك ابن أخ الشيخ موسى هو المسئول عن تحسين صورتى فى نظر جابر.

فى هذه السنة حقق أبو مبروك محصولاً من الخضراوات أكثر بكثير مما حققه من ذى قبل، ففى الخريف أخذ على عاتقه مخاطرة أن يزرع جزرًا كثيرًا قبل أن يتم حصاد القطن. حاول الجميع إثناءه عن ذلك بما فيهم الشيخ موسى وزوجته وإخوانه وأكثر أبناء عمومته وأقاربه. وكانت حجتهم أن الجزر لابد أن يتم حصاده كله فى نفس الوقت، وماذا سيحدث لو أن سعر السوق فى هذا الأسبوع تحديدًا كان منخفضًا؟ كان سوف ينتهى به الحال أن يبيع حمولة لورى بالكامل بالخسارة: كان رأيهم أنه من الأفضل أن يزرع أنواعًا كثيرة مختلفة من الخضراوات فتكون المخاطرة أقل.

إلا أن والد مبروك لم يعر كلامهم أى اهتمام، فقد كان رجلاً عنيدًا وكانت الفائدة الوحيدة من محاولاتهم أنه تشبث برأيه أكثر. وكما اتضح بعد ذلك فقد ثبت أنه محظوظ فقد حدث أن ارتفع ثمن الجزر وقت حصاده ارتفاعًا غير مسبوق أو متوقع، وبذلك حقق أرباحًا عالية لم يتوقعها أبدًا.

بعدها بأسابيع قليلة جمع كل مدخراته واستأجر هو واثنان من اخوانه عربية لورى وذهبوا إلى دمنهور. وعندما رجعت العربة اللورى بعدها بعدة ساعات كان الإخوان الثلاثة، وكلهم رجال يتسمون بالسمنة والبدانة، جالسين فى المقدمة وهم محشورون بجانب السائق. أما فى الخلف، فكان هناك كائن غامض، ضعف حجم العجل إلا أن شكله كان مختلفًا عنه وهو ملفوف بعدة ملاءات من قماش من المشمع.

اتجهت العربة اللورى بهدوء إلى منزل مبروك، وتم إنزال هذا الكائن وحمله داخل المنزل من خلال الباب، وكان مازال ملفوفًا فى قماش المشمع.

لم أكن أعلم أى شىء عن هذا حتى اندفع مبروك داخل غرفتى عصر هذا اليوم: سمعت أصوات أقدام مسرعة تصعد السلم، وبعد ذلك دفع مبروك الباب بقوة وأمسك بذراعى قائلاً: «تعال معى يا ضكتور. لازم تيجى معايا دلوقت حالاً لبيتنا.. أبويا وعيلتى عايزاك» كان فى حالة انفعال شديد حتى أنه لم يستطع أن يحمل نفسه على الانتظار حتى أغلق مفكرتى؛ فقد قام بجذبى جذبًا بالفعل خارج الغرفة فى التو واللحظة، ولم يترك كوعى أبدًا.

اندهش أبو على وعائلته لرؤية مبروك وهو يجرى فى خلال منزلهم، فقد كان معروفًا عنه أنه شخص خجول، قال لى جابر ذات مرة أنه على الرغم من أنه أطول وأسرع الصبية من نفس سنه، فإن مبروك لم يسمح له أن يلعب فى خط الفوروارد (المقدمة) فى فريق كرة القدم وذلك لأن منظر الشبكة المفتوحة كان فى بعض الأحيان كافيًا أن يتسبب له فى نوبة خجل.

ولكن الآن تحول مبروك تحولاً كليًا، فبينما كنا نجرى فى الحوارى والأزقة كان يثرثر بدون توقف عن أبيه وأعمامه الذين استأجروا عربة لورى للذهاب لدمنهور. ولكننى عندما سألت ما هو بالضبط الذى ابتاعوه، هز رأسه وابتسم ابتسامة غامضة قائلاً «استنى، استنى، حتشوف بنفسك».

وعندما وصلنا هناك كان جمع من الناس قد احتشد فى حارة مبروك وكان منزله يعج بالضجيج.

كان أبوه ينتظر مقدمى، وبعد أن تبادلنا تحيات فى عجالة اصطحبنى من خلال هذا الحشد الموجود فى غرفة الجلوس وقادنى مسرعًا لفناء مغلق ذى أسوار فى الخلف بجانب الحظيرة التى يضعون فيها الماشية وهذا المكان هو أكثر الأماكن سرية وانعزالاً عن المنزل ـ تلك هى الزريبة. كان ما اقتنوه واقفًا فى منتصف الفناء كأنه عجل حديث الولادة وكانت هناك فردة حذاء قديمة معلقة حوله لتبعد عنه عين الحسود.

كان ذلك الشىء هو مضخة (طرمبة) مياه حديثة تعمل بالديزل وكانت الأولى من نوعها التى تدخل لطيفة، كانت هناك مضخات كثيرة مماثلة فى القرى المجاورة، وكانوا يطلقون عليها اسم «المكنة» أو «الماكينة» الهندى، فقد كانت جميعًا صناعة هندية.

كان مبروك وأبوه وأمه والعديد من أبناء عمومته وأعمامه يقفون حولى الآن فى دائرة وهم ينظرون إلىّ تارة ثم إلى الماكينة تارة أخرى وأعينهم تلمع وهم يتوقعون منى شيئًا ما.

قلت لأبى مبروك «مكنة هندى؟» وأنا أحاول أن أبدو متحمسًا «مبروك ـ أنتم أشتريتم مكنة هندى؟».

لمعت عينا أبى مبروك بنظرات الفخر بينما كان يحملق فى المكنة، قال وهو يتنهد «أيوه، أيوه، وعلشان كده طلبنا منك تحضر للسبب ده لازم تبص لها وتفحصها كويس جدًا، وتقولنا رأيك فيها».

تساءلت وأنا مذعور «أنا؟» فقد كنت لا أعرف أى شىء عن مضخات المياه، وفى الحقيقة فإننى لم أتذكر أنى قد لاحظت أيًا منها قبل حضورى إلى لطيفة.

«أيوه» قال لى أبو مبروك وهو يخبط على ظهرى «دى من بلدك، مش كده؟ أنا قلت للبياع فى دمنهور تأكد أنك تعطينى مكنة بتشتغل كويس لأننا عندنا هندى ساكن فى كفرنا، وحيقدر يقول إذا كنا اشترينا مكنة كويسة ولا لأ».

ترددت للحظات وأنا أغمغم بكلمات تنم عن الاحتجاج إلا أنه دفعنى إلى الأمام بحماس وبنظرة سريعة إلى الوجوه المترقبة التى

كساها مزيج من الترقب والقلق التى حاصرتنى أدركت أنه من المستحيل على الهروب. كان يتعين على أن أصرح برأيى سواء أردت أم أبيت.

خيم الصمت على الفناء بينما كنت متجهًا إلى الماكينة، اشرأبت رؤوس كثيرة للأمام وهى تراقب كل حركة أقوم بها. اتجهت إلى فم الماكينة وركعت بجانبها وألقيت نظرة فاحصة بداخلها كأنى خبير ببواطن الأمور فرأيت سوادًا حالكًا وأنا أغمض إحدى عيناى. وقفت مرة أخرى، ومشيت حول المضخة بينما ساد صمت مطبق مثل صمت القبور وأنا أهز رأسى لنفسى، بينما كنت أقوم بنقر بعض أجزائها بأصابعى بين الفينة والأخرى. بعد ذلك وضعت كلتا يداى على الموتور الديزل وركعت على ركبتاى وأغلقت عيناى وعندما فتحتهما مرة أخرى وجدت أبا مبروك واقفًا فوق رأسى، ينتظر وهو فى حالة قلق وترقب لما سيسفر عنه حوارى أو تواصلى الصامت مع هذا المُنتج الذى أنتجته بلادى.

مددت يدى له وشددت على يده بقوة قائلاً «هى مكنة هندى كويسة جدًا» بينما كنت أربت على مخزن (تنك) المضخة الذى يُملأ بالديزل «ممتاز! عظيم! دى مكنة ممتازة!».

وفى التو علت صيحات الفرح فى الفناء. شد أبو مبروك على يدى بقوة وربت على ظهرى بحماس بينما كان يصيح لزوجته «الشاى! هاتى للضدكتور الهندى شوية شاى».

فى اليوم التالى حضر جابر لزيارتى فى غرفتى فى المساء. كان يبدو عليه أنه هادئ إلى حد ما أهدأ بكثير وأقل غرورًا وثقة بالنفس عن المعتاد.

قال «كنت باتكلم مع مبروك، سمعت أنه أخذك لبيته علشان تعاين» المكنة الهندى الجديدة «هززت كتفى بدون اكتراث قائلاً «أيوه أنا عملت كده فعلا».

سألنى «ورأيك كان إيه؟».

قلت «هم اشتروا مكنة كويسة، فى الحقيقة هى كويسة جدًا».

خيم الصمت على جابر بينما كان يهز رأسه مفكرًا. بعد ذلك عندما نهض ليمشى، توقف عند الباب مصرحًا «أبويا وأعمامى بيفكروا يشتروا مكنة هندى برضه، إنشاء الله».

قلت «كويس قوى».

قال «أرجو أنك تيجى معانا».

«فين؟».

قال خجلاً «لما تروح نشتريها، من دمنهور. احنا حنستفيد من رأيك».

ظللت ساهرًا لمدة طويلة هذه الليلة، مندهشًا ومتأملاً من الاحترام الذى أسبغته على مضخة المياه. حاولت تخيل مكانتى عند جابر لو أن بلادى قد قامت بتصدير آلات أكبر من ذلك أو أفضل وأكثر تأثيرًا مثل سيارات أو جرارات زراعية، وليس مثلاً سفنًا أو

طائرات أو ناقلات بترول، بدأت فى تأمل كيف كانت لطيفة تبدو لو أن لى امتياز الانطلاق بها، وأنا فى حماية قوى التكنولوجيا، وأنا أنظر غير مضطرب من خلال نافذة من الزجاج.

٩

سرعان ما جاء شهر رمضان وكنت أفكر فى أخذ إجازة فقررت أنى، سوف أذهب إلى الإسكندرية لأتحدث مع دكتور عيسى لمناقشة احتمال أن أقوم بترتيبات لمغادرة منزل أبى على، بعد ذلك كنت أود الذهاب إلى القاهرة: كنت قد أمضيت ليلة واحدة عندما جئت فى أول الأمر، إلا أنى لم أر أى شىء ما عدا المطار ومحطة القطار. والآن حان الوقت أخيراً لكى أقوم بزيارة المدينة زيارة حقيقية.

كلما مضت الأيام أصبحت فكرة رحلتى المزمعة أكثر تشويقا. كان قد مضى جزء كبير من رمضان وكنت أحد القلائل فى الكفر الذين لم يكونوا صائمين، كنت أريد أن أشارك فى الصيام إلا أن الجميع أصر »لا، لا يمكن تصوم، أنت مش مسلم ـ المسلمين هم بس اللى بيصوموا رمضان.« وهكذا، يتم تذكيرى باختلافى عن الآخرين كل يوم عندما أرى الوجوه الشاحبة الظامئة من حولى أصبحت فكرة القاهرة والإسكندرية وكذلك تواجدى بعيداً عن الآخرين المختلفين أكثر جاذبية وسحراً.

منذ اليوم الأول للشهر القمرى اختلف الروتين الطبيعى اليومى فى الكفر اختلافاً كلياً: بدا كما لو أن قطاعاً من الزمن قد تم اختياره من النتيجة ثم تم قلبه رأساً على عقب.

فى الصباح الباكر جدًا قبل شروق الشمس بفترة طويلة كان بعض الشباب يدقون على كل باب فى الكفر لكى يوقظوا الناس لتناول السحور، وهى وجبة ما قبل الفجر، بعد ذلك وكلما مرت الساعات كانت حالة من الخمول الشديد تخيم على لطيفة. ولكى يتخففوا من وطأة الصيام كان الناس يحاولون الانتهاء من الأعمال الهامة جدًا فى الصباح الباكر، حينما تكون الشمس مازالت غير مرتفعة فى السماء، كان من المستحيل القيام بأى عمل شاق والبطون جائعة وخالية والحلوق جافة، بمجرد أن تهب الحرارة الشديدة فى الضحى تكون الحوارى والأزقة فى الكفر مهجورة. فالنساء منشغلات فى المطابخ وأمام الأفران استعدادًا لتناول وجبة الأفطار عند المغرب. كان الرجال يجلسون تحت ظل الأشجار أو فى مداخل دورهم وهم يحاولون إطفاء الحرارة بالتهوية على أنفسهم. كانت أفواههم وشفاههم فى بعض الأحيان مغطاة بطبقة رفيعة بيضاء، وفى كثير من الأحيان وبمرور ساعات اليوم كانت أعصابهم تنفلت منهم.

كنت كثيرًا ما أتساءل ما إذا كان أحد فى الكفر لا يراعى أحكام الصيام. كان المصرح لهم بعدم الصيام من الناحية الشرعية هم الأشخاص الأكثر ضعفًا ـ مثل السيدات الحوامل والأطفال الصغار والمرضى والمسنين وآخرين، إلا أن الصيام لابد وأنه كان شاقًا جدًا حتى لذوى الأجساد القوية: فلقد كان اليوم طويلاً وحارًا للغاية ولابد وأنه كان أمرًا شاقًا بالفعل أن يستمر الإنسان بدون تناول طعام أو شراب أو سجائر، وعلى الرغم من ذلك فإننى لم أشاهد

ولو لمرة واحدة أى شخص يفطر فى نهار رمضان بأى شكل كان، كانت هناك شائعات تروى من حين لآخر أن أشخاصا معينين فى تلك القرية أو هذا الكفر قد شوهدوا وهم يأكلون أو يشربون، إلا أن هؤلاء كانوا قلة نادرة.

وبينما كانت الشمس تميل ببطء نحو المغيب، كانت النساء فى كل دار يضعون صوانى الأكل ويقدمون الطعام الذى قمن بطهيه طوال النهار. كانت عائلاتهم تتحلق حول الصوانى فى نهم شديد بينما كانت أكواب الماء الباردة الكبيرة أمامهم. كانوا يجلسون ينظرون إلى الظلال الآخذة فى الطول، وهم فى حالة ترقب وسكون، بينما ينصتون إلى أجهزة الراديو منتظرين شيخ الأزهر فى القاهرة ليعلن حلول ساعة الإفطار. لم يكن كافيًا أن ترى بأم عينيك الشمس وهى تغيب. فقد كان الإفطار بداية وجبة جماعية تجمع ملايين البشر وكان يتعين الاحتفاء بهذه اللحظات علنًا وفى مشهد يدل على الوحدة.

عند الانتهاء من تناول وجبة الإفطار يتم رفع الصوانى، كان الرجال يغتسلون ويغيرون ملابسهم ويتجهون إلى المساجد وهم يتحدثون ويتضاحكون وهم مفعمون بإحساس الرضا الذى يتضاعف ويكون أكثر حلاوة بعد الحرمان الذى شعروا به أثناء النهار، كنت أتجه إلى غرفتى وحيدًا وأستمع إلى الأذان وأحاول أن أتخيل شعور أنه فى نفس هذا اليوم بينما تدور الشمس حول الأرض، فإن ملايين لا حصر لها من البشر فى كل ركن من أركان المعمورة يتجهون ناحية

نفس المكان ـ لقبلة، ويرددون نفس كلمات الصلاة، بنفس حركات الركوع والسجود مثل أى مسلم آخر. كانت هذه الظاهرة بهذا الحجم والنطاق تفوق خيالى ولكن ساعدتنى هذه المحاولة على فهم لماذا نصحنى أناس كثيرون فى الكفر ألا أصوم: فقد كان الانتماء لهذا المجتمع المترامى الأطراف ضربًا من الامتياز الذى كان يتعين عليهم أن يكتسبوه سنة بعد الأخرى، وكانت المحاولة تجعلهم أكثر إدراكًا لقيمة هذا الامتياز.

فى المساء وبعد الصلاة كان الكفر يعج بالحياة والضحكات. بينما كانت الحوارى والأزقة فى أحيان أخرى من السنة عادة ما تكون خالية بحلول الساعة الثامنة مساء، فإنهم الآن فى شهر رمضان يكونون مفعمين بالنشاط والحركة: كان الأطفال يذهبون إلى كل دار وهم يغنون ويطلبون نقودًا، وكان الناس يزورون أقاربهم حتى وقت متأخر من الليل، أو وهم يثرثرون ويلقون بالنكات مع أصدقائهم.

فى الليلة السابقة لقيامى برحلة القاهرة والإسكندرية ذهبت لأودع الشيخ موسى. كان هو وعائلته يأخذون قسطًا من الراحة بعد تناولهم الإفطار. كانوا قد تناولوا وجبة دسمة وكان الشيخ موسى قد عاد لتوه من المسجد. كان يجلس على سجادة صغيرة فى غرفة النوم، يدخن الشيشة فى محاولة لتعويض كل الدخان الذى حُرم منه طوال اليوم.

كان فى حالة معنوية مرتفعة. قال لى «مرحب يا آميتاب. ازيك. تعال واقعد هنا جنبى».

(*) كلمة أميتاب بمعنى صديقى أو حبيبى باللغة الهندية، وغير مقصود استخدام اسم المؤلف (اميثاف).

بمجرد جلوسى أشار إلى شاب يجلس قبالتنا وسألنى «أنت تعرف ده مين؟».

كانت الغرفة مضاءة بنور ينبعث من لمبة جاز واحدة، إلا أنى استطعت أن اتبين الشاب الذى أشار إليه فى نفس اللحظة التى رأيته فيها. كان ابنه الأصغر حسن. كان يشبه كثيراً الصورة التى يحملها الشيخ موسى فى حافظة نقوده: كان قويا متين البنية ذا ملامح محددة وواضحة وابتسامة لطيفة خجولة. رفع يده اليمنى ليضعها على قلبه ليرحب بى فى منزله، صافحنا بعضنا البعض وتبادلنا التحيات المعتادة.

«زارتنا البركة».

«الله يبارك فيك».

«أنت نورتنا».

«النور نوركم أنتم».

كان وجهه محمراً وقد لوحته الشمس فأصبح يميل للاسمرار وكان يرتدى بدلة الجيش المصرى الكاكى.

قال الشيخ موسى «هو فى إجازة، الجيش سمح له بكام يوم علشان يزور عيلته».

فى هذه اللحظة بالذات ظهرت سكينة عند الباب ثم ناولت حسن صينية عليها ثلاثة أكواب شاى. أخذها منها دون أن ينطق كلمة واحدة بينما اختفت عائدة للمطبخ، لم يتحدث حسن أو سكينة

مع بعضهما البعض ولكن خطرت فجأة خاطرة فى بالى أنهما من المحتمل أن يكونا فى نفس السن بالضبط: وعندما كانا أطفالاً من المحتمل أن يكونا قد عملا فى نفس المجموعات فى حقول القطن، وهم يلتقطون اللطع من نبات القطن، ومن المحتمل أيضًا أن يكونا قد اعتادا اللعب فى الفناء المخصص لدرس الحبوب فى الكفر فى الأمسيات.

لم استطع التغلب على تساؤلاتى حول ملابسات موقفهم الحالى حول كيفية تعاملهم مع بعضهما البعض بصفتها زوجة الأب بينما كان حسن هو ابن الزوج.

قال الشيخ موسى «هو حضر هنا عصر اليوم، كان على سفر طول الصبح».

سألت حسن من أين أتى فقال لى إن موقع خدمته فى المنصورة، وهى مدينة صغيرة على بعد عدة أميال، على الجانب الآخر من الدلتا. كان صوته مُتعبًا وعندما انتهى من كلامه مال برأسه إلى الخلف وسنده على الحائط.

قال لى الشيخ موسى مفسرًا «هو مش تمام، بيشعر بألم فى رأسه».

رأيت حينئذ أن جبهته كانت معصوبة، لم أكن قد لاحظت ذلك من قبل لأن شعره الأسود الكثيف كان يغطى جبهته.

«بيرجع لبيته، لمدة يوم واحد وشوف إيه بيحصل له».

قالها الشيخ موسى بنبرة غضب غير حقيقية وأردف قائلاً:

«مش ممكن الحكومة تمد اجازته على الأقل؟»

بعد فترة وجيزة بدأ إناس آخرون فى الحضور، البعض منهم كانوا أقارب سمعوا أن حسن قد جاء فى إجازة قصيرة، وكان البعض الآخر أصدقاء الشيخ موسى من قرى مجاورة. سرعان ما أدركت أن البعض منهم كانوا من نشاوى وبمجرد توقفهم عن الحديث سألتهم ما إذا سوف تكون هناك معركة ثأر فى القرية نظروا أولاً إلى بعضهم البعض فى دهشة، وعندما قصصت عليهم القصة التى رواها لى جابر استغرقوا فى الضحك.

قالوا لى أن الصبى قد تخيل كل ذلك، لن تكون هناك أى معركة، على الرغم من أن الرجل الذى يطلق عليه اسم العصفور قد مات بالفعل. قامت الشرطة بعمل التحريات وكتابة التقارير، وتم الصلح بين العائلتين. كان العصفور رجلاً فقيرًا وكان رجل «عقله خفيف»، ولم يكن له أقارب كثيرون فى هذه المنطقة. كان الرجل الذى ضربه على رأسه من عائلة كبيرة وذات نفوذ وسطوة. لم يكن أمر المعركة مطروحًا أبدًا: فلقد جلس كبار العائلتين وقرروا الدية وانتهى الأمر على ذلك، خلاص.

أنصت الشيخ موسى باهتمام باستغراق، ثم زفر زفرة وهز رأسه قائلاً «المشاكل دايما بتحصل هناك فى نشاوى».

كانت مكانًا كبيرًا يموج بالحركة والنشاط، يبلغ سكانها حوالى ألف وأربعمائة نسمة، بما يعنى ألف شخص أكثر من سكان لطيفة!

كل هؤلاء الناس يعيشون متلاصقين ومكدسين، فلا عجب إذن أن تكون هناك دائمًا مشاكل.

بدأوا فى التحدث عن نشاوى، وبينما كنت استمع لهم تعجبت لماذا لم أقم بزيارة هذه القرية حتى الآن. كانت على مقربة ميل أو يزيد على نفس الطريق، وكنت كثيرًا ما أسمع سائقى لوارى النقل التى تمر عبر لطيفة وهم يصيحون «نشاوى؟ نشاوى؟» فى الأسابيع الأولى القليلة بعد حضورى للكفر كثيرًا ما راودتنى فكرة ركوب إحدى الحافلات. ولكن كنت الآن كثيرًا ما أسمع الاسم لدرجة أنه أصبح بمثابة التحدى: فلقد أصبح مكانًا يجب التجهيز للذهاب إليه بنفس الدرجة التى كنت أجهز نفسى للذهاب إلى القاهرة.

بعد ذلك بفترة قصيرة، عندما كنت أهم بالانصراف قام ضيوف الشيخ موسى بدعوتى لزيارة نشاوى، إلا أن الشيخ موسى قاطعهم قائلاً «هو معندوش وقت دلوقت هو رايح للقاهرة، لمصر».

جاء هو وابناه حتى الباب ليقوموا بتوديعى. كان الشيخ موسى فى الوسط. ممسكًا بيد حفيد من كل جهة، أما ابنه الأكبر أحمد فكان على اليمين، أما ابنه الأصغر حسن فكان على اليسار. قال «ارجع لنا بسرعة يا مستر، وقول لنا عن رحلتك. عايزين نعرف عن مصر».

قلت «حأقول لكم عنها بمجرد رجوعى».

عندما وصلت لآخر الحارة نظرت للخلف، كان الشيخ موسى مازال واقفًا هناك، رمزًا للسعادة والنجاح، وهو محاط بأبنائه وأحفاده.

صاح قائلاً لى «انت تعرف بيقولوا إيه عن مصر؟ بيقولوا إنها «أم الدنيا».

١٠

فى القرن الثامن عشر بدأت نوعية جديدة من الرحالة تتدفق على القاهرة، منهم أوروبيون لديهم اهتمامات أكاديمية بحثية وأثرية، وكانت مصر بالنسبة لهم مجرد مكان آخاذ وفاتن، إلا أنه فى ذات الوقت كان موقع القاهرة قد جاء بمحض الصدفة البحتة، لما كان فى يوم ما موقعًا أكثر أهمية بكثير مما هو عليه حينذاك. فى ذلك الوقت كانت أوروبا متقدمة جدًا عن باقى العالم فى مجالى السلاح والصناعة وبفضل تلك الأسلحة كان العصر الاستعمارى على وشك أن يبلغ أوجه. كانت مصر قد تخلت عن مكانتها كسيدة لمصيرها منذ زمن بعيد، فقد كانت إقليمًا فى الامبراطورية العثمانية، التى كانت بدورها قد أصابها الوهن حينذاك، وكانت هذه الامبراطورية مسموحًا لها بأن تبقى على البلاد تحت حوزتها بموافقة القوى العظمى. كانت تجارة المحيط الهندى وكذلك الثقافة التى دعمتها قد دُمرت منذ زمن بعيد من قبل القوات البحرية الأوروبية. لم تعد التجارة عبر القارات مشروعًا مشتركًا؛ فقد أصبحت السفن التجارية التى تجوب أعالى البحار الآن تحت السلطة المطلقة للقوى البحرية الأوروبية. لم يعد مقدرًا لمصر أن يجوب تجارها المحيط الهندى فبدلاً من ذلك، فإن موقع مصر الجغرافى الذى كان سببًا فى إغداق الثروات عليها فى يوم من

الأيام جعلها الآن مطمعًا للقوى العظمى بصفتها جسرًا محتملاً تحت حوزتهم فى المحيط الهندى.

خلال الفترة نفسها التى كانت مصر تكتسب أهمية استراتيجية جديدة داخل مخيلة وتفكير الإمبراطوريات الأوروبية، كانت آخذة فى التطور التدريجى لكى تصبح بمثابة قارة جديدة تحتوى على ذخائر ونفائس هامة تلهب الخيال الغربى فى مجالى البحث والفن. منذ أواخر القرن السابع عشر وما تلاه اجتاحت أوروبا حمى المصريات أو ما يُسمى الولع بالمصريات «إجيبتومانيا»: بدأ أبو الهول والأهرام فى الظهور فى البيوت والحدائق فى جميع أرجاء القارة؛ كما كتبت أوبرات عديدة تتناول مواضيع من التاريخ المصرى القديم؛ كما توالت سلسلة من باباوات الكنيسة الكاثوليكية فى روما أصبحوا مهتمين بإحضار مسلات إلى روما، أما سير إسحق نيوتن نفسه فقد آلى على نفسه أن يثبت أن أوزويريس وباخوس وسيروستريس وسيساك لم يكونوا سوى أسماء مختلفة لنفس الإله. ومواكبًا لهذا الاهتمام المتزايد، فإنه حدث أن تطورت دراسات الآثار المصرية القديمة من مجرد كونها غامضة وغريبة ودراسة شبه صوفية إلى مجال جديد محدد المعالم للدراسة الأكاديمية، ومن أجل خدمة هذا العلم الجديد فقد قام العديد من الرحالة برحلات لمصر بغرض اكتشافها.

كانت تلك هى الخلفية التى صاحبت أول تقرير عن الجنيزة فى أوروبا فى ١٧٥٢ أو ١٧٥٣، حينما قام رحالة يهودى يسمى سيمون

ڤان جيلدرون بزيارة المعبد اليهودى المسمى بن عزرا فى بابليون. والجدير بالذكر أن هذا الرحالة كان أحد جدود الشاعر الألمانى هنريش هاينه. يبدو أن الزيارة لم تترك تأثيرًا يُذكر عليه : فقد كان كل ما قاله ڤان جيلدرون فى هذا الصدد أنه «تحول فى المكان» فى الجنيزة ودفع خمس عملات، وللغرابة، فلم يثر هذا الحدث أى انتباه حيث ركز الأوروبيون اهتمامهم فى مجال البحث العلمى الجاد.

مصر لدى الأقدمين فى العصور الغابرة كان معبد بن عزرا يعد خير تعبير عن مصر ولذلك كان جديرًا بالاهتمام.

وبنهاية القرن الثامن عشر أصبحت مصر النظير أو المقابل فى مجال البحوث لتلك الأراضى مترامية الأطراف التى كان المستوطنون الأوروبيون يطالبون بها ويقومون باكتشافها: كانت مصر غير واعية بقيمتها الحقيقية، وكانت قد قطعت شوطًا كبيرًا لتكون ضحية مفاهيم عصر التنوير الخاصة بالمعرفة والاكتشاف. فى الحقيقة، فإن أول خطة مفصلة لغزو مصر كانت من بنات أفكار فيلسوف يسمى كارل لايبينز وليس رجلاً عسكريًا، وتم ذلك فى ١٦٧٠، أى فى مرحلة مبكرة. وبعد ذلك بأكثر من مائة عام، كان تصور نابليون عن غزو مصر مبنيًا على أساس أنها حملة علمية.

فى العقود التالية مباشرة بعد غزو نابليون عام ١٧٩٨ أثارت مصر انتباه المحافل العلمية الغربية للجوانب الاقتصادية والزراعية بطريقة لم يقم بها أى مكان آخر أبدًا، إلا أنه خلال تلك الفترة،

وعلى الرغم من المحاولات المكثفة التى أُجريت على التربة حول الجنيزة، فإن الجنيزة ظلت لا تسترعى الأنظار أبدًا: كانت حينذاك مازالت جزءًا من التراث الكائن ولم يكن العلماء الغزاة لديهم أى اهتمام بسكان مصر آنذاك الذين وصفوهم بأنهم شُعث غبر.

مرت أكثر من مائة عام على زيارة سيجوين ڤان جيلدرون دون أن يسترعى ذلك انتباه العامة للجنيزة القابعة فى معبد بن عزرا. وبحلول الوقت الذى تم فيه نشر التقارير التالية كانت مصر قد أصبحت بالفعل تحت الحكم البريطانى، وأصبح موقعها بصفتها الطريق للهند وبالاً عليها، وهو السبب الأقرب للتصديق لضمها للإمبراطورية البريطانية. تسببت زيارة تمت عام ١٨٦٤ فى إثارة انتباه المحافل العلمية للجنيزة، وبعد ذلك بفترة وجيزة بدأت الأحداث فى التتابع حولها بهدوء، للدلالة الخبيثة عن تزاوج القوة وكتابة التاريخ (التأريخ).

فى صيف عام ١٨٦٤عندما كان قدر كبير من حفر القناة قد أُنجز، وكانت مصر مستعدة مرة أخرى لتكون معبرًا للهند، قام علّامة وباحث وجامع للتراث اليهودى القديم يدعى جاكوب سافير بزيارات عديدة لمعبد بن عزرا أثناء مروره عبر مصر. كان المعبد مازال محط الاحترام العظيم من قبل السكان اليهود للقاهرة، وكان يتم توجيه الرحالة لزيارته لكونه موقعًا مناسبًا للحج.

خلال زياراته أُشير إلى الجنيزة على مبعدة وقيل لسفير إنها تحتوى على الكثير من الكتب القديمة المهلهلة والرثة. ولكنه عندما

طلب أن ينظر داخل الغرفة قوبل طلبه بالرفض البات فقد قال له القائمون على المعبد إنه يوجد ثعبان قابع فى مدخل الغرفة ولذلك فإنه من الخطر الداهم أن يدخل الغرفة. تسبب رفضهم فى جعل سفير مصرًا أكثر من ذى قبل على أن يتحرى الأمر، ورجع مرة أخرى إلى المعبد بعد أن حصل على تصريح بدخول الغرفة من رئيس محكمة الحاخامات. إلا أن ذلك لم يؤثر تأثيرًا إيجابيًا على القائمين على المعبد وسخروا منه متسائلين «هل يمكن لإنسان أن يخاطر بحياته من أجل لا شىء؟ أنه لن يعيش حتى نهاية العام!» تراجعوا عن موقفهم فقط عندما قال لهم سفير أنه يستطيع أن يسحر الثعابين ووعدهم بإعطائهم منحة مالية.

وحسب ما وجده سفير، فإن الجنيزة كانت مليئة حتى ارتفاع طابقين ونصف الطابق من المبانى؛ كانت مفتوحة للسماء من أعلى؛ أما الانقاض والركام فكان متناثرًا بداخلها. رحل سفير بعد أن أمضى بداخلها يومين شاقين، دون أن يقابل «أى حية رقطاء أو عقارب» بعد أن «قام بنزع صفحات قليلة من العديد من كتب ومخطوطات قديمة» وبعد فحص وتمحيص، اتضح أن كل تلك الشذرات لم تكن لها أى قيمة، ولكن فى وصفه للزيارة فى مذكرته أضاف سفير هذا الرأى «ولكنه يعلم ماذا يكمن تحت هذا الركام».

وقد أثار تقريره الذى ظهر فى عام ١٨٦٦ اهتمام دائرة صغيرة من العلماء، مما أعطى مصداقية للشائعات أن هناك احتمال وجود خبيئة عبارة عن كنز من المخطوطات تنتظر أحدا لكى يكشف عنها فى القاهرة.

من المحتمل أن يكون رجلاً قد قام بزيارة معبد بن عزرا مرة أخرى بعد ذلك بفترة وجيزة، كان هذا الرجل هو الذى قام بعد ذلك بتجميع أكبر مجموعة من المخطوطات العبرية فى العالم. كان يهوديًا من القرم من طائفة القرائين اسمه آبراهام فيركوفيتش. وكان مولعًا باقتناء الأشياء الثمينة، عُرف عنه أنه لا يعبأ بالمبادئ بنفس القدر الذى عُرف عنه الحكم السديد. أصبحت المجموعة التى قام بجمعها طوال حياته موجودة الآن فى المكتبة العامة فى سانت بيترسبرج. تم جلب واقتناء المخطوطات لهذه المكتبة فى مجموعتين: قام ڤيركوڤيتش ببيع المجموعة الأولى بنفسه، أما الثانية فقد تم شراؤها بعد وفاته مباشرة فى عام ١٨٧٤. تحتوى المجموعة الثانية فقط على خمسة عشر ضعفًا مما هو موجود من مخطوطات الإنجيل فى المتحف البريطانى. قدّر المحقق الألمانى بول كاهل الذى كرس جزءًا كبيرًا من حياته لدراسة وتحقيق مجموعة ڤيركوڤيتش أنه فى كل المكتبات فى أوروبا مجتمعة لا يوجد ما يقدّر بثلث عدد المخطوطات من الإنجيل بقدر ما يوجد فى هذه المجموعة فى سانت بيترسبرج. كان من المعروف أن الكثير من هذه الوثائق مأخوذة من الجنيزة فى القاهرة، ولكن لم يعرف سبب وجودها هناك فلا مجال لمعرفة ذلك حيث إن ڤيركوڤيتش لم يكشف عن مصادره. كان قد حصل على الكثير من هذه الوثائق عن طريق النصب على القائمين على المعبد فى أنحاء مختلفة فى الشرق الأوسط، وكان من عادته أن يُخفى الطرق التى اتبعها فى جميع الوثائق خلف ستار من السرية.

إذا ما اكتنف هذا الأمر اليوم أى نوع من المفارقة بالنسبة لفكرة أن جامع أو مقتنى هذه المخطوطة اليهودى والذى عاش منذ زمن ليس ببعيد جداً، تخيل أسبابًا لأن يسرق المخطوطات من اليهود من نفس عقيدته فى فلسطين لكى يأخذها إلى روسيا، فإن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لفيركوفيتش: ذلك لأنه كان يمارس على أبناء ديانته نفس الأساليب التى استخدمتها الدوائر العلمية الغربية على أنها مجرد جزء طبيعى من أساليبها وممارساتها فى جميع أرجاء العالم الذى قبع تحت استعمارهم.

خلال السنوات القليلة التالية تداولت أياد كثيرة وثائق الجنيزة. فبحلول ثمانينيات القرن التاسع عشر تم نقل كميات هائلة لفلسطين وأوروبا والولايات المتحدة الأمريكية من قبل أناس مهتمين بجمع المخطوطات والذين لم يكونوا عادة على دراية حتى بوجود الجنيزة، حوالى نهاية هذا العقد فى ١٨٨٨، أمضى بريطانى يهودى يوم كيبور بصحبة بعض من أهم العائلات اليهودية فى القاهرة. كان هذا الشخص مُقدرًا له أن يلعب دورًا مهمًا فى تشتيت وثائق الجنيزة. كان اسمه الكان ن. نادلر، ولدى عودته إلي لندن قام بنشر تقرير وبيان عن زيارته فى جريدة «چويش كرونيكل» التى تهتم بأمور اليهود الذين زاروا القاهرة ولم يبدوا أى اهتمام بالجالية اليهودية هناك. أما من جانبه، فقد أعلن أنه راض كل الرضا عن تجربته. فقد كتب قائلاً «لا يحدث كثيرًا أن تتاح لأوروبى الفرصة أن يشارك السكان الأصليين أعيادهم».

خلال زيارته قام آدلر بتطوير علاقته بعائلة كانت تتمتع بمكانة وتأثير هائل داخل الجالية اليهودية فى القاهرة، كانت العائلة تسمى قطاوى وقد لعبت دورًا محوريًا فى مستقبل الجنيزة. يُعتقد أن عائلة قطاوى قد أتت إلى مصر عن طريق هولندا، ومثلها مثل عائلات يهودية أخرى كانت تحتل مكانة كبيرة فى القاهرة فى نهاية القرن التاسع عشر، كانوا من «السفرديم» وليسوا من اليهود «الشرقيين» بحلول هذا الوقت أصبح اليهود الأصليون المعتمدون فى القاهرة، الذين كانت علاقتهم بمعبد بن عزرا أكثر من غيرهم من اليهود أقلية عددية تعانى من الفقر وشظف العيش، داخل الجالية اليهودية. كانت عائلة قطاوى نفسها تعيش ذات يوم فى حارة اليهود فى القاهرة، إلا أنهم كانوا من أوائل العائلات التى خرجت من الحارة. خرجوا لكى يقيموا مؤسسة مصرفية مزدهرة ناجحة لديها مكاتب فى القاهرة وتمارس تأثيرًا أكثر من أى عائلة يهودية أخرى.

كان يعقوب قطاوى، مؤسس هذه العائلة، أول يهودى مصرى يتم منحه لقب «بك»، بالإضافة إلى أنه فى عقد الثمانينيات من القرن التاسع عشر مُنح لقب «بارون» من إمبراطورية هابسبرج النمساوية. بعد ذلك ولإدراكهم موقفهم بصفتهم نبلاء نمساويين، أطلقت العائلة اسم «ڤون قطاوى» على نفسها. لم يخطر ببال بارونات عائلة ڤون قطاوى أنهم سيساهمون يومًا ما فى منح ألكان آدلر الفرصة لأن يشارك فى عيد يحتفل به اليهود المقيمون فى القاهرة.

فى تقريره أو روايته عن فترة إقامته فى القاهرة، ذكر آدلر المعبد الخاص بعائلة قطاوى ومنزلهم الملحق به، وهو قصر فخم رائع كان

يمتلكه باشا فى يوم من الأيام. وأضاف أيضًا قصة طريفة عن رأس العائلة الحالى موشى قطاوى.

قبل زيارة آدلر بقرابة ست سنوات كان البريطانيون يواجهون ثورة مسلحة بقيادة أحمد عرابى باشا، وهو شخصية محبوبة مازال المصريون يوقرونه حتى يومنا هذا. حدثت هزيمة المصريين فى ١٨٨٢، وفى أعقاب الحرب تولى البريطانيون زمام الحكم فى إدارة شئون البلاد، بعد ذلك بفترة وجيزة أرسل السفير البريطانى فى القسطنطينية، لورد دوفيرين لكى يضع خطة «لإعادة تأهيل» البلاد. وضعت عائلة قطاوى منزلهم المنيف تحت تصرفه طوال مدة إقامته، وكنوع من الاعتراف بهذه الخدمة أرسلت الملكة ڤيكتوريا بعد ذلك إلى موشى قطاوى صورة زيتية شخصية لها.. وكما يذكر آدلر «أنه كان تذكارًا يعتز ويفتخر به كثيرًا».

أتيحت الفرصة لآدلر أن يأخذ لمحة من وثيقة هامة فى الغرفة الملحقة فى قصر قطاوى: وهى مرسوم أصدره الخليفة منذ ثمانمائة عام وبموجبه يمنح معبد بن عزرا للطائفة اليهودية. وفى الوثيقة يذكر أنه قام بزيارة للفسطاط مما جعله ينزعج كثيرًا وانتابه الذعر والهلع عندما علم بأن النية تتجه لهدم المعبد وإعادة بنائه. ولكن فيما عدا ذلك فلم تترك الزيارة أى تأثير يُذكر عليه: فتساؤلاته عن الجنيزة لم توضح أى شىء ذى قيمة، وانتهى إلى خلاصة «أنه فى الوقت الراهن لا يمكن شراء أى مخطوطات يهودية ذات قيمة فى القاهرة». عندما قام بكتابة روايته عن رحلته للقاهرة، لم تحظ الجنيزة بأى ذكر.

فى خلال سنتين، حسبما قيل لآدلر بحذافيره، فقد تم بالفعل هدم البناء القديم المعبد بن عزرا، تم بناء المبنى المقام على الموقع اليوم مكان المبنى القديم. لابد وأن الجنيزة قد عانت كثيرًا أثناء مرحلة الهدم، ذلك لأنه من الواضح أن التبديد السريع لمحتوياتها كان قد بدأ فى الحدوث حوالى هذا الوقت. كان القائمون على المعبد تجار الآثار فى القاهرة بعيدى النظر كانوا يتسمون بأنهم على دراية تامة أن تلك الوثائق قد تجلب أسعارًا جيدة فى السوق العالمية، ومن خلال مجهوداتهم استطاعت أعداد هائلة من تلك المخطوطات أن تجد سبيلها للمكتبات فى باريس وفرانكفورت ولندن وفيينا وبودابست. استطاعت مكتبة بودليان الشهيرة فى جامعة أوكسفورد أن تحصل على مجموعة كبيرة من مخطوطات الجنيزة فى هذه الأعوام، من خلال مجهودات اثنين من العاملين فى المكتبة اللذين استطاعا أن يتبينا سريعًا قيمة تلك المخطوطات.

وعلى النقيض من ذلك، فإن المخطوطات لم تثر أى انتباه فى جامعة كامبردج. كان المتخصص فى الوثائق العبرية فى جامعة كامبردج آنذاك هو دكتور سولومون ششتر، وهو باحث علامة ومثقف متميز كما كان رجلاً ذا شخصية قوية آخاذة، كما كان متمتعًا بطبيعة ودودة ساحرة. كان حاخام مثقف اسمه سولومون ورثايمر من القدس قد أرسل له وثائق عديدة من الجنيزة. فى خلال أعوام قليلة أصبح اسم ششتر أكثر ارتباطًا بالجنيزة من أى شخص آخر، إلا أنه كان لمدة طويلة فى عقد التسعينيات من القرن التاسع عشر يعتقد (مثله مثل باحثين آخرين) أن تلك «الشظيات

المصرية» لا قيمة حقيقية لها على الإطلاق. كتب الحاخام سولومون وريثايمر له عدة خطابات راجيًا إياه أن يسلم الوثائق لجامعة أوكسفورد إذا كان من رأيه أن تلك الوثائق لا قيمة لها، إلا أن طلبه أو التماسه ذهب سُدى: ذلك لأن دكتور ششتر لم يكن لديه وقت لكى يقوم بإفراغهم من العلب التى وضُعت فيها.

فى هذا الوقت لابد وأن يكون ألكان آدلر قد تبين له أنه كان مخطئًا فى تقييمه المبدئى، فقد رجع مرة ثانية للقاهرة فيما ثبت بعد ذلك أنها كانت سنة حاسمة فى حياة الجنيزة فى ١٨٩٦. أخذ معه خطابات من أخيه هيرمان آدلر (الذى أصبح لاحقًا الحاخام الأكبر فى الإمبراطورية البريطانية) وقام باستقباله الحاخام الأكبر للقاهرة رافايل بن شيمون هاكوهين بحفاوة بالغة، كما اشترك معه آخرون من أصفيائه ومريديه الذين لم يكونوا سوى أقطاب عائلة قطاوى. وفيما بينهم سمحوا لآدلر أن يدخل الجنيزة وأن يحمل معه كمية معينة من الوثائق التى يختارها. اصطحبه الحاخام رافايل شخصيًا للفسطاط، وبعد زهاء ثلاث أو أربع ساعات قضوها وهم مستغرقون فى الغرفة، أخذ ملء جوال من الوثائق. أصبحت المادة التى جمعها فى ذلك اليوم منتشرة فى عدة مكتبات، وجزء منها كان النواة للمجموعة المهمة الخاصة بالمعهد اللاهوتى اليهودى فى نيويورك.

فى هذا العام بالذات، أى ١٨٩٦، قامت سيدتان من طائفة الكنيسة المشيخية المسماه «پرزبيتارين» بزيارة القاهرة ثم عادتا مرة

ثانية إلى إنجلترا، وهما محملتان بمجموعة صغيرة من وثائق الجنيزة. كانت السيدتان، وهما آجنس لويس ومارجريت جيبسون أختين، أو بالأحرى توأمتين متطابقتين ذاتى نزعات بحثية وثقافية، كانت لديهما ثروة هائلة أتاحت لهما أن يسافرا إلى الشرق الأوسط بكثرة. كانتا قد اكتسبتا خبرة كبيرة فى مجال المخطوطات والآثار من خلال تجوالهما، وبهذه المناسبة اقتنعتا بأن بعضا من الوثائق التى حصلتا عليها كانت ذات قيمة عالية.

وعندما عادتا إلى كامبردج، أخذتا شذرتين كانتا تمثلان لهما أهمية كبرى، قامتا بأخذهما إلى سلومون شتر وهو أستاذ وعالم التلموديات. وافق ششتر أن يلقى عليهم نظرة، وكان ذلك نابعًا أساسًا من دافع الأدب، لأنه كان مازال يخامره الشك حول قيمة «الشذرات المصرية». إلا أن ما حدث أنه اعترته دهشة بالغة فقد استرعت انتباهه على التو إحدى الوثائق، وفى صباح اليوم التالى وبعد أن تفحصها مليًا فى مكتبه اكتشف أنه وقع على اكتشاف مذهل بمحض الصدفة. وعلى وجه السرعة والعجلة أرسل ششتر رسالة من كتبة الكلية وفحواها كالآتى:

عزيزتى السيدة لويس:

أعتقد أن لدينا أسبابا تجعلنا نهنئ أنفسنا وذلك لأن الشذرة التى أخذتها معى تمثل جزءًا من كتاب اللاهوت العبرى الأصلى، تلك هى المرة الأولى التى يتم اكتشاف شىء من هذا القبيل. أرجوك لا تتحدثى مع أى شخص عن هذا الأمر حتى الغد. سوف أحضر

إليك فى الغد حوالى الساعة الحادية عشرة مساء وسوف نتناقش فى هذا الأمر سويًا عن كيفية الإعلان عنه.

كتبت هذا وأنا فى عجلة من أمرى وتغمرنى سعادة غامرة.

المخلص

س. ششتر

رسالة ششتر مؤرخة ١٣ مايو ١٨٩٦، وفى نفس هذا اليوم أرسلت السيدة لويس إعلانًا عن هذا الاكتشاف إلى جريدة «ذى أكاديمى» التى تصدر فى لندن وتحظى بمكانة مرموقة. تم نشر الخطاب بعد ذلك بثلاثة أيام تحت عنوان «اكتشاف شذرة من كتاب اللاهوت باللغة العبرية الأصلية» وكانت أولى كلماتها كما يلى «سوف يسعد كل دارسى الإنجيل والأبوكريفا (الأربعة عشر سفرا الملحقة أحيانًا بالعهد القديم من الكتاب المقدس) عندما يعرفون أنه ضمن شذرات المخطوطات باللغة العبرية التى اقتنيتها أنا وأختى السيدة جيبسون من فلسطين فإنه تم اليوم اكتشاف صفحة من كتاب اللاهوت على يد السيد س. ششتر وهو أستاذ التلموديات فى جامعة كامبردج».

أعلن ششتر فى تقرير مبدئى قام بكتابته هو شخصيًا ونشره فى جريدة ذات مستوى ثقافى عال متميز تسمى «إكسپوزيتر» فى نفس السنة أنه قد وجد جزءًا من النص الأصلى لكتاب اللاهوت المسمى «كتاب الحكمة» الذى كتبه عيسى بن سيراخ، والمعروف أنه كان قد كُتب حوالى ٢٠٠ قبل الميلاد: كان النص الأصلى بالعبرية قد فُقد

قبل ذلك بقرون، وكان ما تبقى منه هو الترجمة اليونانية للكتاب. كتب قائلاً «لو استطعنا إثبات أن سيراخ الذى ذاع صيته حوالى ٢٠٠ سنة قبل الميلاد هو الذى قام بكتابة هذا العمل، كما يعتقد البعض باستخدام لغة الحاخامات... فإذن هناك عدة قرون فيما بين كتاب الحكمة وأسفار العهد القديم، أو على الأرجح المياه العميقة للسبى (لاستعباد اليهود)».

لم تذكر أى من الإعلانين الجنيزة الموجودة فى الفسطاط بصفتها مصدرًا للوثيقة فقد أثار هذا الاكتشاف شششتر لدرجة أنه كان قد بدأ بالفعل فى التفكير فى السفر للقاهرة للحصول على ما تبقى من الوثائق. كانت السرية أمرًا أساسيًا لنجاح الخطة. سرعان ما نجح فى استقطاب دعم ومؤازرة دكتور تشارلز تايلور وهو مدرس فى كلية سانت جونز التابعة لجامعة كمبريدج. كان تايلور عالم حساب، إلا أنه انجذب بشدة للدراسات الخاصة بالعبرية المتأخرة التى استعملها أحبار اليهود، وقد نجح فى إقناع الجامعة لكى تمارس نفوذها البالغ لكى تساعد وتساند شششتر. غادر شششتر انجلترا فى ديسمبر ١٨٩٦، آخذًا معه خطاب توصية موجه للحاخام الأكبر فى القاهرة قام بكتابته هيرمان آدلر، الذى كان حينذاك الحاخام الأكبر لانجلترا، بالإضافة إلى «خطاب اعتماد مختوم ومحاط بشريط جميل» من نائب رئيس جامعة كامبردج وهو موجه إلى رئيس الطائفة اليهودية فى القاهرة.

لم يكن من الممكن أن يكون الوقت مواتيًا أكثر من ذلك لزيارة شششتر، كان على رأس الإدارة البريطانية على مصر سير آفيلين

بارنج، الذى أصبح فيما بعد لورد كرومر. كان معروفًا لدى مرؤوسيه باسم «أوفر بارنج» (أى المبالغ فى المنع) وكان قد خدم فى عدة مناصب إدارية فى الهند ومصر، ولم ينبهر بإمكانيات الهنود والمصريين المحدثين. كان رأيه فى المصريين متواضعًا للغاية لدرجة أنه عندما استمع إلى أحد مشاهد الغناء فى مصر يغنى أغنية تقول ما معناه «فين حبيبى. آه ياناس هاتوا لى حبيبى» علق بقوله أنه هذه الأغنية تعبر عن المصريين خير تعبير حيث يطلب المصرى من شخص آخر أن يبحث عن حبيبته. عبر عن رأيه بطريقة جارحة فى مقال بعنوان «حكومة الأجناس من الرعايا» يقول فيها «نحن غير مضطرين أن نتحرى بدقة عن رأى هؤلاء الأناس فيما يعتقدون أنه الأفضل لمصالحهم... فهم من وجهة نظر قومية (أو بريطانية) هم أجناس أو شعوب أقل شأنًا... أنه لأمر مهم أن نبدأ بتحديد كل أمر من الأمور، وفى ضوء المعرفة الغربية والتجربة ما نعتقده بأمانة هو الأفضل لهذه الأجناس والشعوب الرعايا أو الخاضعين لنا».

تحت إدارة لورد كرومر تم ترقيته لمناصب قيادية محورية فى عدة فروع من إدارات البلاد. وهكذا، فإنه بقدوم ششتر إلى القاهرة كان الخطاب المحاط بالشريط الأنيق من نائب رئيس جامعة كامبردج لم يكن يمثل مجرد قطعة من الورق المزين فقد كان بمثابة مرسوم إمبراطورى سرى.

كان ششتر محظوظًا ذلك لأن كرومر نفسه كان مهتمًا بنجاح مهمته.. لا يمكن تحديد تفاصيل ما تم بين ششتر والمسئولين

البريطانيين وزعماء الطائفة اليهودية فى القاهرة بدقة، إلا أنه بعد فترة وجيزة للغاية، توصل الحاخام الأكبر للقاهرة وجوزيف م. قطاوى باشا إلى قرار كان مثيرًا للدهشة البالغة إذا ما تمعنا فيه بأثر رجعى فلقد قرروا أن يقدموا هدية من طائفتهم وكذلك من تراث مدينتهم وذلك بمنحه حرية أو امتياز أخذ أى شىء يريده من الجنيزة أى ورقة أو رق بدون أى شرط أو دفع مبالغ فى مقابل ذلك.

راجت فكرة فى بعض الأحيان أن شِشتر أصاب نجاحًا يسيرًا سهلاً فى مهمته ذلك لأن القائمين على معبد بن عزرا أو حراسه لم يكن لديهم أدنى فكرة عن القيمة الحقيقية لوثائق الجنيزة كان هذا نموذجًا للتبريرات والحجج التى ساقها الكثيرون فى القرن التاسع عشر لتبرير حصول القوى الاستعمارية على أعمال فنية ذات قيمة تاريخية. وفى الحقيقة، فإذا أخذنا فى الاعتبار أنه كانت هناك تجارة مربحة ونشطة فيما يخص وثائق الجنيزة لمدة أعوام كثيرة قبل زيارة شِشتر، فلا يمكن القول إن الشمامسة وصغار القائمين فى المعبد كانوا يجهلون قيمة تلك الوثائق. على الرغم من فقرهم المدقع، فإنه من الصعب تصديق أنهم قد تخلوا بإرادتهم الكاملة عن كنز كان، على أنه آخر الأصول الباقية التى تركها لهم أسلافهم. والاحتمال الأرجح أن زعماء طائفتهم اتخذوا القرار بالنيابة عنهم، ولم يُترك لهم أى خيار آخر غير الموافقة والطاعة. بالنسبة لهؤلاء الزعماء، فلم يكن من العسير إقناعهم فقد كانوا الهدف وراء كرمهم المبالغ فيه: فمثلهم مثل الصفوة فى مجموعات وطوائف أخرى كثيرة فى عالم يسوده الاستعمار، كان من الواضح أنهم قرروا أن يقتنصوا

الفرصة الكبرى فى وقت كان ميزان القوى ـ متمثلا فى السفن والسلاح ـ يرجح كفة إنجلترا بشدة.

إلا أن ششتر لم يأخذ الأمور ببساطة: فطوال هذه الفترة التى كان يعمل فيها فى الفسطاط كان حريصًا أن ينمى قدرات زعماء الطائفة اليهودية فى القاهرة: كان رجلاً ذا ذكاء ولماحية شديدين، وقد وصف علاقته بالحاخام الأكبر وعائلته فى خطاباته إلى زوجته بأسلوب يتميز بالقوة. وعن أسلوب تعامله مع أخى الحاخام الذى أصبح ناصحًا ومرشدًا له كتب يقول «داعبته على مدى ساعات طوال، وحاليًا أقوم بأخذ دروس فى اللغة العربية ثلاث مرات أسبوعيًا. وها أنت ترى إلى أى مدى أصبح رجلك العجوز عمليًا». قرر أيضًا أن يصطحب معه الحاخام الأكبر للأهرام التى، ويا للغرابة، لم يكن الحاخام قد شاهدها من قبل «سوف يكلفنى ذلك حوالى ١٠ شلنات، ولكن هذه الطريقة الوحيدة لكى أجعل نفسى محبوبًا». انبهر الحاخام بشدة بحيث إنه فى خطاب لاحق جعل ششتر يعلق على ذلك بقوله «الحاخام طيب معى جدًا ويقبلنى على فمى وهو أمر لا أستسيغه».

لم يحظ أعضاء الطائفة الآخرين بنفس الدرجة من الحفاوة، كتب ششتر فى خطاب أرسله لإنجلترا عن حراس المعبد »لمدة أسابيع طوال كان على أن أتجرع وأتحمل.... مضايقات هؤلاء الشمامسة الأوغاد الذين أجبرونى أن أعطيهم بقشيشًا». يصف تجربته بعد ذلك عندما أتيحت له فسحة من الوقت فيقول «كل

السكان فى المناطق المحيطة بالمعبد كانوا دائمًا ما يأتون بادعاءات خاصة بكونى متحررًا - فبالنسبة لى فالرجال زملاء أجلاء يعملون نفس العمل [أى اختيار] مثلهم مثلى... أما بالنسبة للنساء فهم يحيونى باحترام وتبجيل عندما أدخل المكان، أو يظهرون لى تعاطفهم الشديد عندما تنتابنى نوبات السعال الشديدة التى يتسبب التراب فيها. فإذا ما كانت ليلة عيد مثل القمر الجديد أو ليلة السبت، أصبحت المبالغ المتوقعة منى لكل تلك اللفتات الطيبة أكثر بكثير، فالأصول المتبعة أن المليونير الغربى يجب عليه أن يساهم من ثروته الخاضعة لإقامة الولائم التالية».

يجب أن نعد أن أحد ملامح هذا العصر الجديرة بالملاحظة أن شتر اضطر لاستخدام نوعية من اللغة التى تبدو مألوفة للغاية لأى موظف بريطانى يعمل فى نظام الحكم الاستعمارى، هذا على الرغم من أن ششتر كان فيما عدا ذلك رجلاً يتمتع بالطيبة والإنسانية، حيث إنه كان ينتمى إلى عائلة رومانية فقيرة تنتمى إلى طائفة الهاسيديم، فإن ششتر كان يكتب عن أناس ينتمون لنفس ديانته، بالإضافة إلى أنهم هم نفس المجموعة الذين حافظوا على الجنيزة لمدة تناهز الألف عام، هذا الإنجاز الفريد من نوعه كان ششتر الآن مشغولاً فى نسبه لنفسه لابد وأن اللورد كرومر كان سيعبر عن آرائه بأسلوب أكثر صراحة، إلا أنه كان سوف يتفق اتفاقًا كاملاً مع رؤية العالم حيث تُفسر فيه مصالح الأقوياء على أنها ضروريات، أما بالنسبة لمتطلبات الفقراء فتصور على أنها شكل من أشكال الجشع.

كان على شِشتر أن يعمل لمدة أسابيع عديدة داخل حجرة الجنيزة، حيث قام بعملية تصنيف لمحتوياتها بمساعدة «الشماسة الأوغاد». كانت الوثائق داخل الحجرة من نوعيات كثيرة متنوعة، وكان قسط صغير للغاية كان محتواه أمورًا دينية، هذا إذا أردنا الدقة فى التعبير. إلا أن الأناس الذين استخدموا الجنيزة لم يكونوا ليتوقفوا عند التمييز المستخدم فى العصر الحديث بين ما هو «دنيوى» وما هو «دينى»: فبالنسبة إليهم لم يكن هناك شىء يذكر خارج إرادة وعمل الله، سيان فى ذلك ما إذا كان الأمر يتعلق بالزواج أو الصلاة أو الاتفاق حول أجرة الحمال أو العتال. فى الواقع فإن الجنيزة كانت تحتوى على وثائق لا حصر لها سواء كان ذلك متعلقًا بالكتاب المقدس أو خاصًا بالحاخامات كانت تلك الوثائق ذات أهمية قصوى، خاصة تلك المتعلقة بمخطوطات الإنجيل. على الرغم من ذلك فإن الجنيزة لم تكن مكتبة دينية أو أرشيفًا: فقد كان مكانًا يلقى فيه المنتمون لهذه الطائفة كل أنواع الأوراق فى حوزتهم مثل الخطابات والفواتير والعقود والأشعار وعقود الزواج وما إلى ذلك. فى أحيان كثيرة كانت نفس الورقة تحتوى على كتابات أخرى متباينة، ذلك لأن الورق كان غالى الثمن فى القرون الوسطى، لذا كان الناس يقتصدون فى استخدامه، تم إلقاء هذه القصاصات من مختلف الأنواع فى الجنيزة بطريقة عشوائية، وعلى مدار القرون كان الناس الذين يدخلون أياديهم للحجرة يقومون بعمليات بعثرة أكثر من ذى قبل. ولكى تتعقد الأمور أكثر فأكثر فقد تم إيداع كميات هائلة من المطبوعات والكتب فى الجنيزة بدءًا من القرن السادس عشر وفيما تلاه من قرون.

قرر ششتر فى نهاية الأمر أن يترك القصاصات أو الشظيات المطبوعة وأن يأخذ فقط المكتوبة بخط اليد. ملأ حوالى ثلاثين جوالاً وعلبة بهذه المواد، وبمساعدة السفارة البريطانية فى القاهرة تم شحنهم لجامعة كامبردج. بعد ذلك بعدة شهور عاد بنفسه مرة أخرى وكما وصفه ألكان آدلر «محملاً بما سلبه ونهبه من المصريين».

فى عام ١٨٩٨ تم تسليم المخطوطات بصورة رسمية لمكتبة الجامعة، تلك التى أحضرها ششتر من القاهرة، حيث ظلوا منذ هذا الوقت محاطين بكل رعاية وعناية، وقد تم جمعهم فى مجموعة تسمى تايلور ـ شِشتر، تضم تلك المجموعة حوالى مائة وأربعين ألف شظية، وهى أكبر مستودع أو مخزن على الإطلاق فى العالم لمواد أُخذت من الجنيزة فلقد كان فى تلك المجموعة المتناثرة الكثير من المخطوطات التى حفظت قصص إبراهام بن ييچو وعبده ـ كانوا بمثابة خيوط دقيقة رقيقة تم غزلها بحيث كوّنوا فى النهاية قطعة نسيج هائلة الحجم.

تم اكتشاف كميات هائلة من المخطوطات فى جبانة اليهود فى الفسطاط عند نهاية القرن، ثم مرة أخرى بعد ذلك كُشف النقاب عن المزيد من المخطوطات بعقد أو أكثر من الزمان. كانت تلك المخطوطات تشبه كثيراً المخطوطات الموجودة فى الجنيزة، خلال سنوات قليلة تم نقلها إلى أوروبا وأمريكا وكان جزء كبير منها قد تم اقتناؤه فى مجموعات خاصة.

بنشوب الحرب العالمية الأولى تم إخلاء الجنيزة نهائيًا من كل المخطوطات بها. على أية حال فلم يلاحظ أى شخص، ولو بطريقة عابرة، أن تلك المخطوطات قد تعرضت للسلب والتبديد فى موطنها الأصلى مصر. وبتفسير يتسم بالعمق، فإن الثقافة الإسلامية العالية التى تعتنقها مصر لم تلاحظ أبدًا ذلك وكذلك لم تجد مكانًا للتاريخ الموازى المتمثل فى الجنيزة، ولذلك فإن إزاحة هذا التاريخ جاءت لتؤكد رؤية خاصة بالماضى.

ولذلك فإن هؤلاء الذين حضروا للفسطاط من جميع أرجاء العالم المعروف آنذاك فيما يمثل الموجة الثانية من الرحلات، حملوا المخطوطات إلى مدى أبعد من ذلك. ومن المفارقات أن تلك المخطوطات حملت فى الأغلب الأعم إلى بلاد كان من الممكن أن تكون قد قامت بتدمير الجنيزة منذ أمد بعيد فى حالة كون الجنيزة تمثل جزءًا من تاريخ تلك البلاد. والآن جاء الدور على مصر التى حافظت على الجنيزة لمدة تناهز الألف عام ثم سُلبت من كل أثر أو ثروة من الجنيزة: فلم تترك أى قصاصة ورق واحدة لتذكّرها بهذا الجانب من تاريخها.

بدا كما لو أن الحدود التى قسمت فلسطين بعد ذلك بعدة عقود قد تم ترسيمها بالفعل، من خلال الزمن وليس من خلال الأرض، لكى يحدد اختيار تاريخ دون آخر.

١١

رجعت إلى لطيفة قبل نهاية شهر رمضان بأسبوع. كنت أحمل فى حقيبتى بعض الهدايا القليلة مثل نسخة موشاة للقرآن الكريم

للشيخ موسى ومحفظة جلدية لجابر وكرة لفريق كرة القدم للأولاد بالإضافة إلى أشياء أخرى. وصلت إلى لطيفة وأنا استقل، وقوفًا، عربة نصف نقل، فى ذلك الوقت من المساء حيث يتواجد أولاد وشباب الكفر وهم جالسون على جانب الطريق العام يتحدثون ويتسامرون مع أصدقائهم. جرى بعض منهم ناحيتى بمجرد نزولى من عربة النقل. لوحت لهم بيدى ولكنى دُهشت لأنهم لم يبتسموا ولم يلوحوا تحية لى. لاحظت أن وجوههم كانت تكسوها جّدية غير معهودة فيهم، وفجأة أصابنى التوجس.

قال أول ولد يصل إلى «فيه حاجة فظيعة حصلت لما كنت غايب يا مستر».

«إيه؟».

قال «أنت فاكر حسن بن الشيخ موسى؟»

«أيوه»

«مات من كام يوم».

قال ولد آخر و«دفنوه من يومين. تم عمل عزا كبير وكل ما يلزم فاتك المنظر ده».

فى نفس هذا المساء ذهبت إلى الشيخ موسى حاملاً معى الهدية التي أحضرتها من القاهرة له. لم أكن متأكدًا ما إذا كان هذا هو الوقت المناسب لكى أعطيها له، ولكنى أخذتها معى على أية حال، لأنى لم أكن أريد أن أدخل منزله وأنا خالى اليدين.

قابلنى ابنه أحمد عند الباب. كان يرتدى جلابية مجعدة (مكرمشة) وكان يبدو عليه الإجهاد وكانت تحت عينيه هالات سوداء. صافحته وأنا أقول كلمات المواساة المعتادة، وأجابنى همسًا بينما اصطحبنى إلى غرفة الجلوس.

كان الشيخ موسى جالسًا فى أحد الأركان. كانت الغرفة مظلمة، النوافذ مغلقة ولم تكن المصابيح قد تمت إضاءتها بعد. نهض واقفًا ببعض المشقة غمغم بكلمات التحية المعتادة «أهلاً وسهلاً، ازيك» وكلمات أخرى مشابهة، بنفس الطريقة التى قد يستخدمها إذا ما زرته لدردشة عابرة عن زراعة القطن. قلت كلمات المواساة المعتادة ثم حاولت أن أضيف شيئًا من عندى فقلت «دى أخبار فظيعة. أنا حزنت واتصدمت...».

عبر عن شكره بإيماءة فقط، ولفترة جلس ثلاثتنا فى صمت تام. ورويدًا رويدًا اعتادت عيناى على الظلام فتبينت أنه غير حليق اللحية، حيث ظهرت شعيرات بيضاء على خلفية بشرته السمراء. بدا وكأنه قد داهمته الشيخوخة بشدة عما رأيته آخر مرة: بدا كأنه انكمش وذبل؛ فقد كانت جلابيته الآن فضفاضة واسعة عليه.

عندما ناولته اللفافة التى أحضرتها معى عبر عن شكره بهزة بسيطة من رأسه. أخذها أحمد منه وهو يتمتم بعبارات الشكر، وبعدها بلحظة غادر الغرفة.

بعد أن ظللنا وحدنا لفترة قال الشيخ موسى «كان عيان لما شفته: أنت شفت بنفسك ازاى كان بيعانى من الألم فى رأسه يوم ما

حضرت عندنا. اتحسنت حالته شوية فرجع إلى معسكره. لكن الموضوع تطور للأسوأ وعلشان كده كان لازم يروح المستشفى العسكرى، أخويا زاره هناك وكنت أنا عايز أزوره بنفسى، لكن لما أحمد رجع قال أن حالته كويسة وأنه حيتحسن قريب، والحكمة قالوا مش لازم نقلق عليه. وبعد كده فى مساء أحد الأيام سمعت الأخبار أنه مات. كان الوقت متأخر جدًا تقريبًا وقت السحور، ولكننا أجّرنا عربية نقل من القرية اللى بعدنا وبدأت أنا وأخويا رحلتنا على طول متجهين للمنصورة. لما وصلنا هناك لقينا الضباط فى نفس المعسكر وزملائه العساكر صاحيين وهم بيحرسوا جثمانه، الجيش عطانا عربية علشان ننقل جثمانه، الضباط والعساكر كمان حضروا جنازته».

سألته «إيه اللى حصل له؟ إيه نوع المرض اللى كان يعانى منه؟».

بدت نظرة حيرة فى عينيه بينما كان يستدير لينظر إلى قائلاً «كان عيان، كان بيتألم من ألم فى رأسه، أنت شفت بنفسك أن رأسه كانت مربوطة بضمادة».

بدا سؤالى قاسيا ولذلك فلم ألح فى السؤال. جلسنا صامتين لفترة، ثم حضر اثنان من أحفاده الصغار إلى الغرفة حاملين حقائبهم المدرسية ومصباح جاز، فتحا كتبهما ليستذكرا دروسهما، ولكن بعد دقائق قليلة حدث شىء صرف انتباههما فبدآ يلعبان. ومما سبب لى ارتياحا إنى رأيت شبه ابتسامة تظهر على وجه الشيخ موسى.

قالوا «لو كنت هنا فى الوقت ده كنت شفت جنازته وعزاه بعد كده. فيه ناس كتير حضروا علشان يشاركونا أحزاننا...».

قلت «لو كنت عرفت كنت رجعت على طول...».

نظر ناحية رجليه ثم صمت. كنت أريد أن أقول له أخبارى المهمة؛ إن دكتور عيسى قد عمل ترتيباته لكى أترك منزل أبو على وأترك لطيفة وأذهب إلى نشاوى، إلا أن الوقت لم يكن مناسبًا، وبعد وهلة نهضت لكى أغادر المكان.

قال الشيخ موسى «ده كان صغير جدًا وكانت صحته دايما تمام التمام».

نهض واقفا وعندما أصبح وجهه قبالة وجهى تمامًا رأيت أنه يبكى. قال بلهجة يائسة «الدنيا كده» ذهب مسرعًا للداخل بعد أن أوصلنى خارج المنزل، فاستدرت ومشيت مبتعدًا. ولهذا فما حدث أنى لم أحافظ على وعدى له أن أحكى له عن مصر.

١٢

غادرت مصر عام ١٩٨٧، ولم تتح لى الظروف أن أبدأ فى إجراء بحث جاد حول قصة العبد المذكور فى المخطوطة H6: خلال عشر سنوات التى مضت منذ أن رأيت بالمصادفة إشارة جويتين المقتضبة لإبراهام بن ييجو وعبده، تلاقت أقدارنا مرات ومرات، فى بعض الأحوال كان هذا متعمدًا وفى أحوال أخرى كان بطريقة غير مقصودة، فى شمال أفريقيا ومصر وملابار، حتى أصبح من الواضح أنى لا يمكن مقاومة منطقة هذه المصادفات.

بدأت بتعقب أثر العبد، آملاً أن أتمكن أن أطلب مساعدة جويتين نفسه: استمديت التشجيع من مقالة نُشرت فى الهند عام ١٩٦٣، وفيها حاول أن يثير اهتمام الهنود للجنيزة، ولكن سرعان ما اكتشفت، ولخيبة أملى الشديدة أنه قد مات عام ١٩٨٥، وكان يبلغ الخامسة والثمانين. كان الخيار الوحيد المتبقى لى هو أن أبدأ بقراءة ما كتبه جويتين واقتفاء أثر العبد من خلال الإشارات إلى إبراهام بن ييجو.

لم تستمر هذه البداية السعيدة طويلاً فسرعان ما تبينت مدى مشقة هذه المهمة. فقد كانت الببليوجرافيا الخاصة بأعمال جويتين تقع فى كتاب من سبع وسبعين صفحة مع ملحق يقع فى اثنين وعشرين صفحة وتشتمل على ٦٦٦ مدخلاً بالعبرية والألمانية والإنجليزية والفرنسية. نشرت كتاباته فى أوروبا وأمريكا وإسرائيل وتونس والهند وباكستان، وقد تضمنوا أجزاء من مجلات شعبية ومسرحية باللغة العبرية، بالإضافة بالطبع إلى كتب ومقالات لا حصر لها. فى سن الثلاثين بدأ جويتين بمفرده نوعًا من المشاريع التى عادة ما تقوم الأقسام العلمية للجامعات بتعيين لجان كاملة للقيام بها: فعلى سبيل المثال تقع نسخة «أنساب الأشراف» فى ٢٥٠٠٠صفحة وقد قام بعمله مؤرخ عربى اسمه البلادوهرى عاش فى القرن التاسع. بدأ اهتمام جويتين بالجنيزة فى عام ١٩٤٨ عندما قام بزيارة بودابست واستمر هذا الاهتمام حتى نهاية عمره. حظيت دراسته الهائلة، القائمة على دراسات عن الجنيزة، والمسماة «جمعية البحر الأبيض المتوسط» بشهرة بوصفها علامة فارقة فى

أبحاث القرون الوسطى بمجرد ظهور أول المجلدات من مجموع خمسة مجلدات فى عام ١٩٦٧ وقد أكدت مكانته كأهم دارسى الجنيزة، وهو الباحث الذى قام بعمل رائد، والذى بدون عمله الدءوب لم تكن الفرصة لتكون متاحة لتمحيص الأخبار عن حياة بن بيچو وعبده التابع له المذكورين فى المخطوطة H6.

عندما تفحصت مليًا الأجزاء المتعلقة بالقصة التى ذكرها جويتين اكتشفت أن النظرة الشمولية للتاريخ تحتل جل اهتمامه، بحيث إن الإشارات إلى الأفراد مثل بن بيچو كانت متناثرة بطريقة عشوائية خلال كتاباته كأنها قصاصات أوراق تذروها الرياح. أدت تلك الإشارات لعمل باحثين آخرين مثل اى. شتراوس الذى كان أول من قام بتحرير وتحقيق الخطاب فى المخطوطة HS. كانت هناك بعض الإشارات غير المؤكدة عن الملامح العامة لحياة بن بيچو التى ذكرت بطريقة عابرة، بينما كانت تشير إلى اتجاهين آخرين أبعد من ذلك فمن جهة كانت تشير إلى وثائق محددة فى الجنيزة، ومن جهة أخرى كانت هذه الإشارات تلمّح إلى عمل لم ينته منه جويتين بعد، وهو مشروع أطلق عليه جويتين اسم «كتاب الهند».

أول إشارة إلى هذا العمل كانت فى خمسينيات القرن العشرين بعد أن بدأ جويتين فى العمل فى وثائق الجنيزة بفترة قصيرة. قادته أبحاثه لمجموعة كبيرة من الرسائل والمخطوطات الأخرى التى أشارت إلى التجارة بين المحيط الهندى والبحر الأبيض المتوسط وسرعان ما فكر فى خطة لنشرهما فى صورة مجموعة تحمل اسم

«كتاب الهند»، ولكنه كلما أنجز قدراً من العمل وجد كميات متزايدة من المعلومات والمادة التى يقوم ببحثها، وبهذا تم تأجيل المشروع باستمرار، بينما اتخذت نواحى أخرى من بحثه على الأفضلية. إلا أنه لم يتخل عن مشروع «كتاب الهند» أبداً: فقد أعلن أن الكتاب سوف يتضمن حوالى ثلاثمائة وثيقة، وفى ١٩٦٤ قام بنشر أرقام الفهرس لهذه الوثائق، بما فى ذلك تلك التى أشارت إلى بن ييچو على أنه دليل لباحثين آخرين، إلا أنه على الرغم من نواياه المعلنة، فإن الكتاب ظل غير مكتمل عندما توفى فى ١٩٨٥ فى برنستون بالولايات المتحدة الأمريكية.

كان إذن الطريق يؤدى الآن مباشرة إلى جامعة برنستون حيث عمل جويتين بالتدريس لسنوات عديدة: قيل لى إن زملاءه وتلاميذه فى قسم دراسات الشرق الأدنى قد قاموا بجمع أرشيف يجمع كل أوراقه هناك. ولذلك ففى النهاية ذهبت لرؤية الأرشيف بنفسى إلا أنه كان هناك أمر مخيب للآمال.

وجدت أن الاطلاع على معظم أوراقه عن تجارة الهند كان أمراً غير مسموح به ومقصوراً على أفراد معينين، وذلك لأنه كان يتم تحضير نسخه من مذكراته وأوراقه الخاصة بمشروع «كتاب الهند» على الرغم من أنه نشره كان أمراً غير وارد فى خلال عدة سنوات، ومن خلال الأوراق التى سُمح لى بالاطلاع عليها خامرنى الانطباع أن جويتين كان بالفعل قد قام بنشر معظم معلوماته الخاصة بحياة ابن ييچو فى شكل معلومات صغيرة متناثرة، حيث إن معظم المادة كانت معروفة بالنسبة لى من قراءاتى السابقة.

بنهاية الزيارة أصبح واضحًا لدى أن السبيل الوحيد للتقدم فى هذا الموضوع الآن، هو أن أذهب إلى وثائق الجنيزة نفسها، أى إلى أوراق بن ييچو الشخصية مباشرة ولكن خلال هذا الطريق كان هناك عائق يبدو أنه لا يمكن اجتيازه ألا وهو عائق اللغة.

كانت معظم وثائق بن ييچو مكتوبة بلغة غير معتادة وهى خليط أو مزيج من لغات أو لغة مهجنة: وهى لغة تبدو كأنها لغة سرية أو لغة يكتنفها الغموض بحيث يمكن وضعها تحت مدخل كتاب «الحقائق المثيرة».

تُعرف هذه اللغة الآن باسم اليهودية العربية؛ وهى لهجة دارجة للعربية كانت مستخدمة فى القرون الوسطى إلا أنها مكتوبة بالحروف العبرية.

تطورت اللغة اليهودية العربية بعد أن قامت الجيوش المسلمة بفتح معظم بلدان الشرق الأوسط وشمال أفريقيا فى القرن السابع. كان تجنيد تلك الجيوش يتم أساسًا من شبه الجزيرة العربية، وسرعان ما أحلت لغة الفاتحين اللغات الأخرى المستخدمة فى الامبراطورية، ومن ضمن تلك اللغات الآرامية ، وهى اللغة التى كانت مستخدمة على نطاق واسع من قبل يهود تلك المناطق، ولكن بالطبع فإن اليهود ظلوا يستخدمون اللغة العبرية لأسباب دينية وبمرور الوقت عندما بدأوا الكتابة باللغة التى استخدموها حديثًا، فإنهم فعلوا ذلك بأن استعانوا بالأبجدية المستخدمة فى كتابهم المقدس.

نتج عن هذا الخليط الغريب ما يشبه السبيكة، وتميز هذا الخليط أو هذه اللغة ببريق وملمح مميز، بحيث إنه كان هناك القدر الضئيل جدًا من التشابه مع اللغة التى يستخدمها العرب المسلمون فى الكتابة. فاللغة العربية الفصحى بشكلها المتعارف عليه هى التنويعة الأدبية أو الشكل الأدبى للغة العربية وهى بطريقة أو بأخرى موحدة فى أنحاء العالم العربى من المغرب إلى العراق، وعلى الجانب الآخر فإن اللهجات العربية المتحدث بها تختلف اختلافًا بينًا من منطقة لأخرى إلى درجة أن الكلام الذى ينطق به العراقى لا يكاد المغربى يفهمه. هناك هوة عميقة تفصل ما بين مستويات اللغة العربية: فهناك اللغة الأدبية الفصحى واللهجات الدارجة المحلية: ولكل الأغراض العملية فهما تُعتبران لغتين منفصلتين، لكل منها مفرداتها ونحوها وصرفها الذى يميزها عن الأخرى.

وعلى النقيض من ذلك، فإن اليهودية العربية بالقطع مختلفة، فإنها لم تكن تشبه أى شكل من أشكال اللغة العربية: فعلى النقيض من اللهجات فإنها كانت لغة مكتوبة، وعلى خلاف العربية المكتوبة، فإنها كانت تستخدم نفس المفردات والنحو المستخدم فى اللغة المنطوقة المتحدث بها كانت على نحو ما لغة أسهل بكثير من أى من أشكال اللغة العربية: وكانت تُعد بمثابة تعبير عن اللغة الدارجة ولكن عن طريق الكتابة، ولكن بما أن اللغة العربية الدارجة كانت تختلف اختلافًا بينًا من منطقة لأخرى، فإن اليهودية ـ العربية أيضًا اتخذت أشكالاً مختلفة فى المناطق المختلفة من العالم العربى. فعلى سبيل المثال كانت اللغة المستخدمة فى وثائق الجنيزة تحمل نفس

سمات اللغة العربية المستخدمة فى شمال أفريقيا، حيث إن أعضاء كثيرين ينتمون لهذه الطائفة جاءوا من هذه المنطقة.

ولكن على الرغم من أن اليهودية ـ العربية كانت أقرب بكثير للغة المتحدث بها عن اللغة الفصحى فإنها لم تكن دارجة طوال الوقت، ذلك لأن الناس الذين كانوا يستخدمونها كثيرًا ما كانوا يحاولون أن يستخدموا تعبيرات عربية فصحى فى لغتهم المكتوبة بدرجات متفاوتة من الفشل والنجاح. فكثيرًا ما كانوا يستخدمون كلمات وهجاء (تهجئة) كانت قد تدعو العرب المسلمين ذوى الثقافة الرفيعة إلى الاندهاش، إلا أنهم اعتبروها استخدامًا أنيقًا للغة بعد ذلك بثمانية قرون فعادة ما تبدو تلك الأخطاء النحوية الغريبة أنها دليل رشاقة لغوية إنسانية محببة بينما تبدو العربية الفصحى على أنها رسمية ومتكلفة.

فى نفس الوقت كان كل من يكتب باليهودية ـ العربية يتمتع بمعرفة الكتاب المقدس اليهودى [التوراة] خير معرفة، على الرغم من أنهم لم يستطيعوا عادة أن يستخدموا العبرية كلغة تعبر عنهم، فإنهم كانوا يستطيعون الاستشهاد بها، ولذلك فإن النثر الذى قاموا بكتابته مُطعم بالأمثال العبرية، وكذلك بمقاطع طويلة من الإنجيل؛ بالإضافة إلى تعبيرات قانونية ودينية من اللغة الآرامية العتيقة.

عندما شرعت فى القراءة عن اليهودية ـ العربية فى أول الأمر، كانت تبدو هذه اللغة وكأنها لغة سرية بطريقة تدعو إلى الحيرة: فهى على أية حال أمر ليس باليسير أن يجد المرء نفسه جالسًا

لتصفح مجموعة من الوثائق يبلغ عمرها ثمانمائة عام، مكتوبة بلهجة عربية عامية دارجة مستخدمة فى القرون الوسطى، ولكنها مكتوبة بحروف عبرية، ومزينة بكثرة بكلمات من العبرية والآرامية. إن اللغة العربية حتى فى أبسط صورها تستعصى للغاية على الأجنبى، وكل معرفتى بها كان أساسًا مأخوذًا ومستمدًا من اللهجة المتحدث بها فى لطيفة وضواحيها: وهى لهجة قروية يستخدمها الفلاحون فى أماكن كثيرة، وهى بالغة الفظاظة لدرجة أن الطريقة التى أتحدث بها كثيرًا ما أثارت استهجان النادل فى مطاعم القاهرة وكثيرًا ما كانت تدعو أصحاب الحوانيت أن يطلبوا منى أن يروا نقودى قبل أن يأتوا لى بما أطلبه من مشتروات من فوق الرفوف أدت هذه التجارب التى مررت بها إلى شعورى يشبه بما يشعر به الفلاح فيما يخص اللغة التى يستخدمها: لم يكن يخطر على بالى قط أن هذه اللهجة القروية البسيطة قد تكون ذات فائدة فى مجال معرفى عال مثل قراءة مخطوطات يهودية ـ عربية من القرن الثانى عشر.

كان هناك ما هو أسوأ من ذلك، فسرعان ما اكتشفت أنه لا توجد طريقة متعارف عليها لقراءة المخطوطات إلا عن طريق فترة تتلمذ طويلة الأمد على يد أحد المتخصصين القلائل جدًا الذين قضوا جل أعمارهم فى التخصص فى هذا المجال. وكان السبيل الوحيد الآخر هو أن آخذ نسخًا من هذه الوثائق التى يتم نشرها، ومقارنتها بأوراق الفوليو الحقيقية وهى قصاصات أوراق فى حالة رثة ومهلهلة ذلك أن عمرها يبلغ ثمانمائة عام وأعمل جاهدًا فيها حتى تصير عيناى خبيرتين فى فك شفرة الكتابة.

عندما وصلت إلى هذه المرحلة كدت أيأس، ولكن عند هذا الحد فقط عندما كانت كل السبل مسدودة أو تبدو أنها أغلقت نهائيًا فى وجهى، جاء حوارى مع أحد الضالعين الثقاة ليجعلنى أتمهل وأعيد حساباتى من جديد، كان اسمه مارك كوهين وكان يومًا ما أحد تلاميذ جويتين وأحد القائمين على أرشيفه فى جامعة برنستون. لم تكن اللغة بالصعوبة التى ظننتها أول الأمر، فقد قال مارك كوهين أن الحروف العبرية سهلة التعليم، وبمجرد فك شفرة الكلام فإن العربية نفسها ستكون سهلة نسبيًا. كان فك شفرة الوثائق، أكثر من اللغة نفسها فى حد ذاتها هو الذى يمثل الجزء الصعب، فاللغة لم تكن تمثل مشكلة بعينها لشخص مثلى على دراية بالعربية الدارجة. وعلى النقيض من ذلك كان فك شفرة النصوص يمثل صعوبة بالغة، إلا أنه عُرف عنه الكثير من الدارسين أنه سرعان ما أصبحوا خبراء فى هذا الأمر. وبالطبع، فأنا لم أكن أبدًا مجهزًا ومستعدًا لإصدار نسخ معتمدة يعتد بها أو موثوق بها لنصوص الجنيزة، إلا أنه كان أمرًا محتملاً جدًا إذا ما عملت جاهدًا لفك شفرة النصوص وتعلمت كيفية فك الشفرات وكتابة الوثائق أن أتمكن من التعامل معهم بطريقة مرضية لكى أتمكن من تتبع قصص العبد المذكور فى المخطوطة H.6 وإبراهام بن ييجو.

ساعدنى تشجيع مارك كوهين فى التوصل إلى قرار: فلقد قررت أنى لن أستسلم بدون أن أحاول.

ومما أثار دهشتى أنى اكتشفت أنه كان مصيبًا من حيث إن الكتابة العبرية كانت أسهل كثيرًا فى فك شفرتها أكثر من العربية

المكتوبة بخط الرقعة، وذلك لأن فى الأولى كان كل حرف يقف على حدة، بمفرده، وسرعان ما توالت اكتشافات أخرى.

فلقد اكتشفت أن بعض التعبيرات فى لهجة أهل لطيفة كانت قريبة للغاية من تلك المستخدمة فى العربية فى شمال أفريقيا والتى كان بن بيجو يتحدث بها. ولذلك اكتشفت أن اللغة أو اللهجة التى يستخدمها أهل لطيفة ونشاوى كانت مفيدة للغاية فلقد أمدتنى بمهارة لا تقدر بثمن.

وعلى مدار السنتين التاليتين، وبينما اقتفى أثر العبد من مكتبة لأخرى، كانت هناك أوقات أجد العدسة المكبرة وقد وقعت من يدى من فرط دهشتى عندما تقابلنى بعض الكلمات والتعبيرات فأتخيل أنى أسمع صوت الشيخ موسى يتحدث بوضوح من خلال المخطوطات التى أتمعن فيها أمامى بينما كنت أمر بجوار الترعة التى تفصل بين لطيفة ونشاوى.

نشــاوی

١

فى ديسمبر ١٩٨٨ عندما كنت أقتفى أثر العبد عن كثب، رجعت مرة أخرى لزيارة لطيفة. كانت ثمانى سنوات قد مضت منذ أن غادرت مصر.

كان الجو باردًا وممطرًا يوم غادرت القاهرة فقد كان المطر يتساقط كأنه ألواح أو ستائر رقيقة من سماء ملبدة بالسحب. عندما وصلت إلى دمنهور كان الليل قد أسدل ستائره وكانت الشوارع مكدسة بكميات هائلة من الطين كنت أرغب فى الوصول هناك عصرًا، مستقلاً أحد القطارات المجرية القديمة، حيث كانت المقاعد لها مساند مريحة للأقدام والعاملون بالقطار يقدمون وجبات فاخرة موضوعة فوق الصوانى، تخيلت نفسى وأنا أشاهد المناظر المألوفة وهى تسرع من خلال نافذتى بينما أنهمك فى تناول غدائى، بنفس الطريقة التى كنت معتادًا عليها طوال تلك السنوات الماضية، عندما كانت الفراخ المقلية التى يقدمونها فى القطار لها نفس الطعم اللذيذ الذى يشعر به المسافر فى المدن المبهجة بعد أن يعانى من تقشف الريف.

إلا أنه عندما وصلت متأخرًا هذا الصباح إلى محطة رمسيس كانت كل التذاكر لهذا اليوم قد تم نفادها.

كنت أرغب أن أصل هناك مبكرًا، إلا أننى أمضيت الجزء الأول من الصباح وأنا أجرى كأنما أصابتنى الحمى بين الدكاكين، وأنا أتساءل ما إذا كان بجعبتى ما يكفى من الهدايا، متوقفًا بين الفينة والأخرى لكى أشترى قلمًا أو محفظة نقود أو إيشارب حريمى أو ولاعات للسجائر أو ساعات لليد. كان هذا تقريبًا هو نفس نمط أكثر الأيام التى أمضيتها فى القاهرة. فى كل صباح بعد استيقاظى مباشرة كنت أحدث نفسى إنى سوف أقوم بالذهاب إلى لطيفة فى نفس هذا الصباح، إلا أنه فى كل مرة كنت أتذرع بذريعة أو بأخرى لتأجيل الزيارة: فعلى سبيل المثال أنه لم يكن أحد ينتظر قدومى ولا يتوقع أحد مجيئى فأنا لم أكتب أى خطابات لهم لإبلاغ أى شخص قبل مجيئى. كانت خطاباتى إلى أهل لطيفة ونشاوى فى الماضى منتظمة وكثيرة، إلا أنها أصبحت غير منتظمة بطريقة متزايدة، ثم توقفت تمامًا. والآن مرت حوالى ثلاث سنوات منذ تلقيت آخر خطاب من مصر. لم يكن لدى أدنى فكرة عما أتوقعه، أو من يفعل ماذا، ومن مازال على قيد الحياة ومن رحل: كانت السنوات الثلاث بمثابة هوة من الظلام تفصل بينى وبين ركن مضى من ذاكرتى.

وبما أنه لم يكن هناك أى مكان فى كل القطارات فلم أجد أى خيار سوى أن أعبر إلى الجانب الآخر من محطة رمسيس لأستقل تاكسى مشترك مع ثمانية ركاب آخرين. قال الرجل الجالس بجوارى

بينما كانت السيارة تتحرك «الدنيا غرقانة فى مية المطر». كان الطقس سيئًا ويومًا غير مناسب بالمرة للذهاب إلى الريف، فلقد كانت الدنيا ممطرة طوال الأسبوع وعلى الأرجح فإن شوارع القرى قد تحولت إلى برك ومستنقعات، بل ومن المحتمل أن اللوارى الضخمة ماركة داستون لن تتمكن من اختراق الطرق: لا يمكن لأى شخص أن يخترق هذا النوع من الطين سوى الفلاحين الذين يستخدمون الحمير فى تنقلاتهم. من الأفضل أن أهيئ نفسى لقضاء الليلة فى دمنهور، فلم يبدو أنه من غير المحتمل أنى سوف أتمكن من أن أمضى أبعد من ذلك.

إلا أننا عندما وصلنا إلى دمنهور مشى معى شخص ما حتى موقف اللوارى وساعدنى فى الحصول على مقعد على آخر لورى متجه إلى نشاوى. أفسح لى السائق مكانًا فى كابينة السائق، إلا أنه لم يكن متحمسًا للقيام بمغامرة للدخول أكثر من ذلك فى الأرياف فى هذا الطقس السيئ. فبمجرد أن تحركت السيارة بادرنى بقوله «مش ممكن آخذك لغاية نشاوى. الطريق هناك عبارة عن برك طين».

سألته «إيه رأيك فى لطيفة؟ هل ممكن تروح لغاية هناك؟».

قال متململا «حانشوف. ما أعرفش».

فى خلال دقائق كنا قد تركنا البلدة وراءنا وكنا نسرع فى طريق ضيق مهجور خال من الناس. كنت أحاول أن أتخيل هذه اللحظة منذ سنوات ـ هذه اللحظات بين دمنهور ولطيفة ونشاوى. كنت

دائمًا أرى فى خيالى يومًا مشرقًا فيه شمس ساطعة، وعلى جانب الطريق تلمع الترعة تحت سماء زرقاء صافية، بينما الأطفال يلهون وهم عراة فى المياه، والنسوة يمشين نحو البلدة وهن يحملن سلالاً مليئة بالخضراوات فى اتزان يثير الدهشة. كان المشهد حيًا فى خيالى إلى درجة أن ظننت أنه كانت أصواتًا تصدر من فرط الانفعال الذى أشعر به. ولكنى الآن، وأنا أسافر على هذا الطريق بعد سنوات طويلة لم أشعر بأى انفعال بالمرة، شعرت فقط بإحساس قديم مألوف، شعور كثيرًا ما كان يصاحبنى وأنا عائد من دمنهور، ولم يكن يختلف الأمر ما إذا كنت غائبًا لمدة ساعة أو أسبوع، فقد كان يخامرنى مزيج من إحساس بالتراخى والكسل الذى يصاحب المرء لدى العودة للبيت مصحوبا بإحساس تخوف دفين.

ترك معظم المسافرين اللورى عند أول محطة وهى بلدة صغيرة بها سوق على بعد مسافة من لطيفة، كان الوقت متأخرًا الآن، بعد صلاة العشاء بفترة طويلة، وكان الشارع الرئيسى مهجورًا وكل الدكاكين والحوانيت مغلقة، ولم يكن هناك أية إضاءة فى أى مكان فيما عدا مصابيح قليلة يصدر عنها ضوء متقطع. وبمجرد أن تجاوزنا البلدة، بدأت السيارة فى التأرجح، والانزلاق والانحراف يمينًا ويسارًا فوق تلال الطين التى كوّنها المطر فوق الطريق. كان هناك ظلام دامس مخيف يخيم على القرى من حولنا، وبينما كنا نتحرك ببطء السلحفاة عبرهم، كانت تظهر أفواج من الكلاب تجرى وراءنا وهى تنهش إطارات السيارات بوحشية. كان المسافرون

يتركون السيارة فرادى أو أزواجًا طوال الطريق، وسرعان ما وجدت نفسى وحيدًا فى كابينة السيارة مع السائق.

أصبح السائق الآن عصبى المزاج ومضطربًا من جرّاء الظلام وعواء الكلاب، أشعل سيجارة بينما كان يسند عجلة القيادة بكوعه لكى يحافظ على اتزانها وبينما كان ينظر إلى من طرف عينيه سألنى «بيت مين فى لطيفة عايز تروح عنده؟».

قلت له «بيت الشيخ موسى. أنت تعرفه؟».

رد وهو يهز رأسه «لا. لا». كان يبدو نصف الطريق أمامنا وكأنه قد ذاب فى الترعة التى تجرى بمحاذاته.

قال السائق «مش ممكن نستمر أكتر من كده» كان أقصى ما يمكن رؤيته أمامنا من خلال زجاج السيارة المغطى بالمطر المنهمر اللامع هو قطعة صغيرة من الطريق ذلك أن المصابيح الأمامية للسيارات كانت تقوم بإنارة هذا الجزء الصغير من الطريق.

سألنى السائق «ازاى حتعرف تلاقى البيت فى الضلمة الكحل دى. كل الناس نايمه دلوقت. مفيش حد حيدلك على البيت».

انتابه شعور مفاجئ بالفضول فسألنى «إزاى حتعرف البيت؟ انت مش خواجة؟ ليه تروح لوحدك متأخر كده بالليل؟».

شرحت له كيف أتى بى أستاذى فى جامعة الإسكندرية، إلا أن أعصابه كانت متوترة للغاية مما أدى إلى إثارة شكوكه أكثر عندما قصصت عليه قصتى.

سألنى بحدة «هم ليه جابوك هنا؟ وليه هنا بالذات؟ وايه بالضبط كنت بتعمله هنا؟».

حاولت أن اطمأنه بقدر استطاعتى، إلا أن لغتى العربية لم تسعفنى لعدم استخدامى لها طوال هذه السنوات التى كنت غائبًا فيها عن لطيفة، ومما آثار شكوكه أكثر أن محاولاتى لأشرح له كانت تتخللها فترات تمهل وتوقف كثيرة.

قال لى هو ينظر أمامه إلى الزجاج الأمامى للسيارة «أنا معاك لغاية البيت اللى أنت عايزه علشان أتأكد أنك لقيته».

قلت له وأنا كلى أمل أنه ليس من هؤلاء الأشخاص الذين ينقلون الأخبار إلى الشرطة ويعملون مرشدين للشرطة« أهلاً وسهلاً. البركة حتحل علينا المكان مش بعيد عن هنا».

فجأة، رأيت مسجد لطيفة على اليسار وأنا أنظر من خلال النافذة بجانب السائق. قلت وأنا مشيرًا أمامى «أهو! وقف هنا ـ أنا حانزل هنا».

جذب فرامل السيارة بشدة بطريقة لا شعورية بحيث انجرفت السيارة يمينًا ويسارًا فى الطين المبتل، ثم توقفت على حافة الترعة، خرجت من السيارة بحذر شديد، وأنا أحاول الابتعاد عن حافة الترعة بينما كنت أخوض فى الطين بصعوبة بالغة. عندما نظرت لأعلى رأيت شكلاً ضئيلاً بدا كأنه شبح على البعد: كان صبيًا يرتدى جلابية ويستند على حائط تحت ما يشبه المظلة وكان يراقبنى. ولوهلة كنت متأكدًا أنه جابر وكدت أن أنادى عليه: ففى

ضوء المصابيح الأمامية المبهرة التى انعكست عليه كان يبدو أنه يحمل نفس الملامح الواضحة المستديرة بالإضافة إلى نفس لون البشرة المائل للحمرة مثله مثل كل أهل لطيفة. إلا أننى سرعان ما تبينت إننى كنت أفكر فى جابر كما عرفته منذ ثمانى سنوات إذ أن الشخص الواقف فى الظلام كان يبدو فى السابعة أو الثامنة.

نقلت رجلاى بصعوبة وأنا أمشى فى الطين، ثم قلت وأنا أرفع يدى «السلام عليكم» أصبح لسانى فجأة ثقيلاً من جراء خجل مباغت.

رد على ردًا كاملاً «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

بدأ محرك السيارة مرة أخرى ثم توقفت السيارة بينما كان موتور السيارة يصدر صوتا مثل الهدير والزمجرة.

نادى السائق بأعلى صوته «أنت يا ولد! مين الشيخ موسى؟ تعرفه؟».

مشى الصبى خطوات إلى الأمام ونظر من خلال النافذة بجانب السائق قائلاً «أيوه» بصوت خشن فظ يستخدمه صبية الكفر عندما يتحدثون إلى أهل البندر.

«فين بيته؟».

«هناك» قالها الصبى وهو يشير إلى الحارة أمامنا.

«كويس. يلا نروح» قالها السائق وهو يخرج من اللورى، ثم ضرب الأرض بقدميه لإخراج وطرد قطع الطين التى التصقت بحذائه.

قال وهو متوتر «يللا، يللا، عاوز أكلم الرجل ده - الشيخ موسى».

عندما وصلنا إلى منتصف الحارة مشى الصبى بجوارى «أنا أعرفك» قالها وهو يبتسم «كنت بتيجى لبيتنا وأنا صغير، وكنت بتمشى فى الغيط واحنا بنجمع القطن».

نظرت إليه مليًا فى محاولة لتذكر اسمه، ولكن بالطبع فإنه كان طفلاً عندما رأيته آخر مرة وكنت أنا نفسى فى هذه السن لا يستهوينى ملاحظة الأطفال. قبل أن أتمكن من سؤاله عن اسم أبيه توقف وهو يشير إلى منزل الشيخ موسى. كان الظلام الدامس يخيم على البيت، فلم أستطع أن أرى أو أتبين أى بصيص ضوء خلف الباب أو من خلال شيش النوافذ. عندما رآنى الصبى مترددًا وكزنى وهو يشير إلى الباب.

قمت بالتخلص بعناية من الطين العالق بحذائى ثم اتجهت للباب وقمت بالدق على الباب، بدا وكأن دهرًا طويلاً قد مر قبل أن أسمع صوتًا يسأل «مين هناك؟» كان صوت امرأة وبدا وكأن صدى الصوت انتشر فى أرجاء الحارة.

قلت بغباء شديد «أنا» ورجلاى لا تكادان تحملانى، وفى هذه اللحظة بالذات جاء صوت الشيخ موسى عاليًا «آميتاب، يا آميتاب، يا ضكتور، أنت فين؟» - وطوال الفترة التى استغرقتها زوجته لفتح المزلاج، ظل يردد «آميتاب، يا آميتاب كنت فين؟» عندما فُتح الباب أخيرًا صافحنا بعضنا البعض محدثين صوتًا مدويًا، بينما تعانقت أيدينا بحرارة، أولاً بيد واحدة ثم ونحن ممسكين بكلتا اليدين،

وطوال هذه الفترة ظل يردد «كنت فين طول الوقت ده؟ كنت فين؟» - ولكن الآن أغرورقت عيناه بالدموع كما امتلأت عيناى أنا أيضًا، وهكذا مرت شهور طوال وبعدها خطرت لى فكرة أنه مما يثير العجب أن الشيخ موسى قد تبين صوتى هذا المساء بينما كان كل ما قلته ردًا على سؤال زوجته عن الطارق كان «أنا».

تقدم السائق تجاه الشيخ موسى وصافحه سائلاً إياه وهو يومئ برأسه تجاهى وهو يبتسم ابتسامة تنم عن ارتباك وخجل.

ضحك الشيخ موسى وهو يقول «أيوه، أيوه كلنا هنا نعرفه».

قال السائق وهو يستدير لكى يغادر المكان: «كله تمام كده. كنت عاوز أطمئن أنه وصل بيتك بأمان».

صاح الشيخ موسى بينما كان السائق يمشى مبتعدًا «تعال، اتفضل أشرب شاى». إلا أن السائق كان قد غادر المكان بالفعل وهو يدق برجليه فى الحارة.

أدخلتنا زوجة الشيخ موسى لغرفة الضيوف بعيدًا عن المطر، وهى تنير لنا الطريق بواسطة لمبة جاز وقالت «أقعدوا هنا واتكلموا، أنا حاجيب لكم الشاى والأكل فى غمضة عين».

وضعت لمبة الجاز على عتبة النافذة ثم مسحت زجاجة اللمبة المغطاة بالهباب بكم جلبابها وهى تقول «أحنا مش بنهتم أننا ننضف لمبات الجاز. عندنا كهربا دلوقت ده نصيبك أنك تحضر والكهربا مقطوعة».

قال الشيخ موسى «كل شيء اختلف فى سنين غيابك عنا. كل الوقت ده كنت أقول لنفسى الضدكتور حيحضر تانى هنا، حيحضر تانى قريب لأن كل الناس بترجع لمصر، لازم يرجعوا. مصر هى أم الدنيا».

مسحت زوجته زجاجة اللمبة مسحة أخيرة ثم فتحت الباب بينما كانت الريح الباردة تزأر مما يجعل لهيب اللمبة يهتز « أنت عارف؟ كان كل يوم يسأل عنك ويقول فين الضدكتور الهندى؟ فين هو؟ بيعمل إيه؟ كل يوم كان يسأل عنك».

خيمت لحظات صمت طويلة. عندما تركت الغرفة جلس الشيخ موسى على الكنبة، متربعًا وهو يراقب اللهب بشبه ابتسامة متسائلاً: وفيما عدا بعض التجاعيد حول فمه، لم يكن هناك ثمة اختلاف قد طرأ عليه.

ثم رفع عينيه لأعلى وأشار إلى صورة داخل إطار معلقة على الحائط. كانت صورة مكبرة لابنه حسن وهى الصورة التى دائمًا ما كان يحتفظ بها فى حافظة نقوده قال «كبرت الصورة دى فى دمنهور فى ستوديو تصوير جنب محطة القطر».

قام بتعليقها بجوار صورته الشخصية التى أخذت عندما كان شابًا يمضى فترة التجنيد، كانا متشابهين فالأب والابن يلبسان زيهما العسكرى الشيخ موسى كان يلبس كابًا مثلثًا بينما كان حسن يلبس أوفرولاً عسكريًا.

قال «كنت مسافر مصر لما مات، لما رجعت كان العزا انتهى».

نظر إلى الأرض وهو يفرك سبحته بطريقة بطيئة متأنية وهى طريقة أصبحت مرتبطة ارتباطًا وثيقًا به فى ذاكرتى.

قال «كل الضباط والعساكر فى وحدته حضروا العزاء كلهم حضروا وأقام الليلة قارئ قرآن من دمنهور ولكن قبل حضورك كان كل شىء انتهى».

ثم وبطريقة غير مبررة، لمعت عيناه ونهض واقفًا ثم فتح الباب قائلاً «استنى لحظة» ثم اندفع خارجًا من الغرفة، ورجع بعد عدة دقائق حاملاً بين يديه صندوقًا مزينًا. قام بوضعه على الأريكة بطريقة توحى أن بداخله شيئًا مقدسًا، ثم استدار ناحيتى متسائلاً «تعرف إيه ده؟».

ولمدة لحظات لم أكن متأكدًا، ولكنى تذكرت فجأة، قال وهو يفتح غطاء الصندوق وينظر مليًا إلى الغطاء «ده القرآن الشريف اللى أحضرته لى من مصر».

ثم أضاف «بعد موت حسن رجعت أنت من مصر، وبعدها قلت أنك حترحل من لطيفة وتروح نشاوى».

٢

حتى بعد أن أقمت فى نشاوى منذ ثمانى سنوات كنت دائمًا ما ألجأ إلى الشيخ موسى عندما أريد أن أستفسر عن شىء ما. كان الشيخ موسى يعرف نشاوى جيدًا فى الماضى عندما كان شابًا، وكانت ذاكرته مازالت محتشدة بقصص عن سكان نشاوى: عندما

كنا نتحدث كان كثيرًا ما يفاجئ نفسه بتذكر حادثة أو تفاصيل عن أشياء حدثت منذ خمس عشرة أو عشرين سنة. عندما أفكر فيما حدث كثيرًا ما كان يخيل لى أننا نحن الاثنان قد خلقنا قرية من نسج خيالنا خلال حواراتنا تلك.

كانت معظم ذكرياته ترجع إلى حوالى عقد من الزمان، ذلك لأن بتقدمه فى السن أصبحت مسافة الميل ونصف الميل بين نشاوى ولطيفة تبدو وكأنها مسافة رهيبة، وقلما ذهب إلى هناك سواء لحضور عزاء أحد أصدقائه القدامى أو للمشاركة فى فرح أحد أقاربه. كان السبب الوحيد وراء إبقائه على صلته بنشاوى أن كثيرًا من الناس أتوا لزيارته فى منزله ولهذا فقد كان مستمتعًا بحواراتنا بنفس القدر الذى كنت أنا مستمتعًا بها: كان يحب أن يستمع للأخبار ويكون على دراية بالأحداث، وأن يبقى على صلته بالآخرين.

فى الفترة الأولى من إقامتى فى نشاوى كنت منتظمًا للغاية فى زياراتى للشيخ موسى فى لطيفة. كان كثيرًا ما يسألنى عمن قابلت وماذا أقوم بعمله، ثم بعد ذلك كان يزجى إلى بنصائحه فيما يخص الناس الواجب الابتعاد عنهم والآخرين الذين يجب على أن أسعى لرؤيتهم. كان الشيخ موسى هو أول من دلنى على إمام إبراهيم.

قال لى الشيخ موسى إنه وإمام إبراهيم من نفس العمر، ولكنك لن تصدق ذلك إذا رأيتنا معًا لأن إمام إبراهيم كان يبدو أنه أكبر كثيرًا. لم يكن يعرفه إلا القليلون، ذلك لأنه كان يعيش فى عزلة ولم يكن يخرج إلا نادرًا، ولكنه عندما كان شابًا كان اسمه معروفًا فى

جميع أرجاء المنطقة: كان الناس يقولون إن الله أنعم عليه بنعمة البركة.

كان إمام إبراهيم ينتمى لإحدى عائلتين أساسيتين فى نشاوى وهى عائلة تسمى أبو كنكة. وكانت العائلة الثانية اسمها بدوى: كانت تلك العائلتان هما أول عائلات تقيم وتستقر فى هذه المنطقة. لم يمضيا وقتًا طويلاً هناك ذلك لأن نشاوى لم تكن قرية قديمة بالمقاييس المصرية، ففى الواقع كانت الأرض حول نشاوى منذ أجيال قليلة ماضية جزءًا من الصحراء الممتدة الأطراف الواقعة فى الغرب. فى عام ١٨٢٠ تمت عملية حفر قناة المحمودية لربط القاهرة بالإسكندرية ومنذ هذا الحين فقط أصبحت الأرض قابلة للزراعة. ولكن حتى فى هذا الزمن ظلت مثل البرية أو الأرض القفر لمدة طويلة دون أن تكون مأهولة بأى سكان.

ذات يوم اتجه شابان من قرية تقع فى الداخل فى اتجاه الغرب باحثين عن أرض ومكان صالح للاستقرار به. كان أحد الشابين من أصول بدوية وكان أسلافه قد ارتحلوا بعيدًا حتى وصلوا إلى ليبيا وتونس، ولكن بمرور الوقت سأموا حياة الترحال فقرروا هجر الصحراء ذلك لأنهم آثروا حياة الاستقرار. استقروا فى الدلتا حيث عملت أجيال كثيرة من نسلهم فى زراعة الأرض فأصبحوا فلاحين ولم يكن هناك أى شىء يذكرهم بأصولهم البدوية سوى أسمهم - البدوى.

كان الشاب الآخر الذى استقر به المقام من نسل حلاقين وأناس يعملون بمداواة المرضى، كانت هذه عائلة أبو كنكة التى اشتهر

أعضاؤها فى جميع أرجاء المنطقة بتدينهم الشديد وكذلك بمهارتهم فى فنون مداواة وإبراء المرضى، كان الشاب الذى ينتمى لعائلة أبو كنكة والذى اتجه غربًا يتمتع بسمعة طيبة على الرغم من سنه الصغيرة: كان الكل يعرف عنه طيبته وصلاحه بالإضافة إلى كونه خبيرًا مداويًا ماهرًا.

بدأ الشابان رحلتهما الشاقة الطويلة من مسقط رأسهما وبعدها وصلا للمنطقة حول نشاوى. لم يكن هناك أى شىء حينذاك ـ فلم يكن هناك أى بيوت أو ترع أو حقول، ولكن الشاب من عائلة كنكة قال إنه يشعر فى دخيلة قلبه أن الأرض بها بركة، فقررا أن يستقرا هناك. وسرعان ما أصبح بعض من الأراضى فى حيازة الشاب من عائلة بدوى، وبدأ فى زراعة المحاصيل. وبمرور السنين أتت أفواج متلاحقة من أقربائه وأصهاره تاركين مسقط رأسهم وهم بدورهم اشتروا أراضى وبنوا بيوتهم فى نشاوى. وخلال وقت قصير كانت القرية بها عائلات كثيرة تنتمى لعائلة بدوى حتى أصبح معروفًا عنهم أنهم «أصل البلد». بعد ذلك توافدت على القرية عائلات مختلفة استقرت بها،. ولكن حتى قيام ثورة ١٩٢٥ كانت عائلة بدوى تمتلك معظم الأراضى، وكان دائمًا ما يكون شخص من عائلة بدوى هو عمدة القرية.

وعلى النقيض من ذلك الشاب من عائلة أبو كنكة، فلم يشتر أى أراض على الإطلاق: كان يكسب قوت يومه بمداواة المرضى وقص شعر الرجال مثلما فعلت عائلته من قبله. كان رجلاً متواضعًا يمتلك

منزلاً بسيطًا للغاية ولديه عائلة صغيرة. ولكن فى نفس الوقت كانت سمعته الطيبة التى تنم عن تدين حقيقى فى تزايد مستمر، وعندما تم بناء مسجد فى نشاوى أصبح هو إمامًا له يقيم الشعائر ويرعى أحوال المسجد. كان الجميع يكنون له احترامًا عظيمًا حتى أصبح من الطبيعى أن يرث ابنه هذا الوظيفة بعده ثم تولى أحضاده نفس الوظيفة منذ هذا الحين. عندما توفى حزن عليه الجميع حتى إن أهل القرية قاموا ببناء قبر خاص به بجوار الترعة مباشرة. وبعد ذلك تم الاعتراف به بصفته الولى الذى يسبغ كراماته على القرية.

قال لى الشيخ موسى إنه عندما كان شابًا يافعًا كان الكثيرون يعتقدون أن الإمام إبراهيم أبو كنكة قد ورث الكثير من صفات جده الشهير. فقد أبدى مهارة فائقة لمداواة المرضى فعلى سبيل المثال، كان يوجد رف فى منزله يصطف بكتب كثيرة عن الطب، وكان الكل يعلم أنه كان علامة فى فنون المداواة التقليدية. سرعان ما اكتسب شهرة واسعة بوصفه مداويًا يستطيع تحقيق معجزات بواسطة الأعشاب والنباتات الطبية، وكان يتوافد عليه المرضى من كل أنحاء القرى المجاورة. عُرف عنه أيضًا معرفته بالكتب المقدسة لدرجة أنه فى إحدى المرات كان مطلوب القبض عليه بسبب آرائه الدينية وأمور متعلقة بالشريعة والقوانين الدينية.

قال لى الشيخ موسى «لازم تقابله. قرا كتير وبيفهم كتير فى التاريخ والدين وحاجات كتيرة تانية، وممكن تتعلم كتير منه».

إلا أننى عندما سألته عن كيفية مقابلتى الإمام إبراهيم، كانت إجابة الشيخ موسى تنهيدة وزفرة وهزة رأس تنم عن شك عميق وعن عدم إمكانية ذلك وضح لى قائلاً أنه لم ير الإمام منذ سنوات طوال، وسمع أخبارًا تناقلها الناس أنه اعتزل الناس وانغلق على نفسه الآن ونادرًا ما كان يذهب لأى مكان أو يشاهده أحد. أشاع الناس أنه كان يواجه صعابًا كثيرة لأنه تزوج للمرة الثانية زواجًا غير موفق وهو فى منتصف العمر، وظل معذبًا من جراء المشاكل الزوجية منذ هذا الحين. والآن تولى ابنه الكثير من المهام التى كان الأب يقوم بها فى السابق، ولذلك فإنه فى معظم الوقت كان ينزوى بعيدًا عن الناس وكأنه يعيش فى عزلة.

إلا أن الشيخ موسى شجعنى بقوله «ولكن لازم تحاول تقابله. اسأل الناس التانية فى نشاوى حيقولوا لك عنه...».

٣

كان الشيخ موسى دائمًا ما يسألنى فى مناسبات عدة بعد ذلك إذا ما كنت قد تحدثت مع أى شخص عن الشيخ إمام. ولكن كما اتضح بعد ذلك إننى عندما كان ما لدى أن أقوله للشيخ موسى فإنه كان يثير دهشتى البالغة لأنه لم يكن مستعدًا لتقبل نظرة الشباب المختلفة كلية عنه فيما يخص الأمور الحياتية، حتى لو كان ذلك فى مكان قريب من قريته مثل نشاوى.

كان أحد هؤلاء الناس الذين تحدثت معهم منذ مدة قصيرة يسمى الأستاذ صبرى. لم يكن الشيخ موسى نفسه قد قابله أبدًا من

قبل، ولكنه، شأنه شأن جميع الموجودين فى المنطقة كان قد سمع عنه، ذلك لأن شهرة الأستاذ صبرى كانت تنتشر انتشارًا سريعًا فى القرى المجاورة.

قال الشيخ موسى وهو يزم شفتيه «الناس بتقول إنه بيتكلم كويس ولكنى سمعت كمان أن الناس بتقول عنه إنه غلباوى - يعنى عنده حاجة يقولها فى أى موضوع».

رددت عليه «ممكن أقول عنه أنه يعرف حاجات كتير. قرا كتير وواحد من أحسن الناس من حيث المعرفة اللى قابلتهم فى حياتى».

وافقنى الشيخ موسى بقوله «عندك حق» إلا أن وجهه اكتسى بنظرة شك بينما كان ينفث دخان الشيشة.

عندما قابلت الأستاذ صبرى لأول مرة أثار دهشتى.

قام ناظر المدرسة الابتدائية فى نشاوى التى يقوم الأستاذ بالتدريس فيها بتعريفى بالأستاذ صبرى، كان ناظر المدرسة شخصًا لطيفًا ودودًا فى العقد الخامس من عمره، وكان يتولى منصبه كناظر مدرسة لأن أباه كان ناظرا لنفس المدرسة من قبله، لعب الدور الذى ورثه عن أبيه بمثابرة وضمير يقظ، إلا أن شخصيته الدمثة لم تجعله يمارس سلطاته كما ينبغى، شاهدته ذات مرة يضرب ولدًا بالمسطرة: كان من الواضح أنه يؤدى هذا العمل بدون قناعة بما يقوم به حتى أن الولد لم تصدر عنه قط أى إشارة تنم عن الألم.

من وجهة نظرى فإنى أعتقد أن الناظر كان يأمل أن يجد جهة تتعاطف معه وتخفف عنه إحباطاته والمنغصات التى يتعرض لها يوميًا أو يجد رابطة بعالم الطلبة فى الإسكندرية التى كان يقطنها هو نفسه ذات يوم. على أية حال كان دائمًا ما يترك ما يقوم به ليظهر لى شعورًا بالمودة مثل دعوته لى المتكررة لمنزله أو أن يرسل لى إفادة بمجرد أن يصل خطاب موجها لى ويصل إلى يديه.

قابلت الأستاذ صبرى فى إحدى تلك المرات عندما طلب منى الحضور لأخذ خطاب خاص بى.

كانت مازالت فسحة الظهر قائمة عندما وصلت إلى المدرسة، وكان هناك مدرسون كثيرون بداخل غرفة ناظر المدرسة للاحتماء من الإعصار المدوى الذى يحدثه التلاميذ من جراء صراخهم، والذى كان يتردد صداه فى دهاليز وطرقات المدرسة. كنت بالفعل أعرف العديد من المدرسين، ثم قام الناظر بتعريفى للآخرين، واحدًا تلو الآخر. كان معظمهم من دمنهور أو مدن أخرى مجاورة، اكتشفت بعد ذلك أنها كانت ميزة بالنسبة لهم أن يسافروا فى كابينة سائقى الشاحنات التى تمر فى هذه المنطقة ـ فقد أعطاهم الفلاحون حق الحماية واللجوء من تراب الطريق.

درنا حول الغرفة بينما كنت أصافح المدرسين، حتى وصلت إلى رجل لم يبدو عليه أنه ينتمى للآخرين، كان يلبس جلابية متسخة عليها بقع حبر، كان جسمه يشبه البرميل وكان فى أواسط الثلاثينيات وذا شفتين غليظتين داكنتى اللون وعينين واسعتين كأنهما مليئتان بالدموع.

قال الناظر وهو يقدمه لى «ده الأستاذ صبرى، هو من نشاوى، عيلته عايشة آخر البلد، عند الناحية الثانية من الترعة عند الوحدة الصحية، عندك كلام كتير تتكلم فيه معاه لأنه هو كمان بيحضر رسالة».

وضع يده فوق كتف الأستاذ صبرى وسأله «هو إيه اللى بتدرسه بالضبط؟».

ابتسم الأستاذ صبرى ناحيتى وقال شيئًا ما بسرعة عن تاريخ مصر فى العصور الوسطى، كان صوته رنانًا به نبرة محددة كأنه شخص اعتاد على مخاطبة جماهير عريضة وتجمعات كبيرة وعندما استدار ناحيتى وسألنى عما كنت أدرسته دهشت عندما وجدت أنه يتحدث بنفس اللهجة البسيطة التى يتحدث بها فلاحو نشاوى، ذلك لأن كل المدرسين الآخرين كانوا يتحدثون بلهجة أهل المدن المثقفين.

رددت موضحًا «أنثروبولوجى» فرد على على التو بسؤال آخر: «اجتماعى ولا طبيعى»؟

رددت «اجتماعى» فهز رأسه مبتسمًا: «أيوه كويس: ده يشبه تقريبًا التاريخ أو الفلسفة مش كده؟ أحسن بكتير من دراسة العظام والهياكل العظمية».

ابتهج الناظر من هذا الحوار وقال معلقًا «كنت عارف إن فيه حاجات كتيرة ممكن تتكلموا فيها. ربت على ظهرى وقال «لازم تروح وتتكلم مع الأستاذ صبرى كويس، قرا كتير جدًا، وممكن يفيدك فى أشياء كتيرة».

بعد ذلك وبعد أن تبادلنا بعض الملاحظات حول دراساتنا المختلفة، قام الأستاذ صبرى بدعوتى لزيارته فى منزله هذا المساء، حتى نتمكن من مواصلة مناقشتنا.

بدأت فى التوجه إلى منزله قبيل صلاة المغرب، ومن شدة رغبتى وشغفى إن أصل هناك نسيت أن أسأل عن عنوان منزله بالضبط، كنتيجة لذلك سرعان ما وجدت نفسى تائها، ذلك لأن نشاوى أكبر بكثير من لطيفة، ومبانيها متلاصقة للغاية فى حارات تشبه الانفاق، وتكون فى مجملها شىء أشبه بالمتاهة، بعض هذه الحارات تنتهى فجأة بحائط سد، بينما كانت هناك حارات أخرى تأخذ شكل الدائرة تنتهى من حيث بدأت، فى منتصف القرية كان يوجد ميدان مربع فسيح حيث يوجد مسجد ودار للمناسبات متلاصقين، وهما بنايتان متواضعتان، إلا أنهما كانتا نظيفتين ذات شكل مربع ومطليتين بالأبيض. كانت مئذنة المسجد الوحيدة ترتفع عاليا أعلى من أسطح المنازل المجاورة التى وضع فيها أكوام التبن، بعد أن مررت عبر الميدان للمرة الثانية تناسيت كرامتى واتجهت إلى الصف الطويل من الأطفال الذين مشوا على مقربة منى تمامًا، ثم طلبت من أطول ولد من بينهم أن يدلنى على منزل الأستاذ صبرى.

جرى أمامى وبعد أن دلفنا فى منعطفين توقف وأشار إلى باب محفور يقع على ناصية حارتين، كانت هناك حنفية عمومية أمام المنزل مباشرة مما جعل الفتيات الصغيرات اللاتى اجتمعن هناك من وراء البلاليص والزلع تنظر ناحيتى بينما كنت أدلف عند ناصية

الحارة وورائى سحابة من التراب أثارها طابور الأطفال من خلفى. ظلوا فى حالة ترقب بينما توقفت أمام المنزل، وهم يلقون بنظرات غير واثقة تجاه الباب الخشبى، وسرعان ما بدأوا فى الضحك وإصدار صفير ينم عن الاستهزاء.

«تعال وكلمنا، احنا هنا».

«أنت مكسوف ليه يا هندى؟»

«عايز تشرب مية؟»

أدرت ظهرى لهم بينما تعالت ضحكاتهن، وكنت أحاول أن أبدو متماسكًا وبدون أى تعبير على وجهى ذهبت ناحية الباب ودققت على الباب. جاءتنى الإجابة على هيئة صوت امرأة «مين هناك؟» وعبر الطريق صاحت إحدى الفتيات «ده الهندى!».

انفتح الباب وظهرت أمامى امرأة ترتدى جلابية سوداء داكنة كتلك التى ترتديها الآرامل المسّنات. تساءلت وهى تقطب جبينها فى دهشة «نعم؟».

ضحكت الفتيات وهن يقلن «خليه يدخل وإلا حيجرى بعيد».

رفعت المرأة رأسها فجأة عاليًا وعيناها تشع بالشرار، وصاحت «انت هناك! اخرسى. انت مفيش عندك حيا؟».

أصدرت الفتيات همهمات تنم عن استيائهن «اسمعوا، اسمعوا، هى فاكرة نفسها مين؟» ولكن مما سبب لى ارتياحًا أن الفتيات توقفن عن الضحك.

سألتها «الأستاذ صبرى هنا؟».

كانت تنظر إلى عن كثب الآن، وفجأة وضعت يديها على خديها الرفيعتين ذاتى العظام الرقيقة صائحة «أيوه، أيوه، أنت الضكتور الهندى؟ أنا شفتك فى سوق الخميس الأسبوع اللى فات: قل لى أنت ليه دفعت خمستاشر قرش فى حبة فاصوليا قليلة؟ كل الناس اتكلموا عن الموضوع ده».

رجعت بذاكرتى للوراء ولكن على الرغم من أنى حاولت جاهداً أن أتذكر فإننى فشلت فى تذكر كم دفعت فى الفاصوليا التى اشتريتها.

قالت لى «المفروض تقول لعم طه يروح السوق بدالك. هو مش بيساعدك فى البيت؟ هو عارف حيعمل إيه - هو يعرف كل حاجة عن البيع والشرا».

رددت عليها «طيب، طيب، ولكنى أنا هنا علشان الأستاذ صبرى قال لى...».

قالت «أهلاً، أهلاً، اتفضل ادخل، يا مرحب، ولكن الأستاذ صبرى راح فين؟».

لم يكن هناك أى رد، ثم التفتت مرة أخرى لكى تنظر إلى ببطء شديد حتى خيل لى إنى أسمع مفاصلها وهى تصدر صريراً، وقالت «المفروض أنه يرجع دلوقت».

ثم على حين فجأة ركزت نظرات عينيها بشدة على ثم مدت أصابعها النحيفة التى يكاد العظم يبدو من خلالها ثم ربتت على

كتفى، ثم قالت لى «قل لى. هو اللى بيقولوا عنك صحيح؟ إنكم فى بلدكم بتحرقوا الميتين؟».

وضحت لها قائلاً «بعض الناس بيعملوا كده. بيختلف من ناس للتانية».

صاحت باستنكار «ليه يعملوا كده؟ مش عارفين أن كده غلط؟ مش ممكن تخشوا النار يوم القيامة عشان بتحرقوا الموتى».

قلت لها «أرجوكِ. تعرفى ميعاد رجوع الأستاذ صبرى؟».

قالت «قريب. قريب. ولكن قل لى: هل صحيح بتعبدوا البقر؟ كانوا بيقولوا كده فى السوق. كانوا بيقولوا الكلام ده من كام يوم لما ركعت قدام بقرة فى الغيطان قدام كل الخلق».

وضحت لها وأنا أتراجع خطوة إلى الخلف «اللى حصل إنى وقعت. أنا حأحضر فى وقت تانى. من فضلك قولى للأستاذ صبرى كده».

صاحت من ورائى بينما كنت أسرع الخطى مبتعداً «لازم تبطلوا تعملوا كده. لازم تمدنوا شعوبكم وناسكم لازم تقول لهم يبطلوا يعبدوا البقر ويحرقوا الموتى».

٤

كان صاحب البيت الذى انتقلت للإقامة به فى نشاوى اسمه طه. كان شخصية معروفة فى كل القرية وكان الجميع ينادونه «عم طه» لم أسمع أحدا يناديه دون أن تسبق «عم» اسم طه، كان فى حوالى

أواخر الخمسينيات من عمره، نحيف إلى درجة مفرطة وأن فمه مفتوح لأن فكه الأسفل لم يكن منسجمًا مع الفك الأعلى، وكان يعانى من الحول فإحدى عينيه لا تتحرك وكانت تنظر فى اتجاه معاكس للأخرى، وبنظرة ثابتة لا يطرف لها رمش.

بعد انتقالى بفترة وجيزة للسكن عنده توصلت أنا وهو إلى اتفاق بموجبه سوف يحضر لى وجبة واحدة يوميًا، كان كذلك يقوم بمهام مختلفة كثيرة، وكان إحضار الطعام لى إحدى تلك المهام فى قائمة طويلة. كان عادة ما يحضر إلى غرفتى حوالى منتصف النهار ومعه الوجبة اليومية، وذات يوم بعد فشل زيارتى للأستاذ صبرى فى منزله، رويت له عن زيارتى التى منيت بالفشل.

لم يندهش عم طه البتة. قال موضحًا لى «طبعًا الأستاذ صبرى مش هناك. الأستاذ صبرى راجل مشغول، ولو عايز تلاقيه فى بيته، لازم تروح فى الميعاد المناسب، أنت أى وقت رحت هناك؟».

قلت له «قبل صلاة المغرب بفترة قليلة».

قال وهو يهز رأسه فى أسى «الميعاد ده مش مظبوط. فى الميعاد ده هو عادة بيروح يزور أصحابه علشان يتفرجوا على التليفزيون، أو يروح يزور ناس فى القرية اللى بعده».

ذهلت من كم المعلومات إلا أننى لم أحتج أن أسأل كيف تأتى له معرفة كل ذلك؛ فقد كنت أعرف بالفعل أن عم طه كان على دراية بكل صغيرة وكبيرة تحدث فى نشاوى. وكقاعدة كان عم طه يجمع معلوماته فى الأمسيات عندما كان يطوف بالبيوت، من بيت لآخر

لكى يرى ما إذا كان لدى أحد بيض أو لبن أو أى شىء آخر يريد أن يبيعه. كانت من إحدى وظائفه الكثيرة هى وظيفة البائع، وكان يقوم بطريقة منتظمة بشراء المنتجات المحلية فى نشاوى ثم بيعها فى مكان آخر. كانت السلع المعتادة لديه هى البيض واللبن والجبن، إلا أنه لم يكن يدقق فى هذه الأمور: فكان يرحب بأخذ حزمة جزر أو قرنبيط لم تطبخ فى اليوم السابق أو فرخة «مزغطة» أو أرنب.

كان من عادته أن يجمع مقتنياته معًا ثم يحمّلها على عربة تجرها الحمير ثم يسوقها عبر الطريق المترب غير الممهد حتى يصل إلى دمنهور، أو يأخذها لإحدى الأسواق الأسبوعية التى تقام فى القرى المجاورة. كانت أرباحه متواضعة للغاية وكانت تعتمد أساسًا على نوعية المعلومات مثلاً ما إذا كان يعرف أولاً إذا كانت بقرة تخص شخصًا ما بقرة تدر لبنًا أم لا، ومن كان يحتاج إلى المال بصورة ملحة لزواج ابنته، وكان يتلقى ثمنًا بخسًا لقاء بيعه فرخة. أى بمعنى آخر أن أرباح عم إمام بوصفه بائعًا كان معتمدًا على نجاحه وتوفيقه فى التنقيب عن أدق الأسرار المنزلية: مثل اكتشاف بالضبط ماذا يدور عن مجريات الأمور خلف الجدران المغلقة وكذلك عن الدجالين الذين يقومون بفرض حمايتهم على كل بيت لمنع غيرة الجيران وعين الحسود، وكما تبين فقد كان عم طه موفقًا للغاية فى مهنته ذلك لأن النساء كن هن الوحيدات اللواتى يقمن بحفظ هذه الأسرار، وكانت الكثيرات منهن يتكلمن معه بطريقة مختلفة تمامًا عن تلك التى يتكلمن بها مع رجال آخرين - ويرجع ذلك غالبًا،فى اعتقادى، أنه كان يعمل بأى شىء للتدليل على أنه

رجل «غلبان» غير مؤذ ولم يكن عنده أولاد على الرغم من مرور سنوات طويلة من الزواج وكانت صحته معتلة مما منعه من أى مجهود يؤدى إلى التناسل.

كان الناس كثيرًا ما يرددون «عم طه بيشوف كل حاجة اتنين علشان عين منهم بتشوف الحاجات على الشمال والتانية بتشوف الحاجات على اليمين، «لم يقل عم طه أى شىء أو يفعل أى شىء للاعتراض على ذلك، ولم يحاول أن يثنى هؤلاء الذين ادعوا أنهم اكتشفوا مهاراته السحرية.

ذات مرة تصادف أن كان عم إمام بغرفتى عندما طار هدهد من خلال النافذة المفتوحة ويبدو أن مشهد الطائر أحدث فى نفسه تحولاً مفاجئًا حيث بدأ فى الجرى فى أرجاء الغرفة، وهو يغلق الأبواب والنوافذ.

صحت فيه «كفاية، كفاية!» بينما كان الطائر المذعور يرفرف بجناحيه ويخبط على الحوائط، تاركًا أثرًا من مخلفاته على مكتبى «كفاية! بتعمل إيه يا عم طه؟».

ولكن عم طه لم يعرنى أى التفات، فقد كان هو نفسه فى حالة طيران وهو يقفز برشاقة من السرير إلى مكتبى ثم يعود مرة أخرى، بينما كانت يداه مثل المخالب، وأكمام جلابيته ترفرف بشدة، بدا لى كأنه مثل طائر ينقض على فريسته، أطاح به أرضا بحركة من جلابيته، وبعد أن قام بكسر عنقه بمهارة بيديه، ووضع الطائر فى جيب الجلابية بطريقة طبيعية للغاية كأنه يضع قطعة نقود صغيرة به.

دهشت مما حدث لأنى كنت كثيرًا ما سمعت الناس يقولون إن الهدهد «صديق الفلاح» ولا يجب أن يمسه أى شخص بأى سوء لأنهم يساعدونه فى إنتاج المحاصيل والتخلص من الدود الضار. لابد وأن عم طه شعر أنى مندهش لأنه سرعان ما قام بإعطاء تفسير لذلك بأن قال إنه ليس بالأمر المهم، وأنه فقط كان محتاجًا لبعض من دماء هدهد بالذات ذلك اليوم.

قلت فى دهشة «دم هدهد؟» وكان من الواضح أنه لم يكن يريد أن نتحدث عن هذا الموضوع، ولكنى قررت أن ألح عليه وأواصل سؤالى «حتعمل به إيه؟».

قال باقتضاب «محتاج له عشان أعمل عمل علشان الستات اللى عايزين يخلفوا» وبطريقة ما برزت إحدى أجنحة الهدهد وكان طرف الجناح معلقًا فى الهواء الآن مثل طرف المنديل، ثم قام بدفعه داخل الجيب بعناية، ثم وبعد مرور لحظات صمت نظر إلى الأرض مثل تلميذة خجولة، ثم صرح لى بقوله إنه لا يمانع أن يقول لى إنه ساحر، وأنه كثيرًا ما يتلقى أموالاً لكى «يفك العمل».

مضت فترة ليست بالقصيرة قبل أن أحمل نفسى على الكلام، فمن جهة كنت متخوفًا من أن أضحك على ما قاله ومن جهة أخرى كنت أدرى تمامًا أنه لا يحق لى أن أعلق على مجال مهاراته المتعددة: فقد اكتشفت منذ فترة أنه كان حساسًا للغاية فيما يخص ما قيل عن الأعمال الصغيرة المتنوعة التى يقوم بها ليكسب بها قوت يومه لدرجة أنه أصابه المرض من جراء ذلك بعد أن عقدنا اتفاقنا بعدة أيام.

تقابلنا لأول مرة عندما كنت أتفاوض لكى أستأجر غرفة بملحقاتها فى منزل مهجور، وكان ذلك بعد وصولى إلى نشاوى مباشرة. كانت الغرفة تمثل جزءًا من منزل قام العمدة السابق ببنائه قبل قيام ثورة ١٩٥٢ بعقد أو عقدين من الزمان. كان العمدة آنذاك أكبر مالك للأرض فى القرية وكان المنزل يعتبر قصرًا بالمقاييس المحلية، فهو فيلا تشبه تلك التى يراها المرء فى الضواحى المطلة على البحر فى الإسكندرية، وبها مياه جارية ودورات مياه. إلا أنه مات بعد أن تم بناء المنزل فأغلق المنزل وهُجر: كان أولاده ناجحون فى أعمالهم فى الإسكندرية والقاهرة، ولم يكونوا مهتمين البتة بأمر قريتهم وموطنهم الأصلى. لم يكن هناك إلا واحدة تهتم بزيارة نشاوى بعد ذلك، كانت سيدة فى منتصف العمر تدخن السيجارة وكانت تأتى بصفة منتظمة وهى تقود سيارتها من الإسكندرية لكى تحصّل إيجار الفدادين القليلة المتبقية فى حيازة العائلة بعد قيام الثورة. كانت تلك السيدة هى التى وافقت على استئجارى الغرف التى بناها والدها لكى يستضيف فيها ضيوفه ـ كانت الغرفة على الجانب الخارجى للبيت ـ وكانت مكونة من غرفة نوم كبيرة مع دورة مياه ملحقة بها ومطبخ صغير، كانت الألواح الخشبية فى الغرفة قد أصابها التلف فخرجت من مكانها والتوت، أما دهان الحوائط فقد وقع، ومع ذلك فإن الغرفة كانت مريحة وكان هناك جو مبهم يحيط بها، على الرغم من الظلال الكئيبة التى يلقى بها المنزل المهجور والأصوات الغريبة التى تصدر ليلاً، وعندما تزمجر الريح من خلال نوافذها المفتوحة وأبوابها.

كانت هذه هى نفس السيدة التى دلتنى على عم طه: فقد كانت إحدى وظائفه العديدة هى «بتاع كله» اقترحت أن أقوم بدفع جزء من أجره، واتفق معه أن يحضر لى أكلاً تطبخه زوجته، ذلك لأن المطبخ الملحق بغرفة الضيوف كان صغيرًا للغاية للاستخدام اليومى. تم الاتفاق سريعًا على تلك الأمور، طوال الأيام القليلة الأولى بعد انتقالى للمنزل كان يأتى إلى عند الظهر، كما اتفقنا، حاملاً أصنافًا قليلة من الطعام إلا أنه عصر أحد الأيام أرسل من يقول لى إنه متوعك وعندما لم يحضر اليوم التالى قررت أن أذهب لتقصى ماذا حدث.

كان منزله يقع فى أكثر المناطق ازدحامًا فى القرية على مقربة من الميدان. كانت البيوت متلاصقة تمامًا حتى أن الأكوام المتراكمة على الأسطح بدت كأنها متصلة فوق الحارات الضيقة الملتوية. كان منزلاً صغيرًا للغاية مكون من غرفتين ذات حوائط طينية، أما الباب فكان منخفضًا ويشبه النفق. عندما دققت الباب، نادى على عم طه لكى أدخل، إلا أنه لم يكن هنا إلا قدر يسير جدًا من الضوء حتى إنى استغرقت وقتًا طويلاً لأتبين مكانه.

كان مستلقيًا على مشاية وكان وجهه النحيف متصلبًا من شدة الانزعاج والألم، وبدأ فى الشكوى بمجرد أن دخلت الغرفة: قال إنه مريض جدًا لدرجة أنه لا يمكنه الذهاب إلى أى مكان، لم يكن يعرف ماذا سوف يحدث لكل ذلك البيض، قال أيضًا إنه اضطر أن يرسل زوجته للسوق لأنه لم يستطع الخروج لمدة يومين.

سألته «ولكن إيه اللى حصل يا عم طه؟ أنت تعرف مالك؟».

لمعت عينه السليمة بغضب تجاهى لمدة لحظة، ثم قال لى «تفتكر إيه حصل؟ طبعًا هى عين الحسود ـ فيه حد حسدنى، ولا فيه حاجة تانية؟».

نظرت ببطء فى أرجاء الغرفة إلى المشايات المرقعة وأدوات الطبخ السوداء الملقاة فى أركان الغرفة.

سألته «حسدوك على أيه؟».

قال بضيق «أنت مش فاهم؟ كل الناس بتحسدنى الأيام دى. جيرانى بيشوفونى رايح السوق يوم بعد يوم، فيقولوا لنفسهم ـ الراجل طه ده بيتاجر فى البيض وكمان بيبع لبن فى بعض الأحيان، وكمان خضار؛ أيوه وكمان عنده عربية بحمار، الراجل طه ده عنده كمان شغل كتير تانى، طول النهار مشغول، قاعد يجرى من مكان لمكان ويأخذ فلوس. حيعمل إيه بالفلوس دى كلها؟ ده حتى معندوش عيل ولا تيل، هو مش محتاج للفلوس».

اعتدل فى جلسته وصوب عينه غير المتحركة على قائلاً «الغيرة حرقت قلبهم. كلهم عندهم فلوس ولكنهم مش مستحملين يشوفونى باشتغل بهمة وأحسّن من معيشتى. طول الأيام اللى فاتت كانوا بيشوفونى وأنا بأدخل بيتك، وأنا شايل لك أكلك، وده الى خلاهم يتجننوا مش قادرين يستحملوا».

بدأ يخامرنى شعور بعدم الارتياح بهذا الجزء الخاص بى فى الرواية: فلم أكن متأكداً إذا ما كنت ضمن هؤلاء المتهمين، فسألته «ولكن يا عم طه، مفيش حاجة ممكن تعملها؟».

هز رأسه بطريقة تنم عن نفاد صبره قائلاً نعم، طبعًا، فهو قد ذهب بالفعل إلى الوحدة الصحية هذا الصباح وأعطوه حقنة وبعض البرشام، والآن هناك امرأة تعيش على بعد بضعة بيوت سوف تأتى لفك العمل - وقال لى إنه يمكننى أن أبقى لأشاهد ذلك إذا ما رغبت فى ذلك.

حضرت المرأة بعد ذلك بفترة قصيرة، كانت سيدة مكتنزة ثرثارة وكان يبدو أن لديها استعدادًا للثرثرة عن خبث جيرانها أكثر من تأدية عملها، ولكن عم طه كان مزاجه متعكرًا فلذلك قاطعها وناولها قطعة من الورق، قائلاً لها أن تسرع إذا ما كانت تريد أن تحصل على أجرها. ألقت على بابتسامة مشرقة ثم أغلقت عينيها وبدأت فى تدليك ظهره بقطعة الورق وتهمهم بصوت خفيض. وعندما كان صوتها يرتفع أظن أنى سمعت بعض الآيات من سورة الفاتحة، إلا أن فى معظم الوقت كانت شفتاها تتحركان دون أن يصدر عنهما أى صوت ودون أى توقف.

بعد بضع دقائق من هذا، فتحت عينيها وقالت بنبرة أسى «يا عم طه، أنت لم تتثاءب مرة واحدة. أنت بخير، مفيش حد حسدك».

أثارت كلماتها سيلاً من التذمر من عم طه الذى وبخها قائلاً «أنت بتقولى إنى لم أتثاءب؟ عرفتى ازاى وأنت عينيك مغمضة؟».

إلا أنها أصرت على رأيها قائلة «أنا عارفة إنك لم تتثاءب وإذا لم تتثاءب وأنا بأعزّم عليك، معنى كده إنه مفيش حد حسدك».

يرد عليها عم طه قائلاً: «بأه هو كده. طيب شوفى دى» قالها وهو يفتح فمه ويميل إلى الأمام، وعندما كانت أنفه على بعد ياردة واحدة صدر عنه تثاؤب كبير للغاية.

رجعت للخلف وهى مذهولة وبدأت فى التذمر «أنا مش عارفه يا عم طه، إذا كان حد حسدك كنت أنا كمان لازم أتثاءب. وأنا لم أتثاءب أبدًا ـ إنت شايفنى باتثاءب؟».

قال لها «الأمر وما فيه أنك مش بتشتغلى مظبوط. يللا حاولى مرة ثانية».

أغلقت عينيها وبدأت فى تحريك قطعة الورق على ظهره مرة أخرى، وفى هذه المرة وخلال دقائق قليلة كان الاثنان يتثاءبان بشدة. سرعان ما انتهى ذلك، ثم سندت ظهرها على الحائط، وهى مزهوه بنفسها وإنجازها، بينما كان عم طه يعطى نفسا لوابور الجاز لكى يجهز لنا كوب شاى.

سألته «أنت تعرف مين اللى حسدك؟».

تبادلا نظرات ذات معنى، ولكن لم يخبرنى أحدهما مين هو. قال عم طه بنبرة التقى الورع «ربنا هو الحافظ. مش مهم مين هو – الحسد انفك وأنا دلوقت كويس».

وفى صباح اليوم التالى، وبالتأكيد، عاد إلى العمل مرة أخرى لجمع البيض وهو يدفع عربته إلى دمنهور.

والآن وقد علمت الكثير عن مهارات عم طه، كنت على ثقة أنه سوف يستطيع أن يصرح لى عن موعد تواجد الأستاذ صبرى فى منزله.

وبالفعل لم أصب بخيبة أمل.

قال لى «روح انهاردة فى المسا، بعد صلاة المغرب بساعة تقريبًا، وأنا متأكد أنك حتلاقيه فى بيته».

٥

وبالتأكيد، فقد كان الأستاذ صبرى فى منزله عندما ذهبت إليه هذا المساء، كان يجلس فى غرفة الضيوف محاطًا بحوالى ستة زائرين. كان يتحدث بصوته الواضح القوى، وهو يمسك بشيشة فى يده بينما كان الآخرون يجلسون فى جميع أرجاء الغرفة على شكل دائرة. كان اثنان منهم يلبسون بنطلونات وقمصانًا، وكان يبدو عليهما أنهما طالبان جامعيان، بينما كان الآخرون فلاحين يقومون بزيارة الأستاذ صبرى لكى يتسامروا فى نهاية اليوم.

صاح الأستاذ صبرى بصوت عال عندما رآنى واقفًا عند الباب، وسألنى لماذا لم أحضر قبل ذلك، فقد كان يتوقع زيارتى قبل ذلك بأيام عديدة. وبما أن أمه لم تذكر له زيارتى السابقة، فقد ذكرت ذلك أنا بنفسى، ولكنى كنت قد فقدت اهتمام الأستاذ صبرى، ذلك لأنه كان قد بدأ بالفعل فى عمل ديباجة لتوضيح الأمور لزائريه.

قال لهم إنى طالب علم من الهند، ضيف أتى إلى مصر لكى يقوم بإجراء أبحاث، وكان واجبًا عليهم أن يقفوا بالترحيب بى فيما بينهم، ويشعروننى أنى بين أهلى بسبب أواصر الصداقة الأزلية التاريخية بين مصر والهند. قال أيضًا إن بلدينا كانتا متشابهتين فالهند مثلها مثل مصر، دولة زراعية وأغلبية سكانها يقطنون

القرى، مثلهم مثل الفلاحين المصريين، وأنهم يحرثون أرضهم باستخدام الماشية. قال أيضًا أن بلدينا فقيران، لأن الإمبريالية والاستعمار استغلهما، والآن يحاول كل منهما، بطرق متشابهة أن يتغلب على الفقر وكل المشاكل الأخرى التى ورثاها من جراء تاريخهما المضطرب. كانت المهمة عسيرة وكانت بلدانا دائمًا ما تدعم وتساند بعضهما البعض فى الماضى، فقد حضر المهاتما غاندى إلى مصر ليستشر سعد زغلول باشا، زعيم الحركة الوطنية المصرية، وبعد ذلك قام نهرو وناصر بعمل تحالف وثيق بينهما. لا يمكن لأى مصرى أن ينسى المساندة والدعم التى حصلت عليهما مصر من الهند خلال أزمة السويس عام ١٩٥٦، عندما تعرضت مصر لعدوان من بريطانيا وفرنسا ولم تكن مصر هى البادئة بالعدوان.

كان أحد الرجال الجالسين قبالتى فى الغرفة يتململ فى جلسته بنفاد صبر بينما كان الأستاذ صبرى يتحدث، كان رجلاً صغير الحجم، كأنه شجرة ذابلة، بدا أنه قد شاخ قبل الأوان، وكان ينظر إلى بعيد بعينيه المحاطتين بالتجاعيد، وكما عرفت بعد ذلك فقد كان اسمه زغلول، وكان قد علم نفسه بنفسه كيفية الغزل، وكان يقوم بغزل الخيوط الصوفية الخاصة به، مستخدمًا فى ذلك منسجًا أو نولاً بدائيًا.

والآن جاء دور زغلول ليسأل سؤالاً، وبمجرد أن وجد فرصة لذلك سأل بسرعة ودون أن يلتقط أنفاسه «وانتم فى بلدكم عندكم عفاريت زينا؟».

صاح الأستاذ صبرى مستنكرًا «الله! كنت ممكن تسأله عن حاجات كتيرة مهمة زى السياسة أو الدين، وبدال كده تسأله عن العفاريت! حيفكر فيك ازاى دلوقت؟».

إلا أن زغلول قال بعناد «أنا ما أعرفش عن الحاجات دى. اللى عايز أعرفه إذا كان عندهم فى بلدهم عفاريت زينا ولا لأ».

انفجر الأستاذ صبرى قائلاً «عفاريت إيه؟» العفاريت اللى بتتكلم عنها طالعة من خيالك. مفيش حاجة اسمها عفاريت. فاهم؟ إيه فايدة سؤاله عن العفاريت حيقولك إيه؟ كل الناس بتتخيل الحاجات دى فى كل مكان، فى الهند زى هنا، فيه ناس بتتخيل أنهم بيشوفوا عفاريت، وفى إنجلترا وأوروبا كمان فيه ناس بيشاوروا على بيوت معينة، ويقولوا «البيت ده مسكون، وعفريت اللورد فلان الفلانى بيمشى فيه بالليل»، ولكن كل الحاجات دى مجرد خيال ـ مفيش حاجة زى دى موجودة بالفعل».

صاح النسّاج «خيال! تقصد إيه يعنى خيال؟ ازاى حاجة ممكن تكون خيالية، إذا كان فيه حد شافها بعينيه، قدامه على طول؟».

رد عليه الأستاذ صبرى كأنه طلقة مصوبة إليه «أنت عمرك شفت الحاجات دى؟».

إلا أن نظرة حالمة ظهرت فى عينى النسّاج الناظرتين إلى بعيد، ثم قال «لا، ولكن اسمع. أنا حأقول لك حاجة، مرة أبويا شاف عفريتة واحدة ست لما كان ماشى بالليل فى المقابر. والله عمره بعد كده ما مشى فى الطريق ده تانى. وفيه كمان، من كام يوم مرات

جارى شافت عفريت بيجرى فى الطريق ناحية الترعة، وهو ملفوف بملاية. أنا ممكن أقول لك عفريت مين، إذا كنت عايز تعرف».

سأل أحدهم «كان عفريت مين؟».

قال بنبرة انتصار «كان فتحى العصفور». وعلى التو تراجع رجلان جالسان بجواره وهما فى حالة هلع، ثم قاما بقراءة الفاتحة ودعوات أخرى لتحميهما.

قلت له «أنت تقصد الرجل اللى انقتل فى المولد فى النخلتين من شهور؟».

رد على زغلول بقوله «أيوه، والله العظيم كان هو العصفور اللى خبطته مرجيحة فى المولد ومات هناك. بيقولوا إن عفريته رجع علشان يطاردنا علشان قرايبه كانوا أضعف من إنهم ياخدوا بتاره أو أنهم يخلوا القاتل يدفع الدية اللى عليه».

عند هذا الحد بدأ الأستاذ صبرى وأحد طلبة الجامعة على التو بالجدل معه حول هذا الموضوع. قال الأستاذ صبرى إن موضوع الثأر لم يكن أمرًا واردًا، فقد ثُبت أن موت الرجل كان حادثة ـ فقد تحرت الشرطة الأمر وتم التوصل إلى الحقيقة. وأن الأخذ بالثأر كان يحدث فى الماضى، أما الآن فإن مهمة الحكومة هى التحرى والتقصى فى أمور شتى أنواع الجرائم.

قال زغلول ردًا على ذلك «الدنيا واسعة. وبالصلاة على النبى ﷺ أنا حأقول حاجة وأنت فكر فيها: كان فيه حاجة غلط فى الموضوع

كله والإجراءات الخاصة بموت العصفور، كان المفروض أن الرجالة الكبار فى السن من عيلة القاتل يروحوا للرجالة الكبار فى عيلة عصفور، ويقولوا لهم: خلينا نقعد مع بعض ونقرا القرآن. ونوصل لاتفاق إن شاء الله. وفى الوقت اللى كانوا بيحاولوا فيه الوصول لاتفاق كان المفروض أن القاتل يلاقى حماية فى مكان تانى. ولكن بدل كده، أهو ماشى حر طليق، ومش بيظهر أى احترام لحقوق الراجل الميت».

قال الأستاذ صبرى «ولكن دى كانت حادثة. والبوليس اتولى الأمر واتقصى واتوصل للحقيقة، وانتهى الأمر على كده، خلاص».

قال النسّاج الذى كان يحترم الآخرين ولكنه كان عنيداً «ربنا يعينك ويقويك، يا أستاذ. أنت بتعرف حاجات كتيرة جداً احنا ما نعرفهاش ولكن أكيد فيه حاجة غلط، وإلا ليه عفريته العصفور بتظهر لناس كتير؟».

إلا أن الأستاذ صبرى خبط على رأسه بكلتا يديه فى يأس واضح.

قال موجهًا كلامه لى «ده بيحصل كل مرة يكون فيه حادثة وموت، الناس تبتدى تتكلم عن العفاريت والجن. من كام سنة فاتت القري كلها نزل عليها الرعب لما ولد وقع من فوق سطح بيته وفات أثناء مولد نشاوى».

سأل زغلول فى تلهف وهو ينظر إلى «هو الضكتور الهندى يعرف عن المولد بتاعنا؟ لازم يعرف القصة بتاعتها».

بعد ذلك عندما تأتى لى أن أعرف زغلول أكثر من ذلك، اكتشفت أنه بالإضافة إلى شغفه بالقصص، كان يتمتع بأسلوب خاص فى سرد هذه القصص يتسم بأنه مخلص إلى أبعد درجة لمهنته التى يقوم بها حيث كانت هناك تشابهات بينهما. كنت كثيراً ما أقابله فى الحقل وهو جالس القرفصاء على فخذيه، وعيناه مصوبتان على يديه وبهما نظرة زائغة بها الكثير من الشجن، وكان عادة ما يقوم بغزل الخيوط وينتظر أن يتحدث لشخص ما. كان فى الحقيقة أفضل بكثير فى سرد القصص من غزل الخيوط، ذلك لأن الإنتاج الذى كان يقوم به على النول كان يميل قليلاً إلى شكل الزكايب ولم تكسبه أى شىء سوى قدر كبير من الانتقاد والتهكم. لم يكن زغلول نفسه لديه أية أوهام خاصة بنوعية القماش الذى ينتجه، فقد أصابته صدمة مثلاً عندما طلبت منه كوفيتين (وشاحين) لأخذهما معى على سبيل التذكار. قال لى «أنت بتضحك على. أنت عايز تستخدم القماش اللى بأعماه علشان ناسك فى الهند يشوفوا الفلاحين فى مصر متخلفين وبدائيين».

كانت زوجته مندهشة أكثر منه. وخاصة عندما عرفت أننى سوف أدفع ثمن الوشاحين قالت وهى تنفجر فى الضحك «مش ممكن تأخذه هو كمان علشان أهلك يتفرجوا عليه؟ بعد ذلك اكتشفت أن هناك شعور ضغينة مريراً بينهما، والذى كان فى بعض الأحيان ينفجر ليأخذ شكل خلافات بغيضة، كان زغلول عادة يهدد بأن يقوم بتطليقها وأن يتزوج مرة أخرى ، بينما كان انتقامها منه يأخذ شكل توبيخ وسخرية «أنت فاكر أن فيه واحدة تبص لك

وتتجوزك يا راجل يا ناشف يا عجوز؟ أنت عجوز البلد، مفيش واحدة ترضى بيك» كان من المرجح أن تلك المشاجرات هى السبب التى جعلت زغلول يمضى وقتًا طويلاً فى الحقول، وكان دائمًا سعيدًا أن يستمع المشاهدون إلى قصصه ورواياته.

قال زغلول للجالسين فى الغرفة «الضكتور ما يعرفش حكاية سيدى أبو كنكة» قالها زغلول وهو يسند ظهره على الكنبة، ثم أخذ نفسًا عميقًا من الشيشة وبدأ يسرد القصة من البداية.

قال زغلول إنها قصة قديمة، حتى وهو طفل كان هناك ناس قليلون جدًا ما زالوا يعيشون وكانوا قد شهدوا الأحداث فى هذه الآونة، وهم أيضًا لم يكونوا قد رأوا سيدى أبو كنكة بشحمه ولحمه، فقد كان قد توفى منذ زمن طويل قبل أن يولدوا. ولكن بالطبع كان الجميع يعرفونه، فقد اكتسب شهرة طبقت الآفاق فى أثناء حياته. بكى عليه الجميع عندما مات حتى أن الفلاحين أقاموا له ضريحًا خاصًا به فى جبانتهم.

بعد ذلك بسنوات طوال، بعد وفاة سيدى أبو كنكة بمدة طويلة، عندما أخضرت وأينعت الأرض حول نشاوى وأصبحت ذات كثافة سكانية عالية، قررت الحكومة أنه حان الوقت لشق ترعة لخدمة مزارعى المنطقة. بدأ العمل فى التو واللحظة وتم شق الترعة بسرعة، مرورًا بقرية لطيفة وحتى آخر الطريق، وكان الكل سعيدًا بذلك لأن المنطقة كانت تحتاج إلى نظام رى أفضل منذ زمن بعيد. ولكن عندما وصل شق الترعة إلى نشاوى اكتشف المقيمون فى

القرية أنه كانت هناك كارثة فى الأفق، ذلك لأنه إذا تم شق الترعة كما رسمها المهندسون فإنها سوف تمر بالجبانة الخاصة بهم، أصاب الجميع الذعر من فكرة إزعاج الموتى، فاجتمع كبار القرية وذهبوا لمقابلة السلطات الحكومية ليلتمسوا منهم تغيير مسار الترعة، إلا أن شكاواهم جعلت الأفندية يفقدون صبرهم، وقاموا بإغلاق أبوابهم على شيوخ القرية، قائلين إن الترعة سوف يتم شقها فى خط مستقيم بالضبط كما تم رسمها من قبل فى التصميم الهندسى.

ولذلك فقد ترقب المقيمون فى القرية بقلوب مثقلة بالحزن بينما كانت عملية شق الترعة تتم مخترقة جبانتهم. وذات صباح أصيب العمال بدهشة بالغة عندما رفض أحد القبور أن يرضخ لمعاولهم، فقد قام جميع العمال مجتمعين بالطرق عليه ولمدة أيام طوال، إلا أن القبر كان قد تحول إلى صخرة ، ولم يتمكنوا من عمل أقل خدش به. عندما فشلت كل محاولاتهم، حاول المهندسون والأفندية الكبار أن يقوموا بأى شىء - إلا أن ذلك كان بلا طائل - فقد ظلوا غير قادرين على ترك ولو مجرد خدش على القبر. وفى النهاية، وبعد أن أدركوا أن محاولاتهم كلها ذهبت أدراج الرياح وبلا طائل، تحدثوا مع شيوخ القرية، وعندما علموا أن القبر يخص سيدى أبو كنكة، وأنه هو الذى أعاقهم عن تأدية عملهم، ذهبوا إلى أحفاده والتمسوا منهم أن يفتحوا المدفن إذا استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

قال حفيد سيدى أبو كنكة «بكل ترحيب. احنا فى خدمتكم» وبمجرد أن لمس الحفيد القبر انفتح بكل سهولة. وبعد ذلك رأى كل

الناس الذين اجتمعوا هناك بعين رأسهم وبأنفسهم ما لم يكونوا ليصدقوه إذا لم يشاهدوه بأنفسهم ـ ذلك أن جثمان سيدى أبو كنكة كان كاملاً ولم يصبه العفن، وبدلاً من أن يتحلل الجثمان من تأثير العفن الذى يحدثه الزمن، كان الجثمان يصدر عنه رائحة زكية جميلة.

كان كل أهل القرية موجودين هناك وكانوا شهوداً على هذا الحدث، ولم يستطع أحد، بما فى ذلك الأفندية أن ينكروا حدوث هذه المعجزة التى أحدثها سيدى أبو كنكة. ولذلك فإن ما حدث أن الترعة تم شقها بحيث تكون هناك تحويلة عند هذا المكان، وعلى نفس هذه البقعة من الأرض بنى أهالى القرية مقامًا لسيدى أبو كنكة. وبدوره، فإن سيدى مد نطاق حمايته على نشاوى وحمى أهل القرية من كل شر. فعلى سبيل المثال فى إحدى المرات عندما شرعت عصابة من اللصوص المسلحين فى الإغارة على نشاوى، أتى سيدى بمعجزة بأن أحاط القرية بخندق عميق لا يمكن اجتيازه. وفى السنوات اللاحقة أعطى سيدى أبو كنكة البراهين على طبيعته المحبة للخير وذلك بإتيان المعجزات والكرامات.

قال لى الأستاذ صبرى بينما كنت أقوم بكتابة هذه الكلمات فى دفترى فى عجالة «دى الحكاية الناس بيرددوها هنا. شفت ازاى الفلاحين ممكن يوقفوا الحكومة لما يحبوا...».

على الرغم من أن كل أهل القرية كانوا يوقرون سيدى أبو كنكة، فإنه لم يكن هناك مولد يحمل اسمه، فقد كان المولد السنوى الذى

يقام فى نشاوى يخلد ذكرى أحد الأولياء فى قرية تابعة تقع بالداخل فى إحدى السنوات حدثت حادثة مروعة فى مولد نشاوى، عندما صعد أحد الصبية لسطح أحد البيوت لكى يستطيع أن يشاهد حلقات الذكر بطريقة أفضل، إلا أنه فقد توازنه على الشق الموضوع على سطح البيت ثم جعله يقع من حالق وتسبب ذلك فى دق عنقه. أصاب الرعب أهل القرية لدرجة أنهم تركوا المولد وعادوا أدراجهم لبيوتهم وأغلقوا أبوابهم، مما جعل شوارع القرية مهجورة تمامًا، فى كل الليالى التالية، بينما كان الكل قابعًا فى بيته. فسر الكثيرون هذه الأحداث أنها علامة وإشارة أن القرية لابد وأن تبدأ فى إقامة مولد باسم سيدى أبو كنكة.

قال لى الأستاذ صبرى إن الخوف والذعر كانا يخيمان على نشاوى فى تلك الأيام لدرجة دفعته ومعه معلمون آخرون أن يقرروا أنهم ولابد أن يقوموا بشىء ما لمجابهة هذا الذعر الذى أصاب القرية، وما فعلوه كان هو الآتى: كونوا مجموعات صغيرة مع الأشخاص المتعلمين فى القرية، وفى كل ليلة بعد صلاة المغرب كانوا يمشون فى حوارى القريةوهم ينادون بأعلى صوتهم «يا الله!»، داعين الفلاحين أن يخرجوا من ديارهم. لم ينضم إليهم أحد فى الليلة الأولى، ولكن على مدى الليالى القليلة التالية انضم إليهم نفر من الناس ظلوا يتزايدون حتى خرج كل الرجال إلى الحوارى والطرقات وهم يصيحون «الله أكبر»، وهكذا تغلب أهل القرية على خوفهم ورجعت نشاوى إلى عهدها السابق.

بعد ذلك اجتمع المدرسون وقرروا أن الوقت قد حان لكى يمنعوا كل التجاوزات التى تحدث فى المولد، وذلك لأن إقامة الموالد للأولياء فى هذه الضواحى لم يكن من صحيح الإسلام، كان هذا هو رأى الأستاذ صبرى، وأضاف أيضًا أن هذه الممارسات كانت تساعد على انتشار الخرافات وإهمال صحيح الدين. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الفلاحين كانوا يبددون أموالاً كثيرة على الموالد كل عام، وقد بذلوا الكثير من الجهد والعرق للحصول علي هذه الأموال، وكان أحرى بهم أن ينفقوا تلك الأموال فى شراء مبيدات أو سماد لأرضهم.

وطوال السنوات القليلة التالية بعد ذلك، ظل أهل القرية يحتفلون بمولد سيدى أبو كنكة، ولكن على نطاق أقل بكثير. ولكن حدثت خلافات بشأن الأولياء والموالد التى تقام لهم، وفى النهاية قال الإمام وإناس كثيرون أن بما أن الأمر كذلك فمن الأفضل ألا تقام أى موالد على الإطلاق.

سألت الأستاذ صبرى «أنت تقصد الإمام إبراهيم؟».

رد على الأستاذ صبرى فى دهشة «أيوه. أنت قابلته؟ ده مش بيخرج إلا نادر جدًا الأيام دى».

قلت «لا. لم أقابله حتى الآن. ولكنى سمعت عنه كتير جدًا، الناس بتقول أنه فى الماضى كان مشهور عنه أنه 'راجل دين فى المنطقة دى'».

رمقنى أحد طلبة الجامعة وهو شاب نحيف شديد النحافة ذو عينين غائرتين بنظرة دهشة بالغة ناحيتى قائلاً «اليومين دول الناس بتضحك على الخطب اللى بيقولها فى الجامع. باين أنه ميعرفش عن الأحداث اللى بتحصل حوالينا فى أفغانستان ولبنان وإسرائيل».

هز أستاذ صبرى كتفيه قائلاً «ده من زمن تانى: كل اللى يعرفه عن الدين هو اللى اتعلمه من أبوه فى كتّاب القرية».

أردف الطالب قائلاً: «ده ما يعرفش أى حاجة عن العالم اليوم. لكن أنت يا أستاذ صبرى لمابتقول خطبة الجمعة بتلهمنا بحاجات كتيرة ـ كل الناس بتشعر أنهم لازم يعملوا حاجة بخصوص اللى بيحصل فى العالم حوالينا».

هز الأستاذ صبرى رأسه دليلاً على الشكر قائلاً «الدنيا هى اللى اتغيرت. لما كان أمام إبراهيم شاب كان صعب جداً للناس زيه أنهم يدرسوا فى الجامعة أو المعاهد وما كانش لهم اتصالات كتيرة بالمدن الكبيرة. ازاى كانوا حيطبقوا المبادئ الحقيقية للإسلام؟».

قلت رداً على ذلك «لكن أنا سمعت إمام إبراهيم بيقرا كتير وأنه عنده علم كبير جداً بأساليب الطب التقليدية».

وافقنى الأستاذ صبرى قائلا «أيوه، ده كلام صحيح، مفيش شك فيه. ده قرا كتب تراث كتيرة وهو عنده علم كبير بالأعشاب والنباتات وحاجات زى كده ـ أو على الأقل ده اللى بيقولوه».

قاطعه زغلول عندما انفجر فجأة فى الضحك قائلاً «الأعشاب والبودرة دى ما بتنفعش دلوقت. انهاردة كل الناس بتروح الوحدة الصحية وبياخدوا حقنة وينتهى الأمر على كده».

ولكن الأستاذ صبرى اعترض قائلاً «ولكن إمام إبراهيم اتعلم يضرب حقن هو كمان، زيه زى كل الحلاقين التانيين».

قال النسّاج معلقا «ولكن هو بيضرب الحقنة كأنه ماسك رمح».

تلا ذلك عاصفة من الضحك ونهضت فى أثنائها حيث كان الوقت متأخرًا الآن. وكان على أن أقوم بتدوين مذكرات اليوم، نهض الأستاذ صبرى لكى يوصلنى حتى الباب ودعانى أن أحضر ثانية قريبًا، حتى نتمكن من التحدث مع بعض، وعند الباب استدار وطلب من طالبى الجامعة أن يصطحبانى.

قال وهو يتغلب على اعتراضى «الدنيا ضلمة بره مش حاتعرف سكة الرجوع من فين، أنتم كده يا أهل البندر بتتوهوا فى الأرياف. الشابين دول، إسماعيل ونبيل حيوصلوك لغاية غرفتك».

٦

صاح الشيخ موسى فجأة «أنا سمعت عن أصحابك دول» قال ذلك ونحن نجلس فى غرفة الضيوف فى بيته نتحدث عن كل الأشياء التى حدثت فى السنوات التى كنت غائبًا فيها عن مصر. أردف قائلاً «أنت عارف الشابين اللى كنت بتتكلم عنهم كتير - نبيل وإسماعيل، أنا سمعت حاجة عنهم».

سألته «أيوه؟ إيه هى؟».

قال «فيه حد قال لى مش فاكر مين ـ ده كان من زمان جداً بعد ما سافرت للهند».

توقف برهة لكى يفكر وهو يحك ذقنه بينما كنت أنتظر على أحر من الجمر.

قال أخيراً «سمعت أنهم كانوا حيروحوا العراق، نزلوا القاهرة علشان يعملوا الإجراءات».

سألته «نبيل وإسماعيل؟ أنت متأكد أن بتتكلم عن الأشخاص المضبوطة؟».

قال الشيخ موسى «أيوه. كنت متعود اسأل عليهم لما كنت أقابل ناس من نشاوى: اسأل عن أحوالهم وبيعملوا إيه. حاجات من هذا القبيل. أنت ما كنتش تعرف أنهم حيروحوا العراق؟».

قلت «لا». لم استطع إلا هز رأسى وأنا فى حالة ذهول تام: فلم يخطر على بالى أبداً أن نبيل من الممكن أن يكون قد غادر مصر وسافر للخارج.

لقد مضت الآن سنوات عديدة منذ أن سمعت آخر مرة عن نبيل. كنا نتراسل أنا وهو بطريقة منتظمة لمدة بعد سفرى ، إلا أننى قمت بتغيير مسكنى وعنوانى مرات عديدة وأنا فى نيودلهى، بينما كان هو يمضى فترة تجنيده فى الجيش، وبطريقة أو بأخرى انقطعت الصلة ولم تُستأنف أبداً. فى السنوات ما بين تلك الفترتين كنت أعتقد أنه

هو وإسماعيل قد أصبحا موظفين فى وزارة الزراعة كما عقدا النية على ذلك دائمًا.

عندما قابلتهما أول مرة هذا المساء فى بيت الأستاذ صبرى كانا ما زالا طالبين فى معهد تدريب زراعى فى دمنهور. كان ما تبقى على تخرجهما يسير للغاية، وبمجرد أن يحصلا على شهادتهما كان يحق لهما أن يعملا فى وزارة الزراعة. كانا يعلمان أنه سوف تمضى سنوات طوال قبل أن يحصلا على تلك الوظائف بالفعل ـ كان يتعين عليهما أولاً أن يمضيا فترة التجنيد فى الجيش أولاً، ثم يلى ذلك فترة انتظار طويلة حتى تتمكن الوزارة من إيجاد مكان لهما (ولم يكن هذا بالأمر اليسير لأن الوزارة كان عليها أن تلبى طلبات الآلاف من الخريجين الجدد كل عام). ومع ذلك فلقد كانا على يقين أن الأمان الذى ينتظرونه فى نهاية المطاف كان يستحق كل هذا الانتظار، وكانا قد قررا قبل ذلك بمدة طويلة أن يرسلا أوراقهما لوزارة الزراعة بمجرد الانتهاء من فترة التجنيد فى الجيش لم تكن مصادفة أن رؤيتهما للمستقبل كانت متشابهة للغاية: فقد كانا صديقين حميمين بالإضافة إلى كونهما أبناء خالات، فقد كانت أمهاتهما أختين، وكانتا قويتين الشكيمة وكانتا لا تعدمان حيلة وكانتا دائما ما تقولان لابنيهما إن الوسيلة الوحيدة للمضى قدمًا فى عالم يتسم بالقسوة والعدوانية أن يكونا يدًا واحدة على الدوام.

كانا يأملان أن يتم إرسالهما إلى نشاوى أو أى جمعية تعاونية فى أى قرية أخرى قريبة بمجرد أن يحصلا على وظيفتهما فى

وزارة الزراعة. وفى نشاوى، مثل جميع أرجاء مصر نظم المزارعون من ملاك الأراضى أنفسهم فى جمعيات تعاونية بعد قيام ثورة ١٩٥٢ بوقت قصير. كان العاملون فى تلك الجمعيات موظفين تابعين لإحدى الإدارات الصغيرة فى وزارة الزراعة، وكانت مهمتهم إسداء النصح فيما يخص النواحى الفنية للفلاحين. كان هؤلاء الموظفون يمثلون قوة لا يستهان بها فى القرية، قوة تماثل تقريبًا قوة وتأثير المدرسين، على الرغم من أن مهنتهما كانت تفتقر إلى التأثير الأخلاقى التى عادة ما تصاحب مهنة التدريس، فإنها أعطتهم قوة حقيقية أكبر من ذلك بكثير، فهم على سبيل المثال كانوا يتولون صرف الأسمدة والمبيدات التى تدعمها الحكومة، وكانت تلك مهمة هامة وحيوية، ومن المحتمل أن تكون ذات مردود مادى لمن يقومون بها.

وبوجه عام كان موظفو الجمعية يفضلون أن يمارسوا نفوذهم من على بعد ليعطوا أنفسهم وقارًا وهيبة: فقد كانوا يبتعدون عن الفلاحين، ولا يختلطون بأحد من أهالى القرية عدا بعض المدرسين وبالتالى فإن هذا التباعد أعطاهم بريقًا خاصًا فى أعين أهالى القرية: كان تلاميذ المدارس مثلاً يلاحظون بدقة تصميمات ملابسهم، أما الأمهات الذكيات فقد كن يسعين إلى كسب ود العزاب منهم بطريقة غير مباشرة، وكان الكل ، فيما عدا مدرسى المدارس يوافقونهم فى أمور السياسة والدين.

ومثلهم مثل أقران كثيرين، كان نبيل وإسماعيل يرغبان فى أن يصبحا موظفين فى الجمعية التعاونية منذ صباهما. كانا عادة ما

يتحدثان عن تلك الأمنية وطموحاتهما تلك على أنها ستحقق لهما منافع شتى، مثلاً أنهما سوف يتمكنان من إدخار المال الذى يكفل لهما بأن يستمرا فى العيش فى بيوتهما، وكيف أنهما سوف يتمكنان من مد يد العون لعائلاتهما وأن يرعوها، وكيف أن أمهاتهما كانتا تريدان أن يستمرا فى البقاء فى القرية حتى يتمكنا من إيجاد زيجتين مناسبتين لهما. إلا أن وراء هذا المنطق الواقعى كانت هناك خلفية آخاذة لصور احتفظت بها الذاكرة: من زمن كانوا يجتمعون حول أبواب الجمعية التعاونية وكانوا يسترقون السمع على موظفيها، وهم يتحدثون عن العالم الواسع بالخارج، حتى تطاردهم صيحات تقول «امشوا من هنا يا عيال، يا ولاد الكلب، امشوا من هنا». وعلى مدى سنوات طوال، ظلت أعز أمانيهم أن يروا أنفسهم جالسين على نفس تلك المكاتب.

قال الشيخ موسى «أظن أن نبيل وإسماعيل سافروا العراق بعدما خلصوا فترة التجنيد بمدة بسيطة. كنت فاكر أنهم لازم يكونوا بيراسلوك».

هز رأسه وهو يبتسم قائلاً «كانوا شبان زى الفل، جدعان بحق. كنت دايمًا اسمع كل خير عنهم، الكل كان دايما بيتكلم كويس عنهم».

إلا أن الشيخ موسى كانت له وجهة نظر مختلفة فى أول الأمر. فقد كان مصدومًا أن يسمع أن إسماعيل تكلم بأسلوب سلبى يستهزأ فيه عن إمام إبراهيم، وكان يصيح ساخطًا «التلامذة دول فاكرين أنهم عارفين كل حاجة». كان من العسير عليه أن يتقبل أن

الحياة العامة فى المنطقة التى يقطنها قد تغيرت وتبدلت تمامًا عن أيام شبابه. بحيث يصعب عليه التعرف عليها.

بالنسبة لإسماعيل، كان الأستاذ صبرى رمزًا للاحترام، وليس إمام إبراهيم: كان يتحدث عنه باستفاضة عندما اصطحبانى هو ونبيل فى تلك الليلة عندما قابلتهما لأول مرة كما قال لم يكن هناك أحد فى القرية يثير إعجابه أكثر منه، لم يكن هناك أى شخص أفاده بعلمه وتعلم منه أكثر من الأستاذ صبرى، ولم يكن هناك أى شخص آخر يريد أن يحذو حذوه أكثر من الأستاذ صبرى. فقد كان الأستاذ صبرى هو أول من فكر فى جمع الأموال للأفغان: وفى خطب له فى الجامع تحدث عن كيف أن الشيوعيين يقومون بذبح المسلمين فى أفغانستان، كانت كلماته من التأثير بحيث أن قام رجال القرية بجمع مبلغ ضخم من المال للمجاهدين. وفى مناسبة أخرى، ألقى خطبة بليغة استنكر فيها الخرافات والأفكار المغلوطة مثل العادة التى كانت النساء يؤمن بها وهى ترك القرابين عند قبور الموتى من أقاربهم. وصف هذا التصرف على أنه غير مشروع وضد تعاليم الإسلام، وكانت خطبته مؤثرة وقوية إلى درجة أن الرجال اتجهوا مباشرة من المسجد إلى بيوتهم ومنعوا زوجاتهم من عمل ذلك مرة أخرى. بالإضافة إلى ذلك فقد نجح هو وبعض المدرسين الآخرين فى توحيد أهالى القرية ضد رجل كان معروفًا عنه أنه يقوم بعمل الزار للنساء وهى طقوس حبشية. ذهبت مجموعة كبيرة من الرجال لمواجهته وأمروه أن يتوقف عن هذه الأفعال.

قال إسماعيل إن الأستاذ صبرى عندما يصمم على شىء فإنه يستطيع أن يتغلب دائمًا على الآخرين لأنه لم يكن هناك من يفوقه وأكثر منه مهارة فى النقاش. روى أصدقاؤه الذين خدموا فى الجيش معه عن قصة مناظرة أجراها مع شخص من ألمانيا الشرقية وكان خبيرًا عسكريًا شيوعيًا يخدم فى نفس الوحدة العسكرية. كان الألمانى قد أمضى سنوات طوال فى مصر وكان يتحدث العربية بطلاقة.

سأل الألمانى الأستاذ صبرى «هل تعتقد فى الله؟» وعندما رد الأستاذ صبرى بأنه بالطبع يؤمن، رد عليه الألمانى بقوله «إذن، أين هو، أرنى الله».

واجهه الأستاذ صبرى بسؤاله سؤالاً، قال «قل لى، هل تؤمن أن الإنسان له روح، أى روح الحياة نفسها؟».

رد الألمانى بقوله «نعم»، عندئذ قال الأستاذ صبرى له «أين هى تلك الروح، أرنى إياها».

رد الألمانى «أنها لا توجد فى مكان واحد، أنها فى كل مكان ـ فى الجسم، فى الرأس...».

قال الأستاذ صبرى «وهذا هو المكان الموجود فيه الله».

أيقن الألمانى أنه هُزم، ولكنه لم يكن مستعدًا لإعلان هزيمته، قال بنبرة إصرار «أنا لا أؤمن بوجود الله. نحن الشيوعيون نؤمن أن الدين هو أفيون الشعوب».

رد عليه الأستاذ صبرى بقوله: «أنت حر تعتقد فيما تشاء، ولكنك سوف ترى أن الناس فى بلدك سرعان ما سيسأمون من معتقداتك الإلحادية، تمامًا كما حدث فى مصر».

كانت هذه قصة كثيرًا ما ترددت على الأسماع.

قال إسماعيل إن الأستاذ صبرى ومدرسين شباب آخرين قد غيروا نشاوى تمامًا، فقد كانوا شعلة نشاط لا تهدأ، وكانوا فى حرب ضروس ضد الجهل. وكانوا الآن يخططون لبدء جمعية تعاونية استهلاكية تقوم ببيع المواد الأساسية مثل الأرز والسكر والزيت وأشياء من قبيل ذلك بأسعار زهيدة للغاية حتى لا يستمر أهالى نشاوى فى الرضوخ والاستسلام للاستغلال المشين الذى يمارسه أصحاب البقالات فى القرية. وبمرور الوقت، وبعون من الله، كانوا يأملون أن ينجحوا فى استئصال كل مظاهر الاستغلال والإلحاد من القرية ويؤدى ذلك أن يروا بأنفسهم ما هو طريق الإسلام الحق.

لم يتكلم نبيل كثيرًا بينما كان إسماعيل يتحدث، فيما عدا بعض الهمهمات التى تدل على موافقته لإسماعيل. بعد ذلك اكتشفت أن ذلك لم يكن أمرًا غير مألوف: فقد كان إسماعيل دائمًا هو المتكلم عندما كانا الاثنين مجتمعين. كانت هناك علاقة تكامل فيما بينهما، كانت الاختلافات بينهما تبدو كأنها غرز محبوكة، وأصبحت أكثر وضوحًا عندما يكونا فى صحبة أحدهما الآخر. كان نبيل الشخص الهادئ المتأمل، لا يمكن وصفه بالخجل، ولكنه جاد غير هازل، لا

يقول شيئًا أبدًا أو يلزم نفسه بأى شىء بدون أن يأخذ قدرًا كبيرًا من التفكير المسبق. أما إسماعيل، فهو على النقيض من ذلك، فإنه كان شبيهًا بالعصفور ـ أو هكذا وصفه أقاربه ـ يعبر عن كل فكرة عابرة وكان دائمًا مستعدًا لإلقاء نكتة أو قافية. كان من السهل تبين الاختلافات بينهما من على بعد: كان نبيل ذا وجه مربع نظيف بينما كان إسماعيل قصيرًا شديد النحافة وذا أنف معقوفة، عندما كان نبيل يمشى فى طرقات القرية كان يمشى بخطوات ثابتة محسوبة، ولكن كان إسماعيل على النقيض من ذلك يمشى بخطوات سريعة قافزة، وكان دائمًا ما يبدو عليه أنه فى عجلة من أمره للوصول إلى ما يبتغيه.

عندما تعرفت على إسماعيل ونبيل أكثر تبينت أن الاختلافات بينهما كانت نتيجة لتربيتهما بالإضافة إلى الروابط التى تربطهما ببعض. فمن الحقيقى أن أمهاتهما كانتا أختين ومتشابهتين فى الكثير من الأمور، إلا أن آباءهما كانا مختلفين كل الاختلاف، وتركت تلك الاختلافات فى شخصيتهما علامات عميقة على أولادهما. كان أبو إسماعيل ينتمى إلى عائلة متواضعة من صغار التجار، ولكنه كان رجلاً مثابرًا بشوشًا استطاع أن يرث أولاده عنه بعضًا من روحه المتفائلة، أما إدريس، أبو نبيل، فقد كان على النقيض من ذلك، حيث كان ينتمى إلى إحدى أكبر العائلات وأقواها تأثيرًا فى القرية، وهى عائلة بدوى. ولكن بالطبع لم يكن كل المنتمين لعائلة بدوى يتمتعون بنفس القدر من الظروف المادية الميسورة، وما حدث أن إدريس كان ينتمى لأحد فروع العشيرة الأكثر فقرًا. كان لا يكاد يمتلك أى شىء

كان يقطنه هو وعائلته وهو منزل
حوائطها من الطين تحيط فناء
كون فيما مضى قطعة لا بأس بها
أخرى تفننوا فى أن يفقدوها، ومنذ
فادهم من بعدهم أن يحصلوا على
ضعًا بأن يعملوا عمالاً زراعيين فى
أجرهم اليومى.

لإدريس للتحسين من أوضاعه عندما
ة ١٩٥٢. إلا أنه حوالى هذا الوقت،
يحصل على عمل كخفير فى القرية
اهية شهرية. ومن وجهة نظره، فقد
بالقطع أكثر احترامًا من أن يكون
ى الطين، فلذلك قرر أن يحصل على
ذا الموقف فقد كان من العسير جدًا
أية حال، ذلك لأن أكبر أبنائه كان
مو مؤهلاً بما فيه الكفاية لكى يقوم
الأرض وحده دون مساعدة. فلذلك
وات التالية، وفى محاولة أن تكفى
، كان دائمًا ما ينظر بندم عندما كان
ردادون ازدهارًا ويقومون ببناء بيوت

إلا أن إدريس لم يكن يؤجج صدره أى حسد أو حقد لأحد واعتبر كونه موظفًا نجاحًا حتى وإن كانت وظيفته متواضعة وراتبه لا شيء يذكر. وذات مرة آرانى البندقية التى كانت فى حوزته بصفته خفيرًا: كان فخورًا بها للغاية وكان يضعها فى صندوق ضخم يضعه تحت سريره. كانت البندقية بريطانية الصنع من ماركة وكانت قديمة إلى حد كبير، وأشبه ما تكون بالبندقية «انفيلد» القصيرة. عندما أمسك بها وهى واقفة على الأرض كانت أشبه ما تكون بالمدفع وهى تصل إلى ارتفاع أكثر من كتفه مما جعله يبدو كالقزم خاصة بجسمه الضئيل المائل للانحناء، ورسغيه الرفيعتين كنت لا أكاد أصدق أنه قد استطاع فى أى وقت حمل هذه البندقية إلى ذقنه، وأجدها أكثر صعوبة أن أتخيل أنه قد أطلق النيران، إلا أنه أكد لى أنى مخطئ، ذلك أنه قد استخدمها مرات عديدة فى الماضى. وحقيقة الأمر أن آخر مرة كانت منذ خمسة عشر عامًا عندما كان يطارد بعض اللصوص الذين كانوا يحاولون الهرب من خلال غيط ذرة: تمكن اللصوص من الهرب ولكن جزءًا كبيرًا من الذرة تمت تسويته بالأرض من جراء النيران.

لم يكن إدريس ساخطًا بحصوله على نصيبه لأنه اعتبر أنه شرف كبير أن يحصل على مرتبه الشهرى من الحكومة. ولكن نبيل كان على النقيض من ذلك، فقد كره فقر عائلته، على الرغم من أنه كان مخلصًا لأبيه، فإنه اعتبر أن وظيفة الخفير متواضعة ومتدنية وغير جديرة باسم عائلته. كان دائمًا ما يعامله أقرباؤه من عائلة بدوى وهى الأكثر ثراء على أنه هو القريب الفقير وكان رد فعله على

ذلك أنه انسحب إلى دائرة التأمل الداخلى كوسيلة من الصمت الدفاعى. إلا أنه كان هناك خيط من الكبرياء يميزه أكثر من إسماعيل، فقد كان مصرًا أن يتخلص من فقره ويقوم بتحسين أحوال عائلته المعيشية.

ولحسن حظ نبيل، نجحت أم نبيل من خلال مزيج من التصميم وحسن الإدراك أن تمده هو وإخوانه الأصغر منه بالوسائل اللازمة لتحسين ظروفهم. أجبرت على وهو أكبر أبنائها على أن يتوقف عن الدراسة فى المدرسة فى سن مبكرة ودفعت به للعمل فى الحقول. أدركت أن أقصى أمانيها فيما يخص عائلتها هو أن تقوم بتعليم أولادها الآخرين، استطاعت أن تدبر أمور عائلتها، بمساعدة أجر على الضئيل، بينما تلقى نبيل وإخوانه الأصغر منه الدراسة فى المدارس والجامعات. ولكنها كانت دائمًا على وعى تام طوال الوقت أن تضحية على هى التى منحت الآخرين إمكانية لحياة أفضل، وكدليل على امتنانها، شرعت فى الإعداد لزواجه حالما أصبح واضحًا، بإذن الله طبعًا، أنه لا شىء يقف عقبة أمام نبيل الآن، من التخرج.

أبلغنى نبيل وإسماعيل فى أول لقاء لنا عن زفاف على الوشيك، وكان ذلك عندما مشيا معى من عند بيت الأستاذ صبرى حتى غرفتى، طلبت منهما الدخول عندما وصلت إلى باب غرفتى، وبينما كنت أقوم بإعداد الشاى، تكلم إسماعيل بإسهاب عن زواج على الوشيك.

قال لى إسماعيل إن على سوف يتزوج من أخت إسماعيل فوزية (التى كانت بالطبع ابنة خالته) والآن، وبالإضافة إلى كونهما أصدقاء حميمين وأبناء خالة، فسوف يصبح نبيل وإسماعيل مرتبطين برباط آخر وهو الزواج! أردف إسماعيل بقوله إن هذه هى أفضل الروابط: فالعروس والعريس أبناء خالات وكانا يعرفان بعضهما البعض طوال حياتهما: كانا من نفس العمر وكانا فى الحقيقة يقيمان فى منزل أحدهما الآخر منذ مولدهما. لن يتدخل الغرباء فى هذا الأمر، سوف يبقى الأمر داخل العائلة فسوف تقوم العائلة بكل شىء من الإعداد بين الأقرباء، ولذلك لن تكون هناك أى مشاكل التى عادة ما تبرز عندما يكون أحد الأغراب طرفًا فيها، مسموحًا له بدخول بيت الشخص فى أى وقت يشاء.

قال لى إسماعيل «احنا حنرقص ونغنى للعروسة والعريس، لازم تحضر الفرح: حتكون فُرجة لك مش حتنساها أبدًا».

رددت عليه «يشرفنى حضور الفرح. أنا حاسس أنه شرف لى».

فى هذه الأثناء ظل نبيل يدير عينيه وهو صامت فى جميع أرجاء غرفتى، بادئًا بملابسى المعلقة على الشماعات، ومنتقلاً إلى المكتب الملقى عليه الأوراق، ثم إلى الحلل والأوانى التى احتفظت بها فى المكان الضيق للغاية والذى كان يقوم دور المطبخ المؤقت. كان يبدو عليه أنه مستغرق تمامًا فى التفحص بينما كان إسماعيل يتحدث وكنت أنا مستغرقا فى إعداد الشاى، نظرًا إلى كل الأشياء كل على حدة بتركيز عال واستغراق تام، وهو يقوم بمسح يديه على جلابيته.

فجأة، وبينما كنت أضع الشاى فى الغلاية بدأ فى التحدث بصوت عال، مقاطعًا بذلك إسماعيل.

قال معلقًا «أكيد وأنت بتحط الغلاية على البوتاجاز وفيها ميه تكفيك أنت لوحدك بتفكر فى كل الناس اللى سبتهم فى بلدك».

كانت هناك فترة صمت قصيرة ثم قال إسماعيل بعد ذلك سريعًا «وليه كده؟ هو مش لوحده احنا أهو معاه وكل الأصحاب التانيين ممكن يشربوا شاى معاه، مفيش أى داعى يحس بالوحدة».

قال نبيل «دى مش نفس الحاجة. أنت فكر إذا كنت مكانه كنت حتحس بأيه؟».

تحولت دفة الحديث سريعًا إلى مسار آخر، إلا أن كلمات نبيل ظلت تدور فى رأسى، لم أتمكن أبدًا أن أنساه، ذلك أنها كانت المرة الأولى التى يقوم بها أى شخص من لطيفة أو نشاوى بمحاولة مغامرة مثل تلك التى أقوم بها وذلك بأن يدخل إلى نطاق خيالى ويتفحص وضعى كما يبدو لى أنا شخصيًا.

تطلب الأمر منى بعض الوقت أن أستوعب فكرة أن نبيل وإسماعيل قد رحلا الآن: ولفترة من الزمن كان من الصعب على أن أصدق ما قاله لى الشيخ موسى. فى السنوات الكثيرة التى مضت بعد أن قابلتهم لآخر مرة، كنت معتادًا على التفكير فيهما باعتبارهما موظفين فى الجمعية التعاونية، كنت أحاول حتى أن أتخيل ما هو رد فعلهم عندما أدخل عليهم مرة أخرى.

قلت للشيخ موسى «نبيل أخدنى لمحطة القطر يوم ما سافرت من نشاوى. هو قال لى إنه بعد ما ارجع حيكون استلم شغله وإنه حيستقر فى نشاوى».

ثم أردفت متسائلاً «أنت عارف ليه سافروا؟ كان فيه أى أسباب معينة؟».

إلا أن الشيخ موسى هز كتفيه وقال «وليه الناس بتسافر؟ الفرصة لما تيجى لازم الواحد يأخذها».

٧

بالنسبة للشاب بن ييجو، فإن الترحال تجاه الشرق كان يبدو أنه أسهل السبل وأكثرها طبيعية لكى يتحصل على أفضل الفرص التى من الممكن أن يقوم عالمه أن يمنحها له.

كانت ترجع جذوره إلى أفريقيا، وبالتحديد لمكان يسمى المهدية وهى ميناء يطل على البحر الأبيض المتوسط، وهى الآن مدينة كبيرة فى تونس. واسم عائلته بن ييجو أو بن ييچو العبرية من الممكن أن يكون مشتقًا من اسم قبيلة من البربر كانوا يمثلون يومًا ما الحماة أو الرعاة لعائلته. يكتنف تاريخ حياته فى فترة الطفولة وصباه الضبابية وعدم وضوح الرؤية، ولا يُعرف أى شىء بالتحديد عن تاريخ أو مكان مولده. إذا ما نظرنا للوراء للأحداث التى مر بها فى أخريات أيامه، فإنه يبدو أن تاريخ ميلاده قد يكون حوالى نهاية القرن، أى فى السنوات الأخيرة من القرن الحادى عشر أو السنوات الأولى من القرن الثانى عشر. وحيث إن أصدقاءه كانوا يشيرون إليه

فى بعض الأحيان باسم «المهداوى» فمن المحتمل أنه قد وُلد فى المهدية، التى كانت آنذاك مركزًا أساسيًا للثقافة اليهودية، بالإضافة إلى كونها إحدى أهم المدن فى أفريقيا.

كان أحد معاصرى بن ييچو هو الجغرافى العربى الشهير الشريف الإدريسى قد نمى صلته بالمهدية فى حوالى الوقت الذى من المفترض أن يكون بن ييچو ينمو ويكبر فيها. كان له تعليق لاذع فيما يتعلق بنوعية المياه هناك، ولكن فيما عدا ذلك وجد كثيرًا من الأشياء جديرة بالإعجاب فى المدينة، فعلى سبيل المثال كانت تتمتع بالمبانى الجميلة والمتنزهات الرائعة، والحمامات العامة الفخمة، بالإضافة إلى العديد من النُزل أو الخانات، وكان نزلاؤهم عادة ما يتمتعون بالوسامة وعادة ما يكونون مرتدين أحسن ملابسهم و «على وجه العموم فإن المهدية أعطت مشهدًا لشىء رائع».

يبرز فى مراسلات بن ييچو المتأخرة الحديث عن عائلته الصغيرة (المباشرة) أخوان اثنان فقط وهما يوسف ومبشّر، وأخت واحدة وهى بركة، لا يعرف الشىء البتة عن أمه، والقليل جدًا عن أبيه، فيما عدا اسمه وبعض التفاصيل العارضة. مثلاً كان اسمه يكتب بالعربية مرضية. وكان حاخامًا بالإضافة إلى كونه باحثًا وكاتبًا محترمًا. قد يكون قد اشتغل بالتجارة، شأنه شأن معظم الباحثين فى زمنه، إلا أن أحوال عائلته تبدو أنها كانت متواضعة، وعلى الأرجح فإن أفضل ميراث تركه لأبنائه كان ممثلاً فى التعليم الممتاز الذى وفره لهم.

كان إبراهام بن ييجو بالقطع قد تلقى تعليمًا ممتازًا يؤهله لأن يصبح باحثًا أو علامة هو نفسه وكان على دراية كاملة بالأمور الدينية والعقائدية إلا أنه كان من الواضح أن اتجاهاته ونزعاته الشخصية كانت تميل إلى الاهتمامات الأدبية أكثر من الدينية، فقد كان شاعرًا يكتب الشعر بصورة غير منتظمة، بالإضافة إلى كتابته النثر واضحة والتى تدل دلالة على حرفية عالية، وكان أيضًا ما يميز هذا النثر استخدام بن ييجو بعض الصور البلاغية الآسرة المغلفة بظاهر بسيط لا يدل حقيقة على محتواه.

على الرغم من كل هذه العوامل، فإنه عندما كان على بن ييجو أن يحدد مستقبله فإن الفرص التى قدمتها التجارة الشرقية لابن ييجو الشاب اليافع لم يمكن مقاومتها، حيث إنه نشأ وترعرع فى بيئة كانت متخصصة فى هذا المضمار. وكان بمجرد أن ينطلق فى هذا الاتجاه فإن الأمور كانت سوف تأخذ مجراها الطبيعى، آخذة إياه من أفريقيا إلى الفسطاط ثم إلى عدن، وهى الميناء الذى يبدو كأنه مفتوح الذراعين ويضم أهم الطرق البحرية ويصل الشرق الأوسط بالمحيط الهندى.

تدل أوراق بن ييجو دلالة واضحة لا تترك مجالاً للشك أنه بالفعل قد ارتحل إلى عدن، من المحتمل أن تكون لفترة طويلة من الزمن، حوالى سنة ١١٢٠، أو حتى ربما قبل هذا. قد لا نعرف التواريخ الصحيحة أو المدة التى عاشها فى عدن على وجه الدقة، ذلك لأنه لم توجد حتى أى قصاصة ورق ترجع إلى هذه الفترة من

حياته فيما عدا بعض ومضات قليلة جدًا تلقى ببعض الضوء على الخطابات التى تلقاها من الهند، فإن تلك السنوات يكتنفها الغموض والإبهام.

على الرغم من ذلك، فإنه من الواضح من مراسلاته المتأخرة أن السنوات الأولى التى أمضاها فى عدن قد لعبت دورًا محوريًا فى تكوينه. فعلى سبيل المثال، فإنه من المحتمل أنه تعرف هناك على رجل والذى أصبح راعيًا له فيما بعد، ثم شريكه فى التجارة، وهو تاجر ثرى ذو نفوذ يُدعى مضمون بن الحسن بن بندار.

كان المضمون ابن بندار، مثله مثل أبيه من قبله الناجد أو نقيب التجار أو الممثل الرئيسى لهم فى عدن. كان إذن على رأس الطائفة اليهودية الكبيرة الغنية فى المدينة، بالإضافة إلى كونه المشرف على الإدارة الجمركية للميناء ـ وكان رجلاً يتمتع بشخصية محترمة ونفوذ كبير، وهو شخصية محورية فى تجارة المحيط الهندى، وكان يتمتع بشبكة واسعة من الأصدقاء والمعارف امتدت من إسبانيا حتى الهند.

تظهر العديد من خطابات مضمون فى مراسلات بن ييجو وأسلوبها يتسم بالإيجاز والوضوح، وهو أسلوب يستخدمه تاجر وصفه بأنه متوتر وعملى إلى درجة الفظاظة، بدون أى محسنات لفظية، وباستخدام أقل القليل من الكلمات وهذا لم يكن شأن الكتابة وقتئذ. تمتد الخطابات عادة على مدى مجموعة مختلفة من أوراق الفوليو (ذات القطع المتوسط)، بعضها مكتوب بخط يده، والبعض الآخر قام الكتبة بكتابتها. كان خط يد مضمون سيئًا

للغاية، يدل على أنه فى عجلة من أمره وتدل الخطابات أنها مكتوبة فى هرج ومرج السوق. وكثيرًا ما كانت النسخ المكتوبة بخط أنيق وواضح التى قام بكتابتها فريق الكتبة الذى يستأجره مضمون تنتهى بخط مضمون نفسه والذى يتسم بالتسرع: اضفى ذلك طزاجة وإحساسًا بالإلحاحية على الخطابات مما يمكن المرء أن يتخيل، وبسهولة تامة، مضمونًا وهو يختطف الخطابات لكى يضيف إليها بعض تعليماته النهائية بينما كانت السفن التى سوف تحملهم توشك على مغادرة الميناء.

من المؤكد أن بن بيچو قد سمع عن مضمون قبل أن يغادر مصر بفترة طويلة، ومن المؤكد أيضًا أن أقاربه وأصدقاءه قد قاموا بإمداده بخطابات تعريف عندما شرع فى الترحال إلى عدن. ومن جانبه فمن المحتمل أن مضمون قد تم تحذيره من القدوم المتوقع لهذا الوافد الجديد بواسطة شبكة المعلومات الخاصة به، ومن المحتمل أيضًا أنه أظهر ميولاً ودية حياله حتى قبل وصوله إلى عدن. بالنسبة لشاب فى مثل ظروف بن بيچو فلا يمكن أن يكون هناك معرفة أو صلة أفضل من نقيب التجار ليكون راعيًا له: ولحسن حظه فمن الواضح أنه ترك انطباعًا جيدًا على مضمون، ومن المحتمل أن بن بيچو قد تعلم لأول مرة الأساسيات المتعلقة بتجارة المحيط الهندى فى المستودعات والمخازن الخاصة بمضمون.

يرجع تاريخ أولى رسائل مضمون الموجودة بعد مغادرة بن بيچو عدن إلى الفترة التى كان منهمكًا فيها فى الإعداد لعمل تجارى فى

مالابار. ومن نبرة ومحتوى هذه الرسائل الأولى يبدو أن علاقة بن ييچو بمضمون فى هذه الآونة كانت تتأرجح ما بين الوكيل والشريك الأصغر (سنًا ومكانة). تحتوى الخطابات على إرشادات مفصلة، وتحت سطح اللغة المهذبة التى كان من المألوف استخدامها آنذاك كان يكمن قدر من الحسم والتعالى، كما لو أن مضمونًا كان يتشكك فى مقدرة وكفاءة شريكه الذى يفتقر إلى الخبرة. ولكن فى نفس الوقت فإنه من الجلى والواضح من نبرة مضمون الموحية بالدفء، وإن كانت فى بعض الأحيان تدل على عصبية المزاج، أنه كان يعتبر بن ييچو بعاطفة أبويه. يدل ذلك معرفته بما يحبه بن ييچو وكذلك كان من عادته استضافته فى منزله، معتبرًا إياه واحدًا من العائلة، بطريقة مماثلة لما يقوم به الحرفيون فى بعض الأحيان بأن يعتبروا الصبية المتدربين عندهم بمثابة أقاربهم.

وفى الواقع، فيبدو أن دائرة مضمون الاجتماعية المحكمة فى عدن قد استقبلت بن ييچو بحفاوة شديدة. كان أهم اثنين من الذين كان يراسلهم بن ييچو لهم صلة بمضمون. كان أحدهما، واسمه يوسف بن إبراهام، موظفًا قضائيًا بالإضافة إلى كونه تاجرًا: كان رجلاً يتصف بأنه منغلق على ذاته وعصبى المزاج إلى حد ما، وذلك استدلالاً من خطاباته. كان الآخر هو خلّاف بن إسحاق ـ كاتب الخطاب الوارد فى المخطوطة H6، ومن المحتمل أن يكون أقرب الأصدقاء إلى بن ييچو فى عدن.

تكونت ثروات هذين الرجلين من التجارة فيما بين الهند والشرق الأوسط، إلا أن دوريهما فى هذا المضمار كان دور الوسيط والممول

أكثر من كونهما تاجرين يقومان بالسفر فى وقت أو آخر. لقد قاما هما أنفسهما بالسفر بكثرة فى المحيط الهندى، ولكن عندما قابلهما بن ييچو كانا مستقرين تمام الاستقرار فى عدن، تاركين أيام السفر والترحال وراءهما.

إلا أن عدد المسافرين كان كثيرًا جدًا فى محيط معارفهما: فعلى الأقل كان هناك اثنان من أصدقاء مضمون يستحقا أن يتضمنا فى قائمة الرحالة الأكثر سفرًا فى القرون الوسطى، ربما فى أى زمن قبل القرن العشرين. كان الأول شخصية بارزة فى الطائفة اليهودية فى الفسطاط، ويُسمى أبا سعيد ـ حالفون بن ناثانيال ـ ها ـ ليفى الدمياطى، وكان تاجرًا ثريًا بالإضافة إلى كونه باحثًا وراعيًا للآداب، واسمه مرتبط باسم الميناء المصرى دمياط. تم حفظ مجموعة كبيرة من أوراق أبى سعيد حالفون فى الجنيزة، وتشهد تواريخ وأماكن كتابتهما على نمط من حرية الحركة والتجوال فى مجالات واسعة والتى تجعل من رحلات الرحالة مثل ابن بطوطة وماركو بولو فى العصور الوسطى المتأخرة تبدو غير جديرة بالذكر بالمقارنة بهما. من سنة لأخرى كان أبو سعيد حالفون يقيم فى بلدان وقارات شتى، وكان يسافر بكثرة بين مصر والهند وشرق أفريقيا وسوريا والمغرب وإسبانيا. كان بالإضافة إلى ذلك صديقًا مقربًا لأحد أعظم الشعراء اليهود فى القرون الوسطى، وهو چودا ـ ها ـ ليڤى، وقد أهدى بحثًا له وكذلك قام بكتابة مجموعة من القصائد على شرفه. كان سعيد حالفون يتراسل بصورة منتظمة مع مضمون وخلّاف، بالإضافة إلى القيام بالتبادل التجارى معًا، على الرغم من

أنه لا يوجد سجل للرسائل المتبادلة بينه وبين بن ييچو، فإنه لا يوجد مجال للشك أنهما كانا يعرفان بعضهما البعض معرفة تامة.

كان ثانى رحالة عظيم من دائرة مضمون هو أبو ذكرى جودا (يهوذا) ـ ها ـ كوهين ـ سيچيلماسى. وكما هو ظاهر من اسمه، فإن أصل أبو ذكرى سيچيلماسى يرجع إلى مدينة فى الصحراء المغربية تسمى سيچيلماسى إلا أنه بعد ذلك هاجر إلى الفسطاط وأصبح يحتل مكانة مرموقة فى الطائفة والمجتمع اليهودى هناك، وفى النهاية وصل إلى منصب نقيب التجار. وهو الآخر قام بأسفار عديدة بين مصر وعدن وجنوب أوروبا والهند. تدل الإشارات الواردة فى خطابات بن ييچو أنه كثيرًا ما تقابل مع أبو ذكرى سيچيلماسى وزوج أخته، وهو مالك لسفن اسمه محروس، فى مانجالور. كانت الصلة وطيدة بين ثلاثتهم حتى أنه فى إحدى المناسبات، عندما قام القراصنة باحتجاز أبو ذكرى قرابة شواطئ جوچارات، فإن بن ييچو قام بكتابة خطاب له نيابة عن محروس، يحثه أن يسافر سريعًا جنوبًا من بروش إلى مانجالور.

ولم يكن من قبيل الصدفة أن تكون أخت أبو ذكرى متزوجة من مضمون، حيث إن عائلات التجار كانت دائمًا ما تسعى لتوطيد الروابط التجارية بروابط عائلية. ومن المنطقى أن يكون أبو ذكرى قد أعطى بن ييچو خطاب التعريف الذى كفل له دخول دائرة مضمون، وذلك بدافع من الولاء لبن ييچو حيث إن كليهما كان ينتميان إلى شمال أفريقيا.

كانت الفرص سانحة لدخول بن ييچو دائرة مضمون فى عدن التى تتمتع بوضع متميز. ومع ذلك، فإنه تجدر الإشارة إلى أن بن ييچو استطاع أن يجد قبولاً بمجرد دخوله مجتمع التجار الأثرياء فى عدن، على الرغم من وضعه المتواضع نسبيًا بصفته صبيًا شابًا متدربًا لدى تاجر، من المؤكد أن هذا القبول يرجع أساسًا إلى مهارات بن ييچو الخاصة به، فتميزه العقلى واضح بما فيه الكفاية من خطاباته، ولكنه لابد وأنه، وبالإضافة إلى ذلك، كان يتمتع بقدر من الجاذبية الشخصية، وكذلك مهارته فى جعل الآخرين يدينون له بالولاء، كل تلك الخصال لا يمكن التشكك فيها على أنها محض استنتاجات حيث إن البراهين التى لا تقبل الجدل تتمثل فى علاقات الصداقة الممتدة المذكورة فى خطاباته.

كانت الدائرة التى استقبلت الشاب بن ييچو فى عدن مكانًا يسمح بوجود اهتمامات وإظهار مواهب أدبية بالإضافة إلى تمتعه بالفطنة فى مجال الأعمال والتجارة. فى هذا الوقت الذى شهد إقامته كان هناك العديد من الشعراء اليهود الموهوبين الذين كانوا يعيشون ويكتبون فى عدن. لابد وأن عدن كانت تمثل مناخًا جاذبًا للغاية لرجل يمتلك ميول بن ييچو، باستعداده وميله للشعر بالإضافة إلى اجتهاده وذكائه فى مجال التجارة. وكان ذلك، بالإضافة إلى الاستقبال الحار والحفاوة التى أظهرها هذا المجتمع المقصور على طائفة بعينها، لابد وأنه جعل من عدن مكانًا مناسبًا لأقصى درجة لهذا التاجر الشاب ذى النزعة الأدبية.

ولكن، من الأمور الغريبة للغاية، أن بن بيچو فى وقت ما قبل عام ١١٣٢ ارتحل إلى شاطئ مالابار ولم يعد إلى عدن لحوالى عقدين من الزمان.

وللوهلة الأولى لا يبدو أن هناك شيئًا غريبًا عن رحيل بن بيچو، وذلك لأنه بالطبع فإن التجار الذين لهم صلة بالتجارة الشرقية ارتحلوا بكثرة إلى الهند. ولكن هناك سببين لماذا يبدو سفر بن بيچو أمرًا شاذًا، وخروجًا عن النمط المألوف لرحلات التجار.

أول هذه الأمور أن التجار الذين تربطهم صلة بتجارة الشرق مثل أبو سعيد حلفون وأبو ذكرى سيچيلماسى على سبيل المثال، كانوا عادة ما يسافرون ذهابًا وإيابًا على فترات منتظمة بين موانى المحيط الهندى والشرق الأوسط. يوجد ذكر لحالات أخرى قليلة فى الجنيزة لتجار أقاموا بالخارج لفترات طويلة، إلا أنه لا يوجد أحد يبارى فترة إقامة بن بيچو التى اتسمت بالإقامة الممتدة الطويلة - فلا يبدو أنه قد رجع إلى عدن أو مصر ولو لمرة واحدة خلال فترة التسعة عشر عامًا أو العشرين عامًا التى أقام فيها بالهند. وفى الحقيقة ، فيبدو أنه عندما حانت الحاجة فإنه فضل أن يرسل عبده المذكور فى المخطوطة H.6 إلى عدن ليقوم بإدارة أعماله التجارية هناك، بينما بقى هو فى مانجالور.

السبب الثانى الذى يجعلنا نشك أنه قد يكون هناك شئ غريب فى سفر بن بيچو من عدن مذكورًا فى خطاب مختصر يكتنفه الغموض موجود ضمن مجموعة تايلور شيشتر فى كامبردج. قطعة

الورق هذه كبيرة إلى حد ما، حوالى إحدى عشرة بوصة طولاً وأكثر من خمس بوصات عرضًا، إلا أنها مجرد قصاصة قام بن ييچو بقطعها من ورقة أطول حتى يتمكن من الكتابة على ظهرها. والقليل المتبقى من الخطاب الأصلى دُمر تدميرًا كاملاً، ومن العسير أن تُفك شفرة الكثير من الموجود بالخطاب. ومن حسن الحظ أن هذه القصاصة تحتوى على اسم الراسل: فهى بالكاد يمكن قراءتها وهو يمثل رابطة بين القصاصة بهذه القصة فهى تثبت أن الكاتب لم يكن إلا مضمون بن الحسن بن بوندار المقيم فى عدن.

وعلى مدى معظم الرسالة فإنها كانت تتسم بالصراحة والمباشرة: والرسالة تتبع الأصول المتعارف عليها حينئذ فى كتابة الرسائل فعلى سبيل المثال يشير مضمون إلى بن ييچو بلفظ «سيدى» وإلى نفسه بلفظ «خادمك». يبدأ الخطاب بإشعار أنه استلم شحنة بندق، ويذكر كذلك أنه قام ببيع كمية من الفلفل، وأفاد بن ييچو أنه قام بتسليم بعض البضائع إلى شريكين آخرين فى عدن.

ويأتى الجزء المثير للحيرة قرابة نهاية الخطاب، ويتكون من قطعة قصيرة مكونة من ستة سطور. وفيما يلى كلماتها:

«فيما يخص ما ذكره [سيدى] فى الخطاب [الذى أرسل] أنه عقد العزم أن يعود إلى عدن، إلا أن هناك عائقًا يمنعه [من العودة] هو الخوف أن يقال إنه تصرف بطيش تحدث خادمه إلى [الملك] المالك السعيد بخصوصه... وأخذ منه الأمان كنوع من الضمان

لعودته، إن شاء الله. فلهذا لا يوجد ما يدعو [سيدى] للخوف: سوف يتولى حل المشكلات فى بلاطه فى الهند. وإذا، لا[فالملك] قدرالله، كان الفشل من حظه... فإن ما يمتلكه وكذلك ما يمتلكه أولاده يمثلوا جزء من هذه الخسارة...».

بقية الكلمات مفقودة؛ فقد قام ابن بيچو بقطع الخطاب عند هذا الحد، عند هذا السطر غير المكتمل حيث الذى تسبب لى فى معاناة شديدة ولا توجد أى وثائق أخرى تحتوى ذكر أى أمور أشار إليها مضمون فى خطابه، لن يتم معرفة أى شىء عنه أبدًا إلا إذا تم اكتشاف باقى الخطاب فى ذات يوم من الأيام.

على الرغم من قصر الخطاب وعنصر المفاجأة التى انتهى بها الخطاب، فإنه توجد حقيقة يظهرها ويدعمها الخطاب بدون أى ذرة شك. فهى تثبت أن سفر بن بيچو إلى الهند لم يكن أمرًا نابعًا من تلقاء نفسه كلية ـ فهناك شىء ما قد حدث فى عدن جعله من العسير عليه أن يبقى هناك أو أن يرجع مرة أخرى.

لا يعطى هذا المقطع من الرسالة أى إشارة واضحة عما حدث. الاحتمال الأقوى أن الأمر كان يتعلق بديون أو ممارسات مالية غير سليمة. ولكن على الجانب الآخر، فإنه من غير المحتمل بالمرة أن حاكم عدن قد اهتم اهتمامًا شخصيًا بهذا النزاع الذى يتسم بأنه أمر مدنى محض، كما أشارت الرسالة إلى ذلك، على أية حال، فإذا كان الأمر يتعلق بدين لم يقم بن بيچو بدفعه هو الذى أحال دون رجوعه إلى عدن، فإنه كان من المؤكد أنه هو وأصدقاؤه كانت لديهم المقدرة على حل هذا الأمر بسرعة وبهدوء، وبدون اللجوء إلى الحاكم.

وهذا المقطع من الرسالة بحالته هذه لا يسمح بالكثير ليشجع المرء أن يجد شيئًا أكثر من ذلك، بالإضافة إلى أن اللغة التى كتب مضمون بها الخطاب تتسم بالحيطة والحذر والكتمان مما أضفى المزيد من الغموض على الرسالة. فعلى سبيل المثال، فإن الكلمة التى استخدمها مضمون ليصف الضمان الذى يقدمه حاكم عدن هى إحدى تلك الكلمات العربية التى يمكن أن تفسر بأشكال ومعان مختلفة مما يسبب الحيرة والارتباك. هذه الكلمة هى ذمه (ذم) وهى تعنى «الإيلام» أو العتاب، بالإضافة إلى معانٍ أخرى تعنى الضمان الذى يمكن أن يُعطى لحماية الذين يستحقون اللوم أو العقاب.

والكلمة كما هى مستخدمة هنا قد تعنى أن حاكم عدن قد وافق على ألا يعاقب أو يحاكم بن ييچو على جريمة قام بارتكابها، أو على الأقل كان متهمًا فيها. أو قد تعنى أنه تعهد أن يقوم بحمايته من أناس معينين كان بن ييچو لديه أسباب للتخوف منهم. وطبقًا للتقاليد والأعراف العربية كان هذا هو نوع الضمان الذى يعطى لشخص قام بقتل شخص ما، فالغرض منه هو حماية هذا الشخص المتهم وأقاربه من الأخذ بالثأر منهم حتى يتسنى لهم أن يجمعوا الدّية الواجب دفعها لأهل القتيل.

وهذا التلميح الضمنى، بالإضافة إلى الإشارة إلى أن هذا الأمر يلمح إلى أبناء بن ييچو بالإضافة إلى نفسه، تعنيان أن بن ييچو قد فر إلى الهند لكى يتجنب الأخذ بالثأر منه.

وطبقًا لما هو متوافر لدينا من معلومات، فإن الأمر قد يكون متعلقًا بضرائب لم يقم بن بيچو بدفعها ليس إلا.

لم يكن الشيخ موسى قد سمع عن خميس الفار قبل أن أذكر اسمه له.

زم شفتيه عندما سألته عنه، ثم بدأ فى التسبيح بسبحته وهو يقدح ذهنه، ولكنه بعد فترة وهو كاره للإقرار بهزيمته، هز رأسه بطريقة حاسمة نهائية صاح قائلاً «الفار؟ الفار؟ إيه الاسم ده؟ أنت متأكد أنك سمعته صح؟».

قلت له إنه لقب أو كُنية أطلقه عليه أقرباؤه بسبب الطريقة التى يتحدث بها، لأنه كان يقرض الكلمات بلسانه بنفس الطريقة التى يستخدمها الفأر بأسنانه.

ولكنى فى الحقيقة لم أكن أعرف على وجه اليقين السبب وراء حصوله على هذا الاسم: فمدى علمى أنه قد يكون مظهره الذى أسبغ هذا الاسم عليه. كان من السهل تخيل وجهه النحيف وعينيه اللامعتين اللتين تتحركان بسرعة وهى صورة أخذها أقرباؤه عنه منذ سنوات طويلة أى منذ كان صبيًا يافعًا حيث يرون تشابهًا بينه وبين القوارض، وحتى الآن عندما كان فى منتصف العشرينيات من عمره وقد مر بزيجتين فاشلتين، ظل هذا التشابه قائمًا وهو يتلخص فى سرعة الحركة بالإضافة إلى عينين تشعان حيوية وذكاء.

أضفت قائلاً «أرضه جنب أرض زغلول النسّاج، ذلك لأن هذه النوعية من المعلومات والتفاصيل هى التى قد تساعد الشيخ موسى

فى رؤية وإقامة العلاقات بين الأشياء. ولكن هذه المرة، وبالرغم من كل محاولاته المضنية فقد زاغ وتملص الاسم من تلافيف ذاكرته فلم يتمكن من تذكره.

قال بعد برهة وبنبرة فلسفية «أصل نشاوى مكان كبير، هم من أى عيلة؟ أنت تعرف؟».

عندما ذكرت له اسم الجمّال رأيته يلوى شفتيه خفيفًا وخطر ببالى فجأة أنه بالطبع السبب فى عدم معرفة الشيخ موسى خميسًا يرجع إلى عائلة خميس. فالناس الذين ينتمون لعائلة «لطيف» أو «بدوى» كانوا معتادين على ازدراء عائلة الجمال، وكانت عائلة بدوى تهمس قائلة أنهم يفتقرون إلى الذوق، ومزاجهم وتصرفاتهم تتسم بالفظاظة والرعونة، وكان أفضل تصرف هو الابتعاد عنهم. ولكنهم كانوا دائمًا حريصين على خفض أصواتهم عندما كانوا يقولون مثل تلك الأفكار وذلك لأن عائلة الجمال كانت تتسم بأنها كثيرة العدد بالإضافة إلى كونهم مشاكسين وعدوانيين، وكان الجميع يعلم أن رجال عائلة الجمال سوف ينطلقون إلى الحوارى والأزقة عند أول بادرة تنم عن الاستفزاز وهم يتحرقون شوقًا للدفاع عن شرفهم.

ألجمت الدهشة لسان نبيل وأقربائه من عائلة بدوى عندما علموا أن الجمال كانوا أكثر المستفيدين من عملية إعادة توزيع الأراضى التى تمت بعد ثورة ١٩٥٢، أصبحت الآن الكراهية ممزوجة ومضافًا إليها الحقد، وذلك لأنهم بعد أن كانت عائلة الجمال أفقر الأشخاص فى القرية، مجرد عمال، أصبح الآن الكثير من عائلة

الجمال فلاحين يمتلكون عدة فدادين باسمهم فى حيازتهم. والآن لم يكن بوسع عائلة بدوى أن تكون متغطرسة مثلما كانوا من ذى قبل، وعندما يحضر خطيب ينتمى لأحد فروع عائلة الجمال الأكثر ثراء يطلب يد إحدى بناتهم، فإنهم كانوا دائمًا سرعان ما كانوا يقبلون العرض. ولشخص مثل الشيخ موسى وأمثاله فإن معظم أفراد عائلة الجمال كانوا لايزالون خارج حدود الاحترام، على الرغم من التطورات والتغييرات الشديدة خلال العقود القليلة الماضية.

تذكرت فجأة معلومة أخرى ذات دلالة كبيرة، والتى من المؤكد أنها قد تنعش ذاكرة الشيخ موسى، قلت «له يمكن تعرف أخت خميس، هى اتجوزت فى مكان قريب منكم، فى نخلتين، لكنها انفصلت عن جوزها من كام شهر ورجعت لنشاوى مع أولادها».

صاح الشيخ موسى «آه يا عينى عليها دى الست الطويلة الحلوة اللى عندها ولدين هى دى الست اللى تقصدها؟».

صحت قائلاً «أيوه هى دى، هى دى بالضبط الست الطويلة الحلوة، اسمها بثينة وهى أخت خميس».

كان الفضل فى معرفة كل تلك المعلومات والتفاصيل عنها يرجع إلى عم طه، فبدونه لكان عالم النسوة فى نشاوى المنغلق عليهن قد أصبح أكثر انغلاقا وبُعدا عنى أنا أكثر من أى رجل آخر، حيث إننى مختلف عنهم فى عدم وجود قريبات يعشن معى فى القرية ويمكن اطلاعى على هذا التاريخ الموازى للرجال.

كنت قد سألت عم طه عن بثينة فى أول يوم قابلتها فيه، وهى فى الحقول خلال موسم حصاد الأرز، وكان معها خميس وبقية العائلة. لم أكن أعلم حينذاك من هى، ذلك لأنه يحدث دائمًا أن أسماء الرجال فقط هى التى تذكر. ولكن بينما كنا نتحدث، أشار شخص ما إلى الطفل الذى تحمله بين ذراعيها وقال ضاحكًا إنه ابن خميس. وحسب معلوماتى فلم يتحدث شخص أبدًا عن هذه الأمور، فلذلك كان من الطبيعى أننى استنتجت أنهما متزوجان أى زوج وزوجة.

صحّح عم طه معلوماتى بمجرد أن وصفتها له. قال موضحًا وهو يضحك ويسعل فى آن واحد أن السيدة التى رأيتها لم تكن زوجة خميس، لا يمكن أن تكون هى إذا كانت تحمل طفلاً بين ذراعيها لأن خميس لم يكن له أى ذرية، كان قد تزوج فى سن الخامسة عشرة منذ سنوات عديدة، وعندما فشل فى إنجاب أى أطفال قام بالزواج للمرة الثانية، ولكن بدون أى طائل. أثار هذا الزواج فضيحة لأن زوجته الأولى هاجت وماجت، وأعلنت للعالم أجمع أن العيب فيه فى عدم إنجاب أطفال والعيب ليس منها. وبعد كل تلك الزوبعة، لم يحدث الزواج أى اختلاف، فقد ظل بدون أى ذرية وكان عادة مادة للتندر عليه من قبل العديد من إخوانه الذكور الذين تزوجوا وكوّنوا عائلات الآن والذين لم يترددوا فى السخرية منه على الرغم من أنه كان أكبرهم سنًا وأطولهم مدة من حيث الزواج.

قال لى عم طه وهو يهز إصبعه فى اتجاهى «علشان كده مش ممكن تكون اللى شفتها مرات خميس، فى الغالب تكون أخته بثينة

التى رجعت لنشاوى مع ولادها».

كانت بثينة قد تزوجت من رجل منذ زمن طويل، هذا الرجل كان يقيم فى نخلتين التى تبعد كثيرًا عن لطيفة. وعلى الرغم من أنها قد أنجبت من زوجها ولدين لطيفين يتمتعان بصحة جيدة فإن الزوج والزوجة لم يكونا على وفاق. فقد كانا يتشاجران طوال الوقت على كل شىء وأى شىء حتى وصلت الأمور بينهما إلى طريق مسدود دفعت الزوج لأن يصرح أنه سوف يتزوج للمرة الثانية. قالت له بوضوح تام حينئذ أنها سوف تهجره إذا ما قام بهذه الفعلة، ومن المؤكد أنها حينما سمعت الإشاعات أنه تقدم لأب إحدى الفتيات، جمعت أغراضها وثيابها وأبنيها وحللها وأثاث بيتها ورجعت إلى نشاوى مصطحبة أولادها معها. عادت مرة أخرى إلى بيت أبيها الذى كان مكتظًا بخميس وكل إخوانها الآخرين وأولادهم.

قال الشيخ موسى معلقًا على هذا «ده كان حيحصل. ما كانتش بتسمع رأى حد. هى وجوزها كانوا بيتخانقوا ليل نهار علشان كانت عنيدة فى كل حاجة».

هز رأسه بطريقة تنم عن الأسى، وهو يمر بيديه على ذقنه المغطاة بشعيرات بيضاء.

قال مضيفًا «السبب فى كده هو أصلها. كل عيلة الجمال بالمنظر ده. كلهم صعب وبيتخانقوا مع دبان وشهم. والبعد عنهم غنيمة».

لم يكن ينظر إلى، ولكن كان هناك شىء فى طيات كلامه يحذرنى من عدم الإفصاح له عن أول مقابلة لى مع خميس وعائلته.

كان زغلول النسّاج هو الذى قام بعملية التعريف. كان ذلك وقت حصاد الأرز فى أواخر الخريف، وكان قد لمحنى بينما كنت أمشى فى الحقول وأنا ممسك بدفتر مذكراتى ونادى على من على بعد «تعال هنا ياضكتور - تعال بسم الله اتفضل كل معانا هنا».

كان يجلس مع مجموعة أخرى من الناس على هضبة تظللها الأشجار وكان مقام فوقها ساقيتين خشبيتين، كان هو والرجال الآخرون يجلسون وهم مربعو الأرجل حول صينية كبيرة مصنوعة من الصفيح، أدركت من عدد الأطباق أصناف الأكل المختلفة أمامهم أنهم كانوا يتناولون وجبة غذاء تتميز بالبذخ التى عادة ما تقدم أيام الحصاد. كانت النساء اللاتى أحضرن الطعام لهم جالسات جلسة القرفصاء حولهم ويقومن بين الحين والآخر بإمدادهم بأصناف الأكل المختلفة من أرز وجبن وسلطة وسمك.

انسحبت إحدى النساء قليلاً عن بقية المجموعة، كانت تجلس بمفردها وهى تستند على شجرة وتغطى أكتافها بإيشارب ملقى بطريقة غير منتظمة وهى تحمل رضيعًا يرضع من ثديها. نظرت إلى بينما كنت أعبر حقول الأرز التى تم حصادها مؤخرًا، وهى تنظر إلى نظرة ثابتة ومتسائلة، وعندما انزاح الإيشارب بدون قصد منها من على صدرها قامت بإدخاله دون أدنى بادرة أو إشارة تنم عن اضطراب أو خجل. كانت ذات وجه عريض بيضاوى الشكل ذا ملامح محددة للغاية وعينين تشعان بالبريق ونظرة مباشرة.

عندما وصلت إلى التبة مد زغلول يده لى وهو يضحك بصوت جهورى قائلاً «الناس دول كانوا مرعوبين لما شافوك جاى ناحيتنا

علشان الدفتر اللى شايله فى أيدك. كانوا بيفتكروا أنك أفندى من دمنهور جاى يتأكد إذا كان فيه حد هربان من الخدمة العسكرية».

ألقى نظرة على وجوه الموجودين حوله التى كستها الابتسامات الخجولة، بينما كان وجهه الصغير الآخذ فى الصغر بفعل الزمن، يتغضن بفعل الابتسامات.

قال «قمت رحت قايل لهم الحكاية مش كده، ده مش مفتش الجيش، ده حتى مش أفندى أو دكتور بيطرى ـ ده الضكتور من الهند، اللى عندهم أشباح زينا زيهم تمام».

قال الرجل الجالس بجواره وهو فلاح شاب ذو ملامح حادة ويلبس جلابية بنية اللون «أهلاً، أهلاً، أنت بأه الضكتور من الهند؟»

رددت عليه «أيوه، وأنت مين؟»

عندما أجابنى شخص ما «ده الفار، ما تروحش ناحيته أبدا» أثارت كلماته عاصفة من الضحك.

قال زغلول وهو يضحك أكثر من أى شخص آخر إن اسمه خميس الفار، وأن الآخرين الجالسين فى هذا المكان كانوا إخوانه وأقرباءه. أضاف موضحًا أن أرضهم كانت بمحاذاة بعضها البعض ولذلك فإنهم كانوا دائمًا ما يعملون فى شكل مجموعة. كانوا يعملون اليوم فى أرض عائلة خميس، وسوف يكون الدور على أرضه فى الغد وهكذا دواليك، حتى ينتهوا من عملية حصاد الأرز التى تستغرق أسبوعًا واحدًا من العمل الشاق الدؤوب والطعام الجيد.

صاح خميس «أنت ليه لسه واقف يا ضكتور؟ أنت جاى من مسافة طويلة ومش ممكن ترجع لبلدك تانى قبل الغروب ، فالأحسن لك تقعد معانا شوية».

قام من جلسته وهو يبتسم بينما كان يدق الأرض تحته . كان فى منتصف العشرينيات أى فى نفس عمرى تقريبًا، كان نحيفًا بطريقة مخيفة لدرجة أن عظامه كانت بارزة وكان ذا وجه رفيع دائم الحركة، ولقد لفحته الشمس بشدة. وبالرغم منى شعرت بالألفة وأنا فى صحبته إذ كان لديه بريق فى عينيه وحركة فمه سافرة إلى حد ما جعلتنى أربط بينه وبين المقاهى الموجودة فى دلهى وكلكتا، كان يبدو أنه ينتمى إلى عالم مألوف لدى يتضمن غرف الدراسة، والبروفات التى تقام فى ساعات متأخرة من الليل والقهوة السادة.

مال إلى الوراء لكى ينظر مليًا إلى بينما كنت أقوم بالجلوس، وهو يقوم بفحصى بعينيه الحادة الساخرة.

قال بينما كنت أجلس متربعًا بجواره «طيب ياضكتور. قل لى هو اللى بيقولوه صحيح أن فى بلدك بيحرقوا الأموات؟».

بمجرد أن تفوه بهذه الكلمات ضمت النساء الموجودات أياديهن إلى قلوبهن، وصحن بنبرات فزعة لاهثة «حرام! حرام!» وبدأ العديد من الرجال يهمهمون بدعوات داعين الله سبحانه وتعالى أن يعيذهم من الشيطان الرجيم.

أصبت بالفزع، فلقد كان هذا سؤالاً يواجهنى بصفة يومية تقريبًا، وبما أننى لم أكن قد توصلت إلى مرادف أو مقابل لكلمة

باللغة العربية، فلقد عرفت إننى لابد أن أوافق على المصطلح أو الكلمة التى استخدمها خميس وهى فعل «يحرق».

وهى نفس الفعل الذى يستخدم بالنسبة للخشب والقش والذين أصابتهم لعنة الله إلى الأبد.

رددت قائلاً «أيوه» وأنا أعلم انى لن استطيع أن أمنع النتيجة الحتمية «أيوه، ده صحيح، بعض الناس فى بلدى بيحرقوا الأموات».

قال خميس بنبرة حاول أن يبدو فيها مفزوعًا «أنت تقصد أنكم بتحطوا الأموات على كومة خشب وبمنتهى البساطة بتولعوا فيهم؟».

رددت سريعًا «أيوه» آملاً أن يصيبه السأم من هذا الموضوع.

ولكن لم يكن الأمر بهذه البساطة، فسألنى بإلحاح «ليه؟ هو فيه عندكم فى بلدكم نقص فى الولعة؟

رددت موضحًا «لا، أنت مش فاهم».

حاولت أن أشرح أن هناك كلمة معينة لهذه الاحتفالية الخاصة، ولهذه الطقوس والشعائر وأنها لا تشبه أبدًا إشعالاً بواسطة عود كبريت، إلا أنه يبدو وكأننى لم أتفوه بأى كلمات للتوضيح.

سألنى خميس «وحتى العيال؟ أنتم كمان بتحرقوا العيال الصغيرة؟»

تكلمت الآن بثينة للمرة الأولى «طبعًا مش ممكن!»، وهى غير مصدقة بينما كانت تحتضن رضيعها بشدة إلى صدرها «مش ممكن

يكونوا بيحرقوا العيال الصغيرة اللى بتموت ـ مفيش حد يعمل كده أبدًا».

صاحت فى «لكن ليه؟ ليه؟ هم الناس يعنى سمك تشووه على النار؟».

قلت «أنا مش عارف إيه السبب، دى التقاليد والعادات -ده اللى الناس كانوا متعودين عليه لما اتولدت، أنا مش مسئول عنه ولا لى أى دخل فيه».

علق زغلول بنبرة حكمه تغلف كلماته، وهو ينظر إلى الأفق البعيد «الحقيقة مفيش حاجة تتحكى الواحد يستعجب منها. ده حتى الناس فى بلاد نم نم الناس بتآكل أمواتهم. أنا عمى قال لى كده ـ دى عاداتهم وما يقدروش يتخلصوا منها».

ولكن قاطعته بثينة بحدة قائلة »بطل هلفطة يا زغلول «ثم استدارت ناحيتى وركزت انتباهها على.

قالت لى بنبرة حازمة «أنتم لازم تحطوا نهاية للتقاليد دى. لما ترجع بلدك لازم تقولهم عن عاداتنا وتقاليدنا».

وعدتها قائلاً «أيوه أنا حأقول لهم ولكن أنا مش عارف إذا حيسمعوا كلامى. أصلهم عنديين جدًا، بيعملوا نفس الحاجة سنة ورا سنة».

فجأة صفق خميس بيديه وتهلل صائحًا أنا أقولك لك ليه بيعملوا كده. بيعملوا كده علشان ربنا ما يعاقبش أجسامهم يوم

القيامة».

انفجر الآخرون فى الضحك بينما كان ينظر حوله فى زهو وخيلاء، وكانت عيناه تشعان بنشوة الاكتشاف. قال «شوف، هم الحقيقة ناصحين قوى، هم بيحرقوا أجسامهم علشان ما يفضلش حاجة تتعاقب وتتعذب وبكده ما يكونش فيه عذاب للذنوب اللى عملوها».

قلت «لا، لا، ده مش صح»، قلتها وأنا أشعر بنوع من الإهانة لهذه التهمة، إلا أننى ما كدت أبدأ فى المناقشة حتى تبينت أن التفسير الذى قدمه خميس لم تكن النية وراءه هى الاستهزاء أو التسفيه: فعلى العكس من ذلك فقد اعتراه نوع من الإعجاب الممزوج بالفزع لدهاء «ولاد بلدى» ـ وفيما يتعلق به فقد أصبحنا أصدقاء الآن، وأصبح تحالفنا الآن مختومًا ومصدقًا عليه بهذه الخدعة الشجاعة.

قال زغلول وهو يرفع يده للآخرين طالبًا منهم أن يصمتوا «طيب، قلى لى، هو الناس فى بلدك عندهم كتاب مقدس زى اللى عندنا؟».

قلت وأنا أتمهل لأفكر فى إجابة تكون مختصرة وحقيقية فى نفس الوقت «أيوه، عندهم كتب مقدسة كتيرة».

«وعندكم نبى زينا؟».

رددت بإيماءة سريعة، وبما أننى كنت قد سئمت الحديث فى هذا الموضوع فقد حاولت أن أدير دفة الحديث إلى مواضيع تتعلق

بالزراعة بأن أسأل عن الفوسفات وزراعة الأرز. إلا أن زغلول، كما اكتشفت بعد ذلك، كان يمتلك الصبر والإصرار اللتين يتحلى بهما من يشتغلون بحرفة النسيج، ولم يكن ليسمح لأحد أن يجعله يحيد بسهولة عن مساره. كلما استقر رأيه وعزم على موضوع معين.

سألنى «ومين بأه النبى بتاعكم. اسمه إيه؟» قالها وهو يتجاهل أسئلتى.

لم يكن لدى أى خيار سوى أن ارتجل واخترع وبعد لحظات قليلة من التفكير قلت «البوذا».

صاح خميس «مين؟ إيه ده اللى قلته؟».

رددت بصوت خفيض «البوذا» بينما كان زغلول ينظر إلى الآخرين فى ذهول ودهشة بالغة ثم صاح قائلاً «وده مين ده بأه؟ كل الدنيا عارفة أن النبى بتاعنا، الرسول من عند ربنا صلاة الله وسلامه عليه كان آخر رسول ونبى. ده مش نبى بصحيح اللى بيقول عليه».

مال خميس إلى الأمام ثم نقر بأصابعه على ركبتى قائلاً «طيب يا ضكتور. قول لنا حاجة تانية كمان. هو بصحيح الكلام اللى بيقولوه؟ أنت صحيح مجوسى، وأن فى بلادكم كل الناس بتعبد البقر؟ هو حقيقى أن من كام يوم لما كنت ماشى فى الغيطان شفت راجل بيضرب بقرة فزعلت جداً لدرجة أنك عيطت وجريت على بيتك؟».

قلت موضحاً «لا، مش حقيقى» إلا أن تلك كانت محاولة يائسة

فلقد عرفت من التجربة أنه لا يوجد لدى أى كلام يمكن أن أقوله استطيع أن أغلفه بالكذب بطريقة تجعلهم يصدقوننى.

«أنت غلطان. فى بلدى الناس بتضرب البقر طول الوقت، بأحلف لك على كده».

قال شخص آخر «طيب قول لنا، أنتم فى بلدكم عندكم خدمة عسكرية زينا هنا فى مصر؟».

رددت عليه بالنفى، وفى محاولة لتخفيف الصدمة التى أحدثها هذا الكشف، بدأت فى شرح أنه كان يوجد أكثر من ٧٠٠ مليون نسمة فى بلدى، وفى حالة وجود خدمة عسكرية فإن الجيش سوف يكون أكبر من حجم سكان مصر أجمعين، ولكن قبل أن انتهى، قامت بثينة بمقاطعتى، وهى ترمى بأيديها فى الهواء وبصيحة تنم عن اليأس قالت «كل حاجة فى البلد لدى متشقلبة. قول لنا يا ضدكتور فى بلدكم على الأقل عندكم محاصيل وغيطان وترع زينا كده؟».

قلت «أيوه، عندنا محاصيل وغيطان، بس مش دايما عندنا ترع. فى بعض أماكن فى بلدى احنا مش محتاجين لها، لأن الدنيا بتمطر طول السنة».

صاحت فى دهشة وهى تخبط جبهتها بكف يدها «يا سلام ! يا ناس يا هو سامعين اللى بيقوله؟ يا حفيظ يا رب! الدنيا بتمطر طول السنة فى بلده».

صار لونها شاحبًا من فرط الدهشة وتساءلت «طيب قول لنا،

اشرأب برأسه حتى يتمكن من أن يتأملنى مليًا، وكما لو أن فكرة الرحلة قد ملأته بالفعل بالفزع.

قلت «لا، يا زغلول» بعد ذلك بدأت فى التفكير فى كل الأسباب للحيلولة دون السفر من مصر إلى الهند على ظهر حمار، اجتاحتنى حمى الخيال وبدأت فى التحدث كما لم أتحدث من قبل سواء فى لطيفة أو نشاوى عن التأشيرة الواجب أخذها لدخول البلد، وعن الحجر الصحى، وعن حزام الحرب الذى يمتد من العراق إلى أفغانستان، وعن الحرارة الحارقة فى الدشت الكبير، وعن طول الكوش الهندى، وعن الفهود المتجولة التى تعيش فى الصقيع، وعن غزارة شعر وصوف ثور التيبت الضخم الطويل. ولم ينصت لى أحد باهتمام سوى زغلول، ولمدة شهور طوال بعد ذلك عندما كان يقوم بتقديمى لأى شخص، كان يقول لهم بنبرة صوت يغلفها الانبهار والدهشة عن بعد المسافة التى تفصل بين مصر وبلدى، وعن الصحارى والحروب والجبال التى تفصل بين الهند ومصر، وعن المصير الأسود البشع الذى سيقع على رأس أى شخص إذا فكر فى الذهاب إلى هناك على ظهر حمار.

بالنسبة لى، كان هناك شىء رائع يتعلق بنبرة الدهشة التى غلفت صوت زغلول عندما كان يتحدث عن الترحال، ذلك أن أمر الترحال لم يكن يثير أى نوع من التعجب لدى جيرانه البتة. كانت المنطقة المحيطة بنشاوى تتسم بأنها غير مستقرة بالمرة، وفى بعض الأحيان كان يبدو أنها تمتلك كل مظاهر الحركة الدائمة التى تميز مناطق

ثم مد يده وضغط على قفاه حتى تململ فى ضجر. قال لى «إيه اللى حيحصل لو الواد عيد خبط على باب بيتك فى الهند وقال: فيه حد جوه؟».

قلت «فيه حد حيفتح الباب، وعيلتى ممكن ترعاه».

بدت مظاهر الامتعاض على وجه خميس «أنت تقصد أنه مش حيولعوا فيه النار علشان يتعاقب على ذنوبه؟ إيه فايدة أننا نوديه الهند؟».

انطلق الجميع فى الضحك حتى مالوا برؤسهم للوراء، إلا بثينة التى مالت تجاهى وربتت على ذراعى قائلة بينما كان يبدو عليها تقطيبه على وجهها «الأحسن لك ما ترجعش أقعد هنا وخليك مسلم واتجوز بنت من الكفر».

كان زغلول الآن فى حالة توتر وقلق شديدين وهو يقطب جبينه ويهز رأسه كما لو أنه قد يئس من متابعة الحوار.

انفجر موجهًا لى سؤالاً «ولكن قول لى يا ضكتور ـ هى فين بلدك دى. ممكن توصلها فى يوم زى الناس اللى بتروح العراق وبلاد الخليج؟».

قلت موضحًا «تقدر تعمل كده، لكن بلدى أبعد بكتير جدًا عن العراق، على بعد آلاف الكيلومترات من هنا».

قال «قول لى حاجة يا ضكتور، لو ركبت حمارى، لامؤاخذة يعنى فى دى الكلمة، ومشيت ومشيت ومشيت لمدة أيام طوال، ممكن أوصلك لبلدك فى الآخر؟».

فى اتجاه الجنوب. فى القرن الثانى عشر كانت أكبر تلك المناطق وأكثرها استخدامًا مكانًا يُسمى قوص، وهى الآن مدينة صغيرة متواضعة على بعد مسافة قريبة شمال الأقصر. كان الرحالة العربى الأندلسى، ابن جبير الذى سافر على هذا الطريق بعد مضى ستين سنة بعد بن بيچو، قد أمضى عدة أسابيع هناك فى انتظار قافلة جمال لكى يقوم بالمرحلة التالية فى رحلته، قام بتسجيل ملاحظاته أن هذه البلدة تتمتع بصفة العالمية (الكوزموباليتنية) بطريقة تدعو إلى الإعجاب، ذلك أنه كان يتواجد بها تجار من جنسيات عديدة مثل اليمنى والحبشى والهندى يمرون «عبر محطة للمسافرين، ومكان تجمع للقوافل، بالإضافة إلى كونها بقعة التقاء للحجاج».

فى يوم الاثنين السادس من يونيو ١١٨٣ أخذ ابن جبير ورفقاء الرحلة أمتعتهم إلى بقعة تحفها أشجار النخيل على مشارف البلدة حيث كان هناك العديد من التجار والحجاج مجتمعين ليلحقوا بإحدى القوافل، تم وزن أمتعتهم وتحميلها على ظهور الجمال، وبدأت القافلة فى التحرك بعد أداء صلاة المغرب. وطوال الأيام السبعة عشر التالية كانوا يتحركون ببطء عبر الصحراء، على مدق يقع فى الجنوب الشرقى، وهم ينصبون خيامهم ليلاً ويسافرون طوال النهار، ساعدهم فى ذلك وجود درب محدد المعالم لآبار للشرب منها، وطوال الطريق كانوا يمرون بقوافل مسافرة فى الطريق المعاكس، مما جعل «النفايات الكريهة وغير ذات الفائدة دليل على وجود حياة». عند أحد الآبار حاول ابن جبير أن يحصى عدد القوافل التى مرت بهم، إلا أن عددهم كان كبيرًا بحيث إنه لم

الانتظار فى المطارات. وفى الحقيقة كان هناك سجل طويل للترحال يمكن تبينه بوضوح فى أسماء «العائلات» المقيمة فى المنطقة، فهم كثيرًا ما كانوا يذكرون الروابط التى تربطهم بأجزاء ومناطق بعيدة من العالم العربى، على سبيل المثال مدن فى الشام والسودان والمغرب. لم ينته هذا الإرث المتعلق بالرحيل والترحال عند أسلافهم فقط، فقد كان هناك العديد من الرجال الذين ينتمون لجيل زغلول الذين كانوا «بالخارج» للعمل فى بلاد الخليج أو فى ليبيا، بينما سافر الآخرون إلى السعودية لأداء الحج، أو إلى اليمن عندما كانوا يحاربون. كانت جوازات سفر البعض منهم ممتلئة بالتأشيرات والأختام لدرجة أن الصفحات اختفت تحتها. ولكن، بالطبع كان زغلول وخميس غريبى الأطوار فى معظم الأشياء، وخاصة فيما يتعلق بالسفر والترحال، لدرجة أن العالم الخارجى كان يكتنفه العجائب والألغاز المتعلقة بالمجهول. ولهذا كان هذا ضمان أن تكون صداقتنا عميقة ومتينة.

٩

من المرجح أن رحلة بن ييجو من مصر إلى عدن والهند كان قد بدأها برحلة فى النيل تمتد قرابة أربعمائة ميل تجاه الجنوب.

من المحتمل أن الرحلة استمرت زهاء ثمانية عشر يومًا ذلك أن هذا كان يعنى أنهم كانوا يبحرون ضد التيار، أما الرحلة فى الاتجاه المعاكس فمن المحتمل أنها كانت تستغرق حوالى ثمانية أيام فقط. كانت عادة ما تنتهى المحطة الأولى فى الرحلة تجاه الشرق عند أحد معالم الطريق الرئيسية العديدة الموجودة على طول (امتداد) النيل

من عدد محدود من الأكواخ المبنية من القش بالإضافة إلى عدد قليل من البيوت التى تم بناؤه بعد ذلك من الجص، وهى منعزلة فى قطعة صحراء مترامية الأطراف قاسية لا زرع فيها ولا ماء. كانت المنطقة المحيطة بها تسكنها قبيلة كانت تنظر إلى التجار والحجاج الذين يعبرون خلال أراضيهم بعين الشك والريبة، بل وتتجاوز ذلك إلى حد العدوانية، كانت تلك المشاعر متبادلة بينهم وبين المسافرين مثل ابن جبير الذى ذكر «يمشى الرجال منهم والنساء خارج بيوتهم شبه عراة، فهم لا يلبسون أى شىء خلاف قطعة صغيرة من القماش تستر عوراتهم، ومعظمهم لا يفعل حتى ذلك. وهم باختصار سلالة لا تستحق الاحترام، ولهذا فإنها ليست خطيئة أن يصب المرء لعناته عليهم». لم ينم هناك أى زرع فى تلك البقعة الصحراوية القاحلة، فكان لزامًا إذن أن يتم استيراد كل شىء بواسطة السفن، بما فى ذلك الماء، والذى كان بالغ المرارة عندما يصل حتى أن ابن جبير وجده «أقل استساغة عن العطش» كانت هذه البقعة بكل ما تحمله الكلمات مكانًا قاسيًا وكريهًا ولا يشعر فيه المرء بإمكانية العيش فيه، وقد وصفها ابَن جبير بقوله «يعتبر المكوث فى هذه المنطقة أكبر فخ ممكن أن يقع فيه المرء أثناء سفره قاصداً [مكة]... يسرد الناس روايات عن الأشياء الكريهة فيها، حتى أنهم يقولون أن سيدنا سليمان ابن داود... اتخذ هذا المكان سجنًا للعفريت».

إلا أنه على الرغم من ذلك كانت تلك المجموعة من العشش الموجودة بين الصحراء والبحر تمثل ميناء منتعشًا يموج بالحركة والنشاط. وعلى الرغم من كل الكراهية التى كان ابن جبير يكنّها لهذا المكان، فإنه كان ضمن المسافرين الكثيرين الذين أصابتهم

يستطع إحصاءهم، اشتملت معظم ما يحملونه على بضائع من الهند، وخاصة كميات كبيرة من الفلفل كانت كثيرة للغاية لدرجة أنها كانت تبدو فى أذهاننا مساوية فى الحجم للتراب».

كانت الرحلة طويلة وشاقة، إلا أنه كانت هناك وسائل عديدة للتخفيف من هذه المشقة والعناء ـ فعلى سبيل المثال، فكان توجد محفات خاصة (مثل الهودج) تسمى شقاديف وكانت أفضلهم على الإطلاق تلك التى تُصنع فى اليمن. كانت تلك المحفات كبيرة ومتسعة ومغطاة بالجلد من الداخل ومغطاة بمظلة كبيرة. كانت تلك المحفات عادة ما تكون اثنتين، لكى يتحقق التوازن بين الواحدة والأخرى، حتى يتسنى لاثنين أن يسافرا على ظهر الجمل بقدر من الراحة النسبية، وهما محتميان من لهيب الشمس الحارقة. علق ابن جبير بقوله «أيما شخص اعتبره أمرًا مشروعًا أن يلعب الشطرنج مع رفيق الرحلة يمكنه أن يفعل ذلك، أما فيما يتعلق به فإنه كان على سفر فى رحلة حج، وبما أنه كان غير راغب أن يمضى الوقت فى أمور مشكوك فى شرعيتها، فقد مضى فى الرحلة »حفظ كتاب الله المجيد المعظم عن ظهر قلب».

فى يوم ٢٣ يونيو، وصلت القافلة إلى غايتها، وهو ميناء يقع على البحر الأحمر على ساحل ما يعرف الآن بشمال السودان. كانت قد مضت ثلاثة وخمسون يومًا منذ أن غادر ابن جبير مصر.

كان الميناء الذى وصل إليه يسمى بعيذاهب يشكل أحد الألغاز والأمور الغامضة الخاصة بطرق التجارة بين مصر والهند إبان العصور الوسطى. كانت نقطة حدودية بالغة الصغر، وكانت مكوّنة

الكفاية لكى يجعل لديه إصرارًا عجيبًا، فلذلك ظل يكتب رسائل إلى مضمون مرات ومرات، وفى آخر الأمر، وفى عام ١١٣٥، عندما كان بن ييچو قد أمضى بالفعل ثلاثة أعوام فى مانجالور قطع مضمون جزءًا من إحدى تلك الرسائل وأرسله إلى بن ييچو فى مانجالور، بالإضافة إلى رسالة منه شخصيًا.

كانت رسالة مضمون رسالة طويلة للغاية، وهى إحدى أهم الرسائل التى أرسلها، وعند نهاية الخطاب فقط يشير إشارة غامضة لرسالة الشكوى من إيداهب، فيقول فى ذلك «حامل هذه الرسالة سوف يحمل إليك رسالة من مخلوف والتى أرسلها من عيداهب، وأنا الآن بحوزتى أكثر من عشرين رسالة منه... لقد أصبح الآن عجوزا ومختل العقل. وهو على مشارف الموت ولا يعرف كيف يستمر فى الحياة».

ومن غرائب المصادفات أن هذه الرسالة نجت من الاندثار ومازالت موجودة وهى حاليًا محفوظة فى مكتبة جامعة كامبردج. وهى مكتوبة على قطعة ورق جيدة، وإن لم تكن أفضل أنواع الورق، وتبلغ حوالى قدم طولاً وحوالى أربع ياردات عرضًا. والورقة قد أصابها التلف وتغير لونها، فهى ممزقة من أعلى، ويوجد بها ثقب أو فتحة صغيرة تبدو أنها من أثر حرق. إلا أن الكتابة التى تمتد على الجانبين من أعلى إلى أسفل، واضحة ويمكن قراءتها بدون أى عناء أو مشقة، فهى مكتوبة بخط يمنى مميز. وتعبر عن الشكوى كالتالى:

«تحدث الشيخ إبراهام بن ييچو عن أنه قام بأخذ خمس عملات نقدية منى، ولكننى كلما

الدهشة من حجم التجارة فى عيداهب، فيقول فى ذلك «إنها أحد أكثر موانئ العالم استخدامًا، بسبب السفن اليمنية والهندية التى تبحر إليها ومنها، بالإضافة إلى سفن الحجاج التى تجىء إليها أو تغادرها».

ولمدة حوالى خمسمائة عام كانت عيداهب بمثابة إحدى أهم المحطات على الطريق ما بين المحيط الهندى والبحر الأبيض المتوسط. ولكن، انتهت حياة هذا الميناء وبطريقة فجائية فى منتصف القرن الخامس عشر: فببساطة تامة توقف عن الحياة، كما لو أنه قد تم محوه تمامًا من فوق الخريطة. لا تعرف على وجه الدقة الأسباب الحقيقية لزواله، ولكنه من المحتمل أن هذا الميناء قد تم تدميره والإجهاز عليه بأوامر من سلطان مصر حينذاك. على أية حال، فكل ما تبقى منه اليوم هو بعض الأطلال وكمية هائلة من الأوانى الصينية المدفونة فى باطن الأرض.

توجد قطعة ورق طريفة مثيرة ترجع إلى القرن الثانى عشر، وهى تربط ما بين إبراهام بن بيچو وبين هذا الميناء التعس. فهى تتضمن اتهام غاضب مصوب ضده، وهو الوحيد من رسائل عديدة من هذا النوع التى مازالت موجودة. إلا أنها لم تكن مرسلة إلى بن بيچو نفسه. وبطريقة غامضة، فقد وجهها كاتب الرسالة إلى الرجل الذى كان فى أفضل مكانة لكى يمارس نفوذه على بن بيچو، وكان هذا الرجل هو صديقه ومعلمه، نقيب التجار فى عدن مضمون بن بتدار.

لا يبدو أن مضمونًا قد أخذ الشكاوى على محمل الجد فى أول الأمر، إلا أن إحساس الرجل العجوز بالإهانة كان قويًا بما فيه

مختصر فى بند «المدين» الخاص بحساب بن بيچو لدى مضمون، يذكر فيه: «خاص بموضوع الشيخ مخلوف، ثلاثمائة دينار فقط لا غير».

ومن الواضح أن مضمونًا تمكن من إقناع بن بيچو أن يسدد دينه لدائنه اللحوح.

١٠

كما اتضح بعد ذلك، كانت بثينة لها يد، أو بالأحرى إصبع فى الأحداث التى أدت إلى لقائى الأول مع إمام، فقد كانت محض صدفة لدرجة كبيرة أنها حدثت أنها دفعتنى إلى حوار مع ابن الإمام فى سوق القرية.

لم يكن مصادفة أن ابن الإمام، ياسر، كان متواجدًا هناك هذا الصباح، فلقد كانت من تقاليد عائلته أن تلعب دورًا هامًا فى سوق الخميس كانت السوق تعقد على الأرض التى يتم فيها درس الحبوب، وكانت هذه الأرض تقع بجوار قبر جده سيدى أبو كنكة، فى نفس المكان الذى يقام فيه مولد الولى السنوى: وبطريقة ما كان المولد والسوق مثل التوءم المتماثل، على الرغم من أن أحدهما كان أسبوعيًا والآخر سنويًا، وكان أحدهما دنيويًا أما الآخر فكان من الواضح أنه أمر روحانى، فقد كانا، بفضل مكانهما، ينعمان ببركات وكرامات سيدى أبو كنكة، وكان وجوده الطيب الحميد يقف بمثابة الضمان فى التعاملات التى تتم فى السوق بنفس الطريقة التى كفلت الضمان بقدسية المولد. ولهذا السبب، فقد كان من نصيب

قابلته يتشاكس معى، مما دعانى للتخوف منه. وفى كل مرة يقول لى: امشى من هنا، «أذهب لتموت» حوالى مائة مرة... [سيدى مضمون] يتعامل معى بما يتناسب مع أخلاقه الحميدة وتقاليده النبيلة، وقد قال لى إنى يجب أن ألجأ إليكم... [ولذلك فأنا أطلب من جنابكم المعظم أن تتصرف فى هذا الأمر، حتى تستعيد منه نقودى... أرجو أن تساندنى فى هذا الأمر وأن يقوى قلبك على ذلك.

يا سيدى... وأن تمد يد العون لى...»

لا يعرف أى شىء آخر سواء عن كاتب هذه الرسالة أو أين تقابل الرجلان. على أية حال، فقد شعر الشيخ العجوز بوضوح تام أن بن بيچو كان يدين له بمبلغ ضخم من المال لكى ينقل له بضاعة تساوى خمسة أبحر (عملات نقدية). وكما اتضح بعد ذلك، فقد نجح هذا الشيخ فى نهاية الأمر فى إقناع مضمون بدعواه. من المحتمل أن تعليقات مضمون الهازئ بالشيخ العجوز يكون مردها أنها مجرد لفتة يحاول فيها ألا يجرح شعور بن بيچو: فمن غير المحتمل أنه قد قام بإرسال الخطاب كل هذه المسافة إلى مانجالور إذا لم يكن يعتقد أن شكاوى الشيخ العجوز لا أساس لها.

قد يوجد هناك دليل آخر قد يلقى بالضوء على تلك الحادثة. وهذا الدليل متضمن فى خطاب كتبه مضمون لابن بيچو، وهو قيد

أبدًا أى شىء يتعلق بقص الشعر، كان ياسر على النقيض من ذلك، قد روض نفسه على أن يمارس المهنة بقدر كبير من الاستمتاع. كان الإمام فى أخريات أيامه قد تخلى عنه معظم زبائنه، ذلك لأن مقته لهذه المهنة أدى به فى نهاية الأمر أن تطيش شفرة الحلاقة التى يستخدمها مما أدى لإحداث إصابات لزبائنه، وأدى ذلك بالتبعية أن القليل النادر من الناس فقط هم الذين كانوا على استعداد أن يجلسوا فى سكون تام ويسلموا أنفسهم له بينما كانت شفرة الحلاقة الحادة تصول وتجول فوق رقابهم العارية أو تحت إبطهم المكشوفة.. ولكن، وفى اللحظة المناسبة تمامًا، ظهر ياسر، وأبدى الابن تكريسًا وإخلاصًا غير متوقع لمهنة أسلافه التى كانت آخذة فى الانهيار، وبذلك فقد حول هذا العمل إلى مهنة تدر أرباحًا وفيرة.

فى السنوات التى سمح فيها الإمام لزبائنه أن يبتعدوا عنه، اتخذ العديد من الناس مهنة قص الشعر لتدر عليهم نزرا يسيرا من المال الإضافى. كان فى ذلك الوقت حوالى ستة حلاقين فى نشاوى، الذين كانوا معتادين على الذهاب لكل بيوت القرية، من بيت إلى بيت، لكى يقوموا بقص شعور زبائنهم ويضربوا حقنًا مقابل خمسة عشر قرشا لكل حقنة. إلا أن ياسر كان متفوقًا عليهم لأنه كانت لديه ميزة لم تكن لديهم وذلك أنه كان الوحيد فى القرية فى هذه السن الذى كان يحق له الادعاء أنه ولد والمقص فى يده. وعندما بلغ مبلغ الرجولة أبلى بلاء حسنًا بالنسبة لعدد الزبائن المتوافر لديه آنذاك فافتتح محل حلاقة صغيرًا، وهو الأول من نوعه فى المنطقة بأسرها.

الأحفاد، بصفتهم المجازية كقائمين على ممتلكاته الروحية، أن يقوموا بتحصيل جزء من العائد المادى الذى يتم داخل السوق.

أعطت اللجنة المنظمة لمسجد القرية ياسر حق بيع التذاكر لكل تاجر يأتى إلى السوق، وبذلك فإن كل شخص ينتفع من سوق الخميس يقوم بمساهمة صغيرة للمحافظة على قبر الولى فى أحسن حال، وكذلك لصيانة مسجد القرية ومن المحتمل أيضًا حتى فى أعمال الإغاثة فى أفغانستان. وفى وقت من الأوقات قام الإمام بجمع المال بنفسه، ولكن بتقدمه فى السن ورفضه المتزايد أن يمضى وقته فى أمور تتعلق بالعمل اليومى، وقد أوكل إلى ابنه القيام بالكثير من مسئولياته، والآن جاء دور ياسر لكى يقوم بجولاته فى السوق كل صباح خميس.

كان ياسر رجلاً لطيفًا بشوشًا، على الرغم من أن تعارفنا لم يتعد أبدًا أكثر من تبادل كلمات قليلة لطيفة، فإنه كان يلقى بتحية ودودة عندما كنا نتقابل بالصدفة فى أزقة وحوارى القرية. كان فى حوالى أوائل الأربعينيات من عمره، طويلاً ذا صدر عريض وكان دائمًا ما يلبس عمامة بيضاء طويلة مثل أبيه ـ وهى نوع من غطاء الرأس يميز الرجال الذين يمارسون أنواعًا معينة من التجارة، فمثلاً كانت الطواقى الشبيكة تميز الرجال المتعلمين، بينما كان الفلاحون يلبسون الطاقية الصوفية المغزولة من الصوف. ومثله مثل الإمام الشيخ العجوز، كان ياسر قد تعلم كيفية قص الشعر وكل شىء آخر يتعلق بالمهنة التى توارثها عن أسلافه. ولكن، بينما لم يحب الإمام

ضحك عم طه على نهاية القصة ملء فمه وبسعادة بالغة وهو ينظر إلىّ خلسة نظرة ذات دلالة، لكى يعلمنى أنه إذا كان قد تآمر مع قوتى الشر التى علمت شحاتة بسيونى درسًا لن ينساه، إلا أن عم طه لم يكن ليُقِّر ذلك أو ينفيه، ولكن حتى عم طه كان مستعدًا لأن يقر أن ياسر كان موفقًا فى محل الحلاقة، فى الحقيقة كانت لديه رغبة شديدة لدرجة أننا عندما مررنا بمحل ياسر رأيته يتلو بعض الدعاء لكى يحفظه الله من عين عم طه الحسودة.

كان محل ياسر الآن هو محل الحلاقة الوحيد فى المنطقة المحيطة بنشاوى أقرب محل حلاقة حيث كان يقع فى منتصف المسافة إلى دمنهور. وعلى مدى السنوات القليلة الماضية توافد رجال كثيرون يقطنون القرى والكفور المجاورة لمحل ياسر، لم يكونوا مجرد زبائن أبيه القدامى ولكن كان يحضر إليه رجال متعلمون من أمثال الأستاذ صبرى الذى كان باستطاعتهم الذهاب بكل سهولة ويسر إلى محال حلاقة فى المدينة. ولكن على الرغم من جهوده المضنية التى بذلها، لم يستطع ياسر أن يوفق حتى هذا فى إقناع طلبة الجامعة من أمثال نبيل وإسماعيل أن يحضرا إلى محله، وكان هذان هما أحد الأمثلة التى لم يكونا راغبين فى اقتفاء أثر الأستاذ صبرى. كانا على استعداد تام أن يقرا أن ياسر كان حلاقًا ماهرًا للغاية، أكثر مما هو مطلوب للفلاحين وأهل القرى، ولكن فيما يتعلق بهما، فإنهما كانا يوفران عملات النقود المعدنية الصغيرة، فى انتظار زياراتهما الشهرية للمحل الوحيد الموجود فى دمنهور الذى يمكن الوثوق به لكى يقوما بعمل قصات الشعر التى كانا يفضلناها.

أشار عم طه إلى المحل ذات مرة عندما كنت معه وتصادف أن مررنا أمامه. كان محلاً بسيطًا للغاية مكونًا من غرفة صغيرة بها كرسيين اثنين فقط، بالإضافة إلى مكتب خشبى يضع فوقه مقصاته وشفرات الحلاقة، وكذلك مرآة معلقة على أحد الحوائط المبنية من الطين، وكذلك قليل من الصور على سبيل الزينة، وكانت من بين تلك الصور ملصق عن فيلم «سانجام» بطولة راج كابور، وكان قد أخذه من إحدى دور السينما فى دمنهور.

قال عم طه إنه كان هناك بعض الناس الذين حذروه من هذه المغامرة. وذلك لأن الأفكار الجديدة لم تكن عادة تُتقبل قبولاً حسنًا فى نشاوى. فعلى سبيل المثال كانت هناك قهوة شحاتة بسيونى التى حبذها الجميع وقالوا عنها أنها فكرة حسنة فى بادئ الأمر، خاصة الموظفين الصغار الذين كانوا يفتقدون للمقاهى التى اعتادوا ارتيادها فى فترة دراستهم بالمدينة. فلذلك أقدم شحاتة بسيونى على تنفيذ مشروعه بأن أحضر القليل من الموائد الحديدية والكراسى، وكذلك بعض الشيشة لرواد المقهى من المدخنين، كما أتاح طقمين من الشطرنج ومثلهما من الطاولة. وفيما يتعلق به فإنه كان يعتبر نفسه صاحب عمل أو رجل أعمال ولكن فى نهاية المطاف فكل ما تمخض عنه المشروع أن بعض العاطلين كانوا يقصدون محله ويمضون الأيام الطوال هناك، بدون أن يطلبوا أى شىء لاحتسائه يقومون بسرقة قطع الشطرنج، وكذلك انفجرت بعض معارك عدة مرات، وفى نهاية المطاف، ولكى يحافظ شحاتة بسيونى على راحة باله، قام بإغلاق المحل.

تبدو حوائط بيوت القرية الطينية ذات الظلال والألوان القاتمة البنية المائلة للون الرصاصى متشوقة للمسات من الألوان فى الأيام الأخرى غير أيام السوق. إلا أن تلك الحاجة أو التشوق كانت تُشبع على أكمل صورة صبيحة أيام الخميس من كل أسبوع.

كان عادة ما يكون التجار المحترفون والباعة الجائلون هم أول من يقيمون الأكشاك التى سوف يعرضون فيها بضاعتهم. كانوا يبدأون فى التوافد فى الصباح الباكر فى عرباتهم البسيطة الصغيرة التى تجرها الحمير، وكان أولهم بياعى السمك والجزارين وبائعى الفاكهة وتجار الأقمشة ومن يقومون بإصلاح الساعات وكثيرين آخرين ممن هم أقل شأنًا وليس لهم مهنة محددة. كان عادة ما يحضر الهواة بعد ذلك بفترة قليلة، وكانوا عادة من النسوة وهن ملتحفين بشدة بالملابس السوداء، حاملات السلال المصنوعة من السعف الممتلئة حتى آخرها بالطماطم والجزر والقرنبيط، وتختلف الخضراوات طبقًا للموسم. وبمجرد أن تطأ أقدامهن أرض السوق يبدأن فى المناداة بكلمات التحية لأصدقائهن أو إلى أقاربهن من القرى الأخرى أو لإخواتهن اللاتى تزوجن وأقمن فى كفور ونجوع بعيدة، كان يفردن أفراخًا بلاستيكية لتغطية الأرض المتربة، ثم يقومن بعمل أكوام من الخضراوات أو الفاكهة أو أى شىء آخر قد قمن بجمعه من قطع الأرض الخاصة بهن هذا الصباح، ثم يجلسن القرفصاء وراء بضاعتهن المكومة أمامهن، ثم يبدأن فى استعادة وإحياء العلاقات الكثيرة التى توقفت منذ الأسبوع الفائت.

كان محل ياسر يقع فى الغرفة الأمامية فى البيت الصغير الذى كان يقطنه مع عائلته، وكانت والدته وهى زوجة الإمام الأولى تسكن معهم، انتقلت أمه إلى هذا البيت عندما كان ياسر مازال صبيًا بعد فترة وجيزة من زواج الإمام للمرة الثانية. أصيب الإمام بالغم والهم حينذاك، على الرغم من أنهما انتقلا إلى الجانب الآخر من الميدان، ذلك لأن ياسر كان ابنه الوحيد، وكانت فكرة ابتعاد ابنه عنه أكثر مما يتحملها. فى نهاية الأمر وبداعى الرأفة والشفقة عليه، سمحت أم ياسر لأبيه أن يحضر لبيتها مرة واحدة يوميًا أثناء تناولهما وجبة الغداء. تم الالتزام بهذا الاتفاق، ومنذ هذا الحين كان إمام إبراهيم معتادًا على الحضور للبيت مرة يوميًا، بعد صلاة الظهر.

كان ياسر معتادًا على بدء العمل فى الصباح الباكر، بعد صلاة الفجر بفترة وجيزة، وحسب تدفق الزبائن، كان يعمل حتى تحين صلاة الظهر، عندما يذهب لتناول الغداء مع أبيه. إلا أنه فى أيام الخميس كان يومه يتوقف ذلك لأنه كان يغلق محله طوال الصباح، ويضع دفتر التذاكر تحت ذراعه ثم يذهب ويلقى بنفسه فى خضم الحشود المجتمعة الذين يتوافدون لزيارة قبر جده، سرعان ما تتوه عمامته البيضاء فى خضم بحر الألوان التى تتدفق على السوق أيام الخميس مثل الأحمر الفاقع الذى يميز المشمع الأحمر الذى يستخدمه الجزارون ليتفادوا تسرب المياه لهم، وخليط من ألوان الأخضر الكناريا والأحمر القانى والتركواز الذى يستعمله تجار القماش، والأسماك التى تلمع فوق أفراخ البلاستيك، وكذلك الشمسية السوداء الضخمة المفتوحة بطريقة مائلة لتحمى الرجل الذى يقوم بإصلاح بوابير الجاز.

حجمًا هى أم الأستاذ صبرى، صوبت إلىّ نظرات عينيها إلى وجهى ثم تحولتا إلى الجزر فى يدى بينما كانت تنحنى لتنظر إلىّ.

«حتعمل إيه بالجزر ده؟» قالت تلك الكلمات كما لو كانت تطلق على قذيفة كما لو أنها قد اكتشفت سرًا خطيرًا.

رددت بقولى «حاكلهم».

«أزاى؟».

قلت «ممكن آكلهم من غير ما اطبخهم، وممكن اطبخهم إذا حسيت إنى عايز آكلهم مطبوخين».

قالت وهى تقطب جبينها «تطبخ؟ حاتطبخهم على إيه؟ أنت عندك حاجة تطبخ عليها ؟».

«أيوه».

«إيه نوعه؟».

«بابور جاز».

«بابور جاز! وإيه اللى بتطبخه على بابور الجاز؟».

«حاجات كتيرة ـ زى الرز ـ أنا باطبخ رز».

سألت وهى تبتسم ابتسامة عذبة «وازاى بتطبخ الرز، أنت بتطبخه باللبن؟».

رددت بعدم اكتراث وأنا أسعى لإثبات اعتمادى الكامل على نفسى «فى بعض الأحيان باطبخه باللبن».

كانت الفتيات الصغيرات أيضًا قد اعتدن على الذهاب هناك وكن يتسللن بهدوء من منازلهن بعد أن يذهب آبائهن وإخوانهن للعمل فى الحقول، كن معتادات على التجول فى السوق فى مجموعات كل واحدة تحيط خصر الأخرى بيدها، وهن يتحدثن ويضحكن، وعندما يقابلن مجموعة من الشباب كن يتعثرن فى خطواتهن وهن يمررن بجانبهم، إلا أنهن يتظاهرن بالتعالى، مما يتسبب فى ضحك الشباب وممازحتهن.

فى هذا الخميس بالذات كانت مجموعة كبيرة من الناس قد بدأت فى التناقص عندما وصلت إلى السوق، كانت الساعة قد قاربت العاشرة الآن، وكان معظم الناس قد قاموا بشراء احتياجاتهم فى الصباح الباكر عندما كانت بضائع الباعة مازالت نضرة وطازجة، أما الآن فقد بدأ بالفعل ظهور تأثير الوقت على الخضراوات: فقد بدأ الخس والجرجير فى الذبول، أما الطماطم فقد بدأت البثور تظهر عليها، سرعان ما تبدأ الأسعار فى الانخفاض وعندئذ تسعى النساء للعودة إلى دورهن لكى يعددن وجبة الغداء لأطفالهن.

صاح صوت من خلفى بينما كنت منكفئًا فوق كومة من الجزر ضخم الحجم «أنت بتعمل عندك إيه؟ مش قلت لك تطلب منى أى حاجة عايزها من السوق؟».

نظرت لأعلى فى دهشة فرأيت سيدتين ضئيلتى الحجم تقفان ورائى ووجهاهما المقطبان تحيط بهما ملابس سوداء. كانت الأصغر

كادت القرنبيطة التى تحملها رفيقتها تقع من يدها بينما استدارت للخلف لتنظر إلىّ وفمها مفتوح على آخره بنظرة دهشة بالغة.

قالت أم الأستاذ صبرى بنبرة العليمة ببواطن الأمور «أيوه، هو بيروح الغيطان أول ما يسمع صوت البقر، هو بيروح ومعاه الكاميرا بتاعته وبياخد صور للبقر والخرفان والمعيز والجمال».

أضفت بنبرة عتاب «والناس كمان».

زمّت شفتيها كما لو أنها أرادت أن تقول إنها تفضل أن تحتفظ برأيها لنفسها بشأن هذا الأمر، كانت عيناها فى هذه الأثناء مركزة على كرنبة على مسافة بعيدة، إلا أنها قبل أن تتحرك لتقوم بعملية المساومة، قامت بربت ذراعى كما لو أنها تقوم بوداعى قائلة «أنت لازم تيجى لنا لو احتجت لأى حاجة. صبرى بيحب يتكلم معاك كتير، ده حتى من كام يوم كان بيقول إن المصريين والهنود زى الاخوات من زمان جداً. أنت لازم تعتبر نفسك واحد من عيلتنا».

تحولت مرة أخرى إلى الجزر بينما ذهبت لكى تقتنص كرنبتها، إلا أننى لم أكد أقوم بعملية الاختيار من ضمن الكومة عندما قام أحدهم بمقاطعتى مرة أخرى.

صاح صوت ما من خلفى «تعال هنا يا ضكتور. تعال هنا كان هذا هو صوت بثينة وهى تجلس مربعة الرجلين وأمامها فرخ البلاستيك الخاص بها، تلوح لى بحزمة كزبرة خضراء.

قالت «أيوه هنا يا ضدكتور تعال اشترى الحاجات من هنا علشان أقول خلاص خلصنا وارجع بأه بيتى».

سألتنى ثانية «لكن ازاى؟ أنت مش عارف أنك لازم يكون عندك فرن علشان تطبخ رز باللبن؟».

هزت رأسها بحزن بينما كنت اتخبط بحثًا عن إجابة. سألتنى مرة أخرى «حاتعمل إيه بالبابور لما تسافر؟».

قالت المرأة الأخرى «ليه ما اخدهوش أنا ؟».

ردت أم أستاذ صبرى وهى تنظر إليها نظرة ذات معنى «لا، مش حاتاخديه منه. مفيش فايدة من الطلب، أكيد عم طه العجوز حاطط عينه عليه».

بدأت المرأة تربت على ذراعى بحنان أم قائلة «قل لى يا بنى، أنت امتى حترجع بلدك؟ هى الإجازة بتاعتك مش خلصت؟».

حاولت أن استجمع أقصى ما يمكننى من كرامتى، فقلت لها إنى لم أكن فى إجازة، ذلك إن ما كنت أقوم به هو عمل جاد (وإن كنت فى قرارة نفسى كنت قد بدأت أشك فى هذا الشأن، إلا أننى لم أكن لأقر لها بذلك كررت عليها السؤال بإلحاح إنه كان لايزال لدى عمل كثير لأنجزه، وكان لاتزال أمامى عدة شهور للانتهاء منه.

قالت «يا عينى على أمك المسكينة، أكيد هى مشتاقة لك قوى».

كانت لا تزال تربت على ذراعى عندما ابتسمت تجاه رفيقتها وهى تقول لها «هو بيحب البقر جدًا. بيروح للغيطان كتير علشان يصور البقر».

رحبت بها عائلتها بعد أن هجرت زوجها، وطبقًا لعادات قريتهم فقد ساندوها ودعموها بكل ما أوتى لهم من قوة، وكانوا ليفعلوا نفس الشىء، حتى فى حالة عدم قيام زوجها بالتزاماته فى إرسال نقود لإعالة أطفالها. إلا أنها من جانبها قامت بالبحث عن عمل بمجرد أن وطأت قدماها القرية مرة أخرى، ذلك أنها لم تكن تريد أن ينشأ أطفالها عالة على أحد فى بيت إخوانها الرجال. كانت على علم ودراية تامة أنها عندما تركت زوجها فإنها كانت تدخل فى مرحلة ترمل حقيقية، على الرغم من أنها كانت لاتزال فى العشرينيات من عمرها فإنه أصبح من المحتم أنها بصفتها أمًّا لطفلين صغيرين فإنها لن تستطيع أن تتزوج مرة أخرى. عندما تخلت عن حياتها كزوجة وربة بيت، فإن طموحها أصبح مضاعفًا فيما يخص أبناءها، فبدأت فى العمل لمدة ساعات طوال وهى تحمل سلتها لتجوب كل الأسواق فى القرى المجاورة.

قالت وهى تهش الذباب بعيدًا عن خضراواتها بينما كانت تطلق ضحكة عالية رنانة من القلب «وأنا حأعمل أيه يا ضكتور بأه، لازم ارمى الخضار ده فى الترعة، يمكن سمك البلطى يحب يأكله».

ازداد مرحها عندما أخذت حزمة جرجير وناولتها ورقة بخمسة وعشرين قرشًا قائلة «أنا حأحوش شوية من الفلوس دى عشان فرح ابنى» وارتجت كتفاها من جراء ضحكها بينما كانت تناولنى باقى النقود.

كشفت لى النظرة الأولى أن مجموعة الخضراوات أمامها أنها كانت أسوأ ما فى السوق، وكانت عبارة عن رؤوس خس ذابلة، كما كانت حزم الجرجير أيضًا ذابلة وكذلك كومة من البصل الغارق فى المياه مختلطًا بفضلات خضار أخرى قليلة. وعلى النقيض من الأكوام الأخرى فى هذا الصف، لم تكن البضاعة الخاصة بها تحتوى على بقايا ما باعته هذا الصباح.

فقد كانت البضاعة كبيرة لدرجة أنه كان من الواضح أنها لم تقم تقريبًا ببيع أى شىء على الإطلاق.

صرح لى عم طه بعد ذلك أن شيئًا من هذا القبيل حدث لها قبل ذلك، ذلك لأنه لم يشتر أحد خضراواتها حتى نهاية الصباح. لم يكمن العيب فى مقدرتها على البيع، فلقد كانت بائعة محترفة حقًا، فقد كانت فى واقع الأمر المرأة الوحيدة فى السوق التى تتكسب قوت يومها من حصيلة بيعها للخضراوات. كانت مشكلتها تكمن فى أن خضراواتها لا تأتى إليها مباشرة من الحقول، فقد كانت تقوم بجمع الخضراوات بشكل منفرد، وذلك بالذهاب من بيت إلى آخر لشراء ما تبقى لديهم من الخضراوات. لم تستطع عادة أن تأتى بالخضراوات من أرض عائلتها ذلك لأنها كانت عائلة كبيرة العدد حتى أنه نادرًا ما تبقى أى شىء ليقوموا ببيعه. وعندما كان يحدث ذلك (يتم البيع بالفعل)، فقد كانت زوجات إخوانها الرجال هن اللاتى يقمن ببيعه فى الأسواق، فقد كان هذا هو الامتياز الذى يحصلن عليه بصفتهن الزوجات فى هذه العائلة، أما بثينة بصفتها الأخت فقد كان يتعين عليها أن ترعى نفسها بنفسها.

قالت بثينة «هو عايش هنا دلوقت. هو خلاص مش عايش فى البندر» خطفت بثينة العنب من يدى والقتة على العربة الكارو «بأقولك إيه، ثلاثين قرش، ولا قرش زيادة».

صاح البائع صيحة تنم عن غضب واستنكار «مش ممكن أبدا، أبدا، أبدا ـ على الطلاق ما يحصل أبدا!».

صاحت فيه بثينة «طيب اعملها كده! حتشوف أنها حتصقف بأيديها وتقول بأعلى صوتها «الحمد لله»».

حدث هذا فى نفس وقت ظهور ياسر بينما كان هناك جمهور يلتف حولنا لمشاهدة هذه المعركة. ومن خلال عملية التحكيم التى قام بها ياسر حصلت بثينة على ثأرها، واستتب الأمن والنظام مرة أخرى، وبعد أن رجعت مرة أخرى إلى كومة الخضراوات فى نشوة الانتصار، استغرقت أنا وياسر فى حوار طويل انتهى بأن عرض على أن أقابل إمام إبراهيم فى أى وقت يتراءى له.

١١

ذات صباح وبعد انقضاء عدة أيام توقفت عند محل ياسر تصديقًا لوعده لى، كان منهمكًا مع أحد الزبائن، ولكنه سرعان ما وضع شفرة الحلاقة التى يستخدمها جانبًا وعرض على أن يصطحبنى إلى بيت أبيه، على الجانب الآخر من الميدان الوحيد بالقرية.

قال لى إنه قام بإبلاغ إمام إبراهيم إننى أريد أن أتحدث معه، ولهذا لم تكن زيارتى له غير متوقعة، أضاف أنه كان يود أن يبقى

بعد مرور عدة دقائق عندما كنت أقوم بعملية مساومة لأشترى عنقود عنب من بائع فاكهة متجول من دمنهور، أصبت بالدهشة عندما تنامى إلى صوتها وهى تصيح غاضبة من وراء كتفى.

صاحت فى لهجة تتحدى فيها بائع الفاكهة «إنت بتقول إيه يا معلم، أنا عايزه اسمعك بتقول إيه تانى. خمسين قرش علشان العنقود المعفن ده ـ هى دى الفلوس اللى عايز تأخذها منه؟».

إلا أن البائع تمسك بموقفه، ولكن تسللت نظرة خجلى غبية على محياه، بينما كان يقوم بتوضيح أن ذلك لم يكن خطأه، ذلك لأن أسعار كل شىء كانت آخذة فى الازدياد يومًا بعد يوم، بالإضافة إلى أنه كان يتعين عليه أن يقطع مسافة طويلة من دمنهور فى العربية الكارو الخاصة به ثم أضاف بمنطق ضعيف بينما كان صوته يعلو فى شبه نحيب «وعلى فكرة كمان، ده عنب كويس، أنت بس دوق واحدة وحتشوف».

إلا أن بثينة قلدته ساخرة «’عنب كويس‘ طيب لما هم كويسين قوى ليه ما تاكلهمش أنت؟».

أقسم البائع وهو يشير بإصبعه إلى السماء «والله، أنا مش طالب منه كتير ـ ده سعر العنب بالضبط».

قالت بثينة «أنا باروح السوق كل يوم، ما تحاولش تضحك على. أنا عارفة أنك بتحاول تغشه».

صاح البائع مستنكرًا «لكن هو من البندر، ليه ما يدفعش السعر بتاع البندر ـ ده حيآخدهم معاه».

بها، كان من اليسير رؤية أنه كان قد اعتاد منذ زمن ليس بالقصير على الاستحواذ على الجماهير التى تستمع إليه من مجرد حضوره الطاغى.

قال وهو يومئ برأسه قليلاً «يا مرحب» كانت نبرة صوته جافة ورسمية، ولم تبد هناك أى شبح ابتسامة على وجهه.

وقف جانبًا وأشار لى بالدخول، وبمجرد دخولى جذب الباب وقام بإغلاقه من ورائه وجدت نفسى بداخل غرفة صغيرة مظلمة ذات حوائط من الطين، كانت تميل وتنبعج مثل ضفتى نهر مشبعتين بالماء، كانت الغرفة شبه خالية من أى أثاث، فيما عدا سرير ومشايتين صغيرتين، بالإضافة إلى كتب قليلة وأدوات للطهى كلها عليها طبقة رفيعة من السواد (الهباب).

قال الإمام مرة أخرى «يا مرحب» وهو يضع يده اليمنى بطريقة رسمية وجافة على قلبه.

رددت عليه التحية »مرحب بك «ثم بدأنا فى السلسلة المعتادة من التحيات.

«ازيك؟ ».

«ازيك أنت؟».

«حلت علينا البركة».

«الله يبارك فيك».

«يا مرحب».

ليستمع إلى وأنا أتحدث إلى والده، ولكنه بالطبع لم يتمكن من ترك محله لمدة طويلة.

قال باسمًا لى بينما كنا نعبر الميدان إلى الجانب الآخر «لكن تعال انهارده واتغدى معانا. تعال بعد صلاة الظهر. أبويا حيكون هناك كمان انشاء الله، علشان نقعد مع بعض ونتكلم فى كل حاجة».

كان منزل إمام فى مواجهة المسجد تمامًا، ويبدو محشورًا بين مجموعة كبيرة من العشش المنخفضة، المكللة هاماتها بالقش.

طرق ياسر بشدة على الباب الخشبى المتين وعندما تأكد أن هناك شيئًا ما يتحرك بالداخل، أسرع عائدًا إلى محله، مذكرًا إياى باختصار بدعوة الغداء عنده.

أصخت السمع لبرهة، ثم طرقت الباب مرة أخرى وبعد دقيقة فُتح الباب على مصراعيه فرأيت الإمام واقفًا أمامى مباشرة، كان يرتدى جلابية زرقاء عليها بعض البقع، وكانت عمته مربوطة بطريقة عشوائية فوق رأسه. كان رجلاً طويلاً، ويبدو أضخم نوعا ما مما هو عليه من مسافة بعيدة، كان ذا صدر عريض وقوى البنية ومنكبين عريضين، كانت أصابعه الطويلة تعبث بفتحات أزراره وأكمامه بصورة لا تتوقف. كان هناك شىء ما فى مظهره يوحى بأنه أشعث أو مهمل، لمحة من فوضى خفيفة، إلا أن ذقنه البيضاء القصيرة كانت مشذبة بعناية، وعينيه ذات اللون البنى تلمعان بذكاء ولماحية. كان الزمن قد ترك بصماته القاسية على وجهه، إلا أنه كانت هناك حيوية لا تخطئها العين فى الطريقة التى يقف ويمشى

«النور نورك».

بدأنا مرة أخرى فى قائمة التحيات وعندما انتهينا منها، كنت أشد إصرارًا أكثر من ذى قبل الآن، فكررت مرة أخرى إننى مهتم للغاية بالتعرف على الطب الشعبى والتداوى بالأعشاب، وإننى كنت قد سمعت أنه لا يوجد أحد أعلم بهذه الأمور أكثر منه. خُيل إلى أن كلمات الإطراء سوف تسعده، ولكن فى حقيقة الأمر جاء رده ليعبر عن فزع مطلق.

سألنى كما لو أننى أعدت اتهام به سب وقذف لا أساس له من الصحة «مين اللى قال لك الحاجات دى؟ مين هو؟ قل لى».

غمغمت قائلاً «كل الناس، ناس كتير جدًا بتقول أنك تعرف حاجات كتيرة عن التداوى، علشان كده جيت لك علشان اعرف عن الأعشاب والدوا».

أجابنى «وأنت ليه عايز تعرف عن أعشابى؟ ليه ما ترجعش بلدك وتكتشف الأعشاب اللى فيها؟».

قلت «حأعمل كده قريب جدًا، لكن دلوقت...».

قال وقد نفد صبره «لا، لا. انس كل الحاجات، دى، أنا نفسى بأحاول انسى».

مد يده إلى براد الشاى ثم قام بسكب الشاى فى كوبين، وبعد أن أعطانى واحدًا منهما، شرب الكوب الثانى على دفعتين، ثم جلس على ركبتيه ومد يده تحت السرير وأخرج علبة بسكويت من الصفيح اللامع.

قال وهو يدفع بالعلبة المفتوحة أمامى «أهو، بص شوف!».

«مرحب بك».

«نورتنا».

«النور نورك».

«ازيك».

«ازيك أنت؟».

أطال إمام إبراهيم طقوس التحيات لمدة أطول بكثير من فترتها المعتادة، وبمجرد أن نفد منا رصيد كل التحيات، جذب ناحيته موقد جاز وبدأ فى تشغيله استعداداً لتحضير الشاى. وبعد فترة وبعد أن أوقد الموقد وقام بإحضار الشاى والماء وعندما لم يكن من الممكن تأجيل الحوار أكثر من ذلك، استدار ناحيتى بجفاء وقال «بقى أنت بأه الضكتور الهندى؟».

أجبت بالإيجاب، ثم شرحت له إنى قد حضرت لكى أتحدث معه عن وسائل التطبيب الشعبى، وإذا لم يكن لديه مانع فأنا أريد أيضاً أن نتحدث عن أسلافه وتاريخ عائلته. استولت عليه الدهشة، ثم بدأ فى تحريك براد الشاى فى صمت لبرهة ثم بدأ مرة أخرى فى طقوس التحيات والرد عليها، كما لو أنه كان يريد أن يمنع أى مناقشة بعد ذلك».

«مرحب».

«مرحب بك».

«أنت نورتنا».

كما لو أنه يتحرق شوقًا لإثبات مواهبه «خلينى أوريك» إلا أننى نزعت كم قميصى منه، راجعًا إلى الوراء، معترضًا بقولى إنى لم أكن مريضًا ولم أكن محتاجا إلى حقنة، قلت له ربما احتاجها يومًا ما عندما أكون مريضًا غمز بعينيه ناحيتى بينما كانت عيناه تلمعان، ثم وضع الحقنة ثانية فى العلبة ونهض واقفًا.

قال «أنا لازم اروح الجامع دلوقت حالا. الوقت حان لصلاة الظهر. ممكن نتكلم عن الموضوع ده فى أى يوم تانى، لكن دلوقت حالا أنا مشغول ولازم امشى». قادنى إلى خارج المنزل مسرعًا، ثم عندما وصلنا إلى سلم الجامع صافحنى بطريقة لا مبالية وهرول صعودًا على السلالم، واختفى قبل أن أتمكن من أن أقول له إنه لم يتخلص منى نهائيًا حتى الآن، وأننا سوف نتناول غداءنا عند ابنه بعد فترة قصيرة جدًا.

عندما تقابلنا مرة أخرى فى منزل ياسر بعد قرابة الساعة، بدا أنه ودود أكثر من ذى قبل ولم يبد عليه البتة أنه أصيب بالضيق عندما رآنى. جلسنا حول صينية الطعام فى غرفة الجلوس، بينما كان أطفال ياسر يلعبون من حولنا، وبعد ذلك وبعد أن جعله الطعام يبدو أكثر رقة، أجلس أحد الأطفال على ركبته بينما كان يحمل الآخر على كتفه، وبدأ فى التحدث معى عن فترة طفولته البعيدة. قص الروايات التى طالما استمعت إليها من شيوخ القرية، عن أنه فى الماضى كان كل الناس فى القرية، بما فى ذلك الأطفال، يتجهون كل صباح إلى عزبة باشا ثرى يعيش فى الإسكندرية، وكيف كانوا

كان بداخل العلبة حوالى ست زجاجات وحقن بداخل قطعة قطن، متسخة لمعت عيناه بينما كان يحملق فيهم: قال لى إن هذا هو ما قام بتعلمه مدى السنوات القليلة الماضية، وهو من الأدوية وإعطاء الحقن ـ وقد نسى تمامًا عن الأعشاب والكمادات، كانت هناك سوق كبيرة للحقن فى القرية، فقد كان الكل فى احتياج لحقنة سواء للبرد أو الحرارة أو الدوسنتاريا وأمراض أخرى كثيرة. وكان هذا يدر دخلاً جيدًا عليه وكان فى رأيه أن هذا هو المستقبل الحقيقى.

بدا كأنه قد أصابه تحول بينما كان يتكلم، لم يبد عليه أنه رجل مسن بعد الآن، كان كما لو أصابه عملية إعادة لشبابه الذى تم تجديده بمجرد ظهور الحقنة والإبرة، كانوا موضوعين فى العلبة الخاصة بهما كأنهما تعاويذ سحرية للأزمان القادمة.

أيقنت حينذاك أنه لن يتحدث أبدًا معى عن التداوى الذى قد تعلمه عن أبيه، ليس فقط بسبب أنه يشك فىّ وفى دوافعى، ولكن أيضًا بسبب أن هذه الأدوية لم يكن تلقى أى قبول من جانبه أكثر بكثير من جانب الآخرين، وكان مجرد ذكرهم أمامه يثير غضبه وحفيظته، كما لو كنت تتحدث مع شخص فى المنفى عن وطنه. ومن المفارقات أنه كان بمثابة إحدى الحفريات ولكنها تمشى على قدمين، أو أثر من الماضى فى نظر نبيل والشباب من نفس جيله، إلا أنه كان فى الواقع يتفجر برؤاه عن المستقبل.

قال وهو يمسك بإحدى الحقن محاولاً الإمساك بإحدى ذراعى

قال ياسر «الحمد لله. الحمد لله. كل ده حصل من زمان قوى، ودلوقت مصر دولة حرة، وكلنا أحرار نعمل اللى احنا عايزينه».

ولو لم أكن أعيش فى نشاوى لكنت قد تعجبت ما إذا كان ياسر جادًا بالفعل فى استخدامه لهذه العبارات الطنانة الرنانة الغريبة التى يستخدمها رجال السياسة فى البرلمان. ولكن وبما أننى كنت هناك تفهمت تمامًا أنه كان يعنى كل كلمة قالها، على الرغم من أنه لم يخطر بباله أو يعنى المجال الواسع للحريات الليبرالية التقليدية. كان يشير إلى التحرر من نظام السخرة الذى أتت به ثورة ١٩٥٢، فبالنسبة للفلاحين كانت الحرية التى يتطلعون لها وينشدونها هى التى أساءت إليها أنظمة الحكم فى الماضى - وكان هذا هو حقهم فى العمل بحرية واختيار ساعات العمل الخاصة بهم. كان هذا أمرًا يسيرًا للغاية، إلا أنه كان بالنسبة لأى فلاح بلغ سنًا تؤهله من تذكر الماضى فإن هذا كان أمرا يجعله يشعر بالامتنان الشديد.

بعد لحظة أحضرت أم ياسر، وهى زوجة الإمام الأولى، صينية الشاى، وبعد أن قامت بتقديم أكواب الشاى للجميع، جلست معنا وبدأت فى الحديث عن ابنتها التى تزوجت وأقامت فى قرية بعيدة لدرجة أنها الآن لا تجد أى صحبة لها سوى زوجة ياسر وأطفالهما.

كنت لا أزال أفكر فى هذه القصص التى سمعتها للتو، وأنا أستمع إليها بنصف اهتمام منقوص، وعندما تخلل الحديث فترة صمت، كنت استدرت إلى ياسر وأنا شارد الذهن وقلت له «يعنى معنى كده أنك عندك أخت واحدة ومفيش أخوه ولاد؟».

يعملون من الصباح حتى غروب الشمس مقابل قرشين صاغ، كان العرق يتساقط منهم وهم يعملون فى حقول القطن بينما كان هناك مشرفون أو مراقبون يحملون سياطًا لكى تلهب ظهورهم عند أى بادرة تنم عن التعب أو الإرهاق أو الكسل. قال إن هذا كان عصرًا رهيبا فظيعًا قبل جمال عبدالناصر وثورة ١٩٥٢، عندما كان الباشوات والملك و«أعمامهم الطيبون» يعنى الجيش الإنجليزى، يسيطرون على مقاليد كل الأمور، وكان الفلاحون مضطرين للعمل طبقًا لأوامرهم، وكأنهم مجرد ذباب يعملون بدون أجر يوازى ما يقومون به، حتى أنه فى نشاوى قبل الثورة بحوالى عشرين سنة كانت أمور القرية تدار كما لو أنها أبعادية أو عزبة خاصة بالعمدة القديم، وكان أحد أقطاب عائلة بدوى (وكان هو نفس الرجل الذى كنت أقطن فى منزله) يعتبر كل شخص وكل شىء فى القرية بمثابة ملكية خاصة به، لم يسلم أحد من ثورات غضبه، ولم يجرؤ أحد أبدًا أن يتصدى له.

بدأ أولاد ياسر فى الضحك فقد كانوا يتعلمون وينشأون فى مدارس مجانية، كما كانت الخدمة الصحية متاحة لهم بأرخص الأسعار وبكثرة، فلهذا كانت القصص المتعلقة بهذا العهد تكتنفها طبيعة أسطورية عن قصص أطفال مرعبة كئيبة ولكنه ياسر الذى كان طفلاً عندما قامت ثورة ١٩٥٢، وكان كبيرًا بما فيه الكفاية لكى يتذكر تلك الأيام بدت عليه مظاهر الجد والكآبة، مثله مثل الآخرين من نفس عمره الذين كانوا يفعلون نفس الشىء عندما كان الشيوخ الكبار يتحدثون عن الماضى.

للأقارب والضيوف من القرى الأخرى، كان إدريس العجوز أبا نبيل قد قام بدعوة أناس كثيرين من نشاوى أيضًا وأراد أن يحتفل به على أحسن صورة، لأن عائلتهم كانت مبتهجة وسعيدة للغاية. ولكن لن يأتى الكثير من الناس الذين قام بدعوتهم، من باب مراعاة للرجل الكبير لكى يساهموا فى تخفيض النفقات ـ فلقد كان كل الناس يعلمون أن عائلتهم لا تستطيع حقًا أن تتحمل نفقات فرح كبير، فلذلك قرر الشباب من الأصدقاء والأقارب أن يزوروهم خلال النهار، ثم مرة أخرى خلال المساء، فقط لكى يغنوا ويرقصوا. سوف يبقون فى الحارات ولن يدخلوا المنزل مع الضيوف، فلقد كان العشاء المعد لكبار السن وللرجال ذوى الحيثية فقط.

قال عم طه «هم حيبتدوا يحضروا فى الصبح، إنشاء الله، ولما توصل هناك حيكونوا كلهم قاعدين فى غرفة الجلوس، حيكونوا عايزين يتكلموا معاك، علشان مفيش حد منهم قابل هندى قبل كده أبدًا».

غاص قلبى عندما اكتشفت أنه بالنسبة لى سوف تكون الأمسية بمثابة عملية حبس مطولة فى غرفة صغيرة مكتظة بالناس، فقلت «أنا أفضل أنى أكون بره علشان اتفرج على الرقص والغنا».

ضحك عم طه ضحكة خبيثة، كما لو أنه يتنبأ بالفعل الكم الهائل من عدم الراحة فى انتظارى فى نبؤاته الخاصة بالأمسية المتوقعة فقال «هم مش حيسمحوا لك تقعد بره. أنت أصلك أفندى، علشان كده حيخلوك تدخل جوه وتقعد مع الكبار وكل الضيوف التانيين».

تلا ذلك فترة صمت فجائية، شهقت أم ياسر فقد نظر إلى أبيه نظرة فزعة وهو جالس على الجانب الآخر من الغرفة، بعد فترة صمت بدت أنها دهر، تنحنح ووضع يده اليمنى فوق قلبه قال «معلهش، أبويا، عطانى أخت واحدة بس ومفيش لوم عليه إذا ربنا ما اكرمهوش بابن تانى غيرى».

نبهتنى نبرة كلامه أننى قد تجاوزت حدودى ونكأت جراحًا وحزنًا شخصيًا دفينًا، وهو شىء ربما قد سيطر على مخيلة عائلته لسنوات طوال. إلا أننى أدركت أننى قد ارتكبت تجاوزًا لا يمكن حتى أن أحلم بأن أقوم بتصويبه، لذلك ظللت صامتًا وأرغمت نفسى أن أظل جالسًا بدون أى حركة.

قال ياسر بصوت بدا لى أنه عال أكثر من اللازم «وأبويا اتجوز مرة ثانية، وبما إنه لسه فى أحسن صحة وحال، ممكن لسه يخلف لى أخوه».

لم يسمح له إمام إبراهيم أن يكمل كلامه فقد صوب نظرة نارية تجاهى، ثم خرج من الغرفة.

١٢

استخدم عم طه قدراته للتنبؤ بالأحداث التى وقعت فى فرح أخى نبيل فى صبيحة يوم الفرح. قال إنه سوف تكون هناك أعداد كبيرة من الشباب حول منزلهم، وهم كل الفتيات والفتيان الذين لم يتزوجوا بعد، وهم يرقصون ويغنون ولا شىء يشغل بالهم. ولكنه أضاف قائلاً إن الأكل سوف يكون محدودًا، وسوف يقدم فقط

الناس من حولهم كان كثيفًا حتى إننى لم أستطع أن أرى من مكانى أكثر من قمة رأس الشخص الذى يرقص فاستندت بظهرى إلى الحائط، ووقفت على أطراف أصابعى فرأيت أن الراقص كان صبيًا، وهو أحد أبناء عمومة نبيل، كان يرقص بطريقة خليعة وهو يهز أردافه أمام الفتيات، بينما اقترب بعض أصدقائه لضربه على مقعدته، وتتعالى ضحكاتهم أكثر فأكثر عندما يقوم بتقلصاته المثيرة.

كانت هناك أصوات من كل جانب حولى تغنى أغنية توحى كلماتها بالخصوبة المتعلقة بالرمان، كانوا ينشدون «يا رمان، يا رمان» وعند كل كلمة كانت أيادى كثيرة تقوم بالتصفيق فى إيقاع واحد وفى توافق تام مع النغم. كان المشاهدون يتزاحمون الآن لكى يتمكنوا من مشاهدة أفضل، كان الشبان يقفون فوق أكتاف بعضهم البعض، بينما تسلقت الفتيات عتبات النوافذ، كانت الرقصة تقارب ذروتها عندما ظهر نبيل بجانبى، وتبعه أباه بعد أن تبادلنا كلمات تحية مقتضبة، تأبطا ذراعى أخذونى بطريقة حازمة مرة أخرى إلى المنزل.

فى اللحظة التى دخلت غرفة الضيوف المكتظة بالناس والخانقة بالدخان، أدركت أننى سوف أخضع لسلسلة طويلة من الاستجوابات. كنت كأنى أتنبأ بحدوث ذلك من نظرات الملل والقلق البادية على وجوه الرجال المجتمعين هناك، وفى حركات التململ البادية فى حركات أصابعهم العصبية وكذلك فى أطراف أصابع

حاولت أن أثبت له أنه مخطئ عندما ذهبت إلى منزل نبيل هذا المساء، ولفترة قصيرة فى بداية الأمر ظننت فعلاً أنى قد نجحت.

عندما وصلت هناك، كان هناك جمع من الناس محتشد فى الحارة خارج المنزل فدلفت ممتنًا على أحد جانبى الطريق، كان يوجد حوالى ٤٠ أو خمسين شابا وفتاة مكدسين فى نصف دائرة أمام العروسين. كان العروسان اللذان تم عقد قرانهما منذ فترة وجيزة جالسين على مقاعد مرتفعة عالية كأنهما ملكان متوجان، بينما كان أقاربهما وأصدقاؤهما يرقصون أمامهما. كان العريس على يرتدى جلابية جديدة من الصوف البنى، كان شابًا أسمر قوى البنية ذا ابتسامة عريضة آخاذة ويوجد طابع الحسن فى ذقنه. أما عروسه وابنة عمه فوزية فقد كنت ترتدى فستانًا أبيض من الدانتيل وطرحة قصيرة مصنوعة من التل، كان وجهها قد تم تزيينه بعناية وتوازن شديدين حتى بدت شفتاها ووجنتاها وأذناها أنها كلها تم تغطيتها بنفس درجة اللون الوردى اللامع. أعطى اللون الواحد للزينة تأثيرًا غريبًا وذلك لأنه حول وجهها إلى شىء يشبه القناع الشاحب كأنه وجه شيخ: اندهشت بعدئذ عندما اكتشفت أنها كانت فتاة جميلة ومرحة ذات ابتسامة أخاذة دافئة وطبيعة ودودة.

كان هناك طفل يجلس على ركبتى العريس أى بجوار الكرسى التى كانت تجلس عليه العروس، ويقوم بالطرق على طست غسيل من الصفيح مستندًا على رجله مما جعله يصدر أصواتًا شديدة السرعة تصم الآذان. كان هناك شخص يرقص أمامه ولكن حشد

مثلاً عن كيفية تعلمى العربية، ومن الذى أتى بى إلى نشاوى وما إذا كنت قد حصلت على تصريح من الحكومة المصرية. وبمجرد أن قمت بالرد عليه طلب منى أن أريه بطاقة الهوية الخاصة بى، وعندما شرحت له أننى لا يوجد لدى بطاقة هوية، ولكننى بالفعل لدى خطاب من وزارة الداخلية وأننى على استعداد تام أن أريه إياه إذا ما وافق أن يصطحبنى إلى غرفتى، اعتلت وجهه نظرة تجهم وقلق وبدأ فى الغمغمة بأسلوب كريه عن الجواسيس والمحتالين وعن احتمال أن يرسل تقريرًا للمخابرات عنى.

إلا أنه سرعان ما أُزيح جانبًا، حيث إنه كان هناك الكثيرون حوله يتشوقون الآن لكى يوجهوا إلى أسئلتهم. فى خلال عدة دقائق التف حولى قرابة اثنى عشر شخصًا، وعندما كنت منشغلاً لتوكيد أن فى بلادى توجد محاصيل مثل الأرز والذرة، وأيضًا أنه فى الهند يوجد فلاحون مثلهم مثل مصر وهم أيضًا يعيشون فى بيوت من الطين اللبن، وأيضًا يقومون بتقليب التربة بواسطة محاريث تجرها الماشية، توالت الأسئلة بسرعة شديدة، حتى بينما كنت أقوم بالرد على بعض من تلك الأسئلة «هل صحيح أن معظم بيوتكم مبنية من الطوب النى زى عندنا هنا؟» و«هل الناس عندكم بيطبخوا على بوتجازات ولا لسه بيحرقوا الحطب والقش ويطبخوا عليه؟».

تزايدت دهشتى بينما كنت أحاول التعامل مع هذا السيل من التساؤلات، أولاً فيما يخص هذا الجزء الخاص بكلمة «لسه» التى ظلوا يكررونها فى أسئلتهم، وثانيًا بتعبيرات عدم التصديق التى

أرجلهم التى ظلت تنقر الأرض بينما جلسوا جميعًا فى صمت فى هذه الغرفة الحارة، بينما ترددت فى الحارات المجاورة أصوات الاحتفال الصاخبة. التفتوا جميعًا لينظروا إلى بينما كنت أدخل الغرفة، كانوا حوالى خمسة عشر أو عشرين رجلاً، شعرت بالامتنان لهذا التوقف والابتعاد المؤقت عن عالم حميم يحمل فى طياته القلق ورغبات تم إيقاظها من جديد، وذكريات الأصابع وهى تتشابك فى الخفاء. تزاحم كل فتيات وشبان القرية الذين لم يتزوجوا بعد حول الراقصين وهم يصفقون ويغنون تنتابهم نشوة من جرّاء المشاعر الحسية المتزايدة المتصاعدة المرتبطة بليلة الزفاف، هذا الجو المحموم بغموضه والذى كنت قد بدأت استشعره عندما لمحنى نبيل وأبوه من خلال جموع الناس، ثم اقتادونى بعيدًا حتى أواجه هذه الكتيبة من رجال فى منتصف العمر جالسين فى غرفة الجلوس يعتريهم الملل.

ألقيت نظرة سريعة حولى، باحثًا عن أى وجه مألوف لدى، ولكن لخيبة ظنى اكتشفت أنهم كانوا كلهم غرباء بالنسبة لى، فقد كانوا من قرى أخرى، ولذلك فإنى لم أكن أعرف أى شخص هناك على الإطلاق، ذلك لأن نبيل وأباه رجعا مرة ثانية إلى موقعهما بالخارج لكى يستقبلا الضيوف. مرت دقائق من التفحص الصامت، ثم تنحنح الرجل الجالس بجوارى وسألنى ما إذا كنت الدكتور الذى عُين حديثًا فى الوحدة الصحية.

بدت فى عينيه نظرة شك وريبة شديدين عندما بدأت فى شرح من أكون، وبمجرد أن انتهيت بدأ فى إطلاق سلسلة من الأسئلة،

معرفة أنه لا يوجد فى أماكن أخرى من العالم أيضًا بيوت من الطوب اللبن ومحاريث تجرها الماشية، حتى أن هذه الأشياء والبيوت والمحاريث بدت كأنها أشياء لا وجود حقيقى لها، أو كأنهم بمثابة أشباح ضلت طريقها فى دهاليز الزمان، وتنتظر أن يتم طردها لكى ترقد فى سلام مرة أخرى. وهكذا، داهمنى لأول مرة إحساس الشك فيما يخص انتماء شخص ما إلى «حضارة تاريخية»، وتركنى هذا الشك فى حالة ذهول وارتباك لأنه فيما يخصنى، فقد كنت دومًا أعانى من عدم القدرة على تخيل فكرة الزمن المطلق وكذلك فكرة الحقب الزمنية المنفصلة.

تم العشاء بصورة سريعة، باصطحاب حوالى عشرة أشخاص منا إلى غرفة أخرى تقع فى الجزء الخلفى من المنزل حيث تناولنا لحم الضأن والأرز وكذلك الحلوى بينما ظللنا واقفين حول المائدة، وبمجرد انتهائنا من تناول العشاء، تم اصطحابنا مرة أخرى خارج الغرفة بينما أُدخلت مجموعة أخرى من الضيوف قررت أن استغل الهرج بينما كان نبيل وأبوه مشغولين باصطحاب الضيوف. جيئة وذهابًا، تسللت خارجًا من غرفة الضيوف عائدًا مرة أخرى إلى الحارة.

كان الوقت الآن قد تجاوز فترة المغرب بكثير، وكانت الوجوه حول العروسين تلمع تحت قبة من الغبار التى تحولت إلى اللون الذهبى بفعل النور الصادر من لمبة الجاز الواحدة. كان النقر على طست الغسيل الآن قد أصبح لطيفًا ومنتظمًا، وعندما شققت طريقى

كست وجوههم عندما أكدت لهم، مرارًا وتكرارًا، أن فى الهند أيضًا يقوم الناس باستخدام المحاريث التى تجرها الماشية وليس الجرارات، الساقية وليس مضخة المياه، عربات تجرها الحمير وليس عربات لورى، ونعم فى الهند أيضًا يوجد هناك أناس كثيرون فقراء جدًا جدًا للغاية، فى الحقيقة أنه يوجد ملايين لا يمكن أن يتصور أحد منهم مدى الفقر المدقع الذى يعيشون فيه. ولكن، ولذهولى التام فكلما تكلمت بإصرار وتوكيد، أصبحوا أكثر تشككًا، حتى أننى فى النهاية أيقنت، وأنا يعترينى إحساس بالصدمة أن الحقيقة العارية بالغة البساطة أنهم لم يصدقوا ما قد ذكرته لهم.

فهمت بعد ذلك أن عدم تصديقهم لم يكن يمت لصلة من قريب أو بعيد بما قد ذكرته، بل بالأحرى، فإنهم كانوا قد قاموا بإقامة هيكل متخيل معين «للتنمية» فى أذهانهم، ولأن كل تصوراتهم للحياة المادية كانت عن هؤلاء الذين يقفون فى أعلى السلم، فإن الأحوال الخاصة بهؤلاء الذين يوجدون فى أسفل السلم أصبحت لا يمكن تخيلها بصورة أو بأخرى، خطرت لى خاطرة حينذاك فيما يخص أسباب الجدية الحقيقية والمستميتة لاهتمامهم بمظاهر التحضر، عندما أدركت أن الفلاحين كانوا يرون الأحوال المادية الخاصة بحياتهم بنفس الطريقة بالضبط التى يراها متخصص أكاديمى فى الاقتصاد: ذلك لأن الوضع كان كأنه خارج نطاق الزمان لا يتسق مع الزمان مطلقًا بطريقة تدعو إلى الخجل، كأن هذا الوضع كان بمثابة صفعة فوق وجه الزمان، تفهمت حينذاك أن علاقاتهم بالأشياء التى يستخدمونها فى حياتهم اليومية لم تكن بريئة تمامًا من محاولة

بصورة أسرع بكثير عن ذى قبل كأنهما بمثابة تضاد وطباق فى لغة الموسيقى، على شكل حركى أصبح بالفعل تجسيداً ممتازاً للمشاعر الحسية، أو بمثابة حركات متوازنة تعبر عن المغازلة وهى تهتز للأمام وللخلف بسرعة هائلة حتى انطلقت تجرى فى نهاية الإيقاع الأخير، وتوارت سريعًا بين جموع الناس وهى تضحك.

جاءنى صوت من ورائى يصيح «أنت كنت فين كل المدة دى؟ احنا كنا بندور عليك فى كل مكان ـ لسه عندنا أسئلة كتيرة نسألها لك».

عندما استدرت وقفت فى مواجهة الرجل الذى طلب منى إظهار بطاقة هويتى، كان نبيل يمشى وراءه مباشرة، واصطحبنى الاثنان للرجوع، وهم يعاتبوننى برقة لأنى تركت غرفة الجلوس بدون أى إنذار.

كانت هناك غلالة كثيفة من الدخان فى الغرفة عندما عدنا مرة ثانية، وذلك لأن الضيوف أو المعازيم قد أشعلوا سجائرهم والشيشة وجلسوا مسترخين على الكنب بعد تناولهم العشاء. ناولنى والد نبيل شيشة لكى أدخن، وعندما كنت أحاول أن أبعث الحياة فى الفحم، التف من حولى الذين يقومون باستجوابى مرة أخرى، وبدأت الأسئلة تتدفق مرة أخرى.

صاح أحدهم «قول لنا بأه، فى بلدك ووسط ناسك انتم بتعملوا إيه فى أمواتكم؟».

قلت وأنا أنفث دخان الشيشة بطريقة جادة ورزينة «بنحرق الأموات» مما جعلهم يصابون بالصدمة جعلتهم يرجعون للوراء.

لأصل لوسط جموع الناس، رأيت فتاة صغيرة تقوم بالرقص وهى ترتدى فستانًا بسيطًا من القطن المطبوع، وكانت تضع إيشاربًا طويلاً حول وسطها، كانت تضع يديها الاثنتين فوق أردافها، وكانت تركز عينيها على الأرض أمامها، وهى تحرك أردافها بصورة رشيقة وبطيئة، إلى الأمام والخلف، بينما كان باقى جسمها ساكنًا، كأنه لا يتحرك، فيما عدا حركة رجليها السريعة الدائرية، ثم تدريجيًا وبطريقة غير محسوسة لا يمكن تبينها ازدادت سرعة الإيقاع، عندها صاح أحدهم بأول سطر من الأغنية وهى «أخدناها من وسط الدار» ثم رد عليه جموع الناس صائحين «وأبوها جاعد (قاعد) زعلان» ثم يغنى الصوت الواحد مرة أخرى «آخدناها بالسيف الماضى» ثم يرد عليه الكورس الجماعى «وأبوها ما كانش راضى».

تزاحم جموع الناس ناحية الراقصة بينما كان الإيقاع آخذ فى الازدياد، وبينما كانت الأصوات والتصفيق آخذ فى الازدياد أكثر فأكثر ردًا عليهم، رفعت الفتاة إحدى يديها ووضعتها على رأسها على شكل قوس رشيق. كان جسمها الآن يلف ويدور ببطء حول نفسها فى نفس المكان، بينما كانت أردافها تتحرك بسرعة أكثر فأكثر فى نفس الوقت كان هناك حشد الناس من حولها يصفقون بأيديهم ويدقون الأرض بأرجلهم، وهم يصيحون بأعلى أصواتهم تعبيرًا عن استحسانهم. وتدريجيًا، أصبح الإيقاع أكثر تزايد، الإيقاع تداخل مع القرع على الطبول، وكنوع من التفاعل مع الإيقاع توقف الجزء الأسفل من جسمها تمامًا بينما كان ردفاها ووسطها يتحركان

علت الوجوه دهشة بالغة بينما رددت مرة أخرى «لا».

بدأت فى تصحيح مفاهيمه، إلا أنه كان مستغرقًا فى الشعور بالدهشة، وفى هذه الأثناء تدخل شخص آخر صائحًا فجأة «طيب والأولاد، هم كمان مش بيتطاهروا؟».

«وأنت كمان يا ضكتور؟».

«وبالنسبة لك...؟».

نظرت إلى العيون من حولى فرأيت نظرات الفضول والرعب، فعرفت أنى لن أتمكن من الرد. بدت أن رجلاى ويداى قد خارت قواهما ولا يمكن أن أسيطر عليهما بينما كنت أنهض واقفًا لدرجة أنى أوقعت الشيشة التى كنت أدخنها. شققت طريقى للخروج من الغرفة، وقبل أن يقوم أى شخص بأى رد فعل، كنت بالفعل قد تجاوزت جموع الناس وأنا أسرع الخطى عائدًا إلى غرفتى.

كنت قد كدت أصل إلى هناك تقريبًا عندما سمعت خطوات خلفى مباشرة، كان نبيل وقد اعترت وجهه نظرة تساؤل وذهول يلهث قليلاً من الجرى خلفى.

سألنى «إيه اللى حصل؟ ليه مشيت فجأة كده؟».

ظللت أمشى بدون توقف لأنى لم أستطع أن أجد أى إجابة.

قال «هم بس كانوا بيسألوا أسئلة، زى بالضبط ما أنت بتعمل، هم ما كانوش يقصدوا أى إساءة. ليه تخلى الكلام عن البقر والطهارة تضايقك كده؟ دول مجرد عادات وتقاليد، وطبيعى أن

سألنى صوت آخر «وبتعملوا إيه فى الرماد؟ على الأقل بتحافظوا على الرماد علشان تفتكروهم بأى حاجة؟».

رددت «لا، لا حتى الرماد بيتم رميه فى الأنهار».

سادت فترة صمت طويلة، ذلك لأنهم احتاجوا لفترة قبل أن يتمكنوا من السيطرة أو التغلب على اشمئزازهم ليستطيعوا بعد ذلك أن يتكلموا، فى نهاية الأمر سألنى شخص ما «معنى كده إن كل الناس فى بلدك كفرة؟ هو أنتم مفيش عندكم قانون ولا أخلاق: معنى كده أن كل واحد عايز يعمل حاجة يعملها ـ يعنى مثلاً ياخد ست من الشارع أو يعاشر مرات راجل تانى؟».

جاءنى صوت أحد الجالسين يسألنى «وإيه أخبار الختان عندكم؟» وتلا ذلك سؤال جاء مباشرة من صوت آخر أكثر علواً وصياحًا وفيه طلب السائل أن يعرف إذا كانت النساء فى بلادى «بيتطاهروا» مثلهن مثل النساء فى مصر.

وكلمة «الطهور» تستخدم للتدليل على العملية التى تتم للرجال أو النساء على حد سواء، إلا أنها فى حالة النساء فهى عملية تكتنفها الكثير جدًا من المخاطر، أكثر بكثير جدًا عن تلك التى تُجرى للرجال، بالإضافة لكونها مؤلمة وبشعة، وقد تم وصفها أنها عملية غير قانونية بعد الثورة، على الرغم من أنها مازالت تجرى على نطاق واسع للفلاحين سواء من المسيحيين أو المسلمين.

قلت «لا، الستات فى بلادى مش بيطاهروا»، إلا أن سائلى وقد اقتنع أنى لم أفهم السؤال، أعاد السؤال مرة أخرى وببطء.

كان المنزل الذى انتقلنا إليه يقع فى ضاحية سكنية جديدة على أطراف المدينة. كانت المنطقة قد تم تنميتها وتطويرها حديثًا، وعندما انتقلنا هناك كانت لاتزال تبدو كأنها نسخة من مخطط أو تصميم معمارى قام مهندس بتصميمه، ويوجد بهذا التصميم أو المخطط مناطق مرسومة بطريقة تمهيدية، وطرق مرسومة بقلم رصاص خفيف.

كان منزلنا جديدًا وفخمًا، فقد كان من أوائل البيوت التى شُيدت فى هذا المنطقة، كان ملحقًا به حديقة كبيرة محاطة بجدران عالية من كل جانب، وتفصل المجمع السكنى عن قطعة أرض واسعة لموقع تم حفره لإنشاء بنايات عليه. كان يوجد منزل واحد فقط بالقرب من بيتنا، أما المنازل الأخرى فكانت تقع عند نهاية الشارع، وكانت بالغة الصغر يمكن رؤيتها فقط عندما يضع المرء يديه فوق حاجبيه ويزم عينيه أى يغمض عينيه نصف إغماضة كانت هذه البيوت تبدو بعيدة بما فيه الكفاية لكى يبدو منزلنا بمثابة جزيرة منعزلة، إلا أنه كان محاطًا بالجدران بدلاً من التلال.

وفى بعض الأحيان، وبدون أى أسباب واضحة كان المنزل يكتظ بالأغراب، وكانت الحديقة التى عادة ما تكون خالية من أنواع الحشرات المختلفة، ملآى بالسارى وهى معلقة لكى تجف فى الهواء، وعادة ما تأتى مجموعات كبيرة من الرجال والنساء والأطفال فيجلسون على الحشائش، معهم حزم صغيرة مملوءة بالملابس والأوانى والطاسات تفترش الأرض بجانبهم، بالنسبة لى كطفل فى

الناس تبقى عايزه تعرف الحاجات دى وعلشان كده مش لازم تضايقك أبدًا».

١٣

تمنيت لو أنى قد قصصت على نبيل قصة.

عندما كنت طفلاً كنت أعيش مع عائلتى فى مكان قُدر له أن يقع من أطلس العالم كأنه ورقة تم تمزيقها فى المطبعة، وكان هذا المكان هو باكستان الشرقية والتى وبعد خلقها فى ١٩٤٧عاشت لمدة خمس وعشرين سنة فقط قبل أن تصبح دولة جديدة وهى بنجلاديش. لم يتحسر أحد على زوال هذا المكان، وإذا ما كانت تعيش فى ذاكرتى حتى الآن فهذا من قبيل المصادفة، حيث إن أبى كان يعمل فى البعثة الدبلوماسية الهندية فى دكّا عندما كنت فى السادسة من عمرى.

كان هناك عنصر سخرية فى كوننا نعيش فى دكا بصفتنا «أجانب» أو «أغراب»، فقد كانت دكا واقعيًا مدينتنا منذ أجيال بعيدة: فقد انحدر والداى، أبى وأمى من عائلات من الطبقة الوسطى التى تنتمى للمجتمع الهندوسى الذى كان يومًا ما مزدهرًا هناك. ولكن، قبل إقامة دولة باكستان ذات الغالبية السكانية المسلمة بزمان بعيد كان أسلافى قد ارتحلوا غربًا، وبفضل ولعهم بالترحال فلقد ظللنا هنودًا حتى يومنا هذا، وأصبحت دكا أرضًا أجنبية بالنسبة لنا، على الرغم من أننا مازلنا نتحدث بنفس اللهجة المستخدمة هناك ومازال لدينا أقارب عديدون يعيشون فى المناطق الهندوسية القديمة فى وسط المدينة.

بعدة سنوات كثيرة) ظهر أناس أكثر بكثير من ذى قبل فى الحديقة، فجأة وبدون سابق إنذار، بدأوا فى التوافد والتقاطر فى الصباح الباكر، فى مجموعات صغيرة، وهم يحملون حزمًا وأشياء أخرى مختلفة، وبينما كانت تمر ساعات اليوم، كانت البوابات الحديدية الضخمة الخاصة بالمنزل تُفتح مرات ومرات لكى تسمح بدخول أناس أكثر. وبحلول الليل كانت الحديقة مكتظة بالناس، البعض منهم جالس القرفصاء فى صمت، بينما كان الآخرون يستندون إلى الحوائط كأنما ينتظرون شيئًا ما.

وبعد المغرب مباشرة، جاء الطاهى للبحث عنى فى الحديقة، ثم أخذنى بعيدًا، مرورًا بالعائلات التى كانت محتشدة على السلالم، وفى الممرات والدهاليز حتى وصلنا إلى غرفة نوم والداى الواقعة فى الطابق الأعلى. عندما وصلنا إلى الغرفة كان شيش كل النوافذ قد أغلق بإحكام، وكان أبى يذرع الغرفة جيئة وذهابًا فى انتظارى أجلسنى، ثم تكلم بصوت وأسلوب لا يمكن معارضته أبدًا، طالبًا منى البقاء حيث كنت، ثم أضاف أنى لا يجب مغادرة الغرفة لأى سبب كان حتى يأتى مرة أخرى ليأخذنى، ولكى يتأكد أن أوامره سوف تُنفذ أمر الطاهى بالجلوس على باب الغرفة بأوامر مشددة ألا يترك مركزه أبدًا.

وبصفة عامة كنت سوف أسعد غاية السعادة أن أبقى هناك مع الطاهى لأنه كان قاصًا ممتعًا للغاية، وكان كثيرًا ما يتركنى فى حالة انبهار لمدة الساعات الطوال، وهو يغزل الحكى والقصص باللهجة

السابعة أو الثامنة من العمر، كان هناك شىء يتعلق بهؤلاء الناس مثل خلو البال، شىء يشبه الشعور بالراحة، كانوا دائمًا ما يلوحون لى عندما أنزل للحديقة، وفى بعض الأحيان كانت النساء يبحثن فى أغراضهن لكى يعطونى الحلوى. فى المساء كان يتم إيقاد نيران كبرى فى الطرق والممرات، وكانت أمى وصديقاتها يقفن وراء أوانى الطبخ الضخمة والمغارف فى أيديهن، بينما كن يرفعن طرف السارى يقمن بدسه فى وسطهن، ثم يقمن بغرف كميات كبيرة من الطعام لهؤلاء الناس. كنا نجلس لنأكل معًا، ونحن نجلس فى جميع أرجاء الحديقة كما لو أننا نقوم بنزهة خلوية، وبعد ذلك كنا نحن الأطفال نلعب معًا كرة القدم أو «الاستغماية» ثم بعد ذلك بيوم أو يومين يرحل الجميع، ثم ترجع الحشرات مرة أخرى إلى مكانها الطبيعى فى الحديقة، ويستتب الهدوء والسلام مرة أخرى على «جزيرتى».

لم أصُب أبدًا بالدهشة أو انزعج من جراء هذه الزيارات، فقد كانت تبدو أشبه بالاحتفالات، خاصة أننا كنا نأكل الموز الأخضر، بنفس الطريقة التى نأكل بها فى الأفراح والاحتفالات الأخرى. لم يقم أبدًا أى شخص بشرح لى ماذا تفعل مجموعات الناس هذه فى منزلنا، وكنت أنا صغيرًا للغاية فلم أفهم أن هؤلاء الناس كانوا لاجئين، هاربين من الغوغاء، وأنهم قد احتموا فى الحديقة الخاصة بنا، ذلك لأنها كانت الوحيدة الخاصة «بالهندوس» والتى كانت لها أسوار عالية.

فى يوم بعينه (وكان هذا يوم فى يناير ١٩٤٦ قمت باكتشاف ذلك

الغرفة متجهًا إلى شرفة تطل على الحديقة والحارة.

مازالت ذكرياتى عما شاهدته حية ماثلة فى ذهنى، إلا أنها فى الوقت نفسه غير متناغمة معًا، كما لو أنها فيلم فسدت فيه عملية المونتاج. كان هناك جمع غفير من الناس يحتشد حول منزلنا، مجموعة مكونة من مئات الناس وجوههم حمراء لامعة فى ضوء الشعلات المشتعلة التى يحملونها، كانوا يربطون خرقًا من القماش حول عصى، وكان اللهب يبدو أنه يلف ويدور على حوائطنا على شكل موجات متلاحقة من النار. بينما كنت أراقب هذا المشهد، كان اللهب قد بدأ فى التراقص حول المنزل، وبينما كان يلف ويدور حول الجدران، كان الناس المجتمعون فى الحديقة يقبعون فى مجموعات ويقومون بتغطية وجوههم بأيديهم. أستطيع الآن أن أسترجع منظر الغوغاء الغاضبين واللهب المتراقص بصورة حية وواضحة وكأنى أشعر بلفحة اللهيب على وجهى، إلا أن كل ذلك يحدث فى صمت تام، فقد قامت ذاكرتى بعمل طيب كأنها تقوم بحمايتى عندما استأصلت كل صوت صدر فى هذا المشهد.

لا أعرف كم مضى من الوقت على وأنا واقف هناك، ولكن فجأة اندفع الطاهى داخل الغرفة وقام بسحبى خارجًا للرجوع إلى غرفة نوم والدىّ مرة أخرى. كان يبدو الآن مضطربًا فقد رأى الغوغاء هو أيضًا، وبدأ يذرع الغرفة جيئة وذهابًا، وهو يغطى وجهه ويقوم بجذب شاربه.

أصابنى الإحباط من جراء احتباسى فى هذه الغرفة فبدأت فى

التى يستخدمها أهل منطقته ـ وكانت قصصه الطويلة بمثابة ملاحم تدور حول الأشباح والغيلان وبلاد بعيدة حيث يأكل الناس الأطفال، كان من منطقة تقع على البحر فى باكستان الشرقية، وكان قد حضر للعمل لدينا لأنه كان قد فقد معظم عائلته فى أعمال الشغب التى تلت عملية تقسيم الهند [إلى الهند وباكستان] وكان يرغب الآن فى الهجرة إلى الهند، كان قد تعلم كيفية الطهى أثناء عمله فوق البواخر النهرية فى المنطقة التى يقطنها، وكانت تلك البواخر لها شهرة واسعة فى كل أرجاء البنغال خاصة بنوعية الطعام التى تقدم فيها. بعد حضوره لمنزلنا أصبح الطعام له سمعة أسطورية فى محيط أصدقاء العائلة. بالنسبة لى، فقد كنت أنظر إليه بمزيج غريب من الخوف والانبهار، على الرغم من أنه كان رجلاً نحيفًا وضئيل الحجم، فإنه كان يبدو أكبر مما هو عليه لأنه كان لديه شارب ضخم وملتف يجعله يبدو غامضًا ومخيفًا، عندما كنت أحاول تخيل الغيلان والأشباح التى يذكرها فى رواياته، فإنهم كانوا يتمثلون لى فى نفس هيئته ويبدون لى شديدى الشبه به.

ولكنه فى هذا اليوم لم يكن فى جعبته أى قصص لكى يرويها لى: فقد كان يحتفظ بهدوئه بالكاد، وكان يتجه إلى النوافذ مرارًا وتكرارًا ثم ينظر إلى الخارج وهو يفتح شيش النوافذ. سرعان ما تملكه الفضول، وبعد أن أمرنى أن أبقى حيث كنت بلا حراك، انسّل خارجًا من الغرفة، وقد نسى أن يغلق باب الغرفة وراءه. انتظرت لمدة بضع دقائق وعندما لم يرجع مرة ثانية، جريت خارجًا من

وكان الطاهى على النقيض من ذلك فى حالة معنوية عالية للغاية، فعندما هبطنا إلى الحديقة أخذ فى إلقاء النكات وهو مبتهج مع الناس المتواجدين فى الحديقة وهو يضحك ويسألهم ما الذى أتى بهم إلى هناك. بعد ذلك، جلسنا القرفصاء فى أحد أركان الحديقة وهمس فى أذنى وهو يشير إلى مجموعات الناس من حولنا، وبدأ فى سرد قصة كل منهم. قُدر لى أن أتعرف على هذه القصص بعد ذلك بسنوات، عندما كنت أقوم بقراءة مجموعة من الصحف القديمة، اكتشفت أنه فى نفس الليلة التى رأيت فيها اللهب يتراقص حول جدران منزلنا، كانت هناك أيضًا أعمال شغب فى كلكتا، مشابهة فى كل ناحية فيما عدا أنه فى كلكتا كان الهندوس هم الذين يعتدون على المسلمين، إلا أنه يجب أن نذكر دائمًا وأبدًا أنه حدث فى كل من دكا وكلكتا، وبنفس القدر، أنه كانت هناك روايات متشابهة للغاية، كأنها مرآة تعكس القصة الأخرى عن الهندوس والمسلمين الذين قاموا بإغاثة ونجدة بعضهم البعض، بحيث تم إنقاذ أناس أكثر من هؤلاء الذين تم قتلهم، أكرر أننا يجب أن نتذكر ذلك دائمًا لأنه السبيل الوحيد الذى يعيد لنا ويحافظ على سلامتنا وتوازننا.

كانت هذه القصص لا تتغير أبدًا: فهناك روايات تنمو وتكبر من رمز كأنه بمثابة متفجرات، عن مدن تأكلها النيران بسبب بقرة وُجدت ميتة فى معبد هندوسى أو بسبب وجود خنزير فى مسجد،

بعثرة أغطية السرير، بدأت أولاً فى سحب الأغطية ثم بدأت فى جذب الملاءات، عندما وقعت مخدة أبى على الأرض حينئذ ظهر شىء معدنى لونه أسود. كان صغير الحجم، لم يكن أكبر حجمًا من مسدس أطفال، إلا أنه كان أثقل وزنًا منه بكثير، وكان يتعين على أن أستخدم يدىّ الاثنتين لكى أحمله. صوبته ناحية الحائط بنفس الطريقة التى كنت أصوب بها مسدس المياه الخاص بى ثم ضغطت على الزناد بأقوى ما استطعت، إلا أن شيئًا ما لم يحدث، فلم يكن هناك أى صوت ورفض الزناد أن يتحرك من مكانه، حاولت مرة أخرى، ومرة ثانية لم يحدث شىء، قلبته فى يداى متعجبًا ومتسائلاً كيف يعمل، إلا أنه فى هذه اللحظة فتح الباب على مصراعيه ودخل أبى الغرفة، قفز عبر الغرفةِ فى خطوتين اثنتين فقط وخطف المسدس من يدى، وبدون أن ينبس بأى كلمة، وضعه فى جيبه وجرى خارج الغرفة.

أدركت حينئذ أنه كان خائفًا من احتمال أن نُقتل هذه الليلة، وأنه قد أرسلنى إلى غرفة النوم حتى أكون آخر شخص يعثرون عليه إذا ما اقتحم الغوغاء البوابات.

إلا أنه لم يحدث شىء من هذا القبيل. فقد حضرت الشرطة فى الوقت المناسب تمامًا عندما أبلغهم أصدقاء والدىّ من المسلمين بحدوث شغب فقاموا بدفع الغوغاء بعيدًا فى صبيحة اليوم التالى عندما نظرت من الشرفة، كانت الحديقة مليئة بالطوب والدبش والركام، ولكن اللاجئين المجتمعين هناك كانوا يجلسون فى هدوء وإن كان يبدو عليهم الاستسلام التام والقهر.

دعا كل عائلة تتوافر لها الإمكانيات لزراعة محاصيل الأعلاف فإنها تقوم بذلك، أما هؤلاء الذين لا يزرعون الأعلاف فإنهم يقومون بشراء أعلاف طازجة من الآخرين. لذلك حرص الجميع على أن يتوافر لديهم القدر الكافى من اللبن، ففى هذا الموسم كانت فكرة المكوث بالمنزل فكرة مستحبة ومستساغة تحاشيًا للبرد ولكى يتحدثوا مع بعضهم البعض ويسترخوا خلال النهار ويأكلوا الزبادى والجبن والسمن بكثرة.

ذات صباح تملكتنى رغبة أن أحصل على فترة راحة من الأيام الطويلة التى أمضيتها جالسًا فى غرف تختنق بدخان السجائر، فانتهزت فرصة انقشاع الغيوم المفاجئ، وأتجهت إلى الحقول مصطحبًا معى كتابًا. استغرقت بعض الوقت لكى أجتاز الحارات المليئة بالطين، ولكن بمجرد أن تركت القرية ورائى اكتشفت أن هذا الأمر كان يستحق فعلاً، فقد كان الريف رائعًا للغاية فى هذا الوقت من السنة فكلما كانت السماء صحوًا كان القمح والبرسيم والذرة تبدو شديدة الإخضرار على خلفية سماء شديدة الزرقة، بينما كانت نشاوى نفسها، بمنازلها المبنية من الطوب اللبن والملتصقة بعضها ببعض، تبدو كأنها سلسلة من الجبال المنخفضة وهى تقبع على مسافة بعيدة.

سلكت طريقًا يؤدى إلى أرض خميس، لأنى كنت كثيرًا ما توقفت هناك لكى أتحدث معه أو مع إخوانه عندما كنت أقوم بالتريض كنت عادة ما أجدهم جالسين فى نفس المكان الذى قابلتهم فيه أول مرة،

عن أناس يُقتلون فقط بسبب ارتدائهم ملابس خاصة بالهندوس أو المسلمين طبقًا للمكان الذى يوجدون فيه، عن نساء تم شق بطونهن لارتدائهن سواء الحجاب الإسلامى أو لبس اللون البرتقالى الصارخ الخاص بالهندوس، ورجال تم تقطيع أوصالهم وقتلهم فقط بسبب أنهم لم تجر لهم عملية الختان الخاصة بالمسلمين.

ولكننى لم أتمكن أبدا أن أشرح كل تلك الأمور لنبيل أو أى شخص آخر فى نشاوى، ففى الحقيقة أنه على الرغم من العواصف والاضطرابات التى شهدتها مصر، وحتى على الرغم من الحروب التى خاضها بعض المصريين، فإن عالمهم كان يتميز أنه ألطف بكثير وأقل عنفًا، وأكثر إنسانية وبراءة عن عالمى، أى الهند.

فلذلك لا يمكن أن أتوقع من المصريين أن يفهموا الرعب الذى ينتاب الهندى من الرموز الدينية والطائفية.

١٤

بحلول الشتاء بدأت الأمطار فى الهطول وسرعان ما أصبحت شوارع نشاوى ملآى بالطين البارد اللزج الذى قد يصل إلى مستوى الركبة، ولم يغامر أحد بالخروج من منزله إذا استطاعوا تحاشى ذلك. كانت تلك الأيام تتميز بكونها أيامًا هادئة إذ لم يكن هناك أى أعمال تؤدى فى الحقول، فيما عدا رى الذرة الشتوية وأخذ الماشية لترعى فى المراعى حتى تأكل الذرة التى تم قطعها حديثًا أو البرسيم. كانت الأبقار والجاموس إذا ما تم تغذيتهم جيداً تمتلئ ضروعهم بكميات وفيرة للغاية من اللبن خلال شهور الشتاء، مما

تتغذى عليه الماشية. كنت أعلم أنه لن يمضى وقت طويل حتى يظهر خميس أو أحد إخوانه، وبما أننى كنت حريصًا على أن أستفيد أقصى استفادة من حالة الهدوء قررت أن أجلس سريعًا وأبدأ فى القراءة.

لم أكد أقرأ صفحة أو صفحتين حتى سمعت صوتًا حفيفًا (خشخشة) قريبًا منى، تلاه عاصفة من الضحك، ثم ظهر أخو خميس فجأة من داخل حقل الذرة وهو يحمل حزمة ذرة. استظل بالشجر بجوار المسقى، وهو يبتسم فى سعادة، وبعد ذلك بدقائق ظهرت فتاتان وهما تجريان وراءه مباشرة. عندما رأتنى الفتاتان توقفتا فجأة، وبعد أن قامتا بتفحصى، غمغمتا بكلمات تحية، كنت قد رأيتهما من قبل وكنت أعلم أنهما ابنتا أحد الرجال الذين يمتلكون حقولاً قريبة، كانتا ترتديان إيشاربات وجونلات بها نقوشات ، واعتقد أنهما كانتا فى حوالى السادسة عشرة من العمر، لا يمكن أن تكونا أكبر من عيد بحوالى سنتين، إلا أن الفرق بينهما كان يبدو أكبر من ذلك بكثير، لأن عيد كان يبدو أصغر من سنه بكثير ـ وهو نموذج مصغر من خميس.

فى بداية الأمر بدا أن وجودى تسبب فى تحفظ الفتاتين، إلا أن دورى كشخص غير مؤذ أصبح واضحًا لهما الآن، وسرعان ما نسيتا إننى موجود من الأصل وبدأتا فى ملاحقة عيد والجرى وراءه حول الساقية حتى علقت جلابيته فى عارضة خشبية مما جعله يقع أرضًا.

وهو تبة تظللها أشجار تقع بجوار بعضها البعض، كانت عائلة خميس تمتلك إحداها، بينما كانت الأخرى خاصة بعائلة زغلول، كانوا يقومون برى حقولهم بالتناوب عندما تتدفق المياه فى الترعة. كانوا قد قاموا بزراعة أشجار هناك حتى تستظل ماشيتهم تحتها بينما كانت تقوم بإدارة الساقية، وبما أن هذا كان هو المكان الذى عادة ما تتغذى وترعى فيه ماشيتهم، فلذلك قاموا أيضًا بإقامة مسقى أو حوض مياه خشبى لترتوى منه ماشيتهم. كان هذا المكان هادئًا وموحيًا، فقد كان هناك طابع يميز عجلة الساقية الخشبية الضخمة وهو السكون والمهابة كأنها عمل فنى من النحت، وكانت شبه مدفونة تحت الظلال الوارفة، بينما كان نبات الذرة الطويلة بمثابة ستارة خضراء فى خلفية هذا المشهد، لم أجد فى كل نشاوى مكانًا أفضل للقراءة، خاصة عندما كانت الساقية تدور مما يجعل المياه تصدر صوت قرقرة لطيفة بينما تنساب المياه من خلال الترعة ثم إلى الحقول.

لم أستطع أن أرى خميس أو أيًا من إخوانه عندما وصلت هناك، ولكنى عرفت أنه يجب أن يتواجد واحد منهم على الأقل فى منطقة قريبة لأن الماشية الخاصة بالعائلة كانت مربوطة بجانب حوض المياه الخاص بالماشية ـ وكانت جاموس وبقرة وعنزة ذات ضرعين كبيرين يتدليان من ثقل حملهما. كانت الماشية تمضغ العلف الذى تم قطعه حديثًا وهى تبدو هانئة سعيدة، وكان هذا العلف يتكون من كومة هائلة من نوع من الذرة يُسمى عويجة وهو يزرع خصيصًا لكى

الفتاتان بجوار الماشية، وهما تنفجران فى الضحك، وبعد برهة انتظار جرتا إلى حقل الذرة، واختفتا عن الأنظار فجأة وبنفس الطريقة العجيبة التى ظهرتا بها أول الأمر.

بعد أن اختفتا عن الأنظار، هز عيد رأسه معبرًا عن ازدرائه وهو يجلس بجوارى، ثم قال وهو يعقد ذراعيه فوق صدره «شفت ازاى بيتصرفوا؟ شايف أزاى تخنوا؟ شفت ازاى بيهزوا جسمهم لما بيمشوا؟ أنا حأقولك هم عايزين إيه: الاتنين دول عايزين يتجوزوا. ده اللى هم عايزينه، أنت طبعا فاهم وخصوصا البت الكبيرة اللى لابسه الفستان الأخضر - هى عايزه تتجوز بجد».

التقط كوز ذرة وبدأ فى مضغه، وهو يحملق بعينين ضيقتين، ثم قال بعد فترة صمت طويلة الحقيقة «أنهم عايزين يتجوزونى أنا، خصوصًا البت الكبيرة اللى لابسه أخضر - هى عايزانى، وده باين قوى، لكن أنا خلاص قررت إنى مش عايزها عشان هى أكبر منى بكتير لو وقعت على حتموتنى ومفيش حاجة حتفضل منى».

ومرة أخرى هناك صوت خفيف صادر من حقل الذرة مما جعله يقفز واقفًا، وقال بنبرة الزاهد فى الحياة «أهو، أديك شايف - شفت إنهم مش عايزين يسيبونى فى حالى. أهم رجعوا تانى».

عندما رجعت الفتاتان بعد ذلك بعدة دقائق وهما تجريان تجاه الأرض الفضاء، وضع يديه على فمه قائلاً «أنا قلت له ازاى أنك عايزه تتجوزينى».

وقعت الفتاتان فوقه حيث كان راقدًا، وهما تقومان بدغدغته وإغاظته وهما تجذبان أذنيه وتقرصان ركبتيه. قالت إحداهما وهى تضحك «جرالك إيه يا عيد، أنت نسيت قلت إيه؟» بينما كانت الأخرى تخربش ظهره وبدأت فى التزلف إليه وإقناعه بنبرة باكية «يللا يا عيد، أنت وعدت أنك حتعملها، واحنا مش ماشيين إلا لما تعملها».

كان عيد يلهث بصعوبة، ولم يكن فى حالة تسمح له أن يرد عليهما حتى استطاع أخيرًا أن يتخلص منهما ويقف مرة أخرى على رجليه.

قال وهو يهز رأسه بإصرار «لا» بينما كانت الفتاتين مازالتا واقفتين أعلى منه «لا، أنتم مش شايفين إنى مشغول؟».

عندئذ، عقدت إحدى الفتاتين يداه وراء ظهره، بينما بدأت الأخرى فى دغدغته، وفى اللحظات التى بدا فيها أنه سوف يقع مرة أخرى صاح عاليًا فى استسلام: «بس يا بت أنت وهى - استنوا شوية».

أطلقت الفتاتان سراحه، إلا أنهما ظلتا فى مكانهما وهما تتربصان وعلى أهبة الاستعداد للانقضاض عليه مرة ثانية، قالت إحداهما «أنت قلت أنك حتساعدنا، ودلوقت لازم تساعدنا».

رد عليهما وهو يهز كتفيه فى خيلاء «طيب، طيب، طيب، طيب».

سوّى عيد جلابيته متظاهرًا بالشجاعة، ثم مشى مبتعدًا عنهما، وهو يمشى فى خيلاء المنتصرين وبمجرد أن استدار بظهره جرت

سألته «ليه لأ؟».

قال «عشان هى بتتعلم فى المدارس وأهلها ناس مبسوطين، أما احنا عيلتنا مفيش حيلتنا أى حاجة وفى معظم الأحيان الأحوال بتكون ضنك عندنا. وأكتر من كده، أبوها من عيلة بدوى، وغالبًا مش حيرضى أنها تتجوز من عيلتنا، مفيش حاجة فى أيدى ـ فى آخر الأمر يمكن أتجوز واحدة من بنات عمى زى ما أهلى عايزين».

ثم جلس القرفصاء بجانبى وقال لى إنه لم يقل لأحد فى عائلته عن تلك الفتاة التى يريد أن يتزوجها، لأنه رأى أنه لا فائدة أو أمل من الحديث فى هذا الموضوع، لأنه كانت هناك مشاحنات ومشاكل بين عائلتى الجمال وبدوى لمدة طويلة حتى قبل أن يولد هو. وترجع تلك المشاكل إلى عمدة من عائلة بدوى يسمى أحمد أفندى، وكان مالكًا لفدادين فى أرجاء مختلفة من القرية.

قال عيد وهو يشير بعصا فى يده «بص هناك شايف الأرض اللى قدامنا دى، من هناك لهناك، حوالى ٤ فدادين؟ كل دى كانت أرضه، وهى لسه فى أيد ابنه اللى عايش فى مصر خميس وأنا وإخوانى كلنا بنشتغل عنده مزارعين عليها نأجرها ونديله جزء من المحصول، وهو ياخد الباقى كله. احنا عندنا أرض بتاعتنا أخدناها من الإصلاح الزراعى، لكنها بعيدة عن هنا، وهى ما تجيش نص مساحة الأرض بتاعته».

قال عيد كان العمدة القديم أحمد أفندى دائمًا ما يعامل عائلة الجمال كأنهم عبيد لديه.. كان يجعلهم يعملون بدون أن يدفع لهم

وقفت الفتاتان متسمرتين لوهلة، ثم بدأتا مرة أخرى فى مطاردته حول مسقى المياه بينما كانتا تصرخان وتضحكان، وهما تلهوان معه بضربه ودغدغته.

«طبعًا حنتجوزك يا عيد...».

«احنا الاتنين حنتجوزك...».

«أول بس ما تكبر شوية...».

«لما تبقى راجل...».

فى خلال ثوان معدودة بدأ فى الصراخ والصياح طالبًا منهما التوقف، إلا أن المطاردة استمرت حتى وقع وتكوم مرة أخرى على الأرض، ثم تركته الفتاتان ملقى حيث كان، ثم اختفتا مرة أخرى فجأة وبنفس الطريقة الغامضة.

قال عيد بمجرد أن قام من عثرته «دى حاجة تضايق قد إيه هم عايزين يتجوزونى. أنا كمان عايز اتجوز ـ الوقت أزف لجوازى، ولكن أنا مش عايز اتجوز أى واحدة فيهم. هما بنات مش كويسين، يعنى مش حلوين فى عينى».

سألته «طيب عايز تتجوز مين؟».

رد على قائلاً «أنا عارف البنت اللى عايز اتجوزها بتعدى من هنا بعض ساعات، لما بتروح لأبوها فى الغيط بتاعه. أنا كلمتها كلام قليل، ومن طريقه ما بتبتسم لى أنا عارف أنها حتوافق تتجوزنى. لكن أهلها مش عايزين، علشان كده مفيش فايده».

سأل عيد وهو يتحرق شوقًا بالفضول «وهو صحيح يا زغلول، إنه لما كان يشوف بت حلوة كان بيطلب أنهم يجيبوها لغاية عنده؟».

رد زغلول «أيوه، لما كان بيشوف بت كان يقول لأقاربها دانا عايز الست دى تقضى الليل فى بيتى، وطبعا كانت بتروح لأنه مفيش حاجة ممكن أى حد يقدر يعملها. كان أول ما يزعق تلاقى عشرين راجل رموا نفسهم تحت رجليه ويقولوا 'تحت أمرك يا أفندى».

بدت ابتسامة عريضة على وجه عيد وهو يسأله «وأنت بأه يا زغلول مش كنت بترمى نفسك على الأرض قدامه عشان يعمل فيك ما بدا له؟».

إلا أن زغلول ابتسم ابتسامة طيبة بينما اختفت عيناه تحت طيات وجهه المتغضن الذابل قبل الآوان، ثم التفت لينظر إلى وهو يلف المغزل فى يده.

قال «الواد عيد كان بيكلمك انهارده فى إيه؟ كان بيقولك على البت اللى بيبحلق فيها الأيام دى؟».

اتسعت عينا عيد من هول الصدمة وصاح فى دهشة «عرفت ازاى يا زغلول، عرفت ازاى؟».

رد زغلول «أنا بعرف عن الحاجات دى».

«بس مين اللى قال لك؟ عرفت ازاى؟».

قال زغلول «أنا شفت الطريقة اللى بتبحلق فيها، مفيش حد كان محتاج يقول لى، دى كانت واضحة زى الشمس، خصوصًا أنك فى

أى أجر، سواء كان ذلك فى منزله أو فى حقوله، ونتيجة لذلك، فبمجرد بداية الانتخابات قامت عائلة الجمال بالتصويت ضده، تلا ذلك صدامات ومعارك بين الفريقين، وبعد ذلك بفترة بدت كأنها عملية ثأرية. كان أحمد أفندى يسعى لإخراج المستأجرين من عائلة الجمال، ولكن بحلول هذا الوقت كان القانون قد حدث به تغيير ولم يتمكن من عمل أى شىء.

عندما قارب عيد من نهاية قصته، ظهر زغلول النساج، وهو يسحب وراءه جاموسة وبقرة. كان يستمع إلى عيد بينما كان يطعم ماشيته، ثم جلس على مقربة منا، وحسبما اعتاد عليه سرعان ما وضع الصوف ثم غزله على هيئة كومة أمامه، ثم بدأ فى غزل الخيوط بواسطة مغزل يدوى يحمله بيده.

عندما انتهى عيد، تدخل زغلول ليقول إنه يتذكر أحمد أفندى جيداً، مثله مثل كل الرجال الآخرين فى القرية الذين اضطروا فى أحيان كثيرة للعمل فى حقولهم. كان من عادة أحمد أفندى أيام الحصاد أن يتجول فى أنحاء القرية من باب لباب، وبينما كان الخفير التابع له يلازمه كظله تاركًا منجلاً على كل باب فيه رجل قوي بداخله. وهؤلاء الذين لم يظهروا فى حقوله فى الصباح التالى كانوا معرضين لخطر أن يقوم الخفراء بضربهم بالكرباج، كان أحمد أفندى يستطيع أن يفعل أى شىء يروق له لأنه كان له أصدقاء فى دائرة الباشاوات، وكانوا أشخاصًا ذوى نفوذ وسلطة حيث كانوا على صلة بالإنجليز.

اتغيرت، ساعات كنا نتكلم، ما هو احنا برضه كنا قرايب، وكنت بحاول أقول لها حاجات لكنى دايما ما كنتش ألاقى الكلام. كانت هى وأهلها بيقضوا الأيام دى فى بيت وسط البلد، مسافة طويلة بيننا وبينهم، لكن لما كانت تيجى نشاوى ما كنتش أقدر أنام أبدًا. كنت اتسحلب من ورا أهلى بالليل وامشى كل المدة دى، ولما أوصل لبيتهم، كنت أحط ودنى على أى فتحة فى الباب، عندها عشان اسمعها وهى بتتنفس وهى نايمة، كأن حياتى كانت فى نفسها، قضيت خمس سنين بالشكل ده، استنى أنها تيجى للبلد عندنا عشان أقدر اسمع صوت نفسها بالليل، وأنا قاعد على ركبى بالليل. وطول المدة دى كان أهلى بيحاولوا يجوزونى، وكل مرة أقول لهم لا، لا، مش دلوقت، وجوا قلبى كنت بافكر فيها، وفى اليوم اللى حتيجى فيه نشاوى تانى».

اشرأب عيد برأسه حتى يتمكن من النظر لوجه زغلول المطرق إلى الأرض وسأله «إيه اللى حصل يا زغلول، ليه ما حاولتش تتجوزها؟».

رد زغلول «أبويا ما كانش عايز، مرة قلت له فى وشه، قلت له أنا عاوز البنت دى ومفيش غيرها، لكنه قال لى «طلع الفكرة دى بره دماغك. أنت عمرك ما حتتجوزها، أحنا عايزين لك بت تقدر تشتغل فى الغيط وتحلب البقرة وتنضف تحت المواشى، لكن دى بنت بندر ما تعرفش ازاى تعيش. كنت عايز أقول له إنى باحبها لكنى كنت عارف أنه حيرزعنى قلم على وشى لو قلت له، فقعدت ساكت،

السن دى. إذا ما كنتش تخلى بالك حتلاقى نفسك بتقول «أنا باحب» زى تلامذة المدارس والجامعة. خلى بالك من تصرفاتك وماتنساش إنك فلاح: «الحب» مش لناس زينا».

لم يرد عيد، عند ذكر كلمة «الحب» فقد اكتسى وجهه بحمرة الخجل ثم انطلق ليضع المزيد من العلف أمام الماشية. تظاهر أنه لم يسمع ما قاله زغلول بالانشغال بحمل حمل كبير من الذرة.

سألت زغلول «تقصد إيه؟ ليه الفلاح مش ممكن يحب؟».

قال زغلول «بالنسبة لنا الموضوع ده بيجيب وجع الدماغ بس الحب ده مش عشان التلامذة والموظفين وناس البندر، هم بيفكروا فيه طول الوقت، بالضبط زى ما بيفكروا فى الكورة. لكن بالنسبة لنا الحكاية مختلفة، الأحسن إننا ما نفكرش فيه أبداً».

كان عيد قد رجع الآن بينما كانت عيناه قد اتسعتا من الدهشة فسأل زغلول «عرفت ازاى يا زغلول؟ هو عمر الحكاية دى حصلت لك؟».

رد زغلول بهدوء بينما كان يركز نظره على المغزل »فيه مرة حاجة زى كده حصلت لى. ابتدت لما كنت لسه صبى حوالى سنك، يعنى كنت عندى اربعتاشر أو خمستاشر سنة، واستمرت خمس سنين بحالهم. كانت بنت من البندر، بنت ناس قرايبنا بيشتغلوا فى الإسكندرية، كان أبوها بيجى هنا معاهم كلهم كل صيف عشان يزور أهله فى نشاوى. أنا كنت باعرفها طول حياتى، ولكن الصيف لما كان عندى اربعتاشر سنة شفتها لما جت البلد عندنا، وفجأة كل حاجة

طوال سنه من محصول القطن، وأضاف قائلاً بسرعة «طبعا ده داخله الأكل وحاجات تانية ـ يعنى زى ديك رومى وخمرة وحاجات زى كده».

حملق عيد فى دهشة وذهول ثم صاح «وكلهم بيندفع لهم كل المبلغ ده -خمسمية جنيه؟».

قال زغلول «لا ـ مش كلهم ـ بعض منهم رخيص بياخدوا خمسة جنيه بس، ومنهم اللى بتاخد جنيه ونص بس. بس ده علشان ساعتين أو أقل».

سأل عيد وهو يوكزه بكوعه فى لهفة «فين يا زغلول الواحد يلاقى البيوت دى. قل لى».

هز زغلول رأسه بغموض قائلاً «ابن عمى كان بيشتغل فى الإسكندرية لمدة كام شهر فى الشتا، والرجالة اللى كان بيشتغل معاهم كان بيقول لى عنهم، لكنه هو عمره ما راح هناك ـ يا أخى الواحد منا مش ممكن يروح أبدا هناك».

صاح عيد «لكن يا زغلول فين الأماكن دى؟ قل لى ـ فى أى شارع؟ أنا نفسى أروح وأشوف الأماكن دى».

ابتسم زغلول إليه فى حنو ولطف قائلاً له «دول حيستعبطوك يا عيد. حيحسسوا على وشك كده، ويطلبوا مثلا خمسة جنيه. حيدلكوا لك صدرك كده ويطلبوا منك عشرة جنيه، وبعد كده يطلبوا منك خمسين، وقبل ما ينتهوا حتخسر كل حاجة حيله أبوك».

وآخر السنة دى رتب لى أتجوز بت من البلد عندنا، بنت واحدة من ولاد عمه، وخلاص».

ظهرت ابتسامة صغيرة مغتصبة على إحدى جانبى وجهه المتغضن بينما كان ينظر لأعلى وأشار برأسه لعيد.

قال «لكن أنا كنت محظوظ، على الأقل عقلى ما طارش منى زى ما حصل لبعض الرجالة هنا، إذا مشيت فى نشاوى و البلد اللى بعدنا، واللى من بعدها وتسأل أى حد فيه كام واحد راجل اتجنن وإيه الأسباب اللى خليتهم يتجننوا، حتشوف أنه كان فيه سبب واحد مفيش غيره وهو الحب. ده اللى بيحصل يا عيد، وعلشان كده لازم تحرّص وتخلى بالك من اللى بتعمله».

حك عيد ذقنه وهو يعقد جبهته فى تفكير عميق قائلاً «هناك كل حاجة تختلف عن هنا. كل حاجة وأى حاجة ممكن تحصل فى البندر : أنت عارف كمان أنهم عندهم أماكن فيها الستات بتبيع أجسامها عشان تاخد كام جنيه؟».

هز رأسه بحكمة بينما كان عيد يحملق فيه وهو معقود اللسان من هول الدهشة. قال وهو يجهز نفسه لاستكمال قصته «ايوه، ده كلام مظبوط، فيه بيوت فى الإسكندرية الرجالة تدفع خمسماية جنيه علشان يقضوا ليلة واحدة مع ست ـ تتصور خمسماية جنيه علشان ليلة واحدة؟».

توقف لبرهة ليمعن التفكير وهو يعض على شفتيه، من المحتم أنه تذكر أن المبلغ الذى ذكره لتوه كان يساوى المبلغ الذى حصل عليه

صاح عيد وهو يهب واقفًا كأنه لا يستطيع أن يتمالك نفسه أكثر من ذلك «يا نهار أسود! يا نهار أسود! نفسى أروح واحدة من الأماكن دى».

جرى ناحية حوض العلف حيث كانت الماشية تأكل ثم وضع يده حول النعجة «بص شوف بحبها ازاى» قالها وهو يصيح وهو يطبع قبله على وجهها.

عندما كنت عائدًا بعد ذلك إلى نشاوى قابلت خميسًا ممتطيًا حماره متجهًا ناحية الحقول. عندما رآنى نزل عن حماره، وبعد أن تبادلنا التحيات وتحدثنا لفترة، سألنى بطريقة عفوية «شفت الواد عيد فى سكتك؟ هو كان بيعلف المواشى عند الساقية؟».

قلت «أيوه، أنا جاى من هناك».

بادرنى بسؤال آخر «هو كان فيه حد تانى هناك؟».

قالها وهو ينظر إلى عن قرب.

قلت «أيوه، زغلول كان هناك. كنا كلنا قاعدين هناك نتكلم مع بعض».

«مفيش حد تانى؟».

رددت قائلاً «فيه بنتين ظهروا لمدة دقيقة أو دقيقتين».

خبط خميس جبهته وهو يطلق صيحة يائسة «يا رب يا حفيظ! الكلب عيد ده حيخرب عيلتى. البنات دول كانوا بيعملوا إيه. يللا، قول لى».

قال عيد «طيب احنا حنشوف الموضوع ده. بس أنت قل لى الأماكن دى فين».

بدأوا فى الضحك، إلا أنهم سرعان ما توقفوا عن الضحك ثم خيم عليهم الصمت بينما كانوا يجلسون القرفصاء - عيد بحجمه الضئيل كان أصغر بكثير من قرنائه فى السن، بينما كان زغلول ذا الرجلين المقوستين والذى أصابه الانكماش قبل الآوان يبتسمان بينما كانا جالسين هناك وهما يحلمان أحلام اليقظة عن المتع المحرمة فى المدن البعيدة.

قال عيد بعد فترة قصيرة «هم البنات دول ليه بيعملوا كده؟ هم ناسهم وعيلتهم بيغصبوهم على كده؟».

قال زغلول «إيوه. ده اللى بيحصل. عيلتهم بتغصبهم على كده. هم بياخدوا تلاتين جنيه كل شهر من صاحب البيت وخلاص على كده - هم بيسيبوا بناتهم هناك وأصحاب البيوت أحرار يعملوا فيهم اللى هم عايزينه».

كشر عيد وصوب إليه نظرة نارية «طيب وكام بيندفع لمراتك يا زغلول خمستاشر جنيه؟ أنا حأدفعهم، تسمح لى بكده؟».

رد زغلول عليه وهو يبتسم دون أن يبدو عليه أى تأثر «دى حاتكلفك أكتر من مقدرتك».

ثم أضاف وهو يستدير لينظر إلى «ما تنزعجش احنا فلاحين بنحب نهزر ونضحك، دمنا خفيف زى ما الناس بتقول».

توقف لبرهة حتى يقلب فم الشيشة، ثم استقر فى مجلسه مرة أخرى على الكنبة.

قال لى إن أحد أصدقائه توقف فى لطيفة فى أحد الأيام فى طريقه إلى دمنهور. كان صديقه من نشاوى، وبينما كانا يتكلمان عن المحصول وعن الحقول، ومن قام بزراعة أى نوع من المحصول، ومن كان محصوله جيدًا وفيرًا هذا العام، قال له صديقه قصة غريبة وقعت حديثًا فى قريته.

كانت هناك قطعة من الأرض فى أحد حقول القرية التى يمتلكها أحد أبناء العمدة القديم أحمد بدوى أفندى، وكان أحد كبار الموظفين يعمل فى القاهرة، كانت إحدى قطع الأرض القليلة التى تُركت فى حيازة العائلة بعد صدور قانون الإصلاح الزراعى، وكانت تمثل جزءًا يسيرًا جدًا مما كانت تمتلكه العائلة قبل ذلك، إلا أنها كانت مساحة كبيرة جدًّا بالمقارنة بالحيازات الأخرى التى يمتلكها الفلاحون العاديون.

فى صباح أحد الأيام ظهرت عربة الموظف الكبير وهى تدخل نشاوى بصورة غير متوقعة تمامًا. اندهش الجميع لأنه نادرًا ما كان يأتى لزيارة القرية: فقد كان دائمًا متخوفًا ألا تتسخ ثيابه بالطين، أو هكذا قال الناس. إلا أنه كانت هناك مفاجأة أخرى مخبأة لأهل القرية. عندما توقفت العربة، وخرج ابن العمدة منها، توقع الناس

قلت وأنا أتلعثم وفى حالة ارتباك شديدة «مفيش حاجة» بدا اهتمام خميس البالغ بهذا الأمر الأخلاقى أنه لا يمت البتة بشخصيته «مفيش حاجة خالص، هم حضروا لمدة دقيقة...».

قال وهو يهز ذراعى «قل لى، حاول تفتكر، هم كانوا مثلا شايلين العلف بتاعنا؟».

اتضح لى الحقيقة أن خميسًا كان محقًا: فقد كانت الفتاتان تحملان كل ما تستطيعان حمله من العلف فى كل مرة كانتا تجريان من الأرض الفضاء. فجأة اتضح لى السبب وراء تقوية أواصر صداقتهما مع عيد.

قرأ خميس الإجابة على وجهى، وعلى الفور رفع طرف جلابيته وقفز فوق ظهر حماره.

صاح قائلاً: «الواد عيد ده حيخرب بيت عيلتنا كلها البنات دول بيدلعوه ويزغزغوه فينتهى به الحال أنه يعطيهم كل العلف بتاعنا - المغفل فاكر أنهم بيحبوه».

ضرب حماره فوق مؤخرته، وبينما كان يهرول مبتعدًا، كان خميس يلتفت للوراء وهو جالس فوق ظهر الحمار، ويصيح قائلاً لى «الواد ده لازم يتجوز، احنا حنجوزه لواحدة من بنات عمنا، ده حيخليه يفهم الدنيا ومشاكلها».

١٥

قال لى الشيخ موسى «بعد ما سافرت من مصر بحوالى سنتين سمعت أخبار عن صاحبك خميس وعيلته، وفكرت أن دى حاجة الضدكتور يحب يعرفها».

وفى واقع الأمر فإن هذه العائلة كانت فقيرة جداً وضخمة العدد جداً أيضاً، ومن المحتمل أنهم فيما بينهم جميعاً لم يكونوا يدخرون أكثر من جنيهين. ولكن فى الحقيقة فإن عرض أرض بهذه الجودة للبيع لم يحدث منذ سنوات طوال فى نشاوى، وكانوا يعلمون أنهم لن يحصلوا أبداً على فرصة كتلك المعروضة عليهم الآن، فلذلك فإنهم اقتنصوا هذه الفرصة وقالوا له «سيب لنا شهر يا فندى علشان ندبر الفلوس إنشاء الله وإذا بعد الشهر ما يمر ما قدرناش ندبر المبلغ فأنت حر تتصرف فى الأرض زى ما أنت عايز، واحنا مش حنقف فى طريقك والله».

بمجرد أن ذهب الافندى بدا الاخوه فى الجرى فى كل أرجاء القرية حتى أصغرهم الذى كان مازال طفلاً. طرقوا كل الأبواب من أبناء العمومة البعيدين إلى الأقارب البعيدين والأنساب لكى يقترضوا جنيهات معدودة من هنا وقروشاً قليلة من هناك. قاموا ببيع ماشيتهم وكذلك أجزاء من المنازل التى يقطنونها، بل وقاموا ببيع المحاريث التى يستخدمونها، ولذلك ففى اليوم المحدد لعودة الأفندى كان المبلغ جاهزاً وبذلك تمكنوا من تملك الأرض. كانوا بحلول هذا الوقت يعانون من وطأة الديون الثقيلة، ولكنهم منذ هذا التاريخ أصبحوا يعدّون ضمن أكبر ملّاك الأراضى فى القرية. كانوا قد حققوا الحلم الدفين الذى يداعب مخيلة أى فلاح وتتوارثه الأجيال منذ القِدم، وهو نَجاحهم فى توسيع رقعة ما تمتلكه عائلتهم من حيازة للأراضى.

الذين كانوا يراقبون الموقف أنه سوف يتجه مباشرة إلى منزل أبيه القديم، ولكنه لم يحدث ذلك لدهشتهم الشديدة، فقد مشى فى الاتجاه المعاكس ناحية عشة مبنية من الطين اللبن كانت مملوكة لعائلة من الفلاحين كانت تقوم بزراعة الأرض نظير أخذ جزء من المحصول لمدة أعوام طويلة.

اندهش أعضاء العائلة الذين كانوا موجودين بداخل العشة عندما رأوا ابن العمدة يطرق بابهم: فقد مرت سنوات طوال منذ رأوه آخر مرة، فقد كان معتادًا أن يرسل أحد «صبيانه» لتحصيل حصته أثناء موسم الحصاد، لكنهم فتحوا الباب على مصراعيه وقاموا باستقباله، وبقى بالداخل لمدة تناهز الساعة قبل أن يخرج.

لم يعرف أحد على وجه الدقة ما الذى قاله ابن العمدة، بينما كان بداخل هذا البيت، إلا أن الجميع اتفق أنه كان شيئًا من هذا القبيل «أنا قريب جدًا حاشترى شقة جديدة فى القاهرة إن شاء الله (أو يمكن عربية جديدة) وعلشان كده محتاج إنى أجمع مبلغًا كبيرًا بسرعة. اللهم صلى على النبى! أنا فكرت كتير جدًا فى الموضوع ده، بعد ما اتكلمت فيه مع أولادى قررت إنى أبيع أرضى. وحسب القانون والعرف أنا جيت لعيلتكم الأول، علشان انتم اشتغلتم فى الأرض دى من مدة طويلة جدًا وعلشان أسألكم إذا كنتم تقدروا تجمعوا ثمن الأرض وتشتروها، إذا قدرتم تجمعوا الفلوس فأهلا بكم وكل اللى ربنا يعمله خير، ولكن إذا ما قدرتوش تجمعوا الفلوس لازم أبلغكم إنى حاعرض الأرض للبيع بأمر الله».

قال وكأنه يقاطع نفسه «نسيت احكى لك. فيه حاجة عن خميس وعيلته سمعتها من جابر».

قال الشيخ موسى أنه منذ عدة شهور مضت مرت شاحنة ضخمة عبر لطيفة وهى محملة بحقائب سفر وكراتين من تلك المستخدمة لوضع أجهزة التليفزيون وما شابهها بداخلها. كانت نظرة واحدة للشاحنة تكفى لكى يدرك المرء أن هناك شخصًا ما قد عاد من العراق أو الخليج أو مكان آخر مثل ذلك، بعد أن جمع قدرًا لا بأس به من المال. كان جابر قد رأى الشاحنة وهى تمر من خلال نافذة فى منزله، فانطلق من توه لكى يقوم بالاستعلام عمن يكون قد مر وهو بهذه الحالة، سرعان ما اكتشف أن البطل العائد لم يكن إلا عيد، أخو خميس.

سألنى الشيخ موسى «أنت فاكره؟ أنت كنت بتذكره بعض أحيان لما كنت عايش فى نشاوى، كان لسه عيل طبعا، لكن دلوقت هو أطول من كل إخوانه».

كان عيد قد سافر إلى السعودية لمدة حوالى ثلاثة أو أربعة عوام، وأبلى بلاء حسنًا بالعمل فى مجال المعمار، وعندما عاد أحضر معه جهاز تليفزيون ملون، وثلاجة وغسالة كهربائية، وأشياء كثيرة أخرى من هذا القبيل. وفوق كل هذا فقد تمكن من توفير مال وفير وكان سوف يبتاع لعائلته جرارا جديدًا فى القريب العاجل.

أضاف الشيخ موسى «ومن مدة قريبة سمعنا أن عيد حيتجوز قريب جدًا وحيدفع مبلغ كبير على سبيل المهر وحيتجوز بنت متعلمة تتصور وهو من عيلة الجمال وكمان فلاح لا يعرف يقرا ولا يكتب».

قال الشيخ موسى «الكلام ده حصل من ست سنين، بعد سنتين من سفرك. الموضوع أخد تلات أو أربع زرعات من صاحبك خميس وعيلته علشان يسددوا ديونهم، ودلوقت هم بقى معاهم فلوس لدرجة أنهم بنوا بيت من الطوب الأحمر والأسمنت فوق أرضهم بره كردون البلد».

سألته «وإيه أخبار بثينة؟ إيه اللى حصل لها؟»

قال لى الشيخ موسى أن حياتها هى أيضًا قد أصابها التغيير، ولكن ليس بنفس القدر مثل إخوانها. فقد قررت أن تستقل بالعيش بمفردها مع ابنيها الاثنين عندما قرر إخوانها الانتقال للعيش فى المنزل الجديد. كانت قد تمكنت من توفير بعض المال لا بأس به فى هذه الأثناء فقد كانت قد أصبحت سيدة أعمال موسمية تتاجر بصفة منتظمة فى سوق دمنهور. وبفضل مدخراتها تمكنت من شراء منزل صغير مكون من غرفتين يقع فى وسط نشاوى بجانب الميدان مباشرة. كان الناس عادة ما يرددون أنها كانت تجعل ابنيها يذاكران حتى ساعة متأخرة من الليل، وكان الاثنان متفوقين فى دراستهما، على الرغم من كونهما مازالا صغيرين.

سألته «وإيه أخبار جوزها أبو أولادها؟».

ضحك الشيخ موسى ثم قال «سافر العراق وما حدش سمع عنه أى حاجة لمدة سنين».

(تناول الشيخ موسى نهاية القصة مرة أخرى بعد ذلك فى المساء بينما كنا نتحدث فى أمر آخر).

توجد حاليًا فى مجموعة تايلور ـ ششتر فى كامبردج، فهى بمثابة وثيقة مساعدة فقد كانت مسودة تنازل تدعم وثيقة العتق.

يؤكد التاريخ المثبت على وثيقة العتق أنها أول وثيقة يمكن إثبات أنها ترجع إلى فترة إقامة بن ييچو فى الهند. لا يمكن التأكد على وجه اليقين المدة التى أمضاها فى مانجالور وقت كتابته هذه الوثائق، فلابد على أية حال أن المدة كانت طويلة بما فيها الكفاية بالنسبة له حتى يتسنى له اقتناء عبيد ولكى يكوّن عائلة، وهذا يعنى أن بن ييچو كان قد ترك عدن ورحل إلى الهند فى وقت مبكر أى فى ١١٣٠ أو ١١٣١، على أية حال فإن تاريخ قدومه لابد وأنه قد سبق عتق آشو بعدة سنوات.

ومن المحتمل أنه ليس من قبيل الصدفة أن أولى الوثائق المؤرخة الخاصة بفترة إقامة بن ييچو فى الهند تتعلق بالمرأة التى من المحتمل أن تكون أنجبت له أولاده، وفى حقيقة الأمر، فمن المحتمل أن يكون قد توقع أن يقيم علاقة زواج أوعلاقة حسية بعد وصوله مباشرة، ذلك لأنه كان هناك اعتقاد سائد بين شعوب الشرق الأوسط أن الهند آنذاك كانت لديها سمعة خاصة بسهولة العلاقات الجنسية. ولو كان بن ييچو قد قرأ كتابات معاصرة مثل الشريف الإدريسى على سبيل المثال، لكان قد اكتشف أنه فى الهند فإن «المعاشرة بدون زواج مسموح بها لكل الناس طالما أنها ليست مع امرأة متزوجة». وقبل مولد بن ييچو بحوالى قرنين من الزمان، عبّر مؤرخ من ميناء سيراف الواقع على الخليج الفارسى عن إحساس

هز الشيخ موسى رأسه فى ذهول تام قائلاً «ده حيتجوز بنت من عيلة بدوى، بيقولوا جواز عن حب والاتنين كانوا صابرين من سنين».

١٦

هناك سبب وجيه للاعتقاد أنه بعد أن سافر بن ييچو لمنجالور - أو بالأحرى اضطر للسفر، ارتبط بن ييچو بعلاقة غرامية أدت بعد ذلك إلى الزواج. يرجع الدليل على ذلك إلى أوائل الوثائق التى تعود إلى فترة لقاء بن ييچو فى الهند، وهما قصاصتان غريبتان ومثيرتان للغاية ومن الممكن لحسن الحظ تحديد تاريخهما بدون أى تخوف من شبهة عدم الدقة.

فى الحقيقة فإن أولى القصاصتين تحدد الزمان والمكان التى كتبت فيهما حيث إنها كانت وثيقة قانونية. أما الثانية فقد كانت وثيقة الصلة بالأولى وهى مسودة لوثيقة قانونية أخرى مكتوبة بخط يد بن ييچو فوق إحدى تلك القصاصات الورقية التى اعتاد الكتابة عليها ليدون فيها ملاحظاته.

تُعتبر أولى تلك الوثائق هى الأهم، إلا أنها كانت صعب الوصول إليها نسبيًا حيث كانت ضمن مجموعة لينجراد. ومن حسن الحظ، فلا يمكن التشكك فى ماهية محتوياتها، فقد وقع عليها جويتين بالمصادفة أثناء إجرائه أبحاثه عند إقامته هناك، وقام بالإشارة إليها مرارًا فى كتاباته المتأخرة: كانت هذه وثيقة عتق وفيها تسجل أنه فى ١٧ أكتوبر ١١٣٢ فى مانجالور قام بن ييچو بمنح إحدى الإماء وتسمى آشو حريتها على الملأ. أما القصاصة الأخرى التى

من الممكن جداً أن بن بييچو كان قد قابل آشو فى واحدة من تلك الزيارات بعد قدومه إلى مانجالور بفترة وجيزة للغاية.

تشير حقيقة أن بن بييچو قام بعتق آشو بعد فترة وجيزة من اقتنائها لها وأن نواياه حيالها لم تكن عابرة. وبما أنه من الواضح أنه قد أعلن عن عتقها بإطلاق الأبواق احتفالاً بها فإنه من المرجح أيضًا أنه استغل هذه الفرصة لكى يقوم بالإعلان عن زواجه على الملأ.

على أية حال فقبل مرور ثلاث سنوات على زواجه، أنجب بن بييچو ابنًا، والدليل على ذلك يكمن فى خطاب كتبه معلمه مضمون فى ١١٣٥ إليه حيث كتب يقول: «أرسلت أيضًا قطعة من المرجان لابنك سرور» وكانت تلك بين قائمة هدايا قام بإرسالها إلى بن بييچو فى مانجالور ضمن شحنة بضائع.

لا يوجد سبب محدد لأن نربط بين عتق آشو بكون بن بييچو أبًا لطفل، إلا أنه من الصعب تخيل عكس ذلك. كانت الرابطة من الوضوح لدرجة أن جويتين، من ضمن آخرين، اعتقد بشدة أن بن بييچو تزوج آشو، وأن آشو كانت «من المرجح أن تكون جميلة».

يوجد دليل واحد فقط على أصل آشو، ففى مجموعة حسابات كتبت على عجالة فى نهاية أحد خطابات لمضمون، يشير بن بييچو إلى مبلغ من المال كان قد استدانه من «أخو زوجتى» الذى كان يحمل اسم «ناير» تضفى تلك المصادفة السعيدة لتلك الإشارة على آشو مظهر الهوية الاجتماعية، فهى تربط بينها وبين مجتمع عائلة ناير

الصدمة الذى اعتراه عندما سمع عن مهام الراقصات فى المعابد الهندية. كتب قائلاً بلهجة التقى الورع الذى ينم كلامه عن رفضه لتلك الممارسات «دعونا نحمد الله لنعمة القرآن التى اختارها الله لنا، والتى حافظت علينا من الانجراف فى الخطيئة التى يقع فيها الكافرون».

وهناك بعض الرحالة مثل الإيطالى نيكولو كونتى الذى زار الهند فى القرن الخامس عشر، الذين أبدوا دهشتهم البالغة من عدد الغانيات، كتب قائلاً «يمكنك أن تجد الغانيات فى كل مكان، وهن يعشن فى بيوت خاصة بهن فى كل أنحاء المدن الهندية، وهن يجتذبن الرجال بواسطة العطور والدهانات الجذابة، وكذلك بواسطة المداهنة وجمالهن وشبابهن، ذلك لأن الهنود معتادون على الفسوق». يبدو أن معاصرًا له، وكان سفيرًا فارسيًّا يُدعى عبدالرزاق السمرقندى والذى سافر إلى مملكة ڤيجايانجار فى ١٤٤٢ كان قد اكتسب معرفة أوثق بكثير مع عادات الغانيات. فبعد وصوله مباشرة إلى العاصمة أخذه مضيوفة لزيارة المنطقة حيث كانت تلك النسوة يعشن واكتشف أن «بعد صلاة الظهر مباشرة يضعن أمام أبواب الغرف... عروشًا وكراسى حيث تجلس الغانيات... بجوار كل غانية يجلس اثنان من العبيد الشبان، وهما يقومان بإشارة القبول، ويوكل إليهما القيام بكل الأعمال التى من شأنها إضافة جو من السرور. يمكن لأى رجل أن يدخل إلى هذا المكان، ويقوم باختيار الفتاة التى تروق له، ويستمتع بها».

لاقت قبولاً من أحد معاصرى بن ييچو، وهو الحاخام المتشدد العلاّمة بنيامين من تودلا، والذى كتب بعد زيارته للابار فى جميع أرجاء البلاد التى تضم كل البلدات هناك، يعيش عدة آلاف من الإسرائيليين. «السكان هناك كلهم ذوو بشرة سوداء بما فيهم اليهود، وهؤلاء يتمتعون بكونهم طيبين وصالحين، فهم على دراية تامة بتعاليم موسى والرسل، وإلى حد قليل يعرفون التلمود والهلاكا».

ولكن، بما أن بن ييچو كان قد اختار أن يتزوج امرأة لا تنتمى إلى عقيدته، على الرغم من الخيارات الأخرى المتاحة أمامه، فإن السبب الوحيد وراء ذلك هو اعتبار طاغ وأكثر أهمية إذا ما ترددت أن أطلق عليه لفظ «الحب» فالسبب فى ذلك يرجع إلى أن الوثائق لا تعطى أى دليل مؤكد على ذلك.

١٧

على الرغم من أن خميسًا نفسه لم يذكر الموضوع بتاتًا، فإنه من الواضح أن جميع من حوله كانوا يدركون أن حرمانه من الإنجاب كان بمثابة كابوس له.

ذات مرة فى يوم شتاء بارد قمت بزيارته بدون موعد سابق فوجدته جالسًا مع أبيه فى المضيفة أو غرفة الضيوف فى منزلهم وهو أحد أكثر المنازل إهمالاً وكآبة فى القرية. كان أبوه يجلس فى أحد الأركان ملتفًا ببطانية وهو يحتضن ركبتيه ويرتعد كلما زأرت الريح من خلال الحوائط المتهالكة. ابتسم عندما دخلت الغرفة،

من ناحية الأم، الذين مازالوا يكوّنون قطاعًا متينًا من سكان الجزء الجنوبى من ساحل مالابار.

لا يأتى ذكر آشو فى أى مكان آخر فى المجموعة الكاملة لوثائق بن ييچو، على الرغم من أن أطفالها يظهرون فيها بكثرة. لم يقم بن ييچو ولو لمرة واحدة بالإشارة لها فى رسائله أو مدوناته، وكذلك فإن الذين كانوا يراسلونه من عدن، والذين كانوا دائمًا حريصين على إرسال تحياتهم وأمانيهم الطيبة لأولاد بن ييچو، لم يذكروها مطلقًا هم أيضًا، حتى ولو على سبيل التورية التى كانت معتادة فى هذه الأيام، ولم يرسلوا لها بتحياتهم. هذا التجاهل الغريب قد يعلل أو يكون دليلاً أن بن ييچو كان قد تزوج آشو بالفعل، فبسبب زواج من هذا الشكل ـ أى من أمّه (عبده) لا تمت إلى نفس عقيدته، كان من المرجح أن يكون هو السبب وراء هذا الصمت المطبق من جانب أصدقائه. من المحتمل أن بن ييچو قام بجعل آشو تعتنق اليهودية قبل زواجها، ولكن من المحتمل أن هذا الاعتناق لم يكن يعنى أى شىء سواء لآشو أو أصدقاء بن ييچو وأقربائه. ومن الممكن أيضًا أن ارتباطهما كان على نمط نظام «الزواج المؤقت»، وهو شكل من ارتباط الزواج كان يمارسه بكثرة التجار الإيرانيون المغتربون.

كانت هناك اختيارات أخرى للزواج أمام بن ييچو فى الهند التى كانت من المحتمل أن تكون قد لاقت قبولاً أكثر لدى أصدقائه، فعلى سبيل المثال فإنه كان من الممكن أن يتزوج من طائفة يهود مالابار العتيقة ـ وهى طائفة معروفة بتشددها فى الأمور الدينية حتى أنها

قال خميس وهو يبتسم ابتسامة عريضة «الكلام ده كان زمان. دلوقت الأمور كلها اتغيرت».

سألنى الأب «شايف أولادى عاملين أزاى؟ هم حتى مش عايزين يشتروا لى جاكت من دمنهور علشان ما أفكرش فى الشتا من غير قلق».

عندما قال الأب هذه الكلمات انتفض خميس واقفًا فجأة وخرج من الغرفة. كان الأب يحملق فيه دون أن يهتز له طرف.

غمغم بصوت يكاد يكون غير مسموع «اعمل إيه فى أولادى؟ بص لهم بص لبثينة وهى بتحاول تربى أولادها الاتنين لوحدها، بص لخميس، دلوقت ما تقدرش تكلمه فى أى حاجة أبدا، ولا لى ولا لاخواته ولا لمراته، وكل سنة حالته بتسوء أكتر وأكتر».

جذب البطانية فوق أذنيه وهو يرتعد ويتشنج وقال «يمكن ده ذنبى أنا علشان جوزته وهو لسه صغير، وقلت إننا عايزين نشوف عياله قبل ما نموت. لكن ده مانفعش فاتجوز مرة تانية. دلوقت الفكرة الوحيدة اللى شاغله دماغه هى الخلفة والأولاد ـ ده كل اللى بيفكر فيه، ومفيش حاجة تانية غيرها».

بعد ذلك بعدة شهور أثناء فصل الربيع وبعد مضى حوالى سنة، وكان موعد رحيلى عن مصر أصبح وشيكًا كنت عائدًا من الحقول بصحبة خميس وعيد ذات مساء، عندما لمحنا إمام إبراهيم جالسًا على سلالم المسجد.

وأشار إلى أن أجلس بجانبه. كان رجلاً مسّنا نحيفًا. ضعيف البنية ذا عينين زائغتين لا تستقران أبدًا. كان عاملاً فى الإسكندرية خلال الحرب العالمية الثانية، وكان قد قابل جنودا هنودا كثيرين مرّوا عبر المدينة فى بداية حملة شمال أفريقيا. وكانوا قد تركوا انطباعًا قويًا فى ذاكرته، وفى أول لقاء لنا قام بتحيتى كما لو أنه يستأنف صداقة انقطعت لفترة من الزمان.

وبعد أن جلست بجواره، مال ناحيتى وتحسس الجاكت الصوف الذى ارتديه، وهو يتفحصه عن كثب، بينما كان يفرك القماش بعناية بين أصبعه وإبهامه.

قال «دى الحاجة المناسبة اللى تلبسها فى الشتا. الجاكت ده لازم مخليك متدفى».

تدخل خميس بقوله «مش بتدفى زى الباطنية بتاعتك».

تظاهر أبوه بعدم سماع ما قاله فقال لى «سمعت أنك ممكن تشترى جاكتات زى دى من دمنهور»

قال خميس «ممكن تشترى أى حاجة لو عندك فلوس. هى مجايب الفلوس هو اللى صعب».

لم يعره أبوه أى اهتمام وقام بربت ذراعى قائلاً لى «أنا فاكر كويس العساكر الهنود. كانوا طوال جدًا ولونهم أسمر جدًا لدرجة أننا يا مصريين كنا خايفين منهم. ولكن لما كنت تكلمهم كانوا ألطف عساكر من كل المجموعة، لو طلبت من واحد سيجارة كان يعطيك علبة السجاير كلها».

قلت «ولا بيحبنى أنا كمان».

قال خميس «مش مهم. هو حيجى لو أنت طلبت منه، هو عارف إنك أجنبى ـ هو حيسمح لك».

كان من الواضح أنه قد عقد العزم على هذا الأمر، فتركته ينتظر على طرف الميدان، ثم عبرت الميدان ناحية المسجد. أدركت أن الإمام قد رآنى مع خميس من هذه المسافة البعيدة، إلا أنه لم تبد عليه أى إشارة تدل على ذلك، فقد حاول جاهدًا ألا تتجه عيناه ناحيتى، وبدلاً من ذلك تظاهر أنه منشغل بالحديث مع رجل يجلس بجانبه، وهو رجل مسن يمتلك محلاً، كانت معرفتى به بسيطة للغاية.

كنت مازلت على بعد عدة خطوات منهم عندما قلت لهم «مساء الخير» للإمام على وجه التحديد بحيث لا يستطيع تجاهلى، توقف حتى يرد السلام إلا أنه كان ردًا مختصرًا ومقتضبًا على نحو فظ، واستدار على الفور لكى يكمل حديثه مع الرجل.

اندهش صاحب المحل المسن من أسلوب الإمام، فقد كان الرجل لطيفًا دمثًا، وكان عادة ما يتبادل تحيات ودية معى كلما تقابلنا فى طرقات القرية.

قال لى بشعور واضح من الارتباك «اتفضل اقعد. اتفضل. نجيب لك كرسى؟».

توقف خميس فجأة وقال لى بنبرة إلحاح «اسمع، أنت عارف إمام إبراهيم، مش كده؟ أنا شفتك وأنتم بتسلم عليه».

أجبته بإجابة غير ذات معنى واضحة أو محددة، على الرغم من أن الحقيقة أنه بعد وجبة الغداء البائسة فى منزل ياسر لم يتنازل الإمام بالرد على تحياتى، كلما تقابلنا فى حوارى القرية الضيقة.

قال خميس «مراتى عيانة. أنا عاوز الإمام يحضر لبيتنا ويديها حقنة».

فاجأتنى إجابته فكررت عليه بسرعة ما سبق أن قاله نبيل وأصدقائه عن إبر الإمام غير الحادة، وقلت له إذا كانت زوجته تحتاج لحقنة فإن هناك آخرين كثيرين يستطيعون أن يقوموا بهذا العمل بطريقة أفضل بكثير، ولكن خميس كان مصراً، فقد قال لى إن المسألة لم تكن الحقنة، لأنه كان قد سمع أن إمام إبراهيم كان يعرف الكثير عن الأدوية وطرق العلاج وما شابه ذلك، وأن الناس قد قالوا له إنه من الممكن أن يفعل شيئًا ما له ولزوجته.

فهمت حينذاك ما هو نوع الدواء الذى كان يأمل أن يعطيه له الإمام.

قلت له «يا خميس، هو مش حيفيدك فى أمور زى دى. وعلى كل حال هو دلوقت بطل يعمل أدوية من النوع ده. هو بس بيضرب حقن».

إلا أن خميس كان فقد صبره الآن فقال لى «روح واسأله. هو مش حيجى عندنا لو طلبت أنا منه، أصله مش بيحبنا».

تراجع صاحب المحل كما لو أن أحدًا قد صفعه على وجهه ورفع يده بسرعة إلى فمه وهو يتمتم «يا الله!».

قال الإمام «أهو ده اللى بيعملوه. بيحرقوا أمواتهم».

ثم وفجأة استدار بسرعة ليواجهنى صائحًا: «ليه بتسمحوا بكده؟ أنتم مش شايفين إن دى تقاليد بدائية ومتخلفة؟ أنتم متوحشين علشان تعملوا حاجة زى دى؟ بص كده لنفسك: أنت متعلم والمفروض أنك تتصرف بطريقة أحسن من كده. ازاى يعنى بلدكم ممكن تتقدم إذا استمريتم تعملوا كده؟ أنت حتى رحت أوروبا وشفت ازاى هم متقدمين. قل لى بأه عمرك شفتهم بيحرقوا أمواتهم؟».

التف حولنا أناس كثيرون عندما وصل الحوار إلى هذا الحد، وقد جذبهم صوت الإمام، وتحت وطأة نظراتهم المصوبة إلى، وجدت نفسى معقود اللسان أكثر فأكثر.

إلا أننى تمكنت من الكلام ووجدت صوتى يعلو بالرغم من محاولاتى السيطرة عليه «أيوه، هم فعلاً بيحرقوا أمواتهم فى أوروبا. هم عندهم أفران كهربائية مخصوصة للغرض ده».

استدار الإمام مرة أخرى وضحك باستهزاء موجهًا كلامه للناس المحتشدة «ده بيكذب. هم مش بيحرقوا أمواتهم فى الغرب. هم مش شعوب جاهلة، دول متقدمين ومتعلمين، عندهم العلم والسلاح والدبابات والقنابل».

وبدون أن ينتظر إجابة نظر إلى الإمام وهو يقطب جبينه فى حيرة قائلاً «أنت تعرف الضكتور الهندى، مش كده؟ ده سافر كل المسافة الطويلة من الهند علشان يدرس فى جامعة إسكندرية».

قال الإمام «أيوه، أعرفه. ده جه عندى علشان يسألنى أسئلة. أما بالنسبة للدراسة دى، أنا معنديش فكرة. هو حيدرس إيه؟ ده حتى ما يعرفش يكتب عربى».

رد عليه صاحب المحل بنبرة الحكيم «ده صحيح ولكنه بيكتب باللغة بتاعته، وهو كمان بيعرف إنجليزى».

قال الإمام بازدراء «أيوه، أيوه اللغات دى! أيه فايدة اللغات دى؟ دى أسهل لغات فى الدنيا. أى حد ممكن يكتبهم».

التفت لينظر إلى الآن وتبينت أن فمه كان يرتعش من أثر الغضب الذى يعتريه، أما عيناه فكانتا تلمعان ببريق غريب.

سألنى «قل لى، أنتم ليه بتعبدوا البقر؟».

عقدت المفاجأة لسانى فبدأت أتلعثم فقاطعنى بأن استدار وأعطانى ظهره مرة أخرى.

قال للرجل العجوز صاحب المحل «أهو ده اللى بيعملوه فى بلدهم. إنت عارف؟ دول بيعبدوا البقر».

صوب إلى نظرة من طرف عينه قائلاً «عايز أقول لك إيه تانى بيعملوه؟» ترك السؤال معلقًا فى الهواء لمدة دقيقة، ثم أعلن بطريقة مسرحية مبالغ فيها «دول بيحرقوا أمواتهم!»

الفرق الوحيد أننى كنت بالفعل قد ذهبت هناك بشخصى وبنفسى، كان من الممكن أن أقص عليه الكثير من المعلومات عن الغرب.

بما أننى قد عايشته معايشة عن كثب عن مكتباته ومتاحفه ومسارحه، ولكن كل ذلك لم يكن ليهم، فقد كان سوف يتبين كلانا أن كل تلك الأشياء ما هى إلا مجرد أشياء سطحية: ففى نهاية الأمر فإن الغرب بالنسبة لملايين من البشر المنتشرين حولنا فى كل بقاع الأرض كان يعنى فقط العلم والدبابات والأسلحة والقنابل.

شعرت وأنا أمشى مبتعدًا إننى قد سُحقت؛ فقد بدا لى إننى أنا والإمام قد أسهمنا فى إحداث هزيمتنا القاضية الأخيرة، تمثلت هذه الهزيمة فى تدمير قرون من الحوار قد ربطت بيننا: كنا قد أثبتنا وبرهنا على النصر المعكوس للغة التى اغتالت كل الآخرين، والتى كانت يومًا أداة ووسيلة لأناس مختلفين لكى يناقشوا اختلافاتهم. كنا قد اعترفنا أننا لن نتمكن من الحديث والحوار أكثر من ذلك، بينما استطاع بن ييجو أو عبده، أو أى شخص آخر من آلاف الرحالة الذين عبروا المحيط الهندى خلال العصور الوسطى أن يتجاوزوا عن الأشياء الطيبة أو الصحيحة أو الأشياء التى قدرها الله أن تحدث، أما الآن، فقد كان أمرًا مضحكًا وغير وارد بالمرة لأى منا أن يستخدم تلك الألفاظ، فقد بدت أنها كلمات تنتمى إلى عصور اندثرت، وبدلاً من ذلك، فلكى نتفاهم مع بعضنا البعض قمنا باستخدام نفس الألفاظ التى يستخدمها زعماء وقادة العالم فى المحافل الدولية: أنا بصفتى طالب أحد العلوم «الإنسانية» وهو بصفته إمام قرية يعيش

فجأة، بدا شىء كأنه يغلى داخل رأسى يتصل بتساؤلات محيرة وجدل لم أتمكن من السيطرة عليه أكثر من ذلك بداخلى.

صرخت بأعلى صوتى له «واحنا كمان عندنا الحاجات دى! فى بلدى عندنا كل الحاجات دى. عندنا السلاح والدبابات والقنابل. وهم أحسن من أى حاجة عندكم فى مصر احنا متقدمين عنكم كتير جدًا».

صاح الإمام بينما صوته يعلو بغضب «أنا باقول لكم أنه بيكذب. احنا أسلحتنا وقنابلنا أحسن من بتوعهم. احنا حاجاتنا تيجى بعد الغرب من ناحية جودتها».

رددت عليه «أهو أنت اللى بتكدب. أنت ما تعرفش أى حاجة عن الحاجات دى. احنا حاجاتنا أحسن منكم. احنا حتى فى بلدى عملنا تفجير نووى. مش حاتقدوا تكونوا زينا ولا حتى بعد مائة سنة».

أعتقد أنه عند هذا القدر من العراك الذى ظهر فيه خميس بجوارى، وجذبنى بعيدًا، وإلا لكنت أنا والإمام على الأرجح ظللنا واقفين نتعارك لمدة أطول من ذلك بكثير. كنت أنا والإمام مثل ممثلين لحضارتين تتنافسان مع بعضهما البعض لكى تثبت كل منهما أسبقيتها فى الحصول على تكنولوجيا العنف والدمار فى الأزمنة المعاصرة.

فى هذه اللحظة على الرغم من الهوة العميقة التى تفصل بيننا، كنا نفهم بعضنا البعض جيدًا. كان كلانا رحالة فى الغرب، ولكن كان

مانجالور

بفكر الماضى، فهو فى الواقع كان يقول لى «لا يجب أن تفعل ما تفعله، وإلا فلن تحصل على السلاح والدبابات والقنابل» كانت هذه هى اللغة المشتركة الوحيدة التى توصلنا لأن نستخدمها.

ولمدة طويلة بعد أن اصطحبنى خميس وعيد لمنزلهما لم استطع أن أحمل نفسى على الحديث، فقد شعرت أننى متآمر على خيانة التاريخ الذى قادنى إلى نشاوى: كنت مثل شاهد عيان على تدمير عالم متسامح كنت أظنه مازال قائمًا وموجودًا وفى حدود ضيقة جدًا يمكن استرجاعه مرة أخرى.

ولكن لم يتركنى خميس وعائلته مستغرقًا فى صمتى، فقد أخذونى إلى بيتهم، وبعد أن كرر عيد قصة مواجهتى مع إمام إبراهيم، التفت إلى خميس ضاحكًا وقال لى «ماتزعلش نفسك، يا ضدكتور انسى كل حاجة عن الأسئلة والحاجات دى. باقولك إيه: أنا حاجى أزورك فى بلدك، مع إنى عمرى ما سافرت أى مكان هنا ولا هنا لما تسافر أنا حاجى معاك كل المسافة دى للهند».

بدأ يهرش رأسه، وهو يفكر مليًا ثم أضاف قائلاً «ولكن إذا مت هناك لازم تفتكر انك تدفنى».

١

عندما يشاهد المرء القادم إلى مانجالور لأول مرة، وخاصة فى يوم صحو لا تعكره السحب، فإنه يحبس أنفاسه من فرط جمالها، فهى تقع على ما يشبه طرف إصبع طويل لأرض ترتفع بشدة، وهى بمثابة سلسلة جبال تمتد من مكان عال فى المدى البعيد حيث يلتقى نهران حول المنحنى لطرف الإصبع هذا لكى يكوّنا بحيرة ضخمة تشبه كف اليد تقبع فى سكون تحت سماء فضية، وما بين البحيرة والبحر هناك بروزان من الرمال يشبهان كوعين، وهما يقومان باحتجاز الأمواج، وهذان الكوعين يمتدان إلى أقصى مدى، حتى يكادا يتلامسا، إلا أنهما لا يصلان لبعضهما البعض، ومن خلال الفتحة الصغيرة بينهما تتدفق قناة ضيقة تربط بين البحيرة والبحر أما المراكب التى تبحر خلال هذه القناة فهى غالبًا مراكب صيد صغيرة، فقد انتقلت الآن وظيفة البحيرة بصفتها ميناء فى الأزمنة الغابرة إلى ميناء حديث يقع على بعد مسافة قليلة شمال المدينة، إلا أن البحيرة هى التى أسبغت على مانجالور شرعيتها كميناء، ومن

من الشرق الأوسط، كانوا قد أقاموا مكاتبهم ومستودعات لبضائعهم بالقرب من الميناء، على الأرجح على جانب التل، من حيث يستطيعون مراقبة السفن التى تدخل الميناء.

كان مجتمع التجار المغتربين فى مانجالور كبيرًا بكل المقاييس ففى هذا المقام يذكر الرحالة المغربى ابن بطوطة الذى زار المدينة بعد حوالى مائتى سنة بعد بن بيجو أن من عادة معظم التجار من اليمن وفارس أن ينزلوا فى مانجالور، بينما يبدو أن السومطريين، شأنهم فى ذلك شأن آخرين من مناطق شرقية من المحيط الهندى، يفضلون مدنًا أخرى مثل كاليكت و«فاندارينا» وهى تقع إلى الجنوب قليلاً. فى الزمن الذى زار فيه ابن بطوطة مانجالور مما يعنى ضمنًا أن التجار الأجانب كانوا قد كوّنوا معًا مجتمعًا يتكون من حوالى ٤,٠٠٠ نفس، «يعيشون فى ضاحية خارج المدينة».

لم تكن المستعمرة التى يقطنها الأجانب فى مانجالور بأى حال أكبر المستعمرات أو أكثرها اشتمالاً على جنسيات مختلفة، فقد كانت كاليكت التى تقع على بعد مائة ميل للجنوب تبدو أنها تضم مجتمع تجار أكبر بكثير ويتسم بأنه أكثر تنوعًا وتعددية كانت توجد ثلاث عشرة سفينة «صينية» فى الميناء عندما رست سفينة ابن بطوطة هناك، ويذكر أنه كانت هناك زيارات بصورة منتظمة من «الصين وسومطرة وسيلان وجزر المالديف واليمن وبلاد فارس» ويذكر كذلك بحارًا برتغاليًا اسمه دوارتى بارابوسا، وكان قد زار المدينة فى أوائل القرن السادس عشر أن تجار المدينة يضمون

المحتمل أن يكون بن بيچو قد لمح المدينة لأول مرة من هذا المكان وهى التى قُدر له أن يعيش فيها لعقدين من الزمان.

الموقع الجغرافى لمانجالور هو الشىء الوحيد الذى بقى وظل موجودًا من المدينة التى رآها بن بيچو: فقد دُمرت ونُهبت المدينة عدة مرات فى القرن السادس عشر وما بعدها، واليوم لم يعد هناك تقريبًا أى أثر لما كان موجودًا فى القرون الوسطى. فالمنطقة المعروفة الآن باسم «الميناء القديم تقبع كمًّا مهملاً فى سفح شديد الانحدار تحت مراكز المدينة التجارية والأسواق التى تموج بالحركة والنشاط. مازال الميناء يحمل نفس الاسم الفارسى القديم «باندار» أى بمعنى الميناء، ولكن اليوم، فإن اللحظات القليلة من الحياة تمنحها له معدية تربط الميناء بقرى الصيادين التى تعيش على صيد الأسماك والتى تقع على المنطقة الرملية على الجانب الآخر من البحيرة، وفيما عدا ذلك، فإن أحواض السفن غالبًا ما تكون خالية من السفن وكذلك فإن الأرصفة خالية، فيما عدا القليل جدًا من المركب النهرية.

من المحتمل أنه عندما حضر بن بيچو إلى مانجالور كانت توجد منطقة رملية تفترش مكان أحواض السفن الآن: فمن الواضح أن السفن التى كانت تجوب المحيط الهندى كانت مُصممة بحيث ترسى على الشواطئ وليس فى أحواض السفن، وكان هذا أفضل للسفن لكى تستفيد من الرمال الناعمة الموجودة بمحاذاة المياه. من المحتمل أن تجار المدينة، بما فى ذلك المجتمع الضخم الذى يشمل المغتربين

يقف الخيال عاجزًا عند فكرة أن بندار كانت يومًا ما تجذب التجار والبحارة من أقصى بقاع الأرض.

على الرغم من ذلك، ولمدة مئات السنين اجتمع أعداد غفيرة من زائرى المدينة الأجانب فى مدن تلك المنطقة، ولقد كان الرحالة من الشرق الأوسط الذين أعطوا هذا الجزء من الساحل الاسم العربى «مالابار» طبقًا لاستخدامهم، فقد كان الاسم يُطلق بتصرف على الجزء الثالث الجنوبى من الساحل الغربى، وهى منطقة تشترك فى معالم كثيرة لثقافة مشتركة. ولكن مالابار أيضًا مقسمة إلى العديد من المناطق الفرعية الأصغر حجمًا، من المحتمل أن تكون من ضمنها المنطقة المحيطة بمنجالور أكثرها تميزًا. بحكم أنها تقع فى أقصى الشمال من منطقة مالابار، فإنها تكوّن نوعًا من الممر أو المعبر المزدوج ما بين الشمال والجنوب من جانب، وما بين الساحل والمنطقة الداخلية على الجانب الآخر. وهى تشترك مع جيرانها من ناحية الجنوب فى وجود مؤسسات ومراكز ثقافية مرموقة متميزة، بالإضافة إلى التراث الذى آل إليهما من تاريخهما المتزامن - فعلى سبيل المثال - قانون الأحوال الشخصية الذى يقوم على مبادئ نسب الأولاد إلى الأم، أمر شائع لدى مجموعات كبيرة فى جميع أرجاء المنطقة. ولكن فى أمور أخرى، فإنهم يتبعون المناطق المحاذية لهم من ناحية الشمال والشرق، وكذلك مع ولاية كارانتاكا حيث إنها تمثل جزءًا من هذه الولاية. فعلى سبيل المثال فبينما تمثل اللغة المستخدمة هناك لغة مميزة مستقلة بذاتها، فإنها شديدة الشبه بما يسمى كاناذا، وهى اللغة التى يستخدمها غالبية سكان الولاية .

العرب والفرس والخرسانيين والذين كان يُطلق عليهم جميعًا لفظ الأجانب. لم يكن هؤلاء التجار الأجانب كلهم تجارًا متجولين، فلقد كان الكثير منهم مغتربين استقروا فى مالابار لفترات زمنية طويلة. يذكر بارابوسا أنهم «لديهم فى هذا المكان زوجات وأطفال بالإضافة إلى سفن تجوب كل الأنحاء محملة بكل أنواع البضائع».

كان نمط حياة هؤلاء التجار يتسم بالبذخ حتى أن الرحالة ورجال البلاط ذوى الثقافة الرفيعة الذين كانوا معتادين على الرفاهية ورغد العيش فى قصور الحكم الكبيرة أخذتهم الدهشة عندما دخلوا دائرة هؤلاء التجار، فعلى سبيل المثال، فإن السفير الفارسى عبدالرزاق السمرقندى انبهر بأسلوب حياتهم عندما مر بمالابارفى ١٤٤٢ ميلادية. كتب قائلاً «هؤلاء التجار يرتدون أفخم الثياب بنفس أسلوب العرب، ويضفون الأبهة على كل التفاصيل. قام بارابوسا بترديد نفس هذه الملحوظات بعد عقود قليلة من الزمان فيذكر «أنهم يعيشون فى بيوت كبيرة ولديهم خدم كثيرون: ومأكلهم ومشربهم وكل ما يتصل بحياتهم يتسم بالفخامة».

لا يوجد الآن أى شىء فى بندار لكى يؤكد أو يدلل على وجود تلك القصور والبيوت الفخمة التى ذكرها ابن بطوطة ودوارتى بارابوسا، ففى العصر الحالى، يخيم الصمت والسكون على كل الطرق والحارات المحيطة بأرصفة الميناء بحلول المغرب، فمكاتب الشحن تغلق أبوابها وتوصد المقاهى أبوابها، ولا يبقى سوى القليل من المسافرين الذين ينتظرون ليعبروا إلى لسان الأرض المكسو بالرمال.

مثله مثل بن بيجو اجتذبت مانجالور تجارًا كثيرين آخرين قادمين من الشرق الأوسط بسبب الفرص والإمكانيات التجارية التى منحتها لهم بصفتها أحد الموانئ الرئيسية لمناطق داخلية واقعة خلف الساحل: وهذه المنطقة تتمتع بوجود مهن صناعية، بالإضافة لكونها إحدى أكبر وأغنى المناطق المنتجة للتوابل أثناء القرون الوسطى وفيما بعد قُدر لهذه المنطقة بما تمتلكه من ثروات أن تجتذب اهتمام وأنظار القوى البحرية الاستعمارية الأوروبية، التى لم يكن بالطبع مُرحبًا بها، وفيما بعد خلال فترة الصراعات التى تلت تلك الفترة فقدت مانجالور بالفعل كل دليل وأثر لماضيها الرائع.

ولكن، وبشكل لائق، لا تتعامل مانجالور مع تاريخها المندثر بحزن واكتئاب يؤدى إلى الشلل، فلقد كانت دومًا مكانًا يعج بالحياة والحركة، وقد عادت فى الحاضر مرة أخرى مدينة مزدهرة وغنية مقارنة بمدن أخرى. أسبغت عليها صلاتها القديمة العتيقة مع العالم العربى تراثًا مفيدًا للغاية أكثر بكثير من كونه يتمثل فى مجرد مجموعة أعمال فنية، فهناك الآلاف من سكان مانجالور يعملون فى منطقة الخليج (الفارسى) أما ضواحى مانجالور فهى تحتشد وتمتلئ المشاهد والأدلة على الإنفاق الباذخ الذى يمارسه المغتربون من أهل مانجالور لدى العودة إليها.

فى هذا الشأن، كما فى أمور أخرى كثيرة غير ملموسة أو منظورة، تظل مانجالور مخلصة ومتمسكة بتراثها المأخوذ من القرون الوسطى.

يُطلق على اللغة المستخدمة فى مانجالور لفظ «تولو» وهى إحدى الأقارب الخمسة لعائلة لغات، وهى تتسم بأنها ثرية فى التراث الفولكلورى والأدب الشفاهى، إلا أنها لا تمتلك نظامًا كتابيًا أو أبجدية خاصة بها وعادة ما تكتب اللغة بلغة كانادا. ولقد أعطت هذه اللغة المنطقة حول مانجالور اسمها تولوناد [مشتق من اسم تولو]: ومثلها مثل مناطق كثيرة من شبه الجزيرة الهندية فهى تكوّن منطقة ثقافية تتسم بأنها مميزة وفريدة من نوعها، وهى فى نفس الوقت تتشابك بقوة مع جيرانها فى ما يشبه الشبكة المعقدة من الاختلافات.

منطقة تولوناد ليست بالمنطقة الكبيرة فهى تقع فى زمننا هذا فى منطقة واحدة، إلا أنها كانت دائمًا ما تتسم بهوية متميزة منذ الأزمنة السحيقة يشير إليها الجغرافى الإغريقى بطليموس الذى كان يعيش فى الإسكندرية فى القرن الثانى بعد الميلاد بلفظة «Olkhoira» أولوخويرا ـ وهى لفظة يُعتقد أنها اشتُقت من «آلوپا» «Alupa» وهو اسم الأسرة الحاكمة التى حكمت تولونا ولفترات زمنية طويلة. فلمدة المئات من السنين وحتى بداية القرن الخامس عشر تمكن حكام تولوناد من سلالة آلوپا فى المحافظة على قدر من الحكم الذاتى لمملكتهم، وذلك باختيارهم الواعى الحكيم لحلفائهم من ضمن الأسر الحاكمة العديدة التى توالت على الحكم فى المناطق الواقعة خلف الساحل وتقوم بتزويد غيرها بالمؤن وهى منطقة نائية عن المدن. أصبحت مانجالور أحد الموانئ الرئيسية الواقعة على المحيط الهندى خلال حكم عائلة آلوپا، ولقد حضر بن ييجو إلى المدينة أثناء تولى الملك كافى الوبندرا الحكم.

العمل مباشرة بالمادة الموجودة فى الجنيزة، اكتشفت أن الاسم قد تردد فيما يقارب ست وثائق كتبها أناس مختلفون مثل مضمون وخلاّف وبالطبع بن ييجو نفسه. كان يتم تهجى الاسم دائمًا بنفس الطريقة بالضبط بثلاثة حروف وهى الباء والميم والهاء (ب - م - هـ). ولكن حرف الهاء لم يكن حرفًا ساكنًا على الإطلاق، وكان بالأحرى حرفًا متحركًا يعرف بالعربية على أنه «التاء المربوطة». كانت الثلاثة حروف التى تكّون اسم العبد إذن إذا ما أردنا تحرى الدقة، هى الباء والميم والألف (ب - م - أ). ومن الواضح أنه كان هناك حرف متحرك ما بين الحرف الأول والثانى، إلا أنه لم يُحدد أبدًا فى الوثائق، ففى العربية - اليهودية، مثلها مثل اللغتين العربية والعبرية، لا يتم عادة كتابة الحروف المتحركة القصيرة فى النصوص المكتوبة. من الممكن أن يكون هذا الحرف المتحرك هو «u» أو «o» أو شيئًا شبيهًا بهما، فقد كانت لا توجد أفضلية فى تخمين حرف على آخر. عندما قام جويتين بتهجى الاسم على أنه «باما» فإنه كان يعتمد على الافتراض المعقول، كما قام بشرح ذلك فى الحاشية، أن الاسم مشتق من «براهما».

نشأت ظنونى أول ما نشأت حول طبيعة العلاقة الحقيقية بين الحروف «ب - م - هـ» وكلمة براهما بينما كنت أقرأ بعض الروايات كتبت عن الهند فى القرون الوسطى كان قد كتبها رحالة وجغرافيون عرب. تم ذكر «براهما» ومشتقاتها كثيرًا فى هذه النصوص، وسرعان ما أصبح واضحًا لى أنها كانت كلمة معروفة ومتداولة فى أوساط المتعلمين فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا قبل زمن بن

٢

فى صبيحة اليوم التالى لقدومى لمانجالور، وكان ذلك فى أحد أيام صيف ١٩٩٠، وجدت نفسى جالسًا فى مقهى انتظر بتشوق وبلهفة لكى أقوم بالتعارف مع علاّمة كنت قد سمعت اسمه مرات عديدة وأنا فى طريقى للساحل. قال لى مصدر موثوق منه إن هذا هو الشخص الوحيد الذى قد يستطيع مساعدتى فى حل لغز العبد المذكور فى المخطوطة: كان اسمه البروفسور ب.أ. ڤيڤيكا راى، ذلك لأنه كان أحد أهم الخبراء والمتخصصين العالميين فى الفولكلور واللغة التولو. بالنسبة لى اعتمد الكثير جدًا على هذا اللقاء، ذلك لأن بالنسبة لى فإن إماطة اللثام عن تاريخ العبد صادفه مشكلات من جراء عائق تمثل فى لغز عسير وهى دراسة الاسم أتيمولوجيا، أى أصل الكلمة وتاريخها، وهو يمثل لغز الألغاز الذى يكمن فى اسمه.

كانت أول معرفة لى بهذا اللغز قد حدثت من ترجمة جويتين للخطاب الذى كتبه خلاّف ابن اسحاق لابن بيچو فى ١١٣٩، وحدث أنه فى نهاية الخطاب ذكر خلاّف اسم العبد عندما كان يرسل إليه «تحياته الوافرة» فى النسخة المترجمة للخطاب ثم أنهى الخطاب باسم «باما»، ووضعت حاشية بجانب الاسم لشرح أن متخصصًا فى التاريخ الهندى كان قد أفاده أن «باما» هو الاسم العامى «لبراهما».

كنت آنذاك واقعًا تحت أسر محتويات الخطاب فلذا لم أعّر الاسم اهتمامًا أكثر من ذلك. وبعد ذلك بسنوات عندما شرعت فى

مكان مولده وكذلك عن خلفيته وأحواله الاجتماعية. ولكن فى اللحظة التى فُتح الباب على مصراعيه، ظهرت مجموعة جديدة من المشاكل. كانت أولى تلك المشاكل أنه لم توجد أى إشارة فى أى مكان تخص اللغة التى استخدمت لإطلاق اسم العبد عليه، فعلى أية حال فحروف «ب - م - أ» التى وردت فى الوثيقة كان من الممكن أن تعود جذورها لأى من لغات عديدة مختلفة.

تسببت المعلومات التى استطعت أن أجدها عن العبودية فى منطقة المحيط الهندى خلال القرون الوسطى فى تعقيد الأمور أكثر من ذى قبل. فقد كانت تجارة العبيد فى زمن بن بيچو ظاهرة واسعة المدى وكانت متداولة فيما بين القارات، وذلك باستقدام أعداد غفيرة لا يستهان بها من العبيد من أرجاء بعيدة من العالم إلى المنطقة: على سبيل المثال كانت تلك من المناطق النائية من وسط آسيا والسهول الروسية الواسعة الخالية من الشجر، وعبر القوقاز وأوروبا. وبصفة مانجالور ميناءً رئيسيًا ومهمًا فلقد كان من المحتم أن تكون محطة على الطريق لكثير من تجار العبيد، ومن المنطقى للغاية إذن أنه قد تم جلب العبد المذكور فى المخطوطة من الشرق الأوسط. وفى الواقع كانت هناك إشارة غامضة فى إحدى رسائل بن بيچو تلمح أنه من المحتمل أنه هو نفسه قد كانت له معاملات من حين لآخر مع بعض تجار العبيد من البلدة اليمنية المسماه زابد.

إلا أنه فى نفس الوقت كانت هناك أسباب وجيهة للاعتقاد أن العبد المذكور فى المخطوطة كان فى الواقع من منطقة مانجالور، وليس من الشرق الأوسط، وكانت أحد هذه الأسباب تتعلق بتهجى

بيچو لفترة طويلة، فى الحقيقة، فقد بدا أنه من الممكن أنه كانت هناك صورة مقبولة لتهجى هذه الكلمة بالعربية خلال فترة طويلة من القرون الوسطى.

وبهذه الخلفية فقد بدا لى أنه من غير المحتمل بالمرة أن بن بيچو وأصدقاءه يتهجون اسم العبد باستخدام الحروف «ب ـ م ـ أ» إذا ما كان الاسم حقيقى «براهما». وإذا كان بمقدور المتحدثين بالعربية، والكثير منهم حتى لم يزوروا الهند أبدًا، أن يقوموا بتهجى الاسم بدقّة، لكان بن بيچو بالتأكيد الذى عاش لسنوات طويلة فى مانجالور قد استطاع أن يفعل ذلك مثل الآخرين، أو حتى بصورة أفضل منهم.

من الواضح إذن، أن اسم العبد لم يكن «براهما»، ولكن الاسم قد يكون بالطبع تصغيرًا لهذا الاسم. ولكنى بدأت أشك أنه إذا كان الأمر كذلك، فإنه من المحتمل أن يكون هذا الاسم له شكلاً مختلفًا قليلاً بما أن تصغير الاسم «باما» لم يكن مقبولاً لدى من حيث السمع. كنت أستطيع أن أذكر على التو واللحظة أشكالاً أخرى عديدة، من لغات هندية عديدة والتى كانت مقبولة ومستساغة أكثر على سمعى.

وعند هذا الحد أدركت أنه يتحتم على أن أجد حلاً مقبولاً للغز أو المعضلة الخاصة باسم العبد حيث إنها كان تمثل خطوة حاسمة لابد منها نحو تحديد هوية العبد ـ فى الحقيقة فقد كان هذا هو المفتاح الوحيد الذى قد يعطى بعض الإشارات والدلالات التى تخص

والمحيطة بها وكانت النتائج مذهلة فقد اكتشفت على سبيل المثال، أنه كان يوجد رجل اسمه ماصاليا باماّ كان يعمل خادمًا لمجموعة من المحاربين ثم قُتل بعد ذلك، وكان يقطن منطقة ليست ببعيدة عن تولوناد، فى زمن يسبق حضور بن ييجو إلى الهند مباشرة. قام أرباب العمل الذين كان يعمل لديهم بحفر كتابة منقوشة تخليد لذكراه، كانت مؤرخة ١٥ يونيو ١١٢٦، وتم اكتشافها فى قرية على بعد حوالى مائتى ميل شمال شرق مانجالور. هناك أيضًا كتابة منقوشة اكتشفت فى نفس المنطقة تذكر اسم ستّى باماّ، كان ينتمى لعائلة من التجار وكان متزوجًا من زوجة صالحة. ومن هذه الأدلة بالإضافة إلى مصادر أخرى أصبح واضحًا لى أن اسم «باماّ» كان اسمًا شائعًا فى هذه المنطقة إبان العصور الوسطى.

ورويدًا رويدًا تكاثرت الإشارات والأدلة، وأصبحت مقتنعًا قبل ذهابى إلى مانجالور أن اسم العبد هو، فى الحقيقة «باماّ» أو شىء من هذا القبيل. على الرغم من كون هذا الاكتشاف اكتشافًا مثيرًا، فإنه تسبب لى أن أتوقف توقفًا تامًا، فلم أكن أعلم إذا ما كان هذا الاسم مشتقًا من الكلمة باللغة السانسكريتية «براهما»، أو من أى مصدر آخر، ولم يكن لدى أى فكرة على الإطلاق ما إذا كان ذلك سوف يكشف أى شىء خاص بجذور أو أصل العبد وذلك بإيجاد صلة بينه وبين طبقة اجتماعية أو دين أو طائفة اجتماعية.

وهكذا كان لدى أسباب قوية لكى أشعر بالترقب والتخوف معًا فى انتظار بروفسور فيفيكا راى هذا الصباح فى مانجالور: بدا

اسمه. كان العبيد الذين يُشترون ويُباعون فى أسواق مصر عادة ما يعطون أسماء عربية ذات دلالات مميزة، على سبيل المثال «لؤلؤ» و«جواهر» ـ وهى أسماء أعطيت لهم لتضعهم على هامش المجتمع الإنسانى. ولكن أيًا كان اسم العبد، فإنه لم يكن يحمل أى تشابه مع الأسماء المعتادة المتداولة للعبيد القادمين من الشرق الأوسط، وفى الحقيقة فإنه لم يبد أن الاسم يرجع إلى أى أصول عربية، أو حتى سامية. بينما لم يكن الدليل حاسمًا بأى حال من الأحوال، فإنه كان قويًا بما فيه الكفاية لكى يدلل على أن جويتين كان محقًا فى افتراض أن جذور وأصول العبد ترجع إلى الهند.

ولكن حملنى ذلك الأمر مرة أخرى لهذه الحروف الغامضة: ب ـ م ـ أ. بعد أن فكرت فى هذا اللغز مرارًا وتكرارًا فيما يخص الحروف الثلاثة لمدة طويلة، كان هناك احتمال أخير فرض نفسه على. ففى العربية العبرية (كما فى اللغة العربية) فإنه عادة ما يكتب الحرف المُضعّف (المشدد) بحرف واحد، فلذلك كان من المحتمل أن الحرف الواحد «م» فى الاسم كان يقوم محل اثنين من حرف الميم. وإذا كان الأمر كذلك، فهذا يعنى أنه كان هناك فى الواقع أربعة حروف فى هذا الاسم: «ب ـ م ـ م ـ أ». وإذا ما وضعت حروف عِلّة قصيرة بعد الحرف الأول، فسوف تكون النتيجة «بومّا» أو «بامّا»، وهى أسماء كنت أعرف أنها شائعة فى أنحاء معينة فى الهند.

استنادًا على هذا الفرض، بدأت فى التنقيب فى الأسماء الواردة فى كتابات العصور الوسطى فى منطقة تولوناد والمناطق المجاورة

كان أهل تولو مقسمين طبقًا للتقاليد، إلى العديد من الطوائف والطبقات الاجتماعية التي تمتد لتشمل نطاقًا واسعًا من التسلسل الهرمى الاجتماعى - بدءًا من ملاك الأراضى الذين يتمتعون بثراء بالغ ونفوذ وسلطة إلى الفلاحين الفقراء وطبقة المنبوذين التى تجىء فى أدنى السلم الاجتماعى على الرغم من أنهم مقسمّون طبقًا للرتب والوظائف التى يقومون بها، فإن أهل تولو ظلوا يشتركون فى معالم وصفات ثقافية مشتركة، فقد كان الجميع يتكلمون التولو، وكان الجميع يطبق قواعد النسب للأم والوراثة الخاصة بأنواع معينة من الممتلكات وكان الجميع أيضًا يشترك فى عبادة آلهة روحانية معينة تسمى «بهوتاس».

وطبقًا للتقاليد، كانت كل طبقة ومجتمع فى تولو تلعب دورًا محددًا فى عبادة بوتها، فعلى سبيل المثال كانت إحدى تلك الطوائف تمدهم بالدعم المادى، بينما كانت الأخرى تقوم بالعناية بالمزار أما الآخرون فكانوا يقومون بتأدية الرقصات ذات الطقوس المعينة وما إلى ذلك. كانت هذه العبادة ملتصقة أشد الالتصاق بالأرض، وبالنسبة لهؤلاء الذين لم يتملكوا الأرض أو يعملوا عليها - على سبيل المثال الطائفة المسماة براهمين - فقد كانوا عادة ما يُستبعدون من الطقوس والاحتفالات. لم تكن هذه الطقوس مجرد أحداث عرضية غير منتظمة، فقد كانوا يتوالون الواحد تلو الآخر، وفى بعض المواسم كانت أحداثًا أسبوعية، وعلى هذا فإن الأشخاص الذين اشتركوا فيهم كانوا يتقابلون على فترات زمنية منتظمة ومتكررة. ونتيجة لذلك فإنهم بطريقة أو بأخرى كانوا مختلفين عن

الأمر كأننى سوف أكشف النقاب عن الشخصية الغامضة والمحيرة لأحد معارفى بعد فترة قصيرة.

٣

كان بروفسور راى شخصًا خفيض الصوت يميل إلى مرحلة الشباب وكان طويلاً ويرتدى نظارات فوق عينيه، وكان يبدو كما لو أن هناك حالة من التجريد اللطيف فى شخصيته التى تحجب عقلاً دقيقًا وواسع المعرفة حقًا. سرعان ما استغرق فى الاستماع لروايتى الخاصة بالكشف عن اسم العبد، وظل منصتًا لى حتى وصلت إلى نهاية قصتى، ثم تدخل لكى يقوم بتصويب ما ذكرته.

قال لى إننى قد قاربت الوصول إلى الرأى الصائب السديد فى الحقيقة إنى كنت قاب قوسين أو أدنى من الاسم الصحيح، فمن المحتمل أن اسم العبد كان هو «بومّا» وليس «بامّا».

قال موضحًا أن اسم «بومّا» كان شائعًا للغاية فى ثقافة التولو، وفى الحقيقة أنه حتى منذ جيل أو ما يقارب الجيل كان من المعتاد أن يسمع المرء هذا الاسم فى مانجالور وضواحيها. خلال العقود القليلة الماضية أصبح الاسم أقل شيوعًا بصفته اسمًا لشخص إلا أنه كان مازال محفوظًا فى أسماء عائلات الكثير من المجموعات والعشائر فى تولوناد. أضاف موضحًا أنه بالنسبة لاشتقاق الكلمة فإنه كان أمرًا غاية فى الأهمية لقصة العبد، ولكن الأثر الذى يؤدى إلى مصدره كان يكتنفه الكثير من الالتفافات، فهو يخترق مجالاً واسعًا من ثقافة التولو وتاريخها.

للعقيدة السانسكريتية الرفيعة، بينما لم تنل الآلهة الأخرى حظها من التذكر واختفت فى غياهب النسيان.

كان هناك منحى مفاجئ وغير متوقع فى إحدى المناطق التى يكتنفها الظلال والغموض الذى اتخذ نسب اسم «بومّا» مما أدى إلى الابتعاد بعيدًا عن «براهما» الذى تتناوله الأساطير الهندوسية الكلاسيكية التقليدية فى الاتجاه نحو إله تختلف شخصيته كل الاختلاف.

وكما قال البروفيسور راى فإنها كانت صدفة غريبة للغاية أن يكون متاحا لها أن ألقى نظرة على هذا الإله هذه الليلة.

سألته «كيف؟» وأنا أتخيل إننى سوف اضطر للسهر طوال الليل فى هذا المعبد المنعزل المهجور الواقع فى بستان مهجور به أشجار النخيل تزأر الريح من خلالها. سألته مرة أخرى «هل سُتتلى تعاويذ سرية؟».

نظر إلى بروفيسور راى نظرة وجاءتنى منه الإجابة المختصرة «فى التليفزيون فى فيلم سيتم عرضه هذا المساء».

كان الفيلم أبيض وأسود، وكان قد قام بتصويره مجموعة من أصدقاء بروفيسور راى منذ ما يناهز عشر أو خمس عشرة سنة، وكان بالإضافة لكونه مستشاراً للفيلم فقد قام أيضًا بكتابة بعض الأغانى فيه. كان هذا الفيلم أحد الأفلام القليلة المكتوبة بلغة تولو، وكان معتمدًا على أشهر الملامح الشعبية فى تولوناد، وهى أسطورة تحكى أعمال اثنين من الأبطال وهما الأخوان كوتى وشينايا.

الناس الآخرين فى المنطقة من حيث طقوسهم ولغتهم ومؤسساتهم المرتبطة بنسبهم للأم، كل ذلك أعطاهم سمة مميزة بين السكان الذين يتسمون بالتنوع والذين نزحوا إلى تولوناد عبر القرون.

أما البراهمين، من جهة أخرى، فقد لعبوا دورًا حيويًا تمامًا فى حياة المنطقة الدينية من ناحية مختلفة. فقد كانوا حاملين لواء الوحدة الهندية المعبرة عن التقاليد الهندوسية (المنادية أو المؤمنة بالوحدة الهندية) والتى تمثل النصف الآخر المكمّل لديانة أهل تولوناد. وكما هو الحال فى معظم أنحاء الهند كان النسيج الدينى لأهل سكان تولوناد مزيجًا من خليط متوازن من أشكال أو أنماط ديانات محلية (فى هذه الحالة كانت عبادة بوتها) والتقاليد السانسكريتية السامية. فبالإضافة إلى الأضرحة التى لا حصر لها المقامة لعبادة الإله بوتها، كانت تولوناد لديها حظها الوافر، وأكثر من المعابد المبنية لعبادة الآلهة السانسكريتية، واشترك معظم أهل تولوناد بحماس فى عبادة مجموعة الآلهة من كلا الطرفين وبالطبع لم يكن هناك ثمة تناقض فى ذلك، فلقد كانت آلهة البوتها السانسكريتية تمثل مظاهر قوى مقدسة أو دينية بالإضافة إلى كونها تمثل قوى ما وراء الطبيعة الخارقة وهذه الديانات اندمجت وتمازجت بطريقة هادئة تكاد تكون غير ملموسة لا يمكن تبينها وفى الحقيقة فإنه من خلال هذا الإطار الطيب كان هناك قدر كبير من التعامل بين تلك الآلهة أو المعتقدات فقد كانت بعض آلهة البوتا تظهر بصورة عرضية أو فى بعض المناسبات ولكن من خلال غلالات

براهما ذو الأربع رؤوس والأربع أياد، ومعه أوزة ـ وكانت تلك الصورة هى الصورة التقليدية للإله براهما طبقًا للقواعد التقليدية لرسم الأيقونات. ولكن بدلاً من ذلك، ولدهشتى الشديدة أظهرت الكاميرا عن شخص خشبى طويل، ذى شوارب ملتفة، وهو يحمل سيفًا فى إحدى يديه. كانت تلك صورة تمثل إله الحرب وهى لا تمت بأى صلة على الإطلاق بصورة براهما الواردة عن الآلهة السانسكريتية الكلاسيكية.

شرح لى بعد ذلك أن تصوير الإله فى الفيلم كان فى الأصل يحمل اسمًا مختلفًا تمامًا، فقد كان برمى أو برمورو، وهو الشخصية الرئيسية فى مجمع آلهة تولوڤا ـ بوتها. وبمرور الوقت، وبنمو تأثير العقيدة بالإله براهما، حدث اندماج الإله برمى الذى يقدس فى تولو اندماجًا حثيثًا مع الإله السانسكريتى «براهما».

إذن فإن اشتقاق اسم «بوما» فى لغة تولو ربما يرجع إلى زمن قبل أن تبدأ آلهة تولوناد فى اتخاذ تجسيدات سانسكريتية: فالاحتمال الأكبر أنها كانت تصغيرًا لكلمة «برمى»، وهو الشكل الواقف أعلى المعابد المجمعة فى تولو للآلهة بوتها.

استغرق منى التأكد من كل هذه الخطوات فى المناقشة وقتًا طويلاً بعد ذلك لكى أحاول أفهم توابع وتأثير النتائج التى من الممكن أن تتمخض عنها تلك الاشتقاقات على العبد. على الرغم من أن المناقشة كانت مبنية على التخمين، فقد بدا أنها تؤدى إلى الخلاصة أن العبد المذكور فى المخطوطة كان قد ولد لإحدى

عندما ظهر البطلان على الشاشة، لاحظت أنهما يحملان منجلين صغيرين حول وسطيهما، كان المنجلان يعبران عن الطبقة الاجتماعية التى ينتميان إليها كما شرح لى بروفيسور راى حيث كان الأخوان ينتميان لطائفة البلاپا التى اتخذت من مهنة استخلاص الخمر من النخيل وتخميره مهنة تقليدية لها.

لم يكن خطأ كوتى وشينايا أن وقعا فى صراع مع حاكم هذه المنطقة التى كان ينتمى لطبقة البانت وهى طبقة ملاك الأراضى التقليدية فى تولوناد. سرعان ما أصبحت عداوتهم والصراع بينهم مريرًا، مما أدى إلى الحكم على الأخوين بالنفى وتم إبعادهما عن مسقط رأسهما. إلا أنهما قبل أن يبدآ فى رحلتهما، استطاعا أن يذهبا إلى المعبد الذى يخص الآلهة الخاصة بهما لكى ينشدا العون والحماية.

قال بروفيسور ڤيڤيكا راى وهو يبتسم بينما كان البطلان فى طريقهما إلى المعبد ثم بدأ فى غناء أغنية دينية بينما كانا يضمان أياديهما فى شكل الصلاة «والآن راقب هذا المشهد جيداً».

أصخت السمع وسرعان ما تبينت تكرار أسمائهم مرات ومرات، كانت هى الكلمة الوحيدة التى استطعت تبينها ذلك لأن الأغنية كانت بالطبع بلغة أهل تولو. إلا أن هذه الكلمة أصبحت مألوفة لدىّ على التو، لم تكن هذه الكلمة سوى كلمة «براهما».

عندما تبينت اسم الإله، ظننت أننى أعرف بالضبط ما سوف أشاهده عندما دارت الكاميرا ناحية داخل المعبد: وهو صورة الإله

حدث أن بوما كان فى عدن فى هذا التوقيت لأن بن ييجو كان قد أرسله فى مهمة تبدو أنها جزئيًا رحلة عمل وعلى الجانب الآخر كانت رحلة للتسوق. لدى عودته إلى مانجالور، أحضر معه مجموعة هائلة من البضائع، تتضمن كميات هائلة من الثياب الفاخرة، وأوانى وأدوات منزلية بالإضافة إلى هدايا إلى بن ييجو وعائلته. وكل تلك المشتروات التى اشتراها بوما من عدن مجتمعة بلغت حوالى ثلاثة وتسعين دينارًا. وبما أن الطبيعة البشرية تجعلنا فضوليين نسعى لمعرفة لفتات وأقل الحركات شأنًا يقوم بها الآخرون فإنه من الجدير أن نضيف معلومة أخرى وهى أن هذا القدر من المال كان كفيلاً بدفع أجر عامل بناء لأكثر من سنتين ونصف السنة، أو كان من الممكن شراء ٢,٠٠٠ كيلو جرام من اللحم، أو ٣,٠٠٠ كيلوجرام من زيت الزيتون. ومن جهة أخرى، كان هذا القدر من المال، إذا ما أضفنا سبعة دينارات فقط، يكفى لأن يكون الفدية التى تدفع لتحرير ثلاثة إسبان راشدين بأسعار تلك الأيام.

كان بن ييجو يعطى لبوما راتبًا شهريًا مجزيًا عندما كان فى عدن ـ وكان هذا دينارين فى الشهر، أو حوالى أجر أى حرفى ـ إلا أن هذه الأرقام تبدو تافهة وضئيلة مقارنة بالمبالغ التى كان بوما يتعامل بها فى عدن. تكشف حسابات مضمون أن البضاعة التى قام مضمون بجلبها معه إلى عدن عادت عليه بمبلغ ٦٨٥ دينارًا فى السوق. وقد كان هذا مبلغًا كبيرًا بما فيه الكفاية لكى يشترى بن ييجو قصرًا فخمًا فى الفسطاط. ولكن بالتأكيد، فإن بوما من جانبه لابد أنه كان معتادًا على تداول تلك المبالغ لأنه من الجدير

العائلات الكثيرة جدًا فى الطوائف التى تنسب الولد لأمه والتى لعبت دورًا فى عبادة بوتها فى تولوناد.

وهكذا بلغ «بوما» سن الرشد وأصبح مستعدًا أخيرًا أن يصبح بطل الرواية الذى يؤدى الدور الرئيسى فيها.

٤

توجد حادثة واحدة فقط عن حياة بوما لنا دراية مباشرة بها. عن طريق مصادفة أخرى فقد حدث أن هذه الحادثة هى التى أدخلت بوما حوليات أو سجلات الجنيزة: فقد كان الخطاب الذى قص هذه الحادثة بمثابة أول وثيقة معروفة يُذكر فيها اسمه.

يرجع السبب الرئيسى وراء الحفاظ على القصة أن الأحداث حدثت فى عدن، وهكذا حظيت بالذكر فى الخطاب الذى كتبه مضمون. وهذا الخطاب الذى نحن حياله يعد واحدًا من أهم الخطابات التى كتبها مضمون، ذلك لأنه احتوى فيه وصفًا لحادثة غير عادية ودرامية، وهى غارة قرصنة قام بها حاكم مملكة صغيرة فى الخليج الفارسى على عدن. على الرغم من ذاك، فقد حازت الأفعال التى قام بها يومًا بالفعل على أولوية أكثر من الغارة نفسها، ويبدو من سياق رواية مضمون أنه من المحتمل أن بوما كان بالفعل متواجدًا هناك، فى أول ظهور له فى الجنيزة، متمثلاً فى حادثة تاريخية، على بعد أكثر من ألف ميل من موطنه فى مانجالور.

من المعلوم أن الأحداث التى يصفها مضمون فى خطابه حدثت فى ١١٣٥، لذا فإن الخطاب لابد وأنه قد كتب بعدها مباشرة، وما

طموحًا لسلالة كانت تتوالد وتتزايد فى المحيط الهندى، ألا وهى القراصنة، الذين كانوا يتعيشون بالأنقضاض على السفن التجارية المحملة بالنفائس التى كانت تبحر فى هذه الطرق البحرية التجارية.

كانت غارات القراصنة حدثًا معتادًا ومتكررًا فى كل أنحاء المحيط الهندى، وتوجد إشارات عديدة لذلك فى وثائق الجنيزة. فعلى سبيل المثال فإن أمراء قيس كانوا يشنون حملات للإغارة على السفن على طول سواحل أفريقيا والهند، وحتى أن الموانىء البعيدة مثل كمباى فى جوچارت كان يتعين عليها أن تأخذ احتياطات معينة ليأخذوا حذرهم حيال أعمال السلب والنهب التى يقومون بها. إلا أن إغارة مثل تلك على عدن كانت غير معتادة، لأن القراصنة عادة كانوا يحاولون ألا يسترعوا انتباه الحكام الأقوى فى هذه المنطقة. وحتى فى أسوأ حالاتهم، فقد كانوا يمثلون تهديدًا حقيقيًا للتجارة، ولم يحاول أى واحد سواء كانوا هم أو أى قوة أخرى فى المحيط الهندى مهما كانت كبيرة أو مسلحة تسليحًا كاملاً، أن يفرضوا سيطرتهم على البحار أو يستولوا على الطرق التجارية بالقوة.

ولكن من الواضح فى هذه المناسبة أن قراصنة جزيرة قيس قرروا أنهم سوف يحاولون أن يتوسعوا فى نطاق أعمالهم. فبادئ ذى بدء ، فى بداية موسم السفر بحرًا أرسل ابن الأمير حملة إلى عدن يطالب فيها بجزء من المدينة نظير حمايتهم ضد غارات القراصنة. عندما رُفض هذا الطلب قام بإرسال أسطولاً مكونًا من خمس عشرة سفينة قامت بغزو ميناء المدينة واتخذت السفن مواقع لها

بالتذكر أن هذه الثروة الصغيرة تمثل قيمة واحدة فقط من بضاعة الأمانة التى أرسلت من مانجالور إلى عدن - من المحتمل أنها لم تزد عن كونها أرباح موسم واحد فقط، بالإضافة أيضًا للأرباح الخاصة بتاجر كان قد رسخت قدماه فى السوق حديثًا، وكان حجم تجارته متواضعة نوعًا ما.

كان من الواضح أن حجم البضائع والأموال التى تتدفق عبر عدن هائلة، وكان الأمل فى الحصول على تلك الغنائم هو ما جعل المدينة هدفًا للغارة فى نفس السنة التى قدم فيها بوما إلى عدن.

من المحتمل ألا تكون المهمة التى أوكلت إلى بوما حدثًا يستحق أن يُطلق عليه لفظ «تاريخى»، ولكنه بالفعل ترك أثرًا عميقًا مما جعله جديرًا بالذكر فى السرد التاريخى الذى كتبه المؤرخ ابن مجاور بعد ذلك بقرن ونصف القرن من الزمان.

أما بالنسبة لأصدقاء بن ييجو فى عدن، فلقد تأثر على الأقل اثنان منهم مما دفعهما لكى يقوما بوصفه باستفاضة فى مراسلاتهما. وكان ذلك عندما كتب مضمون خطابًا لبن ييجو وخلّاف ابن اسحق فى خطاب إلى صديقهما المشترك الرحالة أبو سعيد حلفون.

اتفق الجميع أن الأشرار فى هذه الحادثة كانوا حكام قيس، وهى جزيرة تقع فى مدخل مضيق هرمز، والتى بفضل موقعها الجغرافى كانت تتحكم فى الطرق البحرية المؤدية إلى الخليج الفارسى. كان أمراء هذه المملكة المتناهية فى الصغر من ضمن أكثر الممثلين

بعيدًا إلى أعالى البحار وبمجرد أن حدث ذلك، تفرق القراصنة.
كتب مضمون فى خطابه قائلاً «وهكذا لمن يمنّ الله عليهم بالنصر، وطردوا شر طرده بعد أن عانوا من خسائر كبرى وإهانات بليغة...».

على الرغم من السعادة الواضحة التى أبداها مضمون بعد هزيمة القراصنة، فإن هذه الإغارة لم تمثل أهم ما يجول فى خاطره، عندما قام بكتابة الخطاب.

فقد كان هذا الشرف محفوظًا لبوما لكى يحظى به ومن الواضح أن بوما كان مصرًا على الاستمتاع برحلته إلى أقصى مدى مما دفعه لأن ينفق الأجر الذى اكتسبه على الشراب حتى الثمالة، وخلال هذه الفترة قام بالحضور عدة مرات إلى مكتب مضمون لكى يطلب نقودًا.

وقد عبّر مضمون عن هذا الموقف بقوله:

«وبعد ذلك قام بوما بعمل أشياء أخرى. قال: اعطنى المزيد من النقود، فما لدى لا يكفينى. فلقد أخذ أجر أربعة شهور منى وهو ثمانية دنانير. كان عادة ما يأتى هنا وهو فى حالة سكر بيّن حتى أنه لا يستمع لأى كلمة أتفوه بها».

لا يمكن الجزم بذلك بالطبع، إلا أنه ليس بالمستحيل أن يكون العساكر العدنيون قد استدرجوا للانضمام لمعركة بواسطة بوما الغارق فى الخمر، وهو يقف على شاطئ البحر ملوحًا لهم بقنينة الخمر.

هناك. لم تحاول المجموعة المغيرة أن تنزل للبر، فقد كان غرضهم هو الاستيلاء على سفينة تجارية كانت فى رحلة العودة من الهند.

وكما اتضح بعد ذلك فشلت خطتهم. فلم يعط جنود عدن أى مهلة من الوقت للقراصنة فى المدة التى أمضوها فى الانتظار فى الميناء، فقد قاموا بالهجوم عليهم باستمرار واستفزازهم حتى أن البعض منهم قتلوا أثناء المناوشات، بينما هلك آخرون من جراء الجوع والعطش. بعد فترة طويلة عندما ظهرت أخيرًا فى الأفق جائزة من هذا النوع الذى كانوا يتطلعون إليها منذ فترة، حدث أنها كانت قافلة مكونة من سفينتين اللتين كانتا مملوكة لأحد التجار الأكثر نفوذًا فى المحيط الهندى كان يسمى عبدالقاسم راميشت، والذى كان مركزه فى ميناء سيراف الواقع على الخليج الفارسى.

كان راميشت تاجرًا بالغ الثراء حتى أنه لم يمكن إحصاء ثروته، ففى هذا الصدد يذكر أحد الكتاب المعاصرين له أن أحد الموظفين لدى التاجر راميشت كان يساوى حوالى نصف مليون دينار، بينما كانت الأوانى الفضية التى تستخدمها عائلته لتأكل فيها كانت تزن حوالى الطن. كانت إمبراطورية راميشت التجارية تمتد لتصل إلى الصين، وكان التجار فى عدن ومانجالور، بما فيهم بن ييجو وأصدقاؤه، عادة ما يستخدمون السفن التى يمتلكها راميشت لنقل بضائعهم.

قام القراصنة من كيش بمهاجمة السفن التى يمتلكها راميشت بمجرد ظهورهم فى الميناء. إلا أن المدينة قامت بإرسال قوات لكى تقوم بإنقاذهم، وفى نهاية الأمر استطاعوا أن يدفعوا بالقراصنة

بأنها غاية فى المرونة، وعادة ما كان هذا النظام يتبع منطقًا يختلف كل الاختلاف عن التوقعات فى مخيلة الأناس المعاصرين. فعلى سبيل المثال فإن فى الشرق الأوسط وشمال الهند كانت العبودية هى السبيل الأفضل للتوظيف فى أفضل القطاعات فى الجيش والوظائف الحكومية. وبالنسبة لهؤلاء الذين شقوا طريقهم صعودًا فى هذا الدرب، فإنه عادة ما كانوا ينظرون إلى العبودية على أنها نوع من فتح آفاق للعمل، أو وسيلة للسماح بالدخول فى أعلى المناصب الحكومية.

وعلى مستوى أقل من ذلك، فقد كان التجار وكل من يعمل بالتجارة عادة ما يستخدمون العبودية كوسيلة لإيجاد صبية متدربين لديهم ووكلاء، وكان «العبيد» الذين دخلوا مجال العمل بهذه الطريقة عادة ما يحصلون على جزء من أرباح شركاتهم، وكانوا عادة ما يحصلون على العتق، وحتى الحصول على رتبة الشريك أو المشارك فى ملكية الأسهم.

فى عالم القرون الوسطى، كانت العبودية عادة ما تُستخدم كوسيلة لخلق روابط قرابة متخيلة بين أناس لا تربطهم أى روابط، فعلى سبيل المثال كان ضمن التجار اليهود الذين يقطنون القاهرة فى هذه العصور، كما كان هو الحال مع قبائل كثيرة فى أفريقيا، كان العبيد فى بعض الأحيان يندمجون تدريجيًا فى عائلات وبيوت أسيادهم مما أدى فى نهاية الأمر لاعتبارهم أفرادًا فى عائلاتهم.

وكان فى بعض الحرف وبنفس الطريقة والقدر كانت الخطوط الفاصلة بين الصبى تحت التمرين والمريد والعبد واهية للغاية حتى

٥

لا يرد أى ذكر البتة فى وثائق الجنيزة عن الكيفية التى تلاقى طريقا بوما وبن ييچو، يبدو من المحتمل من خلال بعض الإشارات فى أوراق ييچو أنه اتخذ بوما لخدمته بصفته وكيلاً لأعماله ومعاونًا له بعد فترة وجيزة من استقرار أوضاعه كتاجر فى مانجالور.

ومهما يكن من أمر الظروف التى أدت إلى لقائهما فإن الظروف التى دخل بوما بموجبها فى خدمة بن ييچو كان من المحتمل أن تكون مختلفة تمامًا عن تلك الموجودة فى كلمة «العبودية» فى عصرنا الحاضر، أى أنه لم يكن عبدًا له بأى صورة من الصور، فقد كان من المحتمل أن تكون العلاقة بينهما أقرب ما تكون لعلاقة الراعى بالعميل، أكثر من كونها علاقة السيد بعبده كما هى واردة ونفهمها فى عصرنا الحالى. إذا ما بدا هذا الأمر غريبًا ومحيرًا، فإن ذلك مرجعه أساسًا أن الفكرة المتداولة فى العصور الوسطى عن العبودية تبدو محيرة لأذهان المعاصرين من الناس وتستعصى على فهمهم سواء من ناحية العبودية والفكرة المضادة لها، وهى فكرة الحرية الشخصية.

ففى القرون الوسطى كانت المؤسسات التى ترعى العبودية قد اتخذت أشكالاً عديدة، وكلها كانت مختلفة اختلافًا كليًا عن «العبودية» كما تمت ممارستها من قِبل قوى الغزو والتوسع الاستعمارى الأوروبى فى القرن السادس عشر. خلال حياة بوما وبن ييچو، كان نظام العبودية يمثل جزءًا من منظومة علاقات تتسم

الدينية، كما كانوا واعين ومدركين تمامًا بهويتهم الدينية المختلفة عن الآخرين. ولكنهم كانوا أيضًا يمثلون جزءًا من العالم العربى الناطق بالعربية، وكانت اللغة التى يستخدمونها فى حياتهم اليومية لتأدية طقوسهم الدينية لغة مشتركة بينهم وبين المسلمين فى هذه المنطقة: فعندما كانوا يناجون الله فى كتاباتهم كانت عادة ما يكون لفظ «الله»، وكانت مناجاتهم فى معظم الأحيان من خلال تعبيرات وأشكال عربية مثل كلمات «إن شاء الله» و«الحمد لله» وعلى الرغم من عقيدتهم المختلفة، فإنها كانت تمثل جزءًا من العالم الدينى فى الشرق الأوسط ـ وكان هذا العالم فى حالة تحول وانقلاب تام على يد الصوفية من المسلمين.

سرعان ما تأثرت اليهودية بالصوفية، فقبل مولد بن ييجو قام الصوفى اليهودى بحيا ابن باقودا بنظم وتأليف «مهام القلب»، وهى كتابات متأثرة إلى حد كبير بالمصادر الصوفية، التى كانت ذات تأثير عظيم على اليهودية على امتداد البحر الأبيض المتوسط، بما تبثه من أفكار صوفية فى أجيال متعاقبة من القراء. كانت مصر على وجه الخصوص أرضًا خصبة للمعتقدات الصوفية، وعلي مدار القرون تأثر أعضاء مجمع معبد بن عزرا فى الفسطاط تأثرًا شديدًا بالصوفية. فعلى سبيل المثال، قام إبراهام مايمونيدس (١١٨٦ـ ١٢٣٧) وهو ابن عالم التلمود الأكبر موشى مايمونيدس، بنظم نص صوفى، ومن المعروف عنه أنه قال يومًا ما إن الصوفيين كانوا «مريدين لأنبياء إسرائيل أكثر جدارة واستحقاقًا من اليهود فى هذا الزمان».

لتكاد تكون غير مرئية: فقد كان ينبغى على بعض من يرغبون فى تعلم حروف بعينها أن يتخلوا طواعية عن جزء من حريتهم للأساتذة الذين يقومون بتعليمهم.

قد تكون أكثر صفة أو ملمحًا يصعب على المرء تحديده وأكثرها مراوغة فى العبودية فى القرون الوسطى هى الدور المنوط بها بصفتها مجازًا روحيًا، أى أداة للمخيلة الدينية، فعلى سبيل المثال، فى جنوب الهند أثناء حياة بوما كانت العبودية بين الشعراء القديسين أو ما يسمون بالفاشاناكارام الذين يتسّمون بكونهم شديدى التقوى وينادون بالمساواة بحماس منقطع النظير، عادة ما تُستخدم كتعبير أو صورة مجازية لكى تمثل سعى المشتاق لمعرفة الله، فمن خلال قوة المجاز للتحول، أصبح الشعراء خدمًا وعشاقًا للسيد، يعبّرون عن أشواقهم التى تجمع الجنسين، وكذلك عبيد يبحثون عن سيدهم باشتياق ولهفة تلغى تمامًا أشياء عدة مثل الذاتية والأنانية وكذلك الثروة والطبقة الاجتماعية والنوع، وفى الواقع فإنها تلغى حتى فكرة الاختلاف نفسها.

فمن خلال شعرهم كانت العبودية بمثابة التجسيد لهذا التناقض الظاهرى لفكرة الحرية الكاملة، كانت تلك هى الصورة أو المجاز الذى يمثل لُب فكرة العلاقات بين بنى البشر، وكذلك عن إمكانية التسامى فوق كل تلك الاعتبارات.

كان هذا التصور أمرًا معتادًا ومألوفًا لبن ييجو كان هو وأصدقاؤه يهودًا متشددين يحرصون على تأدية كل فروضهم

انعكاس ظله على أى شخص، ظهر فى السماء فوق جيش محمود، وجد الامبراطور نفسه وحيدًا ذلك لأن جميع رجال بلاطة المخلصين تخلوا عنه فيما عدا شخص واحد وهو آياز (أو عياز)، فبينما كان الجميع يتسابقون ليلحقوا بظل الحومة، خطا آياز بدلاً من ذلك فى ظل محمود، حتى يعرف سيده أنه لا يوجد أى شىء فى هذا العالم ما يمثل مملكة أفضل من ظل محمود. فحسب رواية الصوفيين، فإن فعل الحب الكامل والخالص يؤدى إلى تحول روحانى أشبه ما يكون بالمعجزة، وبذلك يصبح محمود الذى قهر وغزا العالم «عبدًا لعبده».

قد تكون الصور والتعبيرات التى يستخدمها شعراء الفاشنكارا والصوفيون بعيدة عن فهم وتخيل بوما وبن ييجو، وكذلك علاقات العمل اليومية بين تاجر ووكيل أعماله. ولكن، حتى فى أشد الأنظمة واقعية فإنه يوجد لديهم الأساطير الخاصة بهم والتى تبث الحياة، وعلى الخلفية البعيدة للأسطورة والمجاز فإن عوامل العبودية التى ربطت بين الصبى تحت التمرين بمعلمه الذى يعلمه الحرفة، أو المحاسب بالتاجر لم تكن لتبدو وكأنها علاقة مهينة، ولكنها بالأحرى علاقات وروابط سامية ونبيلة بشكل من الأشكال ـ وهى روابط تدل على علاقات إنسانية وعهود بالتزامات فى علاقات كان من الممكن أن تكون مجرد معاملات مالية بحتة.

من المحتمل أن بوما لم يكن على علم بوجود الشعراء القديسين وتعاليمهم الذين كانوا موجودين أثناء حياته ولكنه من المؤكد أنه كان على دراية تامة ووثيقة ببعض من التقاليد والأعراف والمعتقدات

من المؤكد أن الصوفيين كانوا سوف ينظرون إلى الشعراء القديسين من القاشنكارا على أنهم وثنيون يؤمنون بتعدد الآلهة، ذلك لأنهم يهرطقون فى رغبتهم فى الاندماج التام فى السيد الذى يؤمنون به، كان تصور الصوفيين عن الفناء والبقاء دائمًا ما اتخذ صورة إله يتعالى ويسمو فوق أى شىء وكل شىء، إلا أنهم من المحتمل أن يكونوا قد اعترفوا بوجود عامل مشترك فى طبيعة السعى ومن المؤكد أنهم قد أدركوا تشابهًا فى استخدام الصور الشعرية بين كل من الصوفيين والقاشنكارا.

فبالنسبة للصوفيين كما هو بالنسبة للقاشنكارا فإن فكرة التقييد بالقيود هى إحدى الصور الأساسية للحياة الدينية. فهم (أى الصوفيين) أيضًا استخدموا بعضًا من أقوى الصور والتعبيرات من نظام العبودية: وهى صور ومجازات شعرية تدل على العشق الكامل والحب مرتبطين بوثاق غليظ من خلال صور شعرية تتسم بأنها مكثفة للغاية وهى صور روحانية وإن كانت حسية فى نفس الوقت. ولذلك فإن فى التراث الصوفى كان السلطان محمود الغازنى القائد العسكرى فى القرن الحادى عشر الذى قام بتشييد امبراطورية مترامية الأطراف فى وسط آسيا لم يكن الغازى المرعب المتعطش للدماء الذى عادة ما يتم تصويره بهذا الشكل، إذ يصوره الصوفيون على أنه رمز للأشواق الصوفية، بسبب الروابط التى ربطت بينه وبين عبده الجندى فى جيشه واسمه آياز (عياز) تروى قصة رمزية صوفية أنه ذات يوم عندما ظهر الطائر الأسطورى المسمى الحومة، والذى كان كفيلاً بمنح الإمبراطوريات بمجرد

المدينة وضواحيها كثيرة للغاية، كانت مبانى صغيرة متواضعة مُقامة فوق أعمدة وتطل على حدائق ومزارع نخيل يخيم عليها السكون والهدوء. كانت دائمًا مطلية بألوان زاهية مبهجة وكانت فى حالة جيدة، وكان عادة ما يوجد ورود وعطايا على أعتاب تلك الأضرحة.

بمرور الأيام تزايد فضولى فيما يخص الممارسات الدينية التى تؤدى داخل تلك الأضرحة. ولكننى عندما شرعت فى البحث عن مادة خاصة بذلك، اكتشفت أنه فيما يخص معظم السلطات المعتمدة فإن عبادة بوتا لم تكن فى عداد «الدين» على الإطلاق: فهى قد سقطت سقوطًا مدويًا فى نظر الممارسات الهندوسية المعترف بها. وكما اكتشفت لاحقًا أن الدراسات المستفيضة حول هذا الموضوع كان قد أجراها علماء الأنثروبولوجيا والمهتمون بالفلكلور أما فيما عدا ذلك فإنها كانت عادة ما تُستبعد على أنها «عبادة الشيطان» وخرافات محضة.

وذات يوم، تهيأت لى فرصة لم تكن فى الحسبان وغير متوقعة لزيارة أحد تلك الأضرحة عندما توقف التاكسى الذى استقله بجوار ضريح يقع فى ضواحى المدينة. اعتذر السائق عن التأخير وقال إن الأمر لن يستغرق أكثر من دقائق معدودة: فبالنسبة له كان يحرص أشد الحرص أن يتوقف هناك عندما يكون مارًا بهذه المنطقة لكى يتلو صلاة قصيرة ويقوم بتقديم القرابين. كان هذا ضريحًا شهيرًا كما شرح لى سائق التاكسى وكان الزائرون مرحبًا بهم دائمًا.

كان الضريح مشيدًا أعلى تبة، وكان مكانًا صغيرًا معلقًا مغطى بالبلاط، تحيط به حقول الأرز من كل جانب، وتبدو للناظرين كثبان

الشعبية التى تقلب طبقات الهندوسية السانسكريتية رأسًا على عقب. فمن جانبه، من المحتمل أن بن ييچو ذا الثقافة الواسعة كان قد اطلع الكتابات الصوفية، ومن المحتمل أيضًا أن يكون قد ساهم فى بعض المعتقدات والممارسات التى كانت تمثل دوما مكوّنًا أساسيًا للصورة العكسية، وهى دائمًا ما تكون خفية تنتقد الأديان الرسمية المتشددة الموجودة فى الشرق الأوسط: فعلى سبيل المثال لتلك الصورة العكسية كان هناك الإيمان بإخراج وطرد الأرواح الشريرة وطقوس السحر، وعادة زيارة أضرحة الأولياء والقديسين وما شابه من ممارسات. ففى الأشخاص الذين ينتمون لطائفته فى القاهرة، كوّنت هذه الأفكار والممارسات جزءًا لا يقل أهمية عن المظاهر المتشددة للديانة اليهودية، فعلى سبيل المثال توجد هناك أعداد ضخمة من وثائق الجنيزة تحتوى على وصفات سحرية، كما يوجد أيضًا كتابات تتعلق بالطقوس سرية قاصرة على مجموعة قليلة من الأشخاص.

من المحتمل أن تلك المعتقدات المضادة غير المكتوبة أكثر من التحول الرسمى لليهودية هو الذى اضطر إليه بوما عندما كان فى خدمة ابن ييچو، والذى أصبح بمثابة أرض مشتركة بينهما للتولو الذى ينتسب بمقتضاها الشخصى لأمه، وعلى الجانب الآخر كان هناك بن ييچو اليهودى الذى ينتمى إلى نظام أبوى. وبدون تحول بوما لليهودية لوقف كل منهما على أحد جوانب هوة لا سبيل لغلقها.

٦

عندما كنت أتجول فى شوارع مانجالور، كان عادة ما يدعونى الناس لزيارة أضرحة لعبادة بوتا: بدت هذه الأضرحة التى تحفّ

تسبب هذا الاكتشاف فى إشاعة حالة ذعر عام. اعترض أهالى المنطقة بشدة وعنف، إلا أن الحكومة تجاهلتهم تمامًا ثم أرسلت إخطارات للمزارعين الذين يمتلكون أرضًا فى هذه المنطقة. وبالطبع جاء المهندسون ومعهم آلاتهم لكى يبدأوا فى أعمال الهدم. ولكن، فى هذه اللحظة حدثت معجزة فقد توقفت البلدوزرات (عربات الهدم العملاقة) بعد أن بدأوا فى التحرك مباشرة، فقد تسمروا فى الأرض قبل أن يستطيع المهندسون لمس حوائط الضريح. أصيب المهندسون بالذهول التام فقاموا باستدعاء بعض من المسئولين الكبار فى الحكومة وكذلك أعداد لا حصر لها من الفنيين حاملى الدرجات العملية. ولكن لم يستطع أى شخص أن يفعل أى شىء وفى نهاية المطاف اضطروا للاعتراف بالهزيمة مما اضطرهم للموافقة على تحويل الطريق حتى يلتف حول الضريح بدلاً من اختراقه.

كانت هذه القصة معروفة للجميع كما شرح لى البوجارى، وفى كل عام أثناء إقامة المولد أو الاحتفال كان الناس يقصون تلك القصة مرارًا وتكرارًا.

فى وقت لاحق عندما عدنا إلى السيارة مرة أخرى طلب منى السائق أن أنظر من خلال زجاج السيارة الخلفى. راقبت الطريق بعناية بينما كنا نبتعد بالسيارة بعيدًا، ومن خلال زاوية الانحناء الذى قامت به السيارة تبين لى حقًا كأن السيارة قد تحلقت حوله حتى تتفادى الضريح.

الشاطئ الرملية على مرمى البصر. كانت الصورة داخل الضريح بسيطة للغاية، وهى عبارة عن قناع أبيض مستدير رُسم فوقه وجه بصورة رمزية فى خطوط سوداء داكنة: كان أهم ما يميز الصورة الشاربين الملفوفين. كان على جانبى القناع سيف واقف وهو مستند على الحائط.

كان يقوم بحراسة المكان حارس من البوجارى وهو رجل ضخم ودود يرتدى خواتم ذهبية فى أذنيه، الذى قام بلمس جباهنا بخشب الصندل ثم أعطانا حفنة كبيرة منه ثم قام بالشرح لكى أستفاد من هذا الشرح، وقام سائق التاكسى بترجمة كلامه إلى الهندية، وكان فحوى كلامه أنه فى كل عام كان البوتا الذى يعيش فى هذا الضريح يظهر لكى يتقمصه (أى اليوجارى) وعندئذ يُقام احتفال ضخم، وبعد سلسلة طويلة من الرقص والطقوس كانت الروح ترجع بطريقة احتفالية إلى مكانها الصحيح بداخل الضريح.

قال لى البوجارى إن هذه التجربة كانت تجربة مثيرة للغاية ذلك لأن الروح فى هذا الضريح كانت معروفة بقواها الخارقة. أضاف قائلاً إنه كانت هناك قصص كثيرة حول هذا الضريح، واشتهر واحدا بالذات فى المنطقة. فمنذ سنوات بعيدة عندما تم بناء ميناء مانجالور، بدأ المهندسون الذين كلفتهم الحكومة بالعمل هناك بتشييد طريق لكى يربط الميناء بالمدينة التى تقع على بعد خمسة عشر ميلاً إلى الجنوب. ولكن سرعان ما اكتشف الناس أنه إذا ما تم العمل كما خُطط له فإن هذا الطريق سوف يخترق الضريح.

عندما ذهب بوما إلى عدن فى ١١٣٥ لم يكن مسئولاً فقط عن تسليم جزء من البضاعة، ولكنه كان أيضًا مسئولاً عن جلب حمولة بضائع كبيرة لبن بيجو وعائلته، ومن ضمن ما جلبه من بضائع كانت أربع حصائر من بربرة (الصومال بلغة الزمن الحديث)، ومفرش مائدة مصنوعًا من الجلد من نوع خاص بحيث يمكن لعب الشطرنج وأنواع أخرى من الألعاب فوق هذا المفرش، طاسة للتحمير مصنوعة من الحديد، ومصفاة، وكميات هائلة من الصابون، وجلابيتان مصنوعتين فى مصر، بالإضافة إلى هدايا عديدة من مضمون مثل السكر والزبيب و«رزمة مكونة من ٢٤ ورقة بيضاء» بالإضافة إلى قطعة من المرجان لسرور وهو ابن بن بيجو.

من المؤكد أن الجلابيتين اللتين أحضرهما بوما معه كانتا لابن بيجو نفسه، لأنه واضح من إشارات أخرى فى خطاباته أنه، مثله مثل مغتربين آخرين، ظلوا يرتدون الملابس التقليدية التى يرتديها الناس فى الشرق الأوسط ـ مثل العباءات والعمة وما شابه من ملابس طوال فترة بقائهم فى الهند. وعلى الجانب الآخر، كان الناس فى مالابار عادة ما يتركون الجزء الأعلى من أجسادهم مكشوفًا، سواء كانوا رجالاً أو نساء، وكان سبيلهم لإظهار تميزهم الطبقى هو استخدام المجوهرات والحلى وليس قطع ملابس كتب عبدالرزاق السمرقندى قائلاً «أنهم يرتدون فقط قطع من القماش حول أخصارهم وهى ثياب تسمى لنكوتا، التى تغطى الصرة وتصل حتى أعلى الركبة».

قال لى السائق وهو يبتسم «هل سمعت طوال عمرك شيئًا مثل هذا؟».

فجأة وجدت ذكرى شىء مشابه يمر بذهنى.

قلت «نعم. سمعت يوما فى مصر قصة مشابهة جدًا لهذ القصة».

هز رأسه بأدب، إلا أن وجهه كان ينطق بكل مظاهر عدم التصديق.

٧

لم يقّدر لبوما أن يظل طويلاً فى عدن، فقد عاد مرة أخرى حاملاً نفس الخطاب حيث قام مضمون بوصف مغامراته (أى مغامرات بوما) المخمورة لابن ييچو. ومع ذلك، فمن الواضح أن شكاوى مضمون لم تتسبب فى إثارة ثورة ييچو العارمة، وحتى مضمون نفسه لم يستمر سخطه ونقمته على بوما طويلاً، فقد حرص دوما فى خطاباته الأخيرة أن يتضمن خطابه تحية مودة لبوما. وعلى مدى سنوات طوال، بينما كان دور بوما بصفته وكيل أعمال آخذ فى الازدياد والأهمية، بدأ أصدقاء بن ييچو فى عدن فى اعتباره والنظر إليه باحترام متزايد حتى أنه بمرور الوقت بدأ خلاّف ابن اسحاق فى استخدام لقب «الشيخ» ليسبق اسمه.

ومن جانبه كان من الواضح أن بن ييچو قد وضع قدرًا كبيرًا من ثقته فى بوما منذ بداية علاقة بعضهما ببعض. فعلى سبيل المثال

النقيض من ذلك، فإن فى الشرق الأوسط كان يتم إنتاج الورق على نطاق واسع بحلول القرن الحادى عشر، ومثله مثل معاصريه ، فلابد وأن بن بيجو كان معتادًا على استخدامه أثناء فترة شبابه. ومنذ أن ذهب إلى الهند واستقر بها كان أصدقاءه يجدون مشقة كبيرة ويعانون كثيرًا لكى يمدوه بما يحتاجه من الورق، ولذلك كانت رزم الورق جزءًا من كل شحنة ترسل إليه من عدن.

ومن الواضح أن أصدقاء بن بيجو كانوا على علم بالأهمية الكبرى التى تمثلها الكتابة فى حياته، وعادة ما كانوا يظهرون اهتمامًا وتعاطفًا لنوعية الورق التى قاموا بشرائها باسمه أو لصالحه، فعلى سبيل المثال قام مضمون ذات مرة بالتأكيد له أن الورق الطلحى الذى قام بجلبه له كان «أفضل نوعية موجودة» وفى مناسبة أخرى قام بالتأكيد له بكل فخر أن الرزمتين الكبيرتين من الورق السلطانى كانتا من النوع الفاخر للغاية حتى أنه «لم يحصل أى شخص على أى شىء شبيه به». لم يكن مضمون مبالغًا فيما قاله ، فقد كان الورق الذى أرسله هو وأصدقاؤه لبن بيجو من نوعية لا مثيل لها حتى أنه اليوم، وبعد مرور ثمانمائة عام، فإن عددًا كبيرًا للغاية من تلك الأوراق محفوظ فى حالة ممتازة، على الرغم من حرارة الجو والرطوبة التى تعرضوا لها خلال رحلاتهم فيما بين مصر والهند.

كان مما يؤكد أيضًا امتلاك بن بيجو على الحياة الطيبة واضحًا من امتلاكه لمقتنيات فى منزله. فعلى سبيل المثال، كان الكثير من

وعلى النقيض من ذلك، فإنه بالنسبة للتجار من الشرق الأوسط مثل بن ييچو فإن مفهوم الأناقة فى الملبس كانت تعنى ارتداء طبقتين من الثياب، فكانت تأتى الطبقة الأولى (أو السفلية) وفى ثياب فضفاضة وفوقها تأتى العباءة، وهى بمثابة الطبقة الثانية من الثياب التى تغطى الطبقة الأولى التى بدورها تغطى أجسادهم العارية وبذلك يكونون لظهورهم ويشاهدهم الناس علانية، وكانت أى ملابس أقل من ذلك تعتبر خارجة وغير محتشمة.

وكان على سبيل المثال بن ييچو الذى كان من الواضح أنه شديد التدقيق فيما يتعلق بما يرتديه من ملابس، ففى الكثير من رسائله نجد ذكر استيراد ثياب مصرية وعباءات فاخرة مصنوعة فى الإسكندرية، بينما تشير رسائله الأخرى إلى أطوال القماش والتى قد تكون استخدمت فى ارتدائهم كعمامات. ومن الواضح أنه اشتهر لأناقته فى نطاق أصدقائه، فعلى سبيل المثال عندما أرسل له مضمون ذات مرة شالاً، فإنه اعتبره من الحكمة أن يبرز مزاياه قائلاً «وأنا من جانبى قد أرسلت إليك شالاً دبيكيًا جديدًا فاخرًا، ذا حواف مصنوعة بعناية ـ وهى ثياب جديرة بالرجال ذوى المكانة العالية».

وكان أهم ما يتم استيراده بالنسبة لبن ييچو، هو الورق. ففى مالابار، كما هو الشأن فى جميع أرجاء الهند، كانت الخامة الأكثر استخدامًا للكتابة فى هذا الزمان هى أوراق النخيل ـ فمن الواضح أن الورق كان من العسير الحصول عليه ولذلك كان نادرًا. وعلى

فى جميع أرجاء شمال الهند، تخليدًا لهؤلاء التجار مثل بن ييچو وشتى أنواع الطعام الذى جلبوه من مصر.

٨

لم يستقر بى المقام طويلاً فى مانجالور حتى أمدنى بوما برؤيته الثاقبة فى كيفية الاستفادة من التاريخ.

لا توجد فى قائمة الطبقات الاجتماعية والمجتمعات الدينية التى تقطن ساحل مالابار أكثر إثارة للاهتمام من مجموعة من طائفة الصيادين، والذين يُعرفون بأكثر من اسم مثل «ماجافيتا» أو «موجيرا» ترك الرحالة البرتغالى ووارتى بارابوسا الذى عاش فى القرن السادس عشر وصفًا مختصرًا لهم فى راويته عن رحلاته على ساحل مالابار. أشار إليهم بقوله «طائفة أخرى من البشر أقل شأنًا [من الآخرين]... الذين يطلقون عليهم اسم «موجور»... يحصل هؤلاء الناس على القدر الأكبر على ما يقيم أودهم فى الاشتغال بالبحر سواء كانوا بحارة أو صيادين». وعلى الرغم من أن ماجافيرا كانوا عادة ما يرتبطون منذ قديم الأزل بمهنة الصيد، فإن بارابوسا يذكر أن الكثير منهم قد أبلوا بلاء حسنًا فى مجال التجارة، فكتب قائلاً «البعض منهم رجال أثرياء لديهم سفن يبحرون عليها، ذلك لأنهم يكسبون مالاً وفيرًا بتعاملهم مع البربر».

طبقًا للتقاليد فإن الماجافير كانوا عادة ما يرتبطون ارتباطًا وثيقًا بالبحارة والملاحين والمسافرين بحرًا فى منطقة الشرق الأوسط، ويرجع ذلك جزئيًا إلى مهارتهم بفنون البحر، أما السبب

أدوات المطبخ قد استوردها من عدن ـ حتى تلك الأشياء مثل طاسات القلى والمصافى ـ وكان أيضًا يمتلك بصورة منتظمة أشياء مثل الأوانى الفخارية والصابون والأقداح والكاسات الزجاجية وكانت جميعها يتم جلبها من الشرق الأوسط. أما بالنسبة للبساط فقد كان يشتريها من القرن الأفريقى، وكان معروفًا عنه أنه قام بشراء على الأقل سجادة واحدة مصنوعة من المخمل صنعت فى جوڤارات.

يبدو أن بن بيچو كان يحب أكل الحلوى، فقد كان أصدقاؤه عادة ما يرسلون له الزبيب وأنواعًا أخرى من الحلويات مثل النوجا والبلح. ومن الواضح أن النوعيات المختلفة من السكر المستخرج من النخيل لم يلاق قبولاً لديه ويبدو أن أصدقاءه كانت لديهم توجيهات دائمة بإرسال السكر المستخرج من قصب السكر الذى ينتج فى الشرق الأوسط مع كل شحنة بضاعة ترسل له.

إذا بدا استيراد السكر للهند التى تزخر بكل أنواع الحلوى أمرًا غريبًا، فإنه لم يكن كذلك فى زمن بن بيچو. ففى القرون الوسطى، كانت مصر هى الرائدة فى إنتاج قصب السكر على نطاق واسع، وكان تصدير مصر لتلك البضاعة قد بلغ مبلغًا عظيمًا حتى أنه فى أنحاء كثيرة من آسيا حتى يومنا هذا، تحمل بعض منتجات السكر أسماء تربطها بالمصدر المصرى. ولا يهم إذا ما كانت الكلمة العربية سكر (وبالتالى فهى شبيهة بها فى الإنجليزية) مأخوذة من مصدر سانسكريتى: فحتى اليوم مازال السكر المبلوّر يعرف بلفظ «المصرى»

الزيارة، خاصة أنه بصفته مدرسًا فى إحدى أشهر كليات ما نجالور بأنه كان يتتلمذ على يديه الكثير من الدارسين لماجافيرا. قال لى إن أقرب ضريح بوباريا ـ بوتا كان مقامًا فى قرية صيادين على اللسان الرملى الذى يقع مباشرة أمام البحيرة أمام الميناء القديم لمانجالور. بعد ذلك بأيام قلائل، وبعد أن قام بإبلاغ تلاميذه أن يتوقعوا زيارة منا، قمنا بركوب المعدية سويًا ثم عبرنا البحيرة.

كان هناك اثنان من تلاميذ صديقى فى انتظارنا بمجرد أن رست المعدية على المرسى. استقبلانا بمزيج من الخجل والاحترام الذى يميز الصبية فى هذه السن، وكان من الواضح عليهما أن مزيجًا من البهجة كان يعتريهما لمجرد فكرة زيارة أستاذ لهما. كانت القرية تقع خلفهما وهى قابعة فى سكون ظل كثيف وظليل لنخيل جوز الهند، مما جعل الجو فى الممرات بين النخيل جوًا لطيفًا باردًا، وكان من السهل رؤية البحر الواسع على الجانب البعيد من اللسان الرملى.

سرعان ما اكتشفت أن هذه القرية كانت مختلفة تمامًا عن قرى الصيادين الأخرى التى شاهدتها فى أنحاء أخرى من البلاد، فلم يكن هناك عشش صيادين، ولا أكواخ مصنوعة من ورق النخيل، فقد كان شىء من حولنا يدل على نمط حياة مرنة إلى حد كبير متصلة بحياة الحضر مثل الحدائق المعتنى بها والبيوت ذات الألوان البهيجة ذات الطابق الواحد، تعلوها أعداد لا حصر لها من هوائيات التليفزيون. كانت حوائط المنازل من حولنا مزينة بطريقة ملحوظة

الآخر فمرده إلى وضعهم على هامش النظام الطبقى المعمول به فى المجتمع الهندوسى، وهذا الوضع قد يعطيهم التحرر من القيود التى قد تكون عائقًا أمام طوائف أو مجموعات أخرى سواء فى التجارة أو الترحال. كان ضمن تلك المجموعة تجارًا وملاك سفن أصابوا نجاحًا، ولكن بالطبع وأنه كان هناك أعداد غفيرة منهم الذين اقتحموا التجارة البحرية بطرق مختلفة ـ سواء كان ذلك لكونهم بحارة على مراكب تجارية على سبيل المثال، أو بالتمرين على يد تجار أجانب سواء كان ذلك للكبار منهم أو لأطفالهم.

سرعان ما اكتشفت بعد وصولى إلى مانجالور بفترة وجيزة، أنه كان يتم تخليد الروابط التى تربط ماجافيرا بالتجار الأجانب عن طريق استخدام الرمز التقليدى الذى يدل على هويتهم المميزة ـ وهذا الرمز كان إلهًا يُعرف باسم بوباريا ـ بوتا، والذى يُعتقد حسب ما ترويه الأساطير أنه روح ملاح وتاجر مسلم توفى أثناء وجوده بالبحر، وكما علمت بعد ذلك أنه لا توجد أى مستعمرة خاصة بالماجافيرا إلا ووجد بها ضريح لبوباريا ـ بوتا: وكان هذا عبارة عن عامود بسيط ومنصة من الصخر، يحيط بهما سور خشبى.

عندما سمعت هذا تملكنى الفضول على التو، وسرعان ما استطعت إقناع أحد الأصدقاء، وهو الأب دى سوزا وهو راهب يسوعى متخصص فى التقاليد الدينية لدى تولوناد أن يأخذنى لزيارة أحد أضرحة بوباريا ـ بوتا. وبما إنه كان من أهل المنطقة نفسها، فقد كان الأمر ميسورًا نسبيًا لصديقى أن يقوم بترتيب أمر

القرية فى وقتنا الحاضر، فكل الأولاد لهم أسماء مثل راميشى أو ڤيڤيك، وهى أسماء مثل تلك التى تسمعها فى الراديو أو التليفزيون.

ولكنها عندما بدأت فى التذكر، ابتسمت ثم قالت نعم، بالطبع فى الزمن الماضى، وفى بعض الأحيان، كان من الممكن أن تسمع اسمًا مثل هذا، ولكن ليس الآن، أبدًا، فالكل الآن لديهم أسماء سانسكريتية محترمة - فأسماء مثل «بوما» كانت تخص زمنا كان أناس قليلون جدًا هم المتعلمون، وكان الصيادون آنذاك ينتمون ويصنفون فى أسفل السلم الاجتماعى.

توقفت لكى توجه بعض الكلمات القليلة لابنها، بعدها جرى داخل المنزل لكى يأتى بكتيب مصوّر. فتحت الكتيب بكل احترام على أول صفحة، أضاء وجهها بابتسامة تحمل كل معانى الفخر والاعتزاز كان هذا الكتيب يحوى تاريخًا مختصرًا للقرية وكان تمويل ونشر هذا الكتيب قد تم بالتبرعات من المجتمع.

بحلول وقت الغروب قمنا بتوديع العائلة وبدأنا فى زيارة ضريح بوباريا. كان الظلام الآن يخيم على القرية فيما عدا الومضات الفضية التى تصدر عن التليفزيونات فى الحوارى بينما كنا نمر عبرها. كانت نظرات الاستهجان ترشقنا مما جعل المرشدين الذين يقومون بإرشادنا للطريق يسرعون بنا عندما مررنا بجوار حشد صغير ولكنه صاخب كان مجتمع عند محل لبيع الخمور المحلية المصنوعة من النخيل، شرح لنا المرشدون أنه فى الماضى كان الناس

بالحروف «اوم» بالإضافة إلى رموز دينية هندوسية أخرى، وكان من الصعب تخيل أن هذا المكان كان يومًا ما قرية صيادين الذين كان أهلها ينتمون إلى أدنى وأحط مستوى فى نظام اجتماعى صارم. كان من الواضح أن حظ ومصير هذا المجتمع قد ارتقى ارتقاء كبيرًا فى السنوات القليلة الماضية.

بعد أن مشينا فى شوارع القرية، تم أخذنا إلى منزل أحد التلاميذ وكان عبارة عن منزل من طابق واحد، وحوائطه مزدانة بكلمة «اوم» بوضوح. كانت الكراسى موضوعة فى الحديقة استعدادًا لاستقبالنا، وقامت مجموعة من قريبات مضيفنا بتحيتنا عند البوابة. كانت العائلة كبيرة العدد، كما شرح لنا مضيفنا، وكانت أمه هى أكبر العضوات سنًا فى القبيلة التى تُنسب للام، فلذلك كانت هناك العديد من الأخوات والخالات اللاتى يتقاسمن العيش فى المنزل. كانت أمه صغيرة الحجم، وإن كانت ذات بنية قوية، وتدل نظراتها الصامتة على الهيبة، فبعد دقائق معدودة من حضورنا كانت تقوم بدور المايسترو فى تقديم عدة صوانى محملة بالوجبات الخفيفة وشراب جوز الهند.

وقبل انتهاء زيارتنا، طلبت من صديقى الراهب اليسوعى أن يسألها سؤالاً بلغة التولو وهو: هل سمعت أو رأت اسم بوما يستخدم بين الأشخاص الذين ينتمون لطبقة ماجافيتا؟

استولت عليها الدهشة عندما سمعت السؤال. ردت نافية ذلك وهى تهز رأسها بشدة، فأنت يمكن أن تسمع اسمًا مثل هذا فى

إلا أننا بمجرد دخولنا المعبد اتضح أن أحد معالم الماضى قد تفادت يد التجديد بصورة عبقرية: فقد ظلت روح بوباريا ـ بوتا مهيمنة على المعبد وإن كانت فى هيئة مختلفة تمامًا. أشار التلاميذ إليه لكى نلاحظه: كان واقفًا بجانب صورة فيشنو، وإن كان على مستوى أقل قليلاً منه. أما بالنسبة للرموز القديمة وهى القضيب الشائك والعمود فقد تم التخلص منهما، وأصبح يُرمز إليه على هيئة صورة مثله مثل الآلهة الهندوسية.

قاومت رغبتى بشدة كى لا أُشيد بالمفارقات الكامنة فى هذا المعبد. كان الماضى قد انتقم لنفسه من الحاضر: فقد استطاع أن يجعل روح تاجر عربى مسلم تتسل دون أن تلحظها العيون اليقظة للهندوس المتعصبين ووضعته داخل هذا المعبد المتكامل للعبادة السانسكريتية.

بينما كنت أمشى مبتعدًا، كان يخامرنى شعور بالسعادة أنه فى خلال حياة بوما لم يكن سكان هذا اللسان الرملى فى حاجة إلى معبد يتطلع إلى المستقبل: فهم فى حقيقة الأمر كانوا شهود عيان على نهضة كبرى خاصة بأحد المظاهر المختلفة تمامًا للهندوسية، وهى الخاصة بالتقاليد الشخصية للعبادة، وهى التى واجهت الأيدلوجيا الطبقية (المؤمنة بتقسيم الناس إلى طبقات لا يحيدون عنها) مرارًا وتكرارًا بنقد شديد يستند إلى روح الحداثة.

أثناء حياة بوما، كانت هناك إحدى هذه الحركات الرائعة المنادية بالمساواة والخاصة بالعبادة قد نشأت على أيدى الشعراء ـ

فى هذا المجتمع يشربون حتى الثمالة، ولكن كان الشباب الآن يحاولون أن يضعوا حداً لبيع المشروبات الكحولية فى القرية.

عندما كنا مانزال على بعد مسافة بعيدة، أشار أحد التلاميذ إلى الأنوار الصادرة من الضريح. لم يكن يشبه المعابد البسيطة لعبادة بوتا والتى كانت منتشرة فى المناطق الريفية حول مانجالور: أما هذا الضريح فكان بناء ضخماً حديثاً مشيداً على نفس طراز معبد هندوسى تقليدى. عندما اقتربنا منه، لاحظت أن حوائطه كانت مغطاة بملصقات خاصة بمنظمة سياسية هندوسية متطرفة، وهى منظمة تابعة لمجموعة من الطبقة الاجتماعية العليا، مشهور عنها خطابها المناهض للمسلمين: كان هذا مؤشراً واضحاً أن هذا المجتمع والذى كان قد تم استبعاده لزمن طويل إلى هامش الفكر الهندوسى، كان قد عقد العزم أن يستخدم طريقاً سياسيّاً مختصراً حتى يتسنى له دخول الحظيرة السانسكريتية. وبنجاحهم فى تحويل وضعهم الاجتماعى والاقتصادى فإنهم كانوا يتطلعون إلى المستقبل، فى أفضل تقليد ليبرالى، وذلك باكتشافهم تاريخاً لكى يحل محل الماضى.

قادنا التلاميذ داخل الضريح، وأخبرونا أن البناء القديم كان قد تم هدمه ثم تم تشييد بناء جديد مكانه تكلف الكثير ولكنه تم بتبرعات أهل المجتمع المحلى. وفى واقع الأمر، لم يعد هذا ضريح بوتا كما شرحوا لنا بفخر، فقد أصبح معبداً هندوسيّا بحق، وكان المكان المهم فيه مخصصا لأهم إله للعبادة البراهمية وهو الإله فيشنو.

كان هذا الشخص المعنى هو الوكيل أو الوسيط الذى كان يقوم بمساعدة التجار لشراء التوابل وبضائع أخرى. ولكن كما يظهر من خلال أوراق بن بيجو، فإن تطورات قصة هذا الوسيط تدل على أن القصة كانت أكثر تعقيداً من مجرد أن تكون تقريراً عن المعاملات بين مُورِّد ووكيل أعماله.

تبدأ القصة بمجموعة من الحسابات (محسوبة أو مقدرّة بعملة تسمى المثقال ووحدات للوزن تسمى بهارس). كتب بن بيجو قائلاً «هذا الوسيط لعنه الله كان مديناً بأربعة عشر مثقالاً فى مقابل اثنين من البهارس من الحبهان. لم يقم بتسليم الحبهان، فلذلك قمت بشراء اثنين بهارس من فانداريا كنوع من التعويض ودفعت ١٧ مثقالاً مقابل لهم».

ومن الواضح أن ما قد حدث أن هذا الوسيط كان قد قام بعرض لشراء حمولة حبهان بأثمان منخفضة للغاية، ومن جانبه، كان بن بيجو يأمل فى الحصول على ربح سريع فقام بإعطاء الوسيط مقدم ثمن لكى يقوم باتمام الصفقة. ولكن عندما أزف الوقت لإرسال الشحنة لعدن، تخلف الوسيط ووقع بن بيجو فى المأزق التقليدى للشخص الذى يضارب على بضاعة لم تصل بعد: كان قد راهن على بضاعة لم تصل فى الموعد المحدد لها.

وفى الحقيقة فإن بن بيجو لم يغامر فقط بماله الخاص فقط ولكنه غامر أيضاً بجزء من مال شركائه أيضاً، وعندما اكتشفوا هذا الأمر وقفوا موقف الرفض والاستهجان، فقد كتب يوسف ابن

القديسين من الفاشنكارا، الذين شرعوا فى خلق مجتمعات تنادى بالأخوة بين الحرفيين والعمال، وبذلك كانوا يمثلون تحدّيًا لقواعد النظامين الطبقى والقرابة اللذين يتسمان بالجمود والتعسف.

إذا كان بوما قد أمضى فترة طفولته على هذا اللسان الرملى، وهذا أمر وارد جدًا، فإنه من الممكن أن يكون قد سمع إحدى أغانى أو قصائد الفاشنكارا التى تغنى بها هؤلاء الشعراء فى نفس المكان الذى يلقى فيه هذا المعبد الجديد تمامًا بظلاله على المستقبل بنفس القدر الذى يلقيه على الماضى

بكل هذا المعبد

بداخل هذا الجسد

أين تكمن الضرورة إذن

لمعبد آخر؟

لن يسعى أحد أبدًا

أن يكون له معبدين

٩

اتسمت حياة بن ييچو فى مانجالور بعلاقاته شديدة الثراء: فعلى سبيل المثال كان زواجه أو علاقته بآشو قد تسببت فى ظهور مجموعة كاملة من الأقارب. لم يكن التعامل مع هذه العائلة التى اكتسبها حديثًا بالأمر السهل دائمًا بالنسبة لبن ييچو، فى الواقع فإنه فى المرة الوحيدة التى عُرف عنه أنه لعن شخصًا ما، كان من المرجح أن يكون هذا الشخص قد ارتبط به عن طريق قرابته لعائلة آشو.

لم يرد ذكر نـايـر إلا مرتين فقط فى جميع أوراق بن ييچو وفى الحالتين اشتملت الإشارات على مجرد الاسم وبعض كلمات قليلة مقتضبة. ولكن إذا كان هنـاك شخص ما يعانى من ردود فعل بن ييچو، والتى من الممكن أن تتعارض كليًا مع رد فعل آشو، فقد كان هذا الشخص الوحيد هو نـايـر. طبقًا للقواعد التى ترجع النسب للأم والتى تربط آشو بأخيها نـايـر فقد كانت تلك العلاقة أهم بكثير من تلك التى تربط الزوجة بزوجها، فطبقًا للعرف السائد بينهم فإن أخ الـزوجـة، ولـيس زوجـهـا، كـان هـو الـذى يـحق له حق حـضـانـة أطفالهما. ولذلك، فإنه طبقًا للأعراف والتقاليد التى تحكم المجتمع التى تعيش فيه آشو، فإن نـايـر هـو الـذى كان مخولاً بالسلطة على أولادها، وليس بن ييچو.

فلكل هـذه الأسـبـاب الـوجيهـة كان خلّـاف لديه أسبـابًا قوية لأن يشك أن العلاقة بين بن ييچو والوسيط كانت تمتد لأكثر من كونها علاقة عمل: فمن المـمكن جدًا أن بن ييـچو كـان قد قام بإعطائه النقود مقدمًا لأن آشو أو نـايـر قد طلبا منه قرضًا لقريبهما. وحتى من الممكن أن السبب أن النقود لم تُرد أبدًا لأن عائلتها كانت ترى فى ذلك نوعًا من التعويض لكى يتخلوا عن حقوقهم على الأطفال (أولادهم)، ولكن بالطبع فإن أبسط الحلول هى أكثر الحلول احتمالاً - وهى إن الوسيط كان قد قام بعملية نصب ذكية وذلك باستغلال علاقة المصاهرة بينه وبين بن ييچو.

ولحـسن الحظ، فـإن حيـاة بن ييـچـو الاجـتمـاعيـة والمهـنيـة فـى مانجالور امتدت أبعد كثيرًا عن نطاق عائلته. فالأسماء المتناثرة عبر

إبراهام «لقد ذكرت يا سيدى أنك تطرقت لهذا الموضوع بلطف ولين مع الوسيط لكى تستطيع أن تستعيد بعض مالنا منه. اعتقد أنه ينبغى أن تهدده أننا هنا فى عدن نقوم بفضح أى شخص يكون مدينًا لنا ثم لا يقوم بدفع التزاماته حيالنا... فى حالة عدم تسديده لأموالنا، فسوف نقوم بكتابة خطاب لوم أو تقريع رسمى فى حقه، ونرسله له حتى يصير مدركًا بالجريمة التى قام بها».

وحتى أصدق أصدقاء بن ييچو، خلاّف ابن اسحق، فقد كان رد فعله الخاص بهذا الأمر عنيفًا، فكتب يقول «فيما يتعلق بالتأخير [أى تسليم الوسيط لشحنة الحبهان]، قبحه الله ولعنه. لقد تحدثت مع بعض الأشخاص بهذا الشأن، فأفادونى أن الحبهان يخصك وأننا لا نملك أى حصة فيه. هذا الأمر يتعلق بك والوسيط، فأرجو التعامل مع هذا الأمر بصورة فردية بعيدًا عنا» من الواضح أن خلّاف كانت تعتريه الشكوك حول ما إذا كان هناك شىء ما فى علاقة بن ييچو والوسيط التى لم تكن واضحة، ولذلك فإنه كان من الواضح أنه استهجن الطريقة التى أقحمه بها بن ييچو فى سلسلة ترتيبات خاصة. ظل خلّاف ويوسف يمارسان ضغوطًا على بن ييچو لسنوات طوال، ولكن بدون طائل، ذلك لأنه لا يوجد أى دليل يشر لأنهما قد نالا تعويضًا عن خسارتهما فى هذا الأمر.

يوجد دليل يفصح عن طبيعة العلاقة بين بن ييچو والوسيط فى سطر جاء بطريقة عابرة كُتب على قصاصة ورق بالغة الصغر: يدل هذا السطر أن الوسيط كانت تربطه علاقة قرابة قريبة بأخ آشو، وهو الرجل الذى أشار إليه باسم «ناير».

وفيما يخص أمور أعمال التجارة، بدت شبكة العلاقات الواسعة لابن بيچو غير مكترثة بالمرة لتلك الحدود الفاصلة التى يُعتقد فى وقتنا الحاضر أنها تحدد الحدود الاجتماعية والدينية والجغرافية. فعلى سبيل المثال، فالمعروف أن مضمون قام ذات مرة باقتراح مشروع مشترك بينه وبين ثلاثة تجار فى مانجالور، وكان كل منهم ينتمى إلى جذور اجتماعية أو جغرافية مختلفة، فكان واحد منهم مسلمًا، أما الثانى فكان جوچارات ڤانيا، أما الثالث فكان ينتمى إلى طبقة ملاك الأراضى فى تولوناد. بطريقة مماثلة، كانت السفن التى يستخدمها بن بيچو وأصدقاؤه لكى ينقلوا عليها بضائع مملوكة لمجموعة أشخاص مختلفة اختلافًا كليًا عن بعضهم البعض. فمن ضمن مالكى السفن الذين يرد ذكرهم فى أوراق بن بيچو يوجد هناك باتانى - سوامى، من المحتمل أن يكون رئيس طائفة أو نقابة التجار، وكان رجلاً يسمى ناميباد، من الواضح أنه من كيرالا، بالإضافة إلى آخرين كثيرين، بما فى ذلك بالطبع عبدالقاسم راميشت من سيراف. كانت الروابط التى صاغتها التجارة تقارب ما بين التجار حتى أن نسيب مضمون، محروس مالك إحدى السفن، كتب مرة يقول عن أحد ملاك السفن يقال له تينبو «من المحتمل أن يكون من أصول تاميل أن «بينه وبينى توجد أواصر صداقة وأخوة لا تنفصم عُراها».

على الأرجح فإن أوثق صلات بن بيچو فى مانجالور كانت مع المجتمع الذى كان يتحدث نفس اللغة التى يتحدث بها وكذلك يشاركه نفس ألوان الطعام والملبس: وهم المسلمون العرب المغتربون

أوراقه تنطق وتدل على شبكة مذهلة مترامية الأطراف من المعارف، فإن هذه القائمة لن تقدم شيئًا ذا أهمية لرجل أعمال عالمى فى وقتنا الحاضر.

فعلى سبيل المثال كان بعض من معارف بن بيچو فى مجال الأعمال أو التجارة ضمن مجموعة التجار التى أشار إليهم بن بيچو وأصدقاؤه فى عدن بلفظ «بانيان مانجالور» ويعنى بذلك طبقة التجار، أو «الڤانيا» الهندوسيين. كان التجار الجوچارات بالغى النشاط فى تجارة المحيط الهندى، فقد كانوا يطوون الطرق البحرية ذهابًا وجيئة على مدى قرون طويلة، عبر مسافات طويلة فيما بين عدن ومالاكا، وكانوا يمارسون نفوذًا وتأثيرًا قويًا على تدفق بعض البضائع. ومن الواضح أنهم لعبوا دورًا مهمًا فى اقتصاد مالابار فى زمن بن بيچو وكانوا من المرجح أنهم كانوا ذوى فائدة فى إدارة التجارة العالمية الخاصة بها. فعلى سبيل المثال، كان مضمون على علاقة ودية مع أعضاء عديدين من جماعة الجوچاراتى الذين يعملون بالتجارة فى مانجالور، والذين كان يمدهم بالمعلومات عن اتجاهات السوق فى الشرق الأوسط. ومن الواضح أنه بدوره قام بتعريف بن بيچو بكل هذه العلاقات والمعارف عندما بدأ بن بيچو تجارته ومشاريعه فى مانجالور. وعلى مدى سنوات طوال كان بن بيچو عادة ما يعمل ساعيًا أو رسولاً لمضمون يحمل منه رسائل وخطابات وتحيات إلى «بانيان مانجالور»، حتى أنه فى إحدى المناسبات قام بعمل الوسيط فى إبرام مشروع مشترك بينهم وبين مضمون.

تتضمن تعويضات قانونية ـ وهى تفاهمات واتفاقات من الجلى أنها تقتضى ضمنًا الاتصال المباشر الحر بين المشتركين على الرغم من اختلافاتهم الثقافية والدينية واللغوية.

وهنا يكمن لغز لا يوجد فى أوراق بن ييجو مفتاح أو حل له، وهو السؤال عن ما هى اللغة التى كان التجار يستخدمونها فى تعاملاتهم مع بعضهم البعض؟ فعلى سبيل المثال لا تترك خطابات مضمون أى مجال للشك أنه كان يكتب بانتظام لأصدقائه من «البانيان» فى مانجالور. إلا أنه لم يقم مضمون أو بن ييجو أبدًا بالكشف عن اللغة التى كانوا يستخدمونها فى تعاملاتهم مع معارفهم من الهنود.

وفيما يتعلق بخطاباتهم، فعلى الأرجح فإن الحل يكمن فى أنهم كانوا يتراسلون بصفة أساسية باللغة العربية، مستخدمين بكثرة لهذا الغرض الكتبة والمترجمين إلا أن هذا الحل يجعل مجموعة من أسئلة أخرى لا تجد إجابة شافية وافية، مثلاً ما هى اللغة التى كان بن ييجو يستخدمها للتحدث والتفاهم مع آشو؟ وفيما يتعلق بهذا الشأن فكيف كان بن ييجو يتفاهم مع بوما، أو مع التجار من أنحاء مختلفة من الهند وما وراء الهند، والذين كان لابد وأن يتعامل معهم، نظرًا لطبيعة مهنته؟ وبحسب ما توفره لنا الأدلة المستقاة من أوراقه فلا يوجد أى سبب للاعتقاد أنه قد اكتسب طلاقة الحديث والتعبير بلغة التولو أو أى لغة أخرى كانت مستخدمة فى جنوب الهند، أما بالنسبة للكلمات الهندية التى تسللت إلى كتاباته فهى كلها مشتقة من لغات مستخدمة فى الشمال. وفى الحقيقة، فإن تعلم بن ييجو

الذين كانوا يقيمون بهذه المدينة ـ وفى الحقيقة، ولجميع الأسباب والأغراض فإنه اعتبر نفسه واحدًا منهم. يظهر التجار المسلمون بكثرة فى أوراقه، كما يرد ذكر أسماء عربية سواء كانت لبحارة أو ربان سفن الذين كانوا يحملون خطاباته وكذلك كانوا يقومون بإبلاغه بمعلومات وأخبار من مناطق أخرى من العالم.

تسببت اهتمامات بن ييچو فى أنها عرفته بعدد هائل من الوكلاء وتجار التجزئة، ويبدو أن تلك العلاقات كثيرًا ما تداخلت مع شبكة النسب فى عائلته. بالإضافة إلى ذلك، كان بن ييچو أيضًا على صلة وثيقة بمجموعة من العمال متخصصين فى عمل أدوات معدنية وأشياء أخرى من البرونز والتى كان الطلب عليها شديدًا فى عدن. يرد ذكر أسماء هؤلاء الحرفيين، والذين يبدو أنهم ينتمون إلى البراهما من تاميلناد، فى دفاتر بن ييچو الخاصة بأهل بيته، ومن المحتمل أن ورشهم كانت ملحقة بمخازنه.

من الواضح أن شبكة العلاقات الواسعة التى ارتبط بن ييچو بها وصار جزءًا منها لم تكن مجرد مجموعة من العلاقات العشوائية، فعلى العكس من ذلك، فمن الواضح أنها كانت لهذه المجموعة أهمية وحيثية فى حد ذاتها، وكانت الروابط تنقل من جيل من التجار إلى آخر، مثلما حدث مع مضمون وبن ييچو. من الواضح أيضًا أن العضوية فى شبكة العلاقات تلك كانت تتضمن اتفاقًا مُلزمًا لأعضائها بموجبه كان يُسمح للأشخاص أن يضعوا مبلغًا من المال لكى يستخدم فى المشاريع المشتركة، حتى فى الظروف التى لم تكن

عناصر اللغة الهندية المستخدمة فى الشمال، وكانت هذه لغة يستخدمها التجار على طول الساحل.

من اليسير تخيل أن بن ييجو كان يستخدم لغة تجارية متخصصة لكى يتفاهم ويتواصل مع معارفه من التجار فى مانجالور: أما المشكلة الحقيقية فتكمن فى تخيل كيف استطاع بن ييجو وآشو أن يطوّعا هذه اللغة المبسطة المستخدمة بين شعوب شتى لتفى بالاحتياجات الحميمة فى الحياة الزوجية.

١٠

خلال الثمانى عشرة سنة أو ما يزيد التى أمضاها بن ييجو فى الهند، فإنه يبدو أنه لم يقم بالابتعاد أبدًا عن ساحل مالابار، ويبدو أيضًا أنه لم يكن يهتم على الإطلاق بالجزء الرئيسى فى شبه الجزيرة الهندية، الذى يقع على الجانب الآخر من الجبال. لم يكن بن ييجو والمحيطون به يعتبرون مالابار باعتبارها منطقة منفصلة عن الجزء الرئيسى من شبه الجزيرة، ففيما يتعلق بهم كانت مانجالور تقع بالضبط داخل كيان غير واضح المعالم يغطى معظم شبه القارة، وهى أراض كانوا يشيرون إليها فى خطاباتهم بلفظ «الهند» أو «بلاد الهند»، ولهذا فإننا عندما نتحدث عن بن ييجو المقيم فى «الهند» أو بوما على أنه «هندى» فإننا لا نستخدمها بنفس المعنى المستخدم فى القرن العشرين، الخاص بالحدود والمفردات السياسية، ذلك لأن هذه الكلمات ما هى إلا ترجمة حرفية أو مباشرة للألفاظ التى كان بن ييجو وأصدقاؤه يستخدمونها.

لأى من تلك اللغات لم تكن لتحل مشكلته فى التفاهم والتواصل، ذلك لأنه كان من الواضح أن الهنود الذين كان يتعامل معهم كانوا ينتمون لمناطق لغوية عديدة وكثيرة.

يقول المنطق السليم إنه يستحيل أن تُدار أو تتم التجارة والمشاريع التجارية فى منطقة شاسعة ومتعددة اللغات مثل المحيط الهندى بأى من لغات التولو أو العربية أو الجوچاراتى، أو فى واقع الأمر، بأى لغة مقصورة على مجموعة واحدة فقط من التجار. ولكى تقوم بعملها على خير وجه، كان على اللغة المستخدمة فى الأعمال التجارية اليومية أن تتمتع بالسهولة بالإضافة إلى أن تكون منتشرة انتشارًا واسعًا أكثر من أى لغة عادية أخرى. وطبقًا لما هو متوافر لدينا من معلومات حول عادات التجار العرب فى أنحاء أو مناطق أخرى تُستخدم فيها عدة لغات (على سبيل المثال منطقة البحر الأبيض المتوسط) فإنه على الأرجح أن يكون حل هذه المشكلة يكمن فى إيجاد أو استخدام لغة خاصة أو عامية مصطنعة يستخدمها التجار، أو لغة مُبسّطة تستخدم للتفاهم بين الشعوب الناطقة بلغات مختلفة أو ما يسمى pidgin language وفى الحقيقة فإن عالم الجغرافيا العربى المسعودى يشير إلى لغة تُسمى «لارّيا»، ويصفها بأنها كانت مستخدمة كلغة للحديث على امتداد جزء كبير من ساحل مالابار. وبما أنه من غير المعروف بأنه توجد أى لغة تماثل هذا الاسم، فمن الممكن أنه كان يشير إلى هذه اللغة المبسطة التى يستخدمها تجار من أنحاء متفرقة من العالم (pidgin)، وهى على الأرجح خليط من العربية المستخدمة فى بلاد فارس مع بعض

تتطابق مع مدينة مالكد، وهى تقع الآن فى أندر براديش، وكذلك فإن «بلاهرا» هو التعريب لكلمة «ڤالابهراچا»الهندية، أى الملك المعظم، وهى كُنية أو لقب كان يحمله كل الحكام الذين ينتمون للأسر العديدة الحاكمة فى هذه المنطقة الواقعة فى جنوب غرب الهند. ولكن، كانت هذه الكلمات الأصلية التى تشير إلى هذه الألفاظ بمرور الوقت قد ابتعدت تمامًا عن أصولها حتى أصبحت فى نهاية الأمر بمثابة استخدامات مجازية تعبر بطريقة يمكن تفهمها بسهولة فى الثقافة العربية عن خاصية الهند المميزة لها فى التعبير عن التعددية الثرية التى تختص بها.

وعلى أية حال، فإنه لا يوجد مجال للشك أن المركز الجغرافى للهند أثناء القرون الوسطى بالنسبة لمعظم بلاد العالم آنذاك كان يقع فى مكان ما فى الجزء الجنوبى من شبه القارة الهندية، وبالنسبة لابن ييچو الذى كان يعيش فى مانجالور، فإنه يبدو أن المناطق الواقعة فى شمال شبه الجزيرة كانت تبدو كأنها منطقة حدودية بعيدة تفتقر لمظاهر الحضارة، كأنه مكان يقع على هامش البلاد. ومن ناحيته، فيبدو أنه كان سعيدًا للغاية أن يبقى على ساحل مالابار وهى منطقة كانت مقسمة إلى عدة ممالك وإمارات صغيرة. كان بن ييچو يدير أعماله داخل تلك الإمارات المتداخلة الواقعة على الساحل، هناك إشارات متناثرة فى أوراقه تربط ما بينه وبين بعض المدن الصغيرة، وكلها تقع فى منطقة مالابار ــ مدن تحمل أسماء «فاندارينا» و«دافتان» و«چورباتان» وكلها على مسافة قصيرة من مانجالور.

وفى هذا الشأن، فإن استخدام بن ييچو لهذه الألفاظ كانت متوافقة تمامًا مع علم الجغرافية التقليدى فى العالم العربى حيث كان عادة ما يشير إلى شبه الجزيرة الهندية، والتى تبدأ بالحدود الشرقية للسند وتمتد حتى آسام وحتى ما وراءها، على أنها وحدة واحدة، بنفس الطريقة التى كان يشار بها إلى الصين. وبالطبع يوجد عدم تناسق مثير فى الجمع بين هذين المثالين بين الصين والهند، فبالنسبة للصين كانت دولة واحدة سهلة التمييز، وهى امبراطورية مكونة من أقاليم كانت مجرد أجزاء تشكل وحدة سياسية كبرى. على النقيض من ذلك كانت الهند، كما يعرف الجغرافيون العرب خير المعرفة، مقسمة إلى عدة ممالك صغيرة وكبيرة، وفى وصفهم لتلك الممالك كانوا يحرصون أشد الحرص على تعيين الحدود الفاصلة التى تفصل المناطق والولايات المختلفة فى شبه الجزيرة الهندية. ولكن، وفى نفس الوقت يبدو أن الرحالة والجغرافيين العرب كانوا يعتقدون أن الهند لديها مركز واحد يحترمه كل الملوك الهنود وكذلك كل المناطق المختلفة المتعدد. ولعدة سنوات، يبدو أنهم كانوا متفقين بشكل أو بآخر حول هذا الشأن، فإن الهند كما عرفوها كانت تتركز فى مملكة يحكمها ملك يُسمى بلاهرا، وكانت عاصمة تلك المملكة مدينة تُسمى «مانكير».

تبدو هذه الأسماء محيرة لأنها لا تتطابق أو تتوافق مع أى كيان سياسى معروف، ويرد ذكر تلك الأسماء حتى فى فترات كانت تتسم بالتحول المتكرر فى مراكز القوى فى شبه الجزيرة. يعتقد أحد علماء العربية المرموقين، وهو دكتور سى. م. هـ. نايناد أن «مانكير»

الجبال بنواح جمالية أخرى مثل المناخ البارد المنعش وكذلك الأنهار والوديان من نوعية خاصة، حتى أنه فى هذا الحين، وقبل أن تقوم الحركة الرومانسية بجعل الطبيعة مصدر إلهام وموضوعًا للتأمل، فإن هذه الطبيعة الخلابة بالتأكيد قد سلبت لب كل من شاهدها لأول مرة.

من الواضح أن امتلاك جورباتان لكل تلك النعم كان سببًا لانجذاب بن ييچو إليها والذى يبدو أنه زارها بصورة منتظمة - ويرجع السبب جزئيًا أنه كان يشترى التوابل، أما السبب الآخر بلا شك فإنه كان للترويح عن نفسه. قد تكون البلدة بالنسبة لآشو سببًا آخر لانجذابها إليها فبما أنها كانت من الناير، فإنه من شبه المؤكد أنها كان لها أقارب يقيمون فى المنطقة ومن الممكن أن هذه الزيارات قد تمت تحت تأثير إلحاحها.

كانت هذه الرحلة التى يقوم بن ييچو وآشو وأولادهما تبدأ جنوبًا على الساحل من مانجالور، لمسافة تبلغ حوالى مائة ميل أو ما يقارب ذلك. بعد حوالى يومين فى البحر، يدخل مركبهم ميناء كان يطلق عليه «بودفاتان» وهو الاسم بالعربية له ومن المحتمل أن يكون هذا الاسم تحريفا لاسم «بالياباتام».

فى وقتنا الحاضر يؤدى طريق هادئ محفوف بأشجار النخيل إلى الشمال فى اتجاه بالياباتام الواقعة قريبًا من مدينة كانانور القريبة ويمر الطريق عبر منازل كبيرة بعضها حديث ذات خطوط هندسية حادة وألوان زاهية وهو أمر يدل بوضوح على الصلات

لا تحمل أسماء هذه المدن فى يومنا هذا أى مغزى ولكنها فى العصور الوسطى كانت تلك الأسماء مشهورة على طول طرق التجارة فى المحيط الهندى وحتى ما وراءه لدى الباحثين والجغرافيين والرحالة فى جميع أنحاء العالم العربى. اختفت تلك المدن من الخريطة منذ أمد بعيد، على الأقل فى شكلها الأصلى، ولكن على عكس موانئ كثيرة أخرى كانت موجودة فى العصور الوسطى فى المحيط الهندى فإن أسماء مثل «فاندارين» و «جورباتان» و «دافتان» لم تختف تماما، فهى مازالت موجودة ليس على شكل أطلال رائعة، ولكن بشكل مختلف تماما على هيئة مدن وقرى صغيرة تحقق الرخاء مرة ثانية بسبب الروابط التى تربط بينها وبين الجانب الآخر البعيد من المحيط الهندى - وفى هذه الحالة فهى الدول المنتجة للنفط فى العالم العربى. تقع هذه البلدان كأنها مختبئة بهدوء فى الظلال كما لو أنها مجهولة الاسم، قابعة بين الجبال والبحيرات وتحفها أشجار النخيل الساحلية، وهذه المدن من أجمل المناظر الطبيعية الموجودة فى شبه الجزيرة الهندية.

تم الاستدلال والتعرف على المكان الذى كان معروفا باسم «جوربثان» فى النصوص العربية فى القرون الوسطى على أنه «سريكاندا بورام»، وهى بلدة تقع أسفل جبال الجات الغربية، على بعد حوالى مائة ميل جنوب مانجالور. المناطق المحيطة بها تقع ضمن أكثر المناطق المنتجة للتوابل والفلفل فى مالاباد، وفى القرون الوسطى من المحتمل أن هذه البلدة كانت بمثابة السوق الكبرى حيث كان يستطيع التجار أن يشتروا مباشرة من المنتجين. تتمتع هذه

الذى يبدو كأنه ذو ملمس مخملى. يتأكد لأى شخص يأتى فريكانداورام أنها بلدة صغيرة مزدهرة، البيوت على مشارف البلدة حديثة ذات ألوان زاهية، تتناثر بينها محلات مصقولة وعيادات طبية رائعة. إلا أن البازار والمحل التجارى الموجود فى المنتصف فيبدو أنه ينتمى إلى عصر أو زمن آخر، فالمحل مكدس بأجولة التوابل، بينما يجلس مالكو المحل يضعون ساقًا فوق ساق خلف طاولة طويلة بالدكان، وهم يقومون بعمليات المساومة مع زبائنهم فى حالة استرخاء تام.

يمر طريق ضيق جنوبًا من سريكاندا بورام بمنحنى خطر، ثم بعد ذلك يهبط هبوطًا حادًا ناحية الساحل. يمر هذا الطريق بمناطق عديدة وكثيرة كانت على الأرجح معروفة ومألوفة لابن بيچو حتى قبل أن يصل إلى الهند بزمن طويل. «فالدفتان» المذكورة فى مراسلاته وخطاباته تقع عند ملتقى نهرين، وهى عبارة عن مجموعة صغيرة من المنازل تُحفّ الخليج، وهى معروفة للعالم اليوم باسم دارمادام. وعندما ننزل جنوبًا على الساحل يوجد بانتالاينى كولام، وهى «الفاندراينا» كما أطلق عليها العرب، أما البرتغاليون فقد أطلقوا عليها لفظ «باندارين»، وهى بلدة هادئة تقع على البحر على بعد مسافة قصيرة من كاليكت.

تنتهى الرحلة على شاطئ يقع بين «فاندارينا» كاليكت عند قرية صيادين صغيرة، تختبئ وراء حاجز من الكثبان الرملية. تتميز هذه البقعة بكونها منطقة هادئة، يوجد بها القليل من أطواف (جمع

الوثيقة بين مالكى تلك المنازل والخليج الفارسى. وفيما بين تلك المنازل تتناثر مساكن قليلة تتسم بأنها أقدم وأرق، لها عضادة أبواب خشبية محفورة وأسطح منازل مغطاة بالقرميد الأحمر، وهذه الأسطح ترتفع عاليًا أعلى من أشجار النخيل. ينتهى الطريق بجوار ما تبدو أنها بحيرة صغيرة يسبح بها بط، ويوجد كذلك مضختان ديزل على حافتها، وإن كان لا يوجد أى تفسير أو تعليل لوجودهما. توجد مرسى تختبئ تحت العشب فوق ضفة البحيرة، وعلى الجانب الآخر توجد قناة تربط بين البحيرة وبين رقعة واسعة مليئة بالمياه وهى بمثابة مصب النهر الذى كان يومًا ما ميناء «بود فاتان».

أتخيل أنه من المحتمل أن آشو وعائلتها كانوا يبحرون أعلى النهر أو ضد التيار فى هذه المراكب النهرية بقدر ما كانت التيارات النهرية تسمح، قبل أن يبدأوا رحلتهم البرية داخل الجبال، على طريق جورباتان، للمسافة الأطول من هذه الرحلة. من الممكن أنهم كانوا يستخدمون محفّات يحملها الحمالون، وهى كانت الوسيلة المفضلة للسفر لهؤلاء الذين كانوا باستطاعتهم توفير النفقات لذلك. فى يومنا هذا يمر الطريق المؤدى إلى سريكاندا بورام بحقول مترامية الأطراف مزروعة بالكاشيو والمطاط، حيث توجد موتيلات متواضعة المستوى، بالإضافة إلى أماكن إقامة فخمة متناثرة على طول منحنيات والمنعطفات على طول الطريق. أما فى الأودية، فتبدو المحاصيل وهى مزروعة على مستويين، وبذلك تنمو بقوة وتزدهر بفضل خصوبة التربة الوفيرة حيث توجد أشجار جوز الهند ونخيل الأريقة التى تحلق عاليًا فوق صفوف طويلة من الفلفل الأخضر

التكلفة. رحل الأسطول البرتغالى، ولكن بعد أن أمطرت المدفعية البرتغالية كاليكت لمدة يومين. بعد عام أو ما يناهز العام، عاد ڤاسكودا جاما بأسطول برتغالى أكثر قوة وعتادًا، وطالب مرة أخرى بطرد التجار المسلمين من كاليكت.

خلال تلك الأعوام المبكرة، أصيبت الشعوب التى تشاركت فى التجارة فى المحيط الهندى بالدهشة البالغة. ففى كل القرون التى كانت التجارة فيها مزدهرة وتنمو باضطراد، لم تحاول أبدًا أى دولة أو ملك أو قوى مهيمنة أن يفرضوا سيطرتهم على التجارة فى المحيط الهندى بقوة السلاح، فقد كان التطلع للتوسع فى استعمار الأراضى الذى دفعته طموحات عائلات ملكية يتم بكل إصرار وصوّب على الأرض، ولكن عادة لم يكن يُسمح بهذه الممارسات فى البحر.

عادة ما تصور السجلات التاريخية الغربية التجارة فى المحيط الهندى التى لم تعتمد على التسلح بالأسلحة على أن هناك ما يشوبها من تقصير أو فشل، وكان هذا هو السبب الذى دعا تدخل أوروبا التى كانت مهاراتها العسكرية فى أمور الحرب تتزايد يومًا بعد يوم. عندما تقع هزيمة كاملة كما حدث للثقافة التجارية فى المحيط الهندى، فإنه من الصعب بمكان أن يُعطى المهزوم الفرصة لتحديد اختياراته وأفضلياته. إلا أنه من الممكن أن نقرر أن التقاليد السلمية التى اتسمت بها التجارة فى المحيط الهندى، وبدون أن تصرح عن نفسها بأى صخب أو ضجيج، نتاج اختيار ثقافى نادر،

طوف) ومراكب مُلقاة على الرمال التى تأخذ هيئة هلال ضخم، وهو شاطئ مترامى الأطراف عادة ما يكون خاليًا من الناس، فيما عدا الوقت الذى ترسى فيه مراكب الصيد على الشاطئ. يُطلق على القرية اسم «كابكادافو»، وعلى أحد جوانبها، وعلى مقربة من الطريق هناك علامة بيضاء كالحة تدل عابر السبيل على أن هذا هو المكان الذى رست فيه مراكب فاسكودا جاما، فى أولى رحلاته إلى الهند يوم ١٧ مايو ١٤٩٨ ـ أى بعد أن غادر بن ييچو مانجالور بما يناهز ثلاثمائة وخمسين سنة.

بعد هذا التاريخ بأعوام قليلة دق الناقوس لهذا العالم الذى جمع يومًا وبن ييچو وآشور معًا، وبدأ عصر جديد يبدو فيه أن تقابلهم معًا سوف يكون ضربًا من المستحيل حتى أن إمكانية حدوث ذلك اختفت كلية من ذاكرة الإنسانية.

بعد سنتين فقط من رحلة ڤاسكودا جاما وصل أسطول برتغالى بقيادة بدرو آلڤاريز كابرال على ساحل مالاباد. سلم كابرال خطابًا من ملك البرتغال إلى سامدورى (أو سامدورا راچا أو ملك البحر) وهو الحاكم الهندوسى لكاليكت وهى المدينة التى كانت بمثابة الدولة، وفيه يطالب بطرد كل المسلمين من مملكته بدعوى أنهم أعداء «الدين أو العقيدة المقدسة». قوبل طلبه برفض بات، ثم بعد ذلك صرح السامدورى بثبات وإصرار أن كاليكت كانت دائمًا وأبدًا مفتوحة لأى شخص يريد أن يتاجر هناك ـ فالبرتغاليون مُرحب بهم أن يأخذوا ما طاب لهم من الفلفل، طالما أنهم سوف يبتاعونه بثمن

سيطرتهم عن طريق استخدام وسائل عدوانية خالصة ومكثفة، بإطلاق العنان للعنف على نطاق غير مسبوق على هذه السواحل. فيما يخص البرتغاليين، فقد أعلنوا عن حقوقهم فى تملك المحيط الهندى حيث إنه لم يخطر ببال أى من الشعوب التى كانت تسكن حوله أن تعلن عن ملكيتها للمحيط الهندى قبل أن يصل البرتغاليون هناك فلذلك فإن هذه الشعوب لم يكن لها حق، أو حتى توقع أن يكون لها الحق فى المرور والإبحار بدون دفع الرسوم المفروضة منهم.

عندما بدأت الأمم التجارية فى المحيط الهندى فى إدراك أن تفاهماتهم واتفاقاتهم القديمة قد انتهت وآلت إلى موات، أى لم تكن سارية بعد الآن بعد أن دُمرت على أيدى الأوروبيين، فقد كان الوقت قد فات. ففى عام ١٥٠٩ ميلادية أصبح مصير هذه الثقافة التجارية العتيقة والقديمة قدم الزمن قد حُدد فى مواجهة بحرية كانت معبرة بطريقة محزنة وربما حتى مثيرة للشفقة عن منظومة القيم التى صبغت تلك الثقافة: فقد تم تجميع أسطول من قارات عديدة على وجه السرعة مكوّن من الحاكم المسلم لجوچارات والحاكم الهندوسى لكاليكت وسلطان مصر، إلا أن الأسطول مُنى بهزيمة منكرة على أيدى القوة البرتغالية التى قامت بمهاجمته ودحره قريبًا من شواطئ ديو فى جوچارات، وكالمعتاد فإن عزيمة مجموعة صغيرة ومترابطة من العسكر انتصرت بسهولة على التخبط الشديد الذى يصاحب ثقافة المساواة والمصالحات.

من المرجح أن يكون مدينًا إلى حد كبير للعادات والمعتقدات السلمية التى اعتنقها الجاينز (Jains) والفانيا (Vanias) من جوچاراتى والتى قامت بدور مهم فيه. فى هذا الزمن، كان هناك على الأقل أحد الأوروبيين الذين تمتلكهم دهشة بالغة من جراء التقاليد والعادات السائدة فى هذه المنطقة، والتى كانت غير مألوفة بالمرة للأوروبيين، وهو رد فعل يتسم بأنه أكثر أمانة من الثقة بالحتمية التاريخية التى حلت محلها منذ ذلك الحين، كتب تومه بيريز فى السنوات الأولى من القرن السادس عشر «إن الكفرة [فى جوچارات] يؤمنون أنه لا يجب أبدًا مثل أى شخص، ولا يجب أن يكون بينهم من يحمل السلاح. وفى حال ما إذا تم القبض عليهم أو أسرهم وأراد [من يأسروهم] أن يقتلوهم، فإنهم لا يبدون أى مقاومة. هذا هو قانون الجوچارات من الكفرة».

من المحتمل أن تكون هذه التقاليد الفريدة من نوعها هى التى جعلت حكام الموانئ الواقعة على المحيط الهندى يصابون بالذهول والارتباك الشديدين من جراء المطالب والإجراءات التى قام بها البرتغاليون. ونظرًا لأنهم كانوا معتادين منذ أمد بعيد على قواعد المساومة والمقايضة التى تحكم التجار فإن هؤلاء التجار حاولوا مرارًا وتكرارًا أن يصلوا إلى تفاهم مع الأوروبيين ـ حتى اكتشفوا، كما رصدها أحد المؤرخين فإن الاختيار كان «بين المقاومة والاستسلام: فالتعاون لم يكن خيارًا مطروحًا». وبما أن الأوربيين لم يكونوا قادرين على المنافسة فى مجال التجارة فى المحيط الهندى باستخدام الوسائل التجارية فقط، فإنهم كانوا مصممين على فرض

العـودة

كانت هذه معركة فاصلة وحاسمة، فقد اضُطرت السفن المصرية والهندية للهروب، وبذلك لم يضطر البرتغاليون أن يواجهوا بعدها أبدًا أى تحد بحرى حقيقى أو خطير فى مجال المحيط الهندى إلى أن جاء الخطر الهولندى. وسرعان ما تعرضت بقايا هذه الحضارة التى أتت بابن بيچو إلى مانجالور إلى الابتلاع من قِبل التعطش الاستعمارى الشيطانى الذى لا يشبع أبدًا، والذى ساد وهيمن لمدة تناهز خمسمائة عام على المحيط الهندى وبحر العرب والخليج الفارسى.

١

عندما أنظر إلى الوراء لأحداث الماضى، فإنه يبدو لى الآن أنه حتى لحظة رجوعى فى عام ١٩٨٨، فإن حتى الشيخ موسى لم يكن يدرك كيف اختلفت الأشياء اختلافًا كليًا وجوهريًا فى لطيفة عن وقت ما غادرتها، أى منذ سبع سنوات.

بينما كنا جالسين نتحدث فى هذه الأمسية الممطرة عندما حضرت إلى منزله، كان يخالجنى إحساس أنه كان ينظر للوراء بنظرة جديدة، كما لو أن ذاكرتى قد قامت بنزع الغلالة الكثيفة من الإضافات الخارجية الغريبة التى تكاثرت على كل ما يحيط بها.

ولكنه سرعان ما تمتلكه روح المرح والدعابة لإحساس الدهشة، وسرعان ما بدأ فى اختراع أشياء صغيرة لتثير دهشتى، ولكى تصيبنا نحن الاثنين بمتعة متبادلة. فعلى سبيل المثال، فى صبيحة اليوم التالى لقدومى، أرسل حفيده ليقوم بمهمة سرية مما جعله يتسلل خارج الغرفة بينما كنا نتناول إفطارنا، عندما عاد الصبى كان يحمل صينية بيديه، وكان فى منتصف الصينية، كأنها تاج ملكى

أغلبية الناس، ولكن بالطبع، لا يمكن أن تبتاع أشياء مثل ثلاجة كهربائية بالإيراد الذى يحصل عليه فقط من الأرض: فمن أجل الحصول على هذا المبلغ من المال كان يجب على المرء السفر إلى العراق أو ليبيا أو إحدى دول الخليج.

فى إحدى المرات، بينما كان الشيخ موسى فى طريقه للسوق فى دمنهور، توقف لكى يلقى نظرة على أحد المعارض حيث ابتاع ابن أخيه مبروك الثلاجة الكهربائية. كان المعرض يقع فى وسط المدينة، وكان مكانًا كبيرًا ذات نوافذ زجاجية، وكان العاملون هناك يرتدون بدلاً وأربطة عنق. نظر من خلال النافذة، إلا أنه لم يُردْ أن يدخل المعرض لأنه كان يرتدى جلابية الفلاحين ويضع طاقية على رأسه. كانت بمثابة الصدمة له أن يفكر أن أمثال مبروك لم يكونوا يأبهون لدخول مثل تلك الأماكن، برغم ما يرتدونه فقد كانوا يدخلون مباشرة ويجعلون هؤلاء الأفندية الذين يرتدون البدل وأربطة العنق يجرون هنا وهناك لكى يلبوا طلباتهم وأوامرهم.

ضحك الشيخ موسى عندما ذكرته بمبروك الذى جاء يومًا ما جريًا إلى غرفتى لكى أرى «الماكينة الهندية» التى كان أبوه قد اشتراها للتو، وكيف تملكت الدهشة الجميع لأنهم كانوا يعتقدون أن مبروك واحد من أكثر الشباب خجلاً وحياء فى الكفر.

قال لى الشيخ موسى «دلوقت أنت مش حاتعرفه، لأنه بأه ذكى قوى، ممكن يدهن الهواء بكلامه».

على مخدة، كان هناك كوب من الماء المثلج مما جعل قطرات المياه تتكثف فوق الكوب.

أنصت الشيخ موسى إلى صوت الثلج بينما كان يناولنى الكوب قائلاً «شايف، حتى بيت أخويا مليانه بالعجب العجاب دلوقتى».

مرت سنتان منذ حضرت ثلاجة أخيه إلى المنزل. كان ابنه الأكبر مبروك الذى كان يعمل فى العراق قد اشتراها له. كان قد رجع إلى الوطن فى نهاية رمضان، وفى عصر أحد الأيام استأجر هو وشباب آخرون لورى، وذهبوا إلى دمنهور دون أن يبلغوا أحداً، عندما عادوا فى المساء كانت الثلاجة فوق اللورى وهى مغطاة تحت فرخ من البلاستيك .

حدث هذا منذ سنتين، وبالطبع كانت الثلاجات الكهربائية مازالت شيئًا مستحدثًا كأنه بدعة. الآن أصبحت حوالى نصف منازل لطيفة تمتلك إحدى تلك الثلاجات، وكان بعض الناس يُرسل إليهم مياها مثلجة أثناء عملهم فى الحقول، وكانت بعض العائلات تقوم بتجميد لحوم الأضحية حتى يتم المحافظة عليها لمدة عدة أسابيع.

كان منزل الشيخ موسى أحد المنازل القليلة التى لم تكن تمتلك ثلاجة كهربائية أو جهاز تليفزيون. كانت تجربة أن يكون الشيخ موسى محرومًا من شىء ما والذى كان أمرًا عاديًا للآخرين بمثابة تجربة جديدة لم تعهدها عائلته من قبل: فهم لم يشعروا بأنهم ينقصهم أى شىء من قبل حيث كانوا يمتلكون أراضى أكثر من

وأصبحوا خارج الخدمة بحاجة إلى عمل، ومن أجل أن يشجعوا العمالة الوافدة من مصر على الرجوع قامت الحكومة بسن قوانين ولوائح جديدة بتحديد تحويل العملة وما شابه من الإجراءات. وعلى مدى السنتين الأخيرتين كان من الصعب إيجاد فرص عمل «بالخارج»، وبعض الشباب الذين كانوا قد سافروا للعمل بدأ فى الرجوع مرة أخرى إلى القرية.

كان أحمد، ابن الشيخ موسى، كثيرًا ما يتحدث عن رغبته فى العمل فى العراق، فقد كان يرغب فى إعطاء زوجته وأولاده بعضًا من تلك الأشياء التى كان بعض الناس يقتنوها فى منازلهم - مثل جهاز تليفزيون، وثلاجة كهربائية، وربما أيضًا غسالة كهربائية. إلا أن الشيخ موسى رفض حتى الاستماع إليه، فقد كان يقول له دوما أن ينسى الموضوع برمته، على الأقل طالما كان ما يزال على قيد الحياة. فقد كانت الأنباء التى تتردد ويسمعها تثير قلقه، فقد كان الشباب الذين ذهبوا للعراق يعودون بقصص مرعبة، كيف كان مستخدموهم يسيئون معاملتهم، وفى بعض الأحيان كان يتم التعدى عليهم فى الشوارع من قِبل أغراب لا يعرفونهم البتة وبدون أى أسباب واضحة. قيل له إن العراقيين كانوا يكرهون المهاجرين إليهم، فقد كانوا يستولون على فرص عملهم بينما كانوا يحاربون على الجبهة، كانت «أرواحهم طلعت» منهم كما يقول المثل، من جرّاء سنوات الحرب الطوال، وكانوا ينفثون عن غضبهم العارم بالتعدى على الأجانب.

كان معظم الشباب من جيل مبروك قد سافروا الآن، كلهم فيما عدا حفنة من التلاميذ النشطين الذين لم يملّوا أو يكلوا من إلقاء أسئلة على، أما هؤلاء الذين بقوا فقد فعلوا ذلك لأنهم لم يتمكنوا من إيجاد عمل «بالخارج»، أو لأن عائلاتهم كانت تحتاجهم فى فلاحة الأرض، كان هناك دومًا عدد لا بأس به من الناس من هذه المنطقة يعملون «بالخارج»، ولكن اختلف الأمر الآن، فقد بدا الأمر كأن نصف السكان المؤهلين للعمل قد تركوا الأرض ورحلوا إلى العراق.

بدأ التدفق على العراق منذ أوائل ثمانينيات القرن العشرين، بعد سنتين من بداية الحرب العراقية ـ الإيرانية، فبحلول هذا الوقت كان الرجال العراقيون مقيدين لإحدى جبهات القتال، فى إيران أو كردستان، وكان العراق يحتاج بشدة إلى أيدى عاملة للمحافظة على اقتصاده لمدة عدة سنوات تالية. كان أمرًا ميسورًا لأى مصرى أن يجد عملاً هناك، فقد جاب بعض الأشخاص الذين يعملون سماسرة لكى يقوموا بالبحث عن شباب يرغب فى العمل «بالخارج»، رحل الناس فى لوارى حتى إنه قيل إنه فى وقت ما كان يوجد حوالى اثنين مليون أو ثلاثة ملايين من المصريين العاملين فى العراق، وهو ما كان يمثل سُدس سكان العراق. وبدا أن الشعبين المصرى والعراقى قد ذابا فى بعضهما البعض.

ولكن بانتهاء الحرب مع إيران سرعان ما قام العراقيون بتغيير سياساتهم، فقد كان العسكريون العراقيون الذين تم تسريحهم

أجابنى نعم، أن جابر كان معجبًا بفكرة أن تكون له ذقن لفترة من الزمن، كان قد تركها لتنمو أثناء دراسته فى الجامعة فى مدينة طنطا، اندهش الكل عندما عاد من الإجازة فى صيف إحدى السنوات، وقد ترك ذقنة تنمو على الطريقة الإسلامية المميزة. لم يكن الأمر مثيرًا للدهشة بالطبع لأن جابر كان دائمًا شابًا نابغًا، أصبحت التقاليد السائدة آنذاك أن يترك كل الشباب النابغ ذقونهم لتنمو، وكذلك كان الكثير منهم يلبسون عباءات بيضاء أيضًا. كان كثيرًا ما يلقى جابر خطبة الجمعة فى المسجد فى الوقت الحاضر، وهو أيضًا أصبح يرتدى عباءات بيضاء لهذه المناسبات مما أثار دهشة الكل فى أول مرة، بما فى ذلك عمه الأستاذ مصطفى: فقد كان وقعه على مشاهديه ومستمعيه بعباءته البيضاء المتطايرة وذقنه وقعًا مؤثرًا، بالإضافة إلى ذلك فقد قام بإلقاء خطبة باستخدام لغة جميلة منمقة باستشهادات كثيرة وعبارات بارعة. ذكر الأستاذ مصطفى الذى درس بجامعة الإسكندرية أن جابر قد ألقى خطبة مؤثرة حتى بمقاييس أفضل الخطباء فى الكليات والجامعات.

كانت هناك رنة رهبة فى صوت الشيخ موسى الآن لأنه لم يكن يستطيع أن يتخيل الجسارة والشجاعة الأدبية التى تدفع بفلاح شاب غض فى مقتبل العمر من كفر صغير ، لطيفة، لإقحام نفسه فى عالم الحوارات الدينية وهو عالم يتميز بالتوهج، سواء كان ذلك فى المدن أو فى القرى، على الرغم من أن الشيخ موسى كان مسلمًا وتقيًا يراعى تعاليم الإسلام بحذافيرها، فإنه لم يكن ليحلم أن يدخل هذا المجال، فقد اعتبر نفسه بسيطًا جدًا لدرجة لا تؤهله أن يقحم نفسه فى مناقشات دينية تتميز بالعمق والعلم.

بعد أن سمع الشيخ موسى كل تلك القصص قرر ألا يسمح لأحمد بالسفر. ماذا سيكون الحال لو أن مكروها حدث لأحمد بينما كان بعيدًا عن الوطن؟ لقد فقد ابنًا قبل ذلك، ولم يكن يستطيع أن يتحمل فكرة أن يعلق صورًا أخرى فى غرفة الضيوف بجوار صورة حسن. ولذلك لم يسمح لأحمد بالذهاب على رغم من كل الأشياء التى يقتنيها الآخرون فى منازلهم، كان بالطبع سيكون أمرًا حسنًا لو استطاع المرء اقتناء تلك الأشياء، ولكنه كان من الأفضل العيش فى سلام والخوف من الله.

الوحيد من لطيفة الذى ظل باقيًا من أصدقائى الشباب فى مصر كان جابر. كان الشيخ موسى قد أرسل باكرًا هذا الصباح لعائلته، لكونه يعرف إننى أريد أن أراه، إلا أن جابر كان قد ذهب لدمنهور ولن يعود إلا متأخرًا. سألت «ليه جابر ما سافرش بره هو ما كانش عايز يسافر أبدًا؟».

رد على الشيخ موسى قائلاً «أيوه، هو مرة راح كام شهر قليلة لما كان فى الكلية، ومن ساعتها هو عايز يسافر مرة ثانية عشان كل أصحابه «بره»، أخوه الصغير محمد راح للأردن جابر كان أول مرة يسافر لمدة طويلة، ولكن من غير فايدة، ولكنى سمعت من كام يوم أنه حضر، ويمكن يسافر قريب، دول حتى بيقولوا حلق دقنه عشان يستعد للسفر».

تساءلت فى دهشة «دقنه؟ هو جابر كان عنده دقن؟».

ضحك الشيخ موسى بطريقة مصطنعة.

بمجرد سماع صوته هرعت زوجته إلى الفراندا كى تقوم بتحيتنا، وكانت كل الإضافات العديدة الحديثة من الأطفال لعائلتها تمشى وراءها تمامًا. ابتسمت بحرارة بطيبتها المعهودة دومًا، ورحبت بى لأدخل المنزل، وبعد أن قمنا بتبادل قائمة طويلة من التحيات، قامت بتعريفى بثلاث زوجات لأبنائها انضممن حديثًا للعائلة، وهى تشير إلى كل طفل خاص بإحداهن.

كنت شبه متوقع من الحماس غير المنتظر والصاخب الذى أبداه أبو على، أنه هو أيضًا سوف يهرع إلى الڤراندا لكى يقوم بتحيتنا، كنت قد رسمت صورة فى خيالى عن هذا اللقاء، وأنا أنكمش رعبًا من فكرة أننى لابد أن أتبادل الأحضان والقبلات مع أبى على عبر الهضبة الهائلة من الشحم فوق بطنه. على الرغم من أن صوت أبى على الجهورى لم يتوقف ولم يهدأ، فإنه لم يظهر بشخصه وبشحمه ولحمه. اكتشفت السبب عندما أخذتنا زوجته إليه، فقد غدا أسمن أكثر مما أتخيل أو أتذكر، فقد كانت صورة ثعبان الأصلة الذى يبتلع ويلتهم أى شىء وكل شىء أمامه والتى حملتها معى تبدو غير ملائمة بالمرة بالنسبة للمشهد الذى رأيته أمامى، فقد كانت بطنه الآن ترتفع عاليًا فوقه مثل منطاد ذى محرك يطير عاليًا وهو مستلقى على ظهره، وهو يضرب ويرفرف بيديه ورجليه بصورة متقطعة كما لو أنه يريد أن يدفع بنفسه ويرتفع خلال الهواء.

لم يضعف صوته من جرّاء التضخم الرهيب الذى طرأ عليه، فبمجرد أن جلسنا بدأ فى سرد تاريخى لنمو ثروات عائلته بصوت

بعد أن تناولنا الإفطار اتجهنا لزيارة أبى على فقد قرر الشيخ موسى أنه بما أن أبا على كان أول من عرفنى وقدمنى لأهل لطيفة، فقد رأى أنه من اللائق أن أذهب إليه قبل أن أزور أى بيت أو شخص آخر فى الكفر. كنت أتطلع إلى مقابلة ورؤية أبى على مرة أخرى، إلا أننى فى اللحظة التى شرعنا فى الذهاب إليه، انتابنى شعور مفاجئ بالفضول يتعلق بأحواله وأحوال عائلته.

استنادًا على ما توافر لى من معلومات عن أبى على، فقد كنت شبه متأكد أن ثروته كانت الآن أفضل بكثير وتفوقت على جيرانه، إلا أن الدهشة تملكتنى عندما دخلت مجموعة البيوت التى يقطن أحدها. فقد برز مبنى حديث ضخم يشبه درع السلحفاة القرنى مكان المنزل المتهالك المنخفض الذى مازال ماثلاً فى ذاكرتى، فغرفة السطح حيث كنت أسكن منذ سنوات أصبحت الآن جزءًا من دوار كبير مكون من ثلاثة طوابق ومطلى بألوان زاهية. أما الدراجة البخارية العتيقة التى كانت تحمل أبا على بطريقة تشبه المعجزة من وإلى دمنهور فقد اختفت، وحل محلها لورى بيك أب حديث زاهى ماركة تويوتا.

ولكن بالنسبة لأبى على نفسه فإنه كان فى مكانه المعهود، متمركزًا فى موقع ممتاز بحيث يكشف الطريق. بمجرد أن دخلنا إلى المجمع السكنى أطل برأسه من نافذة، بطريقة جانبية، بطريقة تشبه الأسد فى أفلام مترو جولدن ماير صائحًا «تعالوا، تعالوا. أنت كنت فين كل السنين دى يا ابنى؟ تعال، تعال، وخلى البركة تحل على بيتى».

ذهول تام بينما كانت تلك المقتنيات تمر أمامنا كأننا عبيد يحملقون فيما حصل عليه الفرعون من غنائم الحرب.

عندما انتهى العرض، أصدر أبو على أوامره لزوجته لتأخذنا للدور العلوى لكى ترينا الشقق التى قاموا ببنائها حديثًا. عندما تبعتها صعودًا على السلم، داهمنى إحساس مفاجئ بعدم الاتزان والتشوش كما لو أننى وقعت بين حقبتين زمنيتين مختلفتين ففى الدور الأرضى حيث كان يسكن أبو على وزوجته كانت هناك القذارة والفوضى والذباب وفضلات الماعز المتناثرة هنا وهناك، وفجأة توقف كل ذلك فى منتصف السلالم، ففى النصف الثانى الأعلى كانت الأرضيات المغطاه ببلاط من السيراميك تشع نظافة وبريقًا. وحيث كانت غرفتى أى عشة الفراخ القديمة، أصبح الآن مكانها مطبخًا ضخمًا ملحقًا بغرفة نوم مفروشة (مجهزة) بفخامة ثم ضم غرفتى السابقة لمجمّع مكوّن من أربع شقق، واحدة تخص كل واحد من أولاد أبى على. كان الأبناء الثلاثة الذين تزوجوا بالفعل قد أقاموا فى الشقق الخاصة بهم، أما الرابع الذى كان مازال أعزب لم يتزوج فقد كان يقيم بالطابق السفلى عندما كان يأتى من العراق فى زيارات.

قمنا تباعًا بزيارة الشقق الخاصة بأبنائها الثلاثة المتزوجين، كانوا متشابهين للغاية، فقد كانت فى كل شقة غرفة للضيوف مزخرفة ومزينة بزخارف منمقة مثل تلك التى عادة ما يشاهدها المرء فى نوافذ محلات القاهرة والإسكندرية. كان من الجلى

جهورى يشبه الزئير. وكما توقعت تماماً، فقد كان من أوائل الناس فى المنطقة الذين انتبهوا للفرص التى أصبحت متاحة فى العراق أثناء الحرب العراقية ـ الإيرانية، فقام بإرسال ابنه الأكبر إلى هناك بعد أن غادرت بفترة قصيرة للغاية، ثم تلاه الآخرون، واحد تلو الآخر. إلا أنه كان حريصاً ألا يكونوا جميعاً غائبين فى نفس الوقت، فقد كان محتاجاً لواحد منهم على الأقل معه حتى يساعده فى إدارة أعماله فى لطيفة. كان هناك الكثير من الأمور التى كان يتعين عليه أن يقوم بها فلم يكن الآن مجرد صاحب محل لأنه بفضل المال الذى كان أبناؤه يرسلونه إليه من العراق قام بشراء لوارى نصف نقل وأصبح يعمل فى مجال النقل. أصاب هذا المشروع التجارى نجاحاً كبيراً لدرجة أنه بدأ يفكر فى إقامة مشروع آخر وهو طاحونة لطحن الغلال، أو ربما حتى مزرعة دواجن حديثة.

بينما كان أبو على يقص علينا رواياته وقصصه كان يتوقف من آن لآخر لكى يقوم بإصدار أوامر إلى زوجات أبنائه وأحفاده لكى يحضروا بعض الأشياء التى أحضرها أبناؤه معهم من العراق.

تنفيذاً لأوامره قاموا بالاصطفاف فى طوابير دخولاً إلى غرفة الجلوس، ورجعوا حاملين مرة جهاز تليفزيون ثم موقد لإعداد الطعام، ومجموعة من الحاسبات، ثم قلم يعمل أيضاً كبطارية إضاءة، ساعة يد تقوم بإصدار نغمات، راديو ترانزستور ثم كاسيت، ثم سلسلة مفاتيح تفتح بمجرد التصفيق لها وأشياء أخرى من هذا القبيل، نظرت أنا والشيخ موسى إلى تلك الأشياء ونحن فى حالة

تقول رسالة خلّاف «وصل الشيخ أبو إسحاق ابن يوسف هذا العام، وقد أنبأني أن أخاك مُبشّر قد وصل إلى مصر. وهو قد طلب الإذن بالسفر لكى يلحق بك، فلهذا أعتقد أنه يجب أن تكون على علم بهذه الأنباء».

لا تعطى أوراق بن بيچو سوى إشارات غير مباشرة عن أثر هذه الرسالة عليه، من المحتمل أن يكون رد فعله المباشر هو الكتابة لأصدقائه لكى يناشدهم أن يمدوه بالمزيد من الأخبار، ولكى يطلب منهم أن يقوموا باتخاذ الإجراءات اللازمة لدفع المال اللازم لسفر أخيه المرتقب إلى الهند. ولكن، كما اتضح بعد ذلك، فقد كانت محاولاته بدون طائل فقد كان أخاه مراوغا أكثر مما يتخيل أو يتوقع، فقد قوبلت كل تساؤلاته بلا شيء سوى عبارات عامة لكى تبعث على الطمأنينة، فقد كتب خلاف «فيما يخص أخوك مُبشّر فإنه فى حالة جيدة، ولكنه لم يصل إلى هنا [فى عدن] حتى الآن».

ولكن لابد وأن بن بيچو استمر فى الكتابة إلى صديقه بصورة منتظمة طالبًا منه أن يستمر فى تحرياته، وأن يقوم بكل ما يستطيع عمله لكى يرسل مُبشّر إلى مانجالور. ومن جانبهم، فيبدو أنهم بذلوا كل ما أوتى لهم فى هذين الأمرين، ولكن على الرغم من محاولاتهم وجهودهم، فلقد ظل مبشَّر متغيبًا عن عدن. فى نهاية المطاف، وبعد أن يأس من إصابة أى نجاح، كتب يوسف ابن إبراهام خطابًا يقول فيه «ذكر سيدى ابن بيچوا أخاه مبشّر فى رسالته: لم يصل طوال هذا الوقت إلى هنا، وكذلك فأنا لم أر رسالة من سيدى

والواضح أن تلك الغرف كانت نادرًا ما تستخدم، حتى أن زوجة أبى على بدا عليها التردد فى الدخول عبر أبوابها المغطاة بالستائر. لم أستطع أنا أو الشيخ موسى إرغام أنفسنا على الدخول، على الرغم من إلحاحها المستمر، كان من الواضح أن أبا على قد علا مقامه لدرجة أنه لم يكن مناسبًا لعائلته أو جيرانه باستخدام فرش منزله.

تلك كانت حصيلة أبى على من هذه الحرب الدائرة بعيدًا عنه.

٢

من المحتمل أن يكون بن ييچو قد بدأ فى منتصف عقد ١١٤٠، أو ما يقارب ذلك فى التفكير جديًا فى العودة للشرق الأوسط فى حوالى هذا الوقت، وبعد سنوات طوال من الصمت تلقى أخيرًا أخبارًا عن أحد أفراد عائلته وهو أخاه الأصغر مُبشّرَ، والذى كان يعرف بما توافر له من أخبار، أنه كان مايزال يعيش فى وطنهم، أفريقيا.

من المحتمل أن تكون هذه الأخبار قد وصلت عقب سلسلة طويلة من الروايات المؤلمة والحزينة المتعلقة بأفريقيا. من المحتمل أن يكون التجار الرُحّل وأصدقاؤه قد قاموا بإبلاغ بن ييچو عن أنباء الإغارات المتكررة التى قامت بها الجيوش الصقلية على مدى الأعوام الكثيرة السابقة على هذه المنطقة مما أدى إلى معاناة سكان هذه المنطقة من المجاعات والأمراض. ولذا، فإنه من الجائز أن بن ييچو كان بالفعل يعانى من حالة قلق بالغ عندما أرسل إليه صديقه خلاف برسالته من عدن وهى رسالة مقتضبة كان قد سبق أن أرسلها له أخوه.

بدأت الكارثة، لقد حانت نهايتنا، لأن نهايتنا هنا فى حوالى نفس الوقت، وفى أقصى غرب شمال أفريقيا كانت دولة الموحدين تزداد قوتها يومًا بعد يوم، وكانت جيوشها تتقدم بثبات عبر المغرب فى اتجاه أفريقيا. وفيما بين ١١٤٥ و١١٤٦ قاموا بالاستيلاء على مدن أوران وتلمسان وواحة سيچيلماسا أن يتحولوا من اليهودية للإسلام. عندما ذهبت محاولاتهم أدراج الرياح، قاموا بقتل مائة وخمسين يهوديًا. أما بقية اليهود فقد قادهم قاضى اليهود وتحولوا سريعًا إلى الإسلام، كانوا بالمقارنة محظوظين ففى نفس الوقت تقريبًا قام الموحدون بالقضاء على مائة ألف من المسيحيين واليهود فيما يشبه المجازر فى فاس، ومائة وعشرين ألفا فى مراكش.

على الرغم من أنه كان على مسافة بعيدة للغاية، فإن من المحتمل أن بن ييچو كان على علم ودراية كاملة بالمجازر والفوضى التى اجتاحت بلاده، أن الجنيزة قد أعطتنا خطابًا موجهًا إلى صديق بن ييچو، الرحالة الذى لا يكل ولا يمل، أبو ذكرى ها ـ كوهين سيچيلماسى، والذى يحتوى على بيان شافٍ ومفصل للأحداث فى شمال أفريقيا. كان ابن أبو ذكرى قد كتب الخطاب من القاهرة، ثم قام بإرساله إليه فى عدن فى عام ١١٤٨ وقبل ذلك بأعوام قليلة فى حوالى عام ١١٤٥، كان أبو ذكرى سيچيلماسى قد أقام فى جوچارات بعد أن قام القراصنة بالقبض عليه واحتجازه. قام ابن ييچو بكتابة خطاب إليه بهذه المناسبة، بالنيابة عن زوج أخته «الناكودا» محروس من مانجالور، والآن، وبعد مرور ثلاث سنوات وبعد أن سمع أخبار الأحداث فى شمال أفريقيا، فإنه من المؤكد أن

من مصر. فى حالة إذا ما ظهرت رسالة تخص سيدى فإن خادمه سوف يقوم بإرسالها إليه». لاحقا، وفى نفس الخطاب أضاف التعليق الذى يبعث على القلق وكأنه نذير شؤم «أما فيما يتعلق بالأخبار من مصر، فإن سيدى سوف يسمعها من التجار...».

هذه الأنباء التى تلقاها بن ييچو من الشرق الأوسط أضافت إلى بن ييچو قلقًا فوق قلق. فمنذ ١١٤٠ وما تلاها ولمدة عدة أعوام متلاحقة كان موطنه، أفريقيا هدفًا مستمرًا للإغارات التى شنها الملك روچر الثانى ملك صقلية. تلت تلك الإغارات الأمراض والأوبئة والمجاعات، مما أدى إلى هروب أعداد كبيرة من المنطقة. بالإضافة إلى جزء كبير من السكان اليهود المقيمين فى أفريقيا، أزيحت عائلة بن ييچو من مهدية حوالى هذا التوقيت ونزحوا إلى صقلية حيث استقر بهم المقام - إلا أنهم لم يكونوا معروفين لأخيهم إبراهام، حيث كان يعيش فى هدوء وسكينة وفى رغد من العيش فى مانجالور البعيدة.

وفى نفس الوقت كانت هناك نذر شؤم أكثر كآبة آخذة فى الازدياد والتجمع على ضفتى البحر المتوسط المتقابلتين. ففى غرب أوروبا أثارت خطب ومواعظ برنارد من كلير ڤو نوبات من الحماس الدينى، وكانت الاستعدادات قائمة على قدم وساق لشن حرب صليبية جديدة بينما كانت هناك مذابح جماعية ضد اليهود.

فى ألمانيا حدثت تلك الأحداث مما دفعت يهود كولون اليائسين للنواح والندب، انظروا، لقد قامت القيامة، لقد جاءت النهاية لقد

ولكن فى هذه المرة فعلها بن ييجو أخيرًا، فبعد عام، أى فى ١١٤٩ رجع مرة ثانية إلى عدن، بكل ممتلكاته الدنيوية واثنان من أبنائه فى سن المراهقة.

فى يوم ١١ سبتمبر ١١٤٩ كتب بن ييجو خطابًا مطولاً إلى أخيه من عدن. أثارت عودته ذكريات كان يظنها قد هدأت، وكان الآن تنتابه رغبة أن يستعيد عائلته ومشاهد الطفولة التى كانت مازالت ذاكرته تحتفظ بها، لذلك فإنه بدأ خطابه بقوله «لا أعرف ماذا أكتب، فإن أشواقى قوية وحنينى جارف».

كانت الفكرة المسيطرة والغالبة على تفكير بن ييجو حين كتب هذا الخطاب هو توفير الطمأنينة والمساعدة لأفراد عائلته. فقد كتب يقول إنه قد سمع أن أحوالهم الآن كانت مزرية ومؤلمة وأنهم قد اضطروا «أكل رغيف خبز واحد»، وأنه قد حاول أن يرسل إليهم بعض البضائع والمأكولات التى تجعلهم يتغلبون على أحوالهم المتدنية للغاية، إلا أن البضاعة ضلت طريقها بسبب عدم تحديد أو التأكد من مكان إقامتهم الحالى. كان يكتب الآن إليهم لكى يعرض عليهم ما يستطيع أن يقدمه لهم، ولكى يعلمهم أنه قد «عاد من الهند، وأنه وصل بسلامة الله إلى عدن بكل متعلقاتى، وحياتى وأولادى فى حالة جيدة، ولدىّ من المال ما يكفينا جميعًا. [ولذلك] فأنا أطلب منكم وأناشدكم يا إخوانى أن تأتوا إلى تحت أية ظروف وبدون أى تأجيل أو تأخير... عندى ابن وابنه، خذوهم وخذوا معهم كل أموالى وممتلكاتى، فهذا أفضل من حصول الأغراب عليها».

يكون أبو ذكرى قد بذل مجهودًا لكى يقوم بإبلاغ الأنباء إلى بن ييجو فى مانجالور.

وبما أن الكوارث لا تأتى فرادى، فإنه كان هناك المزيد من الأنباء السيئة فى الجعبة لابن ييجو: فقد نما لعلم صديقه خلاّف أن أخاه مبشّر كان الآن يفكر جديا فى السفر إلى سوريا، بدلاً من الهند، وفى عام ١١٤٨ كتب إلى بن ييجو لكى يعلمه أن أحلامه لكى ينضم إليه أخوه كانت ضربًا من المستحيل، على الأقل فى المستقبل القريب.

كتب خلاف يقول «لقد سألت [بعض الناس] عن أخيك مبشّر، فأبلغونى أنه بصحة جيدة وإن كل أموره على ما يرام. ثم سألتهم عن سفره إلى سوريا فقالوا لى إنهم لا يدرون شيئًا عن هذا، ولكنهم أبلغونى أن كل أموره على ما يرام. فى حالة ما إذا جاء إلى عدن فإن خادمك سوف يفعل أقصى ما يستطيع بدون أن يطلب منى سيدى [بن ييجو] ذلك لأننى أكُنّ كل تقدير واحترام له».

قد يكون هذا الخبر، والذى جاء مباشرة بعد أحداث أخرى، هو الذى دفع ابن ييجو أخيرا أن يعقد العزم على شىء ما. من المحتمل أن يكون بالفعل قد كتب خطابًا إلى مضمون لكى يجد حلاً لكل المشاكل التى اضطرته ليكون غائبًا عن عدن طوال تلك الفترة. يبدو من خلال خطابات أصدقائه أنه كان قد قام بالفعل بالكتابة لآخرين أيضًا، وفيه يشير إلى فكرة العودة مرة أخرى، مما دعا خلاّف أن يكتب فى خطاب له فى عام ١١٤٨ «فى كل عام تذكر أنك سوف تعود مرة أخرى إلى عدن، ولكنك لا تفعل ذلك».

الذى كان يقيم فى ميناء مسينا فى شمال صقلية. وكان أخوه الآخر يوسف، الذى يتسم بأنه تقى ورع لا يكترث بأمور الدنيا، يعيش فى الجانب الآخر من الجزيرة فى ما زارا مع زوجته وأبناؤه الثلاثة: سرور وموشى وشمويل، خالف مبشّر تعليمات أخيه بن ييچو وقرر ألا يخبر عائلة أخيه يوسف بأمر الخطاب، وكما علم بن ييچو بعد ذلك أمرًا كلفه الكثير، إن أخاه مبشّر لم تكن تحكمه ضوابط أخلاقية، خاصة فيما يتعلق الأمر بالمال.

فى نهاية الأمر اتضح أنه يمكن الوثوق بالشائعات أكثر من القرابة، وبطريقة ما استطاع يوسف أن يتأكد فى نهاية الأمر من ذلك من خلال خطاب أرسله أخوه والذى وصل إلى صقلية. كان أولاد يوسف كلهم على قدر عال من التعليم وكانوا يتميزون بأنهم مطيعون، وكان أكثرهم طاعة هو أكبرهم، سرور. عندما سمع شائعات عن الخطاب، ومن المحتمل أيضًا عن عرض الزواج الذى تضمنه الخطاب، بدا أن سرور قد آلى على نفسه أن يجد عمه. يشهد خطابًا كان قد كتبه فى هذا الوقت موجهًا إلى أحد معارف العائلة فى مهدية على المشقة البالغة التى أحاطت بتلك التحريات.

كتب سرور «كنت أود أن أسأل ما إذا كان [سيدى] لديه أية أنباء خاصة بعمى إبراهام، والمعروف باسم بن ييچو، لأنه لم ترد إلينا أخبار عنه [لفترة طويلة]... فى العام الماضى... وصل خطاب منه إلى مسينا، حيث وقع فى أيدى عمى مبشّر، وقام بأخذ الخطاب معه، أننا لم نر الخطاب ولا نعلم ماذا كان يحتويه الخطاب. ولذلك فإننا قلقون لأننا ننتظر أن نسمع عنه أى أخبار عنه. هل لى أن

ولكنه كان لديه أيضًا سبب آخر لكى يحث إخوانه لكى يلحقوا به فى عدن تحت أية ظروف وبدون أى تأجيل أو تأخير. فبعد أن غادر الهند تنامت وتعاظمت أشواقه لعائلته حتى أصبح الآن متشوقًا لكى يؤكد ويوطد علاقاته بهم عن طريق زواج عائلى من أى شكل. فلذلك قال موجهًا إليهم سؤالاً أن «يحددوا من هو أفضل أبناء أخى [يوسف]، أو أفضل أبناء أختى بركة حتى أستطيع أن أزوجه لابنتى».

بعد أن قام بكتابة الأسطر الأخيرة فى الخطاب عبر بن ييجو عن قلقه البالغ الذى كان مصدره الأحداث الأخيرة فى شمال أفريقيا، فكتب يقول «لقد سمعت عما حدث على سواحل أفريقيا، فى طرابلس وچربه وكركنه وصفاقس والمهدية وسوسة. إلا أننى لم أتلق أى خطاب يخبرنى عن من ما زال حيًا ومن مات. استحلفكم بالله، اكتبوا لى عن هذا الأمر وأرسلوا الخطاب عن طريق شخص مؤتمن يمكنكم الوثوق به حتى أستطيع أن أنعم براحة البال. شالوم».

كان العنوان الذى كتبه بن ييجو على ظهر الخطاب خير مُعَبِّر عن حالة الغموض والالتباس التى اكتنفت هذا الزمان، ومثله مثل الخطاب، فقد كان مُرسلاً إلى المهدية أو إذا شاء الله، لأى مكان آخر فى أفريقيا.

فى هذه الحالة لم يحقق الخطاب الأمل الذى كان بن ييجو يرجو أن يحققه من خلاله. تدخل القدر فوقع الخطاب فى يد أخيه مبشّر

الباب بالمفتاح حتى لا يسمح للمجموعة الهائلة من الأطفال التى سارت وراءنا مباشرة بالدخول معنا.

أصبت بالدهشة: ففى كل المدة التى أمضيتها فى لطيفة وتشاوى لم أر أحدًا أبدًا يغلق بابًا على ناس داخل منزلهم. وعندما علقت على هذا الموقف أصيب جابر بالدهشة.

قال لى «أنت كنت متعود تقفل الباب. أنت نسيت ولا إيه؟ كان لازم نخبط جامد عشان تفتح الباب».

أشار إلى بالجلوس على السرير ووضع رأسه على الباب لكى يصيخ السمع، وقال «الدنيا دوشة جدا بره. فيه ناس كتير. أنا كنت فى الجامعة لمدة طويلة ودلوقت الأمر أصبح صعب على هنا، عشان فيه ناس كتير فى البيت».

قال إنه غادر لطيفة لأول مرة عام ١٩٨٢، أى بعد أن غادرت مصر بحوالى عام. ذهب أول الأمر إلى طنطا، وهى مدينة كبيرة تقع حوالى ستين كيلو على البعد من القاهرة، وذلك لكى يدرس التجارة فى جامعة هناك ويحصل على درجة علمية منها.

قال لى بنبرة حنين وحزن معًا «كانت حاجة رائعة. أنا كنت عايش فى المدينة الجامعية، وكنت مشارك غرفة مع طلبة تانين، وأصبحنا أصحاب كويسين. كنا بنمضى معظم الوقت مع بعض سواء فى المحاضرات أو بعد المحاضرات».

سألته «وكان الموضوع صعب عليك؟ علشان بعيد عن أولاد أعمامك وعيلتك؟».

أطلب من سيدى أن يتفضل بالكتابة إلينا بخطاب قصير حتى يتسنى لنا معرفة ما إذا كان قد سمع أى أخبار عنه وعن مكان تواجده...».

إلا أنها كانت فترة عصيبة فقد كانت المنطقة كلها فى حالة فوضى وهى ممزقة من جراء الحروب. وسوف تنقضى مدة طويلة قبل أن يتلقى سرور أو عائلته الأخبار التالية عن عمه إبراهام، المعروف باسم بيچو.

٣

بعد أن غادرت منزل أبى على ببضع دقائق استوقفنى صوت مألوف لدى ينادينى. وفى اللحظة التالية كان جابر بجوارى، وكان كل منا يربت بشدة على كتف الآخر ونصافح بعضنا الآخر بشدة لدرجة ملفتة كان الشعر فى مقدمة رأسه قد تراجع أعلى رأسه كانت هناك بقعتان واضحتان من الشعر الرمادى (سرعان ما قال لى إنهما مجرد بقعتين، بالمقارنة بما لدى) بمجرد أن انتهينا من تبادل السلامات والتحيات، اتفقنا أننا لدينا الكثير للتحدث فيه وعنه، فقمنا بتوديع الشيخ موسى واتجهنا نحو منزله. قال لى جابر أنه أصبح الآن لديه غرفة خاصة به وعلينا أن ننعم بالهدوء هناك ونتحدث كيفما شئنا.

عندما وصلنا إلى المنزل، قادنى بسرعة من خلال دهليز ونحن نمر على أبناء عمومته وعماته حتى وصلنا إلى غرفة صغيرة بها مكتب وسرير. بعد أن دعانى للدخول، أغلق الباب بشدة وأغلق

التقاط الصورة له وهو فى هذه اللحظة، فلذلك كان ينظر كأنه ينظر تجاه الكاميرا بطريقة طبيعية تمامًا، وتبدو على وجهه تعبيرات تنم عن الحيرة والتحدى معًا وكانت تتأرجح على شفتيه تعبيرات حائرة بين الابتسامة والتقطيب، عندما نظرت إلى الصورة مرة أخرى بعد كل تلك السنين، أدركت أن المسئول عن الاختلاف فى مظهر جابر لم يكن شعره الذى بدأ المشيب فى التسلل إليه ولم يكن كذلك شكل وجهه الذى تغير، فقد كان التغيير الحقيقى يكمن فى شىء آخر، فى شىء جوهرى أكثر من ذلك. فلم أر فى جابر الذى كان يجلس أمامى الآن أى مظاهر للعنف وسلاطة اللسان والخبث التى استطاعت الكاميرا الخاصة بى أن تلتقطها بصورة ممتازة ذلك اليوم ـ فقد حل محل هذا التعبير تعبيرًا آخر ـ نوعًا من اليأس الهادئ وشعور بالاستسلام.

قام جابر بشرح كل صوره الأخرى فى كومة الصور بينما كان يناولنى كل واحدة منها، واحدة بعد الأخرى. كانت كلها قد تم التقاطها بعد تلك الفترة، بصورة أساسية فى الحدائق ومبانى الجامعة التى درس بها فى الصور الأولى كان مع نفس مجموعة الأصدقاء أو زملاء الدراسة الذين تشارك معهم فى الغرفة لمدة سنتين تقريبًا. كان معظمهم يعمل «بالخارج» الآن، فلذلك فإن الصلة بينهم انقطعت تمامًا. إلا أنهم كانوا لا يفترقون لمدة العامين الأولين، لأنهم كانوا يدرسون معًا، وكانوا يذهبون معًا فى الإجازات للقاهرة، وأسوان وسيناء. كان واضحًا من لهجة جابر أن ذكريات تلك الصداقات كانت تعنى الكثير له، إلا أننى لم أتمالك إلا أن ألاحظ

نظر إلى نظرة يملؤها الدهشة وقال «لا. أبدًا. أبدًا. وعلى أى حال أنا كنت بأشوفهم من حين لآخر. أنا كنت مشغولاً جدًا. كنت باتعلم حاجات كتيرة، كنت بأروح أماكن جديدة كتيرة، كان الموضوع جميلاً جدًا أنى أكون هناك».

توقف قبل أن يكمل كلامه لكى يمد يده تحت السرير لاستخراج حقيبة بلاستيك خضراء اللون. كان بداخلها بضعة قمصان وبنطلونات مطوية بعناية، بالإضافة إلى بعض الكتب ولفائف صغيرة عديدة كلهم ملفوفون بعناية بالورق. التقط إحدى تلك اللفافات وأعطانى إياها بينما كان يراقبنى وهو يبتسم بينما كنت أفك الخيوط.

قال لى «دى المحفظة اللى عطيتها لى قبل ما تمشى من لطيفة وتروح نشاوى. كنت جبتها من مصر [القاهرة] أنت فاكر؟ أنا دايما باستعملها لما أروح البندر، ولما الناس تسألنى عليها، بأقول لهم عن الهندى اللى عطهالى، وازاى أنه فى يوم من الأيام افتكر القمر هو البطارية الطورش بتاعة أحمد موسى».

أخذ فى البحث فى حقيبته مرة أخرى وهو يضحك وهو يزيح بأصبعه مجموعة كبيرة من الصور الفوتوغرافية حتى وجد إحداهما وقام بإعطائى إياها كانت صورة كنت قد التقطتها بنفسى منذ سنوات طوال، كانت صورة لجابر واقفًا فى حقل على مقربة من لطيفة. كنت قد أرسلت إليه الصورة بعد ذلك من الهند مصحوبًا بإحدى رسائلى إليه. كنت فخورًا بهذه الصورة، لأننى تمكنت من

قال «أنا ما كنتش مهتم بالسياسة ولا بأى حاجة من الحاجات دى، وما كنتش منضم لأى جماعة أو جمعية. أنا مش عارف أشرح لك الحاجات دى أزاى. أنت مش حاتفهم أمور زى دى».

سألته «ليه حلقت دقنك؟».

مسح بأصابعه على ذقنه التى كان قد حلقها حديثًا بحركة بطيئة هادئة كأنه يقوم بالشرح وقال «عيلتى كانت عايزانى أحلق دقنى. خصوصًا أمى».

«ليه؟».

قال «كانوا خايفين عشان كان فيه قلق بين الحكومة وبعض الجماعات الإسلامية، وكانوا خايفين إنه فيه حاجة تحصل لى - بالرغم أنى مش تابع لأى جماعة أو حزب».

هز رأسه وأطلق ضحكة ساخرة، قائلاً «هى بلد مسلم وبالرغم من كده فيه خطورة أن الواحد يكون شكله مسلم».

ثم فجأة، توقف عن الكلام فى هذا الموضوع وبدأ يسألنى لماذا توقفت عن الكتابة إليه لفترة طويلة، وماذا كنت أقوم به منذ غادرت مصر. كانت إجابتى طويلة مما دعاه للاستغراق فى التفكير وطرح أسئلة تستدعى إجابات مطولة على غرار كم دفعت ثمنا لتذكرة الطائرة من الهند إلى مصر وما هو السعر الحالى للروبية الهندية إذا تم تغييرها وكذلك سعر الدولار الأمريكى فى مقابل الجنيه المصرى.

أنه كان فى الكثير من الصور يبدو غريبًا لا ينتمى إليهم وهو يقف منتصبًا وينظر بثبات إلى الكاميرا، بينما كان الآخرون من حوله يتعاملون بأسلوب يغلب عليه مرح وحيوية الشباب. كان من السهل ملاحظة أنهم كلهم كانوا شبابًا من «البندر» من الطبقة المتوسطة: كانوا يرتدون ملابس مختلفة فى كل صورة، ويرتدون أحذية رياضية ذات ألوان بهيجة، وكذلك بنطلونات جينز و(تى شيرتات) فانلات قطنية بدلاً من القمصان. وعلى النقيض من ذلك، كانت ملابس جابر تبدو كأنه اشتراها من السوق فى دمنهور، وظهرت القمصان والبنطلونات القليلة التى كان يرتديها فى عدة صور متتالية، كما لو أنه كان يريد أن يثبت أنه ظل مخلصًا لتربيته القروية التى تميل إلى الملابس الرخيصة الاقتصادية.

ظهرت اللحية التى أشار إليها الشيخ موسى فى ثلاثة أرباع كومة الصور. بدت فى البداية كأنها زغب من القطن، ولكنها بعد ذلك اتخذت منظرًا ذا تأثير حيث وصلت إلى حافة ياقة قميصه.

قال لى «الدقن دى أخذت منى وقت طويل عشان أربيها. كان شكلى أحسن وأنا مربيها كان شكلى محترم أكثر. ما كنتش باضطر أنى أفاصل وأساوم لما أروح السوق ـ وما كانش حد بيحاول أنه يغشنى».

لم أُدلّ بأى تعليق، وبعد أن تصفحت عدة صور أخرى قال لى إنه بدأ فى تعلم معنى الإسلام الحقيقى عندما كان يدرس فى الكلية، بالتحدث، والنقاش مع زملائه وأساتذته. كانوا يقرأون القرآن معًا كل يوم وكانوا يتحاورون ويتناقشون طويلاً حتى يداهمهم الليل.

سألته «الدنيا كانت ماشية ازاى هناك؟».

رد جابر قائلاً «أنا كنت صغير وقتها، وكنت فى بعض الأحيان خايف ومرعوب».

قال لى شارحًا إن تعاملات العراقيين كانت تتصف بالعنف والغلظة. كان هو وأبناء عمومته وأصدقاؤه معتادين على ألا يخرجوا ليلاً ويبقوا فى منازلهم كلهم مجتمعين معًا، يعدون الطعام معًا ويشاهدون التليفزيون. ولكن على الرغم من ذلك كان العراق أفضل من أماكن أخرى، فمما سمعه أن الإمارات فى الخليج كانت أسوأ من ذلك بكثير، فعلى الأقل كان الناس يحصلون على رواتب محترمة، وفيما يتعلق به، فإنه لم يكن يكترث بالكيفية التى يتعامل أو يتصرف بها العراقيون، كل ما كان يهمه هو أن يرجع مرة أخرى للعراق بعد أن يحصل على درجته الجامعية وبعد الانتهاء كذلك من تأدية الخدمة العسكرية.

ولمدة من الزمن بدت الأمور كأنها سوف تسير فى المسار الذى كان قد خطط له. انتهت فترة تجنيده فى الجيش سريعًا وبدون معاناة، خاصة أن شهادته الجامعية كانت قد أتاحت له الحصول على وظيفة مريحة ككاتب حسابات فى وحدته العسكرية.

قال «كنت قريبًا من الإسكندرية وكانت فترة جميلة. الضباط كانوا بيعاملونى بطريقة مختلفة عن العساكر التانيين، عشان درست فى الكلية وكل الأمور دى. هم كانوا بيعاملونى كأنى واحد منهم».

قال بعد برهة «يمكن اضطر اشترى تذكرة طيارة قريب جدًا. أنا من فترة بحاول ألاقى شغل بره مصر. أنا اشتغلت فى العراق لما كنت لسه بأدرس فى الكلية، وإذا ربنا أذن وشاء حاروح تانى هناك».

قال إنه عندما ذهب إلى العراق فى أول مرة كانت بعد أن انتهى من دراسته فى السنة الثانية فى الكلية. كان أحد أبناء عمومته يعمل ملاحظ عمال فى موقع إنشاء مبانى فى بغداد وقد أخذه لكى يعمل هناك حتى يستطيع الحصول على بعض المال خلال عطلته الصيفية. كان يتعين عليه أن يحصل على جواز سفر خاص لأنه كقاعدة كانت الحكومة المصرية لا تسمح لمواطنيها أن يسافروا للخارج حتى ينتهوا من تأدية الخدمة العسكرية. كان الحصول على هذا الجواز أمرًا غير يسير، ولكنه كان يستحق كل هذا العناء فى نهاية الأمر. استطاع أن يحصل على مال وفير مكنت الأب أن يبنى غرفة جديدة للمنزل.

آرانى بعض الصور التى أخذت فى العراق، واستطعت أن أتبين على الفور وجوهًا أخرى عديدة، بالإضافة إليه بالطبع ـ فقد كان هناك أصدقاؤه وأبناء عمومته الذين تعرفت عليهم فى لطيفة أو نشاوى. كانت معظم الصور قد التقطت فى أسواق أو حدائق عامة فى بغداد أثناء العطلات ـ كنت أكاد أتخيل ذلك بنفسى وهم يشرعون فى الذهاب إلى تلك الأماكن وهم يرتدون أفخر ثيابهم، ووجوههم تشع بمزيج من الفرحة والتخوف من جراء كونهم وحدهم فى مدينة بعيدة وجيوبهم مليئة بالنقود، وهم بعيدًا حتى لا تطولهم أيدى آبائهم أو كبار العائلة.

الإخطار، بدأ فى العمل مع بنّاء فى وظيفة صبى تحت التمرين، كانت الآن هناك منازل كثيرة تشيد فى لطيفة ونشاوى بالنقود التى كانت تصل إلى الناس من «بره».

قال جابر سريعًا «الشغلانة دى لمدة قصيرة لغاية لما ألاقى شغلانة بره. إنشاء الله أنا حاسافر أول ما اسمع أى أخبار عن الوظيفة».

قام بوضع الصور فى كومة منتظمة مرة أخرى، ثم قام بإعادته إلى مكانه مرة أخرى، بينما كان يقوم بإعادة تنظيم حقيبته مرة أخرى. كنت أستطيع ملاحظة أن تحضير حقيبة السفر أصبحت عادة بالنسبة له.

قال أخيرًا بعد أن قام بإغلاق الحقيبة «أنا عملت غلطة. أنا كنت فاكر أن الشهادة حتفيدنى، عشان كده رحت أدرس فى الكلية. كانت فترة جميلة اتعلمت فيها كتير، ولكن فى نهاية الأمر، بص وقول لى أنا بأعمل إيه؟ أنا دلوقت عامل بناء. أنا ضيعت وقتى فى الدراسة فى الكلية، ضيعت على نفسى أحسن الفرص».

وكدليل على حماقته ضرب المثل بأخيه محمد الذى كان قد خطط لمستقبله بطريقة أفضل. كان محمد يصغر جابر بسنة واحدة، وإن كان يبدو أكبر منه لأنه كان أطول وذا بنية أقوى من جابر، وعلى النقيض من جابر، فلم يهتم محمد أبدًا بالدراسة وتمكن بصعوبة بالغة من إتمام دراسته المدرسية، ولم يخطر بباله أبدًا فكرة الدراسة الجامعية. وبدلاً من ذلك قام بالانتهاء من

تقدم للحصول على جواز سفر بمجرد إتمامه الخدمة العسكرية، ولم يُضّع وقتًا فبدأ فى كتابة خطابات لأصدقائه وأقاربه فى العراق طالبًا منهم أن يبحثوا له عن أى وظائف خالية. كان يتوقع أن يجد عملاً بدون أى مشقة مثلما حدث فى المرة السابقة ولكنه سرعان ما اكتشف أن كل شىء قد أصابه التغيير، فقد بدأ الجنود العراقيون وكذلك جنود الاحتياط فى العودة إلى العمل ولذلك تضاءلت فرص العمل بالنسبة للأجانب. ومما زاد الطين بلة أن الحكومة العراقية كانت قد قامت بإصدار مجموعة قوانين جديدة تتسم بالصرامة جعلت من الصعب على العمال المصريين أن يقوموا بتحويل المال الذى يحصلون عليه إلى بلدهم وذويهم.. ولكن، بالطبع على الرغم من ذلك استمرت أعداد كبيرة من أصدقائه وأقاربه هناك، وكانوا يتدبرون أمورهم بطريقة حسنة للغاية ـ فعلى أية حال، كان أى شىء أفضل من المكوث بلا عمل فى المنزل. فلذلك ظل يكتب إليهم مرارًا وتكرارًا، طالبًا منهم أن يخبروه بمجرد أن يسمعوا عن وجود وظيفة ـ لم يكن يكترث ما هى، فقد كان فقط يريد عملاً أو وظيفة، فى أى مكان «بره» فى العراق أو أى مكان آخر.

فى هذه الأثناء كان قد رجع إلى لطيفة فى انتظار إخطاره بالوظيفة الحكومية التى كان يحق له الالتحاق بها بحكم شهادته الجامعية. لم تكن هذه الوظيفة بالأمل الذى ينشده، لأن الماهية كانت ضئيلة للغاية، ما يعادل جزءًا يسيرًا مما يحصل عليه عامل بناء فى العراق. ولكن علي الرغم من ذلك، فقد كانت شيئًا. انتظر لمدة شهور طوال لكى تصله أخبار عن الوظيفة، وعندما لم يصله

كان يداهمه ـ فلقد انتظر محمد طويلاً، ولن يستطيع أحد أن يلقى عليه باللوم إذا ما شرع فى الزواج وأتممه. كان محمد قد قام بأكثر من الواجب الذى تتطلبه التقاليد.

بجزء من عقله، كان من المرجح أن يكون جابر متعاطفا تماما مع المأزق الذى وقع فيه أخوه، ولكن فى حالة ما إذا تزوج محمد أولاً، فإن ذلك يعنى اعترافًا علنيًا بفشله هو. كان على أن أنظر فقط إلى وجه جابر لكى أتبين أن إذا حدث هذا فسوف يؤدى ذلك إلى انهياره وتدميره التام.

أدار جابر ظهره ناحيتى، وتشاغل بحقيبته بوضع أشياء جديدة بداخلها كما لو أنه يشفى غليلاً أو رغبة شديدة جارفة، ثم قال بصوت لا أكاد أسمعه «أنا رايح العراق قريب جداً».

لم استطع أن أرى وجهه، ولكننى كنت أعلم أنه كان على شفا البكاء.

٤

لم تحمل عودة بن ييچو إلى عدن، والتى تمت بفرحة شديدة غامرة إلا مأساة بطعم المرارة لبن ييچو. كانت الكوارث والنكبات التى حدثت له خلال الثلاث سنوات أو ما يقاربها شديدة لدرجة جعلته يقتلع نفسه من المكان الذى استقر به ثم يرحل إلى مصر وسرعان بعد أن استقر به المقام هناك ، حاول مرة أخرى أن يقيم صلات مباشرة مع أخيه يوسف الموجود فى صقلية.

الخدمة الوطنية العسكرية بأسرع ما يمكنه، ثم التحق بعد ذلك ليعمل صبى نجار عند نجار فى قرية مجاورة. بعد أن أمضى عدة شهور تعلم فيها أساسيات ومبادئ الصنعة، أوجد لنفسه عملاً فى الأردن ـ كان هذا فى وقت كان يسهل فيه الحصول على عمل. استمر فى البقاء والعمل فى الأردن من ذلك الحين وكان يحصل على مال وفير من عمله. كتب مؤخرًا يقول لهم إنه سوف يعود إلى مصر لفترة ـ حيث إنه كانت هناك فرصة الحصول على عمل فى إيطاليا بعد فترة وجيزة، ولذلك فإنه كان يريد أن يقوم ببعض الترتيبات الخاصة بمستقبله.

توقف جابر هنا وهو يزم شفتيه بشدة. لم يكن يريد أن يقول المزيد، إلا أن الباقى كان واضحًا بما فيه الكفاية، كان محمد يريد أن يتزوج قبل أن يسافر مرة أخرى، من المرجح أنه كان قد ادخر مالاً كافيًا ليشترى منزلاً أو شقة ـ بما فى دمنهور، أو أى مكان آخر ـ مما كان يعنى أنه كان الآن فى حالة لكى يتزوج زواجًا محترمًا ويبنى بيته. الاحتمال الأرجح أن السبب الوحيد الذى جعله ينتظر طويلاً قبل أن يتزوج أن جابر كان الأكبر، ولذلك فإنه حسب التقاليد مفروض أن يتزوج أولاً. ولكن، بالطبع لم يكن لدى جابر أى مدخرات أو أى وسيلة تمكنه من شراء شقة خاصة به. وبدون شقة فلن يتمكن أن يتزوج من فتاة مناسبة له، أى حاصلة على شهادة جامعية ـ وبدلاً من ذلك، كان يتعين عليه أن يتزوج إحدى قريباته من لطيفة، وأن يعيش مع عائلته، دون أن يكون له منزل خاص به. ولذلك كان يتعين عليه أن يجد عملاً بأسرع ما يمكنه، لأن الزمن

لابنه البكر الذى أنجبه بعد زواجه من آشو، وأطلق عليه اسم سرور الذى يوحى بالفرح والحبور.

يحتوى الخطاب الباقى جزءًا من فقرة يروى فيها بن ييجو لأخيه يوسف عن وفاة ابنه فكتب يقول «أنه فى يوم من الأيام كان لدى ولدان مثل غصنين من الريحان...» وتتوقف الجملة هنا لأن الخطاب تعرض للتدمير الشديد عبر القرون. يتخلل القليل الذى تبقى من الفقرة متتاليات صامتة غريبة ولكنها معبرة غاية التعبير، كما لو أن الزمن قد تآمر بطريقة ما بإحاطة أحزان بن ييجو بتلك الفواصل مما أدى إلى تغيير إيقاع كلماته. فنقرأ الآتى:

«الابن الأكبر [من الولدين] توفى فى عدن... لا أعرف كيف يمكننى أن أصف... لقد تركت ابنه، وهى أخته...».

كان جزء من السبب الذى دعا بن ييجو أن يكتب إلى أخيه هو ابنته ست الدار، كان قد ابتعد عنها لمدة فترات طويلة عبر السنوات العديدة الماضية، وكان أكثر ما يشغل باله الآن هو التفكير فى مستقبلها.

بعد فترة وجيزة من استقراره فى عدن، نقل بن ييجو مقره إلى خارج المدينة إلى الجبال الواقعة داخل البلاد، إلى مدينة تسمى ضحى جبلا والتى كانت بمثابة المقر الرئيسى للأسرة الحاكمة ولمدة حوالى ثلاث سنوات بعد ذلك كان يعيش معظم الوقت فى جبال اليمن، بينما بقيت ابنته فى عدن، تحت رعاية صديقه المخلص الوفى القديم خلاّف بن إسحق، والذى كان يعيش فى بيته كأحد أفراد عائلته.

كتب خطابًا طويلاً بهذه المناسبة، مثله مثل خطابه الأخير، إلا أن حالته المزاجية وأحواله كانت كلها مختلفة، وكانت حالة الحيوية النابعة من الحنين للوطن التى تملكته قبل أن يعود إلى عدن قد تحولت وأصبحت الآن حالة استسلام وحزن يحطم القلوب. وعندما كتب إلى أخيه الآن، شعر أنه مضطر أن يمده بمعلومات خاصة ببعض الأحداث التى وقعت له منذ أن كتب إليه آخر مرة فى ١١٤٩.

كتب بن ييجو يقول ليوسف «كنت قد كتبت إليك خطابًا منذ فترة. لقد وصلت إلى مبشّر، ولكنه لم يهتم بإعطائها لك [وبدلا من ذلك] وصل بنفسه إلى عدن».

إلا أن زيارة مبشّر والتى انتظرها بن ييجو لمدة طويلة لم تكن كما توقعها بن ييجو، فكتب يقول: «لقد فعلت كل ما فى استطاعتى له، بل وأكثر مما استطيع، ولكنه تسبب لى فى ضربة قاصمة. سوف تتطلب تلك الأحداث الكثير من الشرح، آه! يا أخى...» تعطى سطرين مكتوبين فى الهامش وبطريقة متسرعة فكرة موجزة لما قد حدث بينهما. ففى فترة إقامته فى عدن قام مباشرة بالاحتيال على أخيه وأخذ منه مبلغًا كبيرًا من المال «أما بالنسبة لمبشّر فإنه شخص كسول، وحقود لقد أعطيته كل ما طلبه منى، وفى المقابل تسبب لى فى ضربة قاصمة وكان الثمن الذى تكبدته هو ألف دينار...».

على الرغم من الألم النفسى الشديد الذى عانى منه من جراء اكتشافه عدم أمانة أخيه، إلا أنه لم يكن شيئًا بالمقارنة بالمصاعب والمآسى التى تعرض لها بن ييجو فخلال نفس الفترة عانى من فقده

أدى ابتعاد بن ييجو عن ابنته إلى وقوعه فى مأزق غريب. فقد قام صديقة خلاّف، التى كانت ابنة بن ييجو تعيش فى بيته بعرض زواجها من أحد أبنائه. لا تعطينا الوثائق أى مؤشر يدل على رغبتها من عدمه بهذا الشأن، ولكن من المحتمل جدًا أن يكون خلاف قد أخذ هذه الخطوة بناء على موافقتها، من المحتمل أيضًا أن ابنة بن ييجو وابن خلاف هما اللذان أقنعا خلاف أن يتحدث مع بن ييجو بشأن الزواج، وهما لا يتوقعان البتة رفض هذا الطلب، خاصة أنه صادر من صديق عمر بن ييجو.

على الرغم من أن بن ييجو كان وثيق الصلة مع أصدقائه فى عدن فقد كان مختلفًا عنهم فى أحد الشئون، ألا وهو أن أصول عائلاتهم ترجع إلى منطقة العراق، بينما جاء هو من مصر. لم يكن هذا إلا ليمثل أهمية إذا ما قرر بن ييجو أن يتجاهل صداقته طويلة الأمد مع خلاف وعائلته، كما لو أنه كان يريد أن يتنكر لجزء من ماضيه، فأخذ قرارًا أنه لن يستطيع أن يوافق على أن تتزوج ابنته من «أجنبى»، وبدلاً من ذلك، بدأ فى الحلم مرة أخرى لتوكيد روابطه مع عائلته بالطريقة المتبعة فى الشرق الأوسط، وذلك بأن يزوجها لأحد أبناء عمومتها، وهو سرور، الابن الأكبر لأخيه يوسف.

قام بوصف الأمر فى خطابه إلى أخيه على النحو التالى:

الشيخ خلاف [ابن اسحاق] ابن بندار، المقيم فى عدن [طلب يدها] لكى تتزوج ابنه. لقد عاشت فى بيتهم لمدة ثلاث سنوات. ولكننى رفضت الطلب عندما سمعت عن ابنك سرور، فقلت: «ابن

لم تكن الأسباب والدوافع وراء تحركات بن ييچو واضحة بما فيه الكفاية، إلا أن موت ابنه لابد وأنه قد لعب دورًا مؤثرًا لكى يحثه على أن يرحل عن عدن. على أية حال، فقد كان مازال يعيش فى الجبال عندما تلقى خبرًا يتعلق بموت شخص آخر، بعد سنتين فقط من وصوله إلى عدن.

فى ١١٥١ توفى مضمون بن بندار، صديق بن ييچو - وصله خبر وفاته من خلال خطاب من أحد معارفه يقول فيه «وصل الخبر إلى عبد سعادتكم يتعلق بوفاة السيد مضمون، العامود شامخ البنيان، سيد أرض اليمن، أمير كل المجتمعات، درة الدرر...» لابد وأن موت مضمون مثّل ضربة قاصمة لبن ييچو: فمن أشعاره القليلة الباقية هناك قصيدة مكتوبة بالعبرية قام بنظمها لذكرى صديقه.

ولكن على أية حال، فإنه من الواضح أن بن ييچو قد وجد قدرًا كبيرًا من الإشباع النفسى فى منزله الجديد الواقع فى جبال اليمن. تؤكد الوثائق عن هذه الفترة من حياته أنه كان يتمتع بمركز عال مرموق فى المجتمعات اليهودية داخل اليمن، بل ربما أيضًا كان يعمل قاضيًا. ولكن لابد وأنه كان هناك أيضًا توتر وقلق كثير يتعلق بكونه يعيش فى هذه المنطقة التى كانت صعبة الوصول إليها نسبيًا، فعلى سبيل المثال تكشف رسائله أنه كان قلقًا للغاية فيما يخص الأمان على الطرق، وهو أمر لا يدعو للدهشة بالمرة إذا ما تذكرنا أن أرضًا مترامية الأطراف وصعب الوصول إليها والتى كانت تقع فى أرض تقسمها الحروب والنزعات هى التى كانت تفصله عن ابنه الوحيد الباقى على قيد الحياة.

وفى حقيقة الأمر، لم يجدا بن ييچو الذى كان الآن يعتصره الحزن وخيبة الأمل والإحباط وسوء الحظ ملجأ وملاذًا له سوى أخيه وابن أخيه، حمّل بن ييچو الرسولين الذين حملا رسالته إلى صديقه اعترافًا ينم عن يأس دفين.

كتب بن ييچو قائلاً لأخيه «سوف يخبرك سليمان وإبراهام عن حالتى، قلبى يعتصره الألم».

٥

كان من الممكن بالطبع أن أجد منزل نبيل بنفسى، ولكننى فى نهاية الأمر شعرت بالعرفان بالجميل للأطفال الذين أصروا على اصطحابى إلى هناك: ففى حالة ما إذا كنت وجدت المنزل بنفسى لكنت ترددت ولم أقبل على الطرق على أبواب هذا المبنى الذى كان مقامًا الآن. فقد اختفت تمامًا الغرف المبنية بالطوب اللبِن التى مازلت أذكرها جيدًا، وحل محلها بيت كبير جديد مكون من طابق واحد.

فتحت فوزية زوجة أخ نبيل الباب. خبطت بيديها على رأسها وهى تضحك عندما رأتنى بالخارج، كان أول كلمات تصدر منها هى «نبيل مش هنا ـ هو مش فى الكفر ـ ده سافر العراق».

وبعد أن تمالكت نفسها، دعتنى للدخول، ثم وضعت براد شاى على بابور الجاز، دعتنى للجلوس ثم قالت لى قصة سفر نبيل للعراق، كان أبوه، عم إدريس العجوز الذى كان يعمل خفيرًا، قد مات فى السنة التالية لسفرى من مصر، ولم تعش زوجته بعده طويلاً.

الأخ يأتى أولاً، وله أولوية على الغريب. ثم عندما حضرت معها إلى مصر قام الكثيرون بطلب يدها للزواج. وها أنا أكتب إليك الآن لأبلغك بهذا الأمر: وكان يكفى أن أقول لك أقل من ذلك.

ولكن فى إطار ثقافة تلعب فيها المفاوضات والمباحثات الخاصة بالزواج فإنه من الممكن أن تلقى تلك المباحثات بظلالها على شرف العائلة وتجعلها مثارًا للأقاويل، ويأتى رفض عرض زواج من قِبل صديق قديم يتمتع بأصل كريم بمثابة الأمر الجلل. ولذلك، فإنه لم يكن من قبيل المصادفة ألا تحتوى الجنيزة على أى وثائق خاصة بمراسلات بعد ذلك بين بن ييجو وأصدقائه فى عدن. فمن المحتمل أن يكون رفضه لعرض الزواج الذى قدمه خلاف قد أدى إلى قطيعة لا يمكن إصلاحها معه ومع أقاربه، بما فى ذلك يوسف بن إبراهام: وفى الحقيقة، فقد يكون هذا هو السبب المباشر الذى أدى إلى الرحيل من عدن.

ولذلك، فقد كتب بن ييجو على وجه السرعة إلى أخيه بمجرد وصوله إلى مصر، فقد ذكر أنه قيل له إن أخاه يوسف لديه ابن «عليم بالتوراة» يسمى سرورًا وإذا ما وافق أن يرسله إلى مصر لكى يزوج ابنته، فسوف «يعطيه كل ممتلكاته وسوف نسعد بهما معًا، وسوف نزوجهما»، وبالنسبة لابن ييجو كان كل شىء الآن متوقفًا على رد سريع يتلقاه من أخيه، قال مناشدًا أخاه «اكتب خطاباتك على عنوانى فى مصر، إنشاء الله، واجعل ذلك الخطاب فى يد ابنك سرور».

وبالإضافة إلى ذلك، فقد كانت هذه هى نوعية العمل الذى يرغب نبيل فى القيام بها. قالت لى فوزية وهى تضحك «ما انت عارفة، كان دايما عايز وظيفة ما توسخش أيديه».

قالت لى إنه كان يوجد تليفون حيث يعمل ولم يكن لدى الرجل الذى يعمل لديه أى مانع أن يتلقى نبيل مكالمات تليفونية من حين لآخر. قالت لى «أنا حأديك النمرة. على كاتب النمرة عنده فى حتة، لما يرجع حيلاقيها ويعطيها لك».

كان عادة ما تقوم العائلة برحلة إلى دمنهور مرة كل شهرين، هى وزوجها على وأخوه الأصغر، لكى يتصلوا تليفونيًا بنبيل فى بغداد، وعندما كان الدور يجىء على نبيل لكى يتصل بهم كان يسجل رسالته على مُسجل كاسيت ثم يرسل إليهم خطابات، لكن اتفق الجميع أنه من الأظرف أن يسمعوا صوته، كان قد أرسل إليهم فعلاً نقودًا لكى يشتروا مُسجل كاسيت حتى لا يضطروا لسماع الشرائط عند جيرانهم.

بعد ذلك أرسل نبيل نقودًا لكى يشتروا جهاز تليفزيون وغسالة كهربائية، ثم، وذات يوم قال فى أحد الشرائط أنه يرغب فى بناء منزل جديد، فهذه الغرف المتهالكة التى عاشوا فيها طوال حياتهم لن تستمر قائمة لمدة أطول من ذلك، أضاف أيضًا أنه يسعده أن يجد المنزل مبنيًا بالفعل لدى عودته إلى مصر. سوف يستطيع أن يتزوج وينتقل للعيش فى هذا المنزل بعد ذلك. سعد إخوانه أيما سعادة عندما سمعوا هذه الفكرة اتصلوا به هاتفيًا مباشرة وفى خلال شهر قام بإرسال النقود لكى يبدأوا فى البناء.

كان نبيل غائبًا فى حالتى وفاة أبيه وأمه، كان مجندًا فى الجيش حينذاك، ولم يستطع أن يعود إلى القرية فى الوقت المناسب لكى يراهما قبل أن يموتا. كانت أمه تنادى عليه وهى على فراش الموت مرارًا وتكرارًا ـ فقد كان دومًا الابن المفضل لديها وطالما كانت تحلم بأن ترقص فى فرحه، وفى المناسبتين، جاء نبيل فى زيارة سريعة لكى يحضر عزاءهما، لم يتكلم كثيرًا فى أى من المناسبتين، ولكنه كان من السهل ملاحظة أنه كان بالغ التأثر.

طالما ألح عليه صديقه الصدوق، إسماعيل أخو فوزى، أن يقدم طلبًا للحصول على جواز سفر حتى يستطيع أن يعمل فى العراق بعد أن ينتهى من تأدية الخدمة العسكرية. لم يكن نبيل متقبلاً ومحبذًا لهذه الفكرة فى بادئ الأمر، فقد كان يحلم دائمًا بالحصول على وظيفة حكومية محترمة، وكان يعلم أنه إذا ما عمل فى العراق فإن الأمر سينتهى به بأن يقوم بعمل يدوى بصورة أو بأخرى. إلا أن موت أبيه وأمه جعله يغير من تفكيره. قدم طلبًا للحصول على جواز سفر، وفى عام ١٩٨٦ وبعد أن انتهى مباشرة من أداء الخدمة العسكرية، سافر إلى العراق مع إسماعيل.

كانت الأمور تسير على نحو حسن بالنسبة له فى العراق، فخلال شهور قليلة وجد عملاً له كمساعد فى محل مصوراتى فى بغداد، لم يكن يحصل على نفس الراتب الذى يحصل عليه إسماعيل الذى كان يعمل فى مجال المعمار، إلا أن هذا الراتب كان يعتبر ثروة إذا ما قيست بما يحصل عليه فى مصر.

كان صوتها خافتًا وحالمًا كما لو أنها كانت تتحدث عن فترة زمنية تقع فى زمان سحيق. لم تتملكنى الدهشة: فقد كنت أعلم أن ذكرياتى لو لم تكن محفوظة عن طريق المذكرات فإنى لم أكن لأحتفظ للماضى بمثل تلك الأهمية. وحتى مع وجود تلك الأشياء التى تذكرنى، فإنه كان عسيرًا على وأنا أنظر حولى فى أرجاء المنزل أن استرجع كيف كانت الأمور بالنسبة لنبيل وعائلته ـ وفى حقيقة الأمر ليس لنبيل فقط، بل لكل نشاوى. لم يكن الأمر متعلقًا بمنظر الحوارى التى كانت مختلفة عن ذى قبل؛ وإن كثيرًا من البيوت المبنية من الطوب اللبن قد تم هدمها وبناء بيوت ذات طابق واحد من الطوب الأحمر ـ فقد تغير شىء آخر كذلك، ألا وهى العلاقات بين النوعيات المختلفة من الناس فى القرية، وكانت قد أصابها الانقلاب وإعادة تنظيم. فقد كانت العائلات التى اعتبرت ضمن أفقر العائلات فى المجتمع مثل عائلة خميس وعم طه ونبيل، كانوا هم أنفسهم الذين أصبحوا يمتلكون بيوتًا جديدة، وحسابات فى البنوك، ولم أكن لأتخيل أبدًا مثل هذا التحول والتغيير على هذا النطاق عندما تركت نشاوى فى ١٩٨١. أما الآن وعندما زرتها للمرة الثانية، بعد أقل من ثمانى سنوات، فقد بدت القرية كما لو أنها على شفا ثورة شاملة ـ فيما عدا أن هذه الثورة قد حدثت فى بلد آخر بعيد.

وفى وقت مبكر من نفس هذا اليوم كنت قد تحدثت باستفاضة مع الأستاذ صبرى عن التغييرات التى حدثت فى نشاوى والحرب بين العراق وإيران وعن الرجال الذين سافروا للعمل «بالخارج» (كان الأستاذ صبرى نفسه على وشك السفر فى القريب العاجل لكى يعمل فى وظيفة محترمة فى مدرسة فى الخليج).

قالت فوزية «نبيل بعت شريط تسجيل من كام يوم احنا حنسمعه تانى، أول ما على يرجع».

بعد أن انتهينا من شرب الشاى، أخذتنى فوزية فى جولة فى أرجاء المنزل وهى فى حالة زهو وفخر فقد تم الانتهاء من حوالى ثلاث أو أربع غرف فى الدور الأرضى، بما فى ذلك المطبخ وحمام وفراندا. لم يكن مد المواسير قد اكتمل بعد، ولم تكن الحوائط قد تم دهانها، ولكن فيما عدا ذلك فقد كان المنزل مأهولاً للسكن.

قالت فوزية إنه عند الانتهاء من اللمسات الأخيرة فى الدور الأرضى فسوف يبدأ البناءون فى الدور الثانى. وبعد أن يتزوج نبيل فسوف يعيش هو وزوجته فى الطابق الأعلى، وبهذا فسوف يكون الطابق بأكمله خاصًا بهما. ويستطيع إخوانهم الآخرون أن يبنوا فوق ذلك إذا ما أرادوا ذلك بعد الآن، وهذا يتوقف عما إذا سيذهبون للعمل «بالخارج» كما فعل نبيل أم لا.

عندما اصطحبتنى فوزية إلى غرفة الضيوف الجديدة وأشارت إلى جهاز التليفزيون وجهاز التسجيل قلت لها «دى حاجة مختلفة تمام. كانت أول مرة آجى هنا كانت وقت جوازك لما كنت أنت وعلى قاعدين بره وكراسيكم حاطينها على مكان مرتفع ووراكم حيطة طين».

ابتسمت فوزية عندما تذكرت هذه الذكرى ثم قالت «أوحش حاجة أن أهاليهم ماتوا قبل ما يشوفوا الدنيا اتغيرت ازاى لنا».

كانت هناك صدمة تنتظرنى عندما عاد على وكان بصحبته أحد إخوانه الصغار، حسين الذى كنت أتذكره على أنه صبيًا خجولاً منطويًا، ولم يكن آنذاك يبلغ أكثر من ثلاثة عشر عامًا. ولكنه أصبح الآن طالبًا فى الجامعة، وأصبح يشبه نبيل شبهًا واضحًا فى تصرفاته وهيئته حتى إننى كدت أن أجيبه على أنه نبيل. وبعد ذلك، لاحظت أنه يذكر نبيل كثيرًا فى حديثه، فأدركت أن التشابه بينهما لم يكن من قبيل المصادفة، فقد كان من الواضح أنه يعشق أخاه وكان يتخذه نموذجًا يحتذى ويسير على دربه.

استمعنا للشريط بعد أن تناولنا العشاء، كان صوت نبيل فى بادئ الأمر صارمًا وجادًا، ولدهشتى كان يتحدث مثل أبناء البندر، كما لو أنه كان قد نسى اللهجة الريفية التى كان يتحدث بها طوال حياته. إلا أن سرعان ما انبرت فوزية لتدافع عنه عندما قمت بالتعليق على هذا الأمر. قالت إنه يتحدث بهذه الطريقة فقط على الشرائط التى يرسلها إليهم ولكن عندما يتحدث على التليفون كان يتحدث بنفس الطريقة التى اعتاد عليها.

لم يتحدث نبيل كثيرًا عن نفسه وحياته فى العراق، قال فقط إنه بحال طيبة وأن أجره تزايد فى الآونة الأخيرة. قام بذكر كل أسماء الأشخاص بالتفصيل الذين يود أن يحمل إخوانه بتحياته إليهم وتحدث لهم عن أصدقاء عديدين حضروا من نشاوى وكانوا أيضًا يعملون فى العراق، وأن فلان وفلان كانوا بخير وأحسن حال، وأن شخصًا آخر انتقل للعمل والعيش فى مدينة أخرى، وأن شخصًا آخر

قال لى الأستاذ صبرى «احنا الكسبانين الحقيقيين من الحرب دى» فقد كانت الدول العربية الغنية تدفع للعراقيين لكى يقوموا بقصم ظهر الثورة الإسلامية الإيرانية. بالنسبة لهم كان الأمر صراعًا من أجل البقاء، ومن أجل أن يستمروا فى السلطة. وفى هذه الأثناء، بينما كان الآخرون يستفيدون من الحرب من أجل الحصول على المال، كان العراقيون يلاقون حتفهم على جبهات القتال.

أضاف الأستاذ صبرى قائلاً «لكن الأمر مش حيستمر على كده، لأن الفلوس دى فلوس ملوثة و«حرام» وتمن الحصول على الفلوس دى حيندفع بعد كده، فى يوم من الأيام».

خطر لى آنذاك أن جابر وهو فى حالة الاغتراب كان بالفعل يدفع ثمنًا من نوع أو آخر: والآن وأنا أنظر إلى المنزل الذى أقامه نبيل، بدأت أتساءل ما إذا كان هو الآخر يدفع ثمنًا لهذه الفلوس «الحرام» وهو يعيش فى العراق.

سألت فوزية «الأحوال عامله ازاى فى العراق؟ نبيل عاجباه العيشة هناك؟».

أومأت برأسها فى سعادة، وقالت إنه سعيد جدًا، ففى كل الأشرطة التى يسجلها ويرسلها كان يقول إن الأمور تسير على خير ما يرام.

قالت «ممكن حتى أنت تسمعه لما على يرجع. حنسمع الشريط بتاعه على التسجيل».

الحوار، أو على الأقل جزء من الحوار بحذافيره، عندما انتهى من ذلك كنت فى حالة ذهول تام، كان يبدو لى إنى كنت شاهدًا على تحدٍ للزمن وقوانين النميمة والإشاعات وكان هذا الأمر يبدو مستحيلاً ولكنه مؤثر للغاية.

قلت لحسين «اطمن أنا حاكلم نبيل» وشرحت له إننى سوف أسافر إلى أمريكا فى القريب العاجل لأمر يتعلق بالبحث للكتاب الذى كنت أقوم بكتابته، ووعدت أنى سوف اتصل بنبيل بمجرد رجوعى.

رد على حسين قائلاً: «لازم تقول له إننا كلنا كويسين، وأنه لازم يبعت شريط كاسيت تانى».

قالت فوزية «ده حيستغرب جداً. حيفتكر إن فيه حد عامل فيه مقلب».

قال على «حنبعت ونقوله. حنبعت له جواب بكره علشان ما يستغربشى. حنقوله أنك حتكلمه فى التليفون من أمريكا».

استغرقنا فى الحديث لفترة طويلة عن أشياء أخرى، عن الأحوال السياسية فى الهند والشرق الأوسط وعن شعور المرء عندما يشاهد نهائى كرة القدم فى المونديال على التليفزيون. خطر ببالى عندما كنت على وشك مغادرة المكان أن قمت بسؤال ما إذا كان نبيل يطيب له العيش فى العراق.

كان على وشك السفر عائداً لمصر وأشياء أخرى كثيرة من هذا القبيل. ثم قام بعد ذلك بإسداء عدة نصائح لإخوانه، مثل أوجه صرف النقود التى يرسلها، والإضافات التى كان يجب عليهم القيام بها فى المنزل والمبلغ بالضبط الذى كان يتعين عليهم أن يقوموا بصرفه. كان كل الموجودين فى الغرفة يستمعون إليه وهم فى حالة استغراق تام حتى السلامات الأخيرة، بالرغم أنه كان من الواضح أنهم استمعوا إلى الشريط مرات عديدة قبل ذلك.

بعد ذلك طلبت فوزية من حسين أن يكتب عنوان نبيل ورقم تليفون المحل الذى يعمل به على قصاصة من الورق. قالت وهى تناولنى قصاصة الورق «فى الغالب صاحب المحل هو اللى حيرد عليك، وأنت لازم تقول إنك عاوز تكلم نبيل إدريس بدوى، المصرى، الحكاية دى حتكلفك كتير ولكنك حتسمعه كويس جداً، كأنه قاعد فى المطرح اللى جنبك».

أمسك حسين بمرفقى وهزه قائلاً بلهجة توكيد «لازم تكلمه. هو حيتبسط جداً. أنت عارف، هو احتفظ بكل جواباتك عنده وحطهم فى كيس بلاستيك. هو لغاية دلوقت بيتكلم عنك كتير. قل لى، أنت مش مرة قلت له...».

ثم بعد ذلك قام بسرد حوار دار بينى وبين نبيل بحذافيره كلمة بكلمة، كان الحوار عن أمر تافه، شىء يتعلق بالجامعة التى درست فيها فى دلهى، ولكن لسبب ما كنت قد قمت بكتابة ذلك فى مفكرتى عند نهاية اليوم، وهكذا عرفت أن حسين قام بتكرار

مازارا ذات يوم ميناء يعج بالحركة والنشاط، يقوم على خدمة السفن الآتية من شمال أفريقيا وبلاد الشام، إلا أن حالة العداء الحالية بين صقلية وأفريقيا تسببت فى تأثير ضار على طرق الاتصال بينها، مما أدى بها فى نهاية الأمر إلى حالة من التدهور الشديد. ومن منظور الظروف المعيشية فلم يكن لدى مازارا الكثير لتمنحه ليوسف وعائلته، الذين تدهور بهم الحال إلى درجات متدنية للغاية فأصبحوا يعانون من شظف العيش عندما كانوا يعيشون هناك، إلا أنه كانت توجد بعض النواحى الإيجابية التى كانت بمثابة تعويض عن النواحى السلبية، فمن خلال صلاتها التجارية طويلة الأمد مع أفريقيا، كانت قد أضفت قدرًا لا بأس به من روح المنطقة الثقافية والتعليمية، ومن المحتمل أن يكون يوسف وأولاده قد شعروا بالطمأنينة والأمان هناك أكثر من أى مكان آخر فى الجزيرة يتمتع بالازدهار والثراء الفاحش أكثر من مازارا. ومع ذلك، فمما لا شك فيه أنهم شعروا أنهم يعانون من الحرمان الناجم عن الاغتراب والنفى فى محل إقامتهم الجديد، فعندما كانوا ينظرون إلى الجانب الآخر من البحر وهم على شواطئ هذه المدينة الريفية، فلابد وأنهم تخيلوا وتمثلوا ورأوا رؤية العين ثراء مصر العلمى وكأنه يسطع ويبرق ويلمع مثل المنارة من على بُعد.

ولذلك فإنه كان من السهل تخيل هذا الخضم الهائل المتلاطم من الأمل والرجاء والحماس الذى اعترى هذه العائلة البائسة المغتربة عندما وصل إليهم خطاب بن ييچو. فعلى سبيل المثال فمن الواضح أن الشاب سرور تلقى عرض الزواج الذى اقترحه عمه

هز على كتفيه، وقال إنه بقدر معلوماته فإن نبيل كان على خير ما يرام، على الأقل كان هذا هو ما يردده نبيل طوال الوقت. ولكن للحقيقة فإنه لم يكن يدرى بالفعل ذلك لأنه لم يذهب هناك أبدًا.

أضاف قائلاً «الله أعلم! الناس بتقول أن الحياة هناك صعبة جدًا».

كان الظلام قد حل ولم أكن أستطيع أن أظل أكثر من ذلك، وبعد أن سلمنا على بعضنا البعض، أصر حسين على اصطحابى للشارع الرئيسى. فى الطريق توقفنا عند منزل أبناء عمومته ثم أخذنا أحد إخوان إسماعيل الصغار معنا. اكتشفت بعد ذلك أنهم، مثل نبيل وإسماعيل من قبلهم كانوا أصدقاء حميمين، وكانوا يدرسون فى نفس الكلية، كما فعل إخوانهم نبيل وإسماعيل.

راودنى شعور غريب وأنا أعد إلى القرية بينما كان الاثنان يمشيان بجوارى. بدا وكأن لحظة من الزمان قد هربت بطريقة أو بأخرى من طوفان التغيير الذى أطاح بنبيل وإسماعيل بعيدًا للعراق: كان أبناء العمومة يشبهان إخوانهم لدرجة كبيرة حتى خُيل لى إنى أمشى مع أشباح.

٦

على خلاف خطاب بن ييچو الأول، فإن رسالة بن ييچو الثانية وصلت بالفعل فى نهاية الأمر إلى أخيه يوسف وعائلته. كانوا فى هذا الحين يقطنون بلدة صغيرة تسمى مازارا (مازارا ديل فاللو) تقع فى أقصى الطرف الغربى لصقلية، وعلى مقربة من باليرمو. كانت

ساطرون. كُللت محاولتهما بكل نجاح فقد قال ابن ساطرون لسرور «سوف أتعهد أنا بدفع أجرة السفر، وسوف تذهبون إلى مصر معى، إنشاء الله».

وعندما وصلا إلى هذه المرحلة من الرحلة، اعترت الشاب موشى أيضًا الولع بالسفر، فبدأ يلح على أخيه سرور أن يصطحبه إلى مصر. كان رأى بن ساطرون وعمه مبشّر معارضًا لتلك الفكرة فقد نصحاه قائلين، إنه لا يوجد شىء ذو فائدة تجنيه من ذهابك لمصر الأفضل أن ترجع إلى أبيك« ـ ولكن موشى كان مصرّا ألا يرجع إلى مازارا «خالى الوفاض». كتب سرور قائلاً إن الأمر متروك الآن لأبيهما أن يفصل فيه، وفى هذه الأثناء كان يتعين عليهما البقاء فى مسينا لكى ينتظرا إرشاداته.

عندما وصل الخطاب كان من الواضح أن الأب كان معارضًا للسماح لموشى بالذهاب أكثر من ذلك، فعندما كتب سرور خطابه التالى لأبيه وأمه كان بالفعل قد وصل إلى مصر وكان أخوه قد رجع إلى مازارا. كان الخطاب الذى كتبه بهذه المناسبة خطابًا مقتضبًا «لقد أرسلت إليك هذه السطور القليلة لكى أعلمك أننى بخير وأتمتع براحة البال» ثم استطرد بعد ذلك لإرسال تحياته تباعًا لأصدقاء عديدين بالإضافة طبعًا إلى أبيه وأمه وإخوانه، موشى وشامويل. ولكن كان يوجد سبب آخر لدى سرور لكى يرسل خطابًا لأهله فى وطنه فى هذا الوقت بالذات، فقد كان فى حاجة إلى وثيقة قانونية رسمية من أبيه، ومن خلال الخطاب طلب منه

بترحاب شديد، وكان رد فعله الفورى أنه سافر إلى مصر ليأخذ عروسه.

أثارت استعدادات سرور للقيام بالرحلة أقصى درجات الفرح والسرور لدى عائلته. لجأ العجوز يوسف وزوجته إلى اتباع نظام صارم من الصيام والصلاة لتأكيد وصوله بالسلامة إلى مصر، أما أخو سرور، موشى فقد اصطحبه فى أول مرحلة من الرحلة.

ولكى يقوما بالاستعدادات لوصول سرور إلى مصر، كان على الأخوين أن يتجها إلى ميناء رئيسى حيث إن مازارا نفسها لم تكن تقوم بخدمة السفن الكبيرة المتجهة شرقًا. وفى هذه الحالة قررا أن يتجها إلى مسينا على الجانب الآخر من الجزيرة بدلاً من الاتجاه إلى باليرمو - من المحتمل أن يكون مرد ذلك أنهما سوف يجدان أن هذا هو المكان الذى سوف يجدان فيه الرسول الذى حمل رسالة عمهما، وهو سليمان بن ساطرون. ركبا سفينة مساء الجمعة بعد أن اتفقا على أجرة مقدارها ثلاثة أثمان دينار من الذهب، فى مقابل حملهما إلى فنار محاذ لمسينا.

بعد أن وصلا إلى مسينا بعد تسعة أيام، سعيا لرؤية عمهما المشاكس المتمرد، مبشّر الذى كان يعيش آنذاك فى هذه المدينة. وفى هذا الخصوص، بعث سرور قائلاً فى خطاب لأبيه أن عمه «لم يُقصّر [فى واجباته العائلية]» وذلك بأن استضافهما هو وأخاه موشى فى بيته. وبعد ذلك سعى الأخوان لرؤية اثنين من أصدقاء بن ييچو، وكان أحدهما الرسول الذى حمل الخطاب، سليمان بن

أعلم أننا كل ما نملكه هو الفراغ لأن الله قد أفرغ بيتنا. آه يا اخوانى، لا تنسونا، وتذكروا أن تزورونا وتكتبوا إلينا. يجب أن تعرفوا أن الخطابين الذين تلقيانهما منكما جعلنا نرى وجوهكما. من خلالها أرسلا لنا وأخبرانا بأخباركما سواء كانت أخبارًا هامة أو غير مهمة على الإطلاق، لا تترددا فى ذكر أقل الأمور شأنًا حتى نكون على علم بكل أخباركما».

ولكن الأمور تحسنت تدريجيًا. فقد اجتمع شمل الأخوين فى مصر، ولابد وأن سرور قد أعلن عن زواجه لابن عمه بعد ذلك بمدة قصيرة. كان أبوه فى حالة سعادة لا توصف فكتب قائلاً «ارجع إلى بيتك إلينا مرة أخرى أنت وابنة عمك... وسوف نقوم بتجهيز غرفتين لها وسوف نحتفل بالزفاف».

وتم الزفاف فعلاً فالقائمة التى تذكر جهاز العروسة ست الدار، والمحفوظة حاليًا فى سانت بيتسبرج لهو خير تأكيد أن ابنة السيدة من ناير من مالابار قد تم زواجها عام ١١٥٦ على ابن عمها الصقلى بمدينة الفسطاط.

اتجه كل من سرور وموشى لكى يصبحا قاضيين أو حبرين فى المحاكم الحاخامية فى مصر ومن المحتمل أن أباهما وأمهما وشامويل قد لحقوا بهما بعد ذلك.

أما بالنسبة لأشو فلا يقوم بن ييجو أو أبناء أخيه بذكرها فى خطاباتهم. ومن المرجح جدًا أنها لم تغادر الهند أبدًا وإنما بقيت فى مانجالور بعد أن رحل بن ييجو عنها.

إرسالها إلىّ باليرمو، من المحتمل مع موشى، حتى يمكن بعد ذلك إرسالها إليه فى مصر.

وما حدث بعد ذلك أن هذا الخطاب أشعل اشتياق موشى من جديد للترحال والسفر ودفع به إلى السفر إلى مصر بنفسه. ولكن لم يكن الوقت مواتيًا، وكان القدر الوافر من الحظ السعيد الذى جعل سرور يصل سالمًا إلى الغاية التى يريد أن يصل إليها لم تكن متاحة لأخيه، فقد هوجمت السفينة التى يركبها فى الطريق، وتم أسره فى مدينة صور التى يسيطر عليها الصليبيون.

عصف القلق الشديد بأهل سرور وموشى عندما علموا بهذه الأخبار والمعلومات فى خطاب سرور. ولذلك فقد كتب شامويل ردًا عليه من صقلية قائلاً «لقد اعتصرنا الحزن عندما قرأنا، وبكينا بشدة، أما بالنسبة لأبى وأمى فإنهم لا يستطيعون حتى الكلام». ولكن ما ورد بعد ذلك فى نفس الخطاب كان كافيًا ليجعل دموعهم تخف حدتها بسبب الأنباء السعيدة التى حدثت بعد ذلك. فقد كتب موشى لسرور من صور لكى يعلمه أنه الآن «بخير وصحة جيدة».

وفى هذه الأثناء كانت الأمور فى صقلية تتدهور من سيئ إلى أسوأ. فقد حدث نقص فى المواد الغذائية وارتفع سعر القمح وكانت العائلة قد أنفقت معظم مدخراتها. كتب شامويل قائلاً «إذا رأيته [أبانا] فلم تعرفه لأنه يبكى طوال الليل والنهار... أما بالنسبة لأمنا، فإذا رأيتها فلن تتعرف عليها، لأنها قد تغيرت تمامًا من جراء اشتياقها لك وبسبب حزنها. الله وحده أعلم بحالنا بعد أن تركتنا...

تقع فى الماضى البعيد وكانت تتحدث عن المعجزات التى جرت على أيدى رجل يتمتع بالورع والتقوى البالغة. وُلد سيدى أبو حصيرة لعائلة يهودية فى المغرب، إلا أنه قيل إنه قام بنقل نفسه إلى مصر عن طريق معجزة خلدت نفسها فى اسمه: عندما قام بعبور البحر الأبيض المتوسط على حصيرة من البوص ولهذا فقد سُمى باسم هذه المعجزة «سيدى أبو حصيرة».

تحكى الرواية أنه بعد أن وصل إلى مصر اعتنق الإسلام وسرعان ما تعارف الناس على أنه «رجل طيب» يتمتع بنعمة وخاصية تشبه المعجزة وهى «البركة». استقر سيدى أبو حصيرة فى نهاية الأمر فى دمنهور حيث التفت حوله مجموعة كبيرة من المريدين والتابعين له. وبعد وفاته قاموا ببناء مقبرة له على مشارف مدينة دمنهور، وهذه هى المنطقة التى يقام فيها المولد، وقيل لى إنه بسبب أصوله اليهودية فإنه كان لا يزال له مريدون كثيرون فى إسرائيل، ومنذ أن فتحت الحدود بين مصر وإسرائيل فإنهم أصبحوا يأتون بأعداد كبيرة كل سنة.

وفى حقيقة الأمر فقد حضر سواح كثيرون لكى يشهدوا ويحضروا المولد فى العصر الحاضر، وأقيم مؤخرًا شاهد جديد ضخم فى نفس موقع قبر سيدى أبو حصيرة.

لم أدرك المولد عندما كنت أعيش فى نشاوى، ذلك إنه تصادف أن ذهبت إلى القاهرة فى نفس الأسبوع الذى أقيم فيه مولد أبو حصيرة، ولكن كان الأمر الآن يبدو أن الجميع كان حريصًا أشد

أما بالنسبة لابن بيچو نفسه فإنه اختفى من السجلات بعد زواج ابنته. فلا يذكره أى من زوج ابنته أو أبناء إخوانه فى خطاباتهم بعد ذلك، وحسب ما توافر لى من معلومات فلم يرد ذكر وفاته فى أى من الوثائق الأخرى الموجودة فى جنيزة القاهرة. هناك نهايات كثيرة يقبلها المنطق والعقل بالنسبة لنهاية قصة بن بيچو، وألطفها على الإطلاق هى التى تقول إنه رجع إلى آشو فى مالابار، أما أكثرها احتمالاً فهى التى تقول إنه مات فى مصر، بعد زواج ابنته بفترة وجيزة للغاية، وتم دفنه فى ضواحى الفسطاط.

أما بالنسبة لبوما فلا يوجد أيضًا ذكر له فى مراسلات بن بيچو مع إخوانه. ولكن قصته لم تنته بعد، فقد كانت هناك رحلة أخيرة.

٧

انتهت عودتى إلى نشاوى ولطيفة نهاية غير متوقعة.

وتصادف أن جاءت زيارتى مع إحدى المناسبات السنوية الخاصة بالمنطقة، وهذه المناسبة كانت مولدًا لذكرى شخصية قديس يعرف باسم سيدى أبو حصيرة والذى يقع قبره على مشارف دمنهور. وكما هو الحال فى كل الموالد، كان هناك لغط وكلام كثير عن التوقعات التى تسبق بداية هذا المولد، وعلى مدى بضعة أيام أُعيدت على مسامعى قصة سيدى أبو حصيرة مرات ومرات. وفيما عدا بعض الاختلافات غير المتوقعة، كانت هذه القصة شبيهة للغاية بالأساطير التى صاحبت شخصيات مقدسة أخرى مثل تلك الموجودة فى نشاوى ونخلتين: فمثل تلك الأساطير الأخرى، كانت أحداث القصة

ماركة نايكون وساعات السايكو. كان قد اكتسب كل تلك المعلومات بينما كان يعيش فى الخليج حيث كان يعمل لمدة سنتين فى مجال المعمار. إلا أنه لم يكن يُعنى ويهتم كثيرًا بعمله، ذلك لأن تسلق «السقالات» لم يكن مناسبًا له. وفى نهاية الأمر نجح فى إقناع أخوين يعملان فى العراق أن يستثمرا أموالهما فى شراء ميكروباص مستعمل، ولمدة الشهور العديدة الأخيرة كان يقوم بنقل الركاب فيما بين مدن وقرى هذه المنطقة.

قبل سفرى بيوم قاد محسن السيارة التى استقلتها لمحطة القطار فى دمنهور لشراء تذكرة قطار للقاهرة، وفى الطريق صرح لى بقوله إنه الآن متعب لأنه يقضى أيامه على تلك الطرق الريفية المُترّبة. وبعد أن رأى مؤخرًا سواحًا كثيرين يأتون إلى دمنهور لحضور المولد بدأ فى التفكير فى اتجاه مختلف تمامًا. خطرت له فكرة أنه قد يكون أمرًا طيبًا إذا ما حصل على تصريح يسمح له بنقل السواح من وإلى الإسكندرية والقاهرة وأماكن أخرى مماثلة.

وهكذا أدت فكرة زيارتى لقبر سيدى أبى حصيرة إلى مناقشة كل ما يتعلق به. قال لى محسن إنه لم يقم أبدًا بزيارة هذا المكان من قبل، وإن كان قد رغب فى هذا دائمًا، أضاف قائلاً إنه يسعده أن يأخذنى إلى هناك صباح الغد ونحن فى طريقنا إلى المحطة. لم يكن يهم إذا ما كان المولد قد انفض الآن. من المحتمل أن تكون الأكشاك والأنوار ما زالت موجودة ويمكننا بذلك أن نحصل على لمحة لا بأس بها من جو المولد. وهكذا اتفقنا على أن نتوقف عند

الحرص ألا تفوتنى هذه المناسبة مرة أخرى. قيل لى إن المولد مشهد مدهش ورائع، قالوا لى أيضًا إنه سوف تكون هناك أنوار تتلألأ فى جميع أرجاء المكان، وهناك أيضًا أكشاك لاستخدام المسدسات ومسدسات الصوت، وهناك أيضًا المراجيح، كما سوف تمتلئ الشوارع بمحلات الكباب وعربات الباعة الجائلين، وتزدحم أيضًا بعدد لا حصر له من المشاهدين. قالوا لى أيضًا إن تواجد السائحين كان سببًا كافيًا للذهاب للمولد فلم يكن من المألوف أو المعتاد أن يُشاهد الأجانب فى مكان مثل دمنهور.

تم إقناعى بغاية السهولة، ولكننى كان لدى أمور كثيرة لإدراكها وأنجزها فى لطيفة ونشاوى بعد فترة غيابى الطويلة لدرجة أنه لم يكن لدى وقت كاف لكى أفكر فى شىء آخر. بدأ المولد قرب نهاية زيارتى، وبدا وقتى قصيرًا بطريقة مخلّة حتى إننى تركته يمر بدون أن يخامرنى أى إحساس بالندم. قبل مغادرتى بيومين قيل لى إن المولد قد انتهى، كان من الممكن أن تكون هذه هى نهاية القصة لولا محسن سائق التاكسى.

كان محسن من كفر بجوار نشاوى، وكان شابًا قوى البنية فى أوسط العشرينيات من عمره. كان لديه شاربًا خشنًا وكان يلبس دائمًا جلاليب بيضاء نظيفة تنتفخ بالهواء من حوله كأنها باراشوت. كان محسن متحدثًا لبقًا، يمتلئ بالثقة بالنفس وكان مثيرًا للدهشة فى كم المعلومات التى يعرفها عن أشياء مثل أسعار العملات الأجنبية مثل الأنواع المختلفة من الدينار، وكذلك أسعار كاميرات

وفى هذا الأثناء انشغل محسن بتحضير شىء مناسب ليصاحبنى فى لحظة المغادرة وهو كاسيت لأم كلثوم الذى كان فى وضع الاستعداد حتى أننى بمجرد صعودى الميكروباص دوت إحدى آهات أم كلثوم فى طرقات لطيفة. وبعد جولة أخيرة من السلامات باليد قام محسن بإطلاق نفير مدو من سيارته، جرى الأولاد الصغار على جانبى سيارة بينما كانت سرعة الميكروباص آخذه فى الازدياد، ثم فجأة اختفت لطيفة من ورائنا فى سحابة من التراب.

توقفنا عند مشارف دمنهور أكثر من مرة لكى نسأل عن وجهتنا التى نريد الوصول إليها، ثم استدرنا صوب الطريق الضيق الذى كان محيطًا بمنطقة مزدحمة يقطنها العمال. كان هناك قشر بندق وقصاصات ورق ملون متناثرة فى كل مكان، وكان من السهل أن يرى المرء أن هذا الطريق كان مكتظًا بأعداد غفيرة من الحاضرين لهذا المولد، لم يكن محسن قد زار هذا المكان من قبل، إلا أنه كان مقتنعًا أننا نتجه فى الاتجاه الصحيح. عندما توقفنا مرة ثانية لنسأل عن قبر سيدى أبى حصيرة، أُشير إلينا على التو ناحية بناء ضخم شبه مختبئ خلف صف من النخيل أسفل الطريق بعض الشىء.

أخذتنى الدهشة عندما ألقيت أول نظرة على المبنى، ذلك لأن المبنى لم يبدو مطلقًا مثل قبور القديسين والأولياء الآخرين التى رأيتها من قبل. كان مبنى أملس من الخرسانة مثل تلك المبانى التى يتوقع المرء أن يراها فى الأحياء التى تتميز بأنها أحدث وأكثر ثراء فى الإسكندرية والقاهرة، أما فى هذه المنطقة الفقيرة من دمنهور

القبر عندما يأخذنى من لطيفة فى صباح اليوم التالى، لكى يأخذنى إلى المحطة.

أمضيت بقية اليوم فى جولات فى نشاوى لكى أقوم بتوديع أصدقائى وعائلاتهم، فذهبت إلى خميس الذى أصبح الآن صاحب أرض ثريًا ولديه ابنان بصحة جيدة، ثم ذهبت إلى بثينة التى كانت قد اشترت مؤخرًا منزلاً يقع فى منتصف القرية من مدخراتها الشخصية، ثم ذهبت إلى عيد الذى كان عائدًا لتوه من السعودية، والذى كان على وشك الزواج من الفتاة التى وقع فى غرامها منذ أعوام طوال، ثم ذهبت إلى زغلول الذى لم يتأثر بعاصفة التغيير التى عصفت بالقرية كلها، وكان هذا بمثابة المعجزة، ثم إلى عم طه الذى طور وتوسع فى تجارة البيض حتى أصبحت هذه التجارة الآن صناعة صغرى، مما جعلته الآن رجلاً ثريًا إلى حد كبير. قابلت حتى بطريق الصدفة الإمام إبراهيم الذى حيانى بطريقة مهذبة بما فيها الكفاية عندما تقابلنا بالمصادفة فى الميدان الرئيسى للقرية. وفى نهاية الجولة ذهبت لأودع فوزية وعلى وحسين الذين جعلونى أعدهم مرة أخرى، أننى سوف أقوم بالاتصال تليفونيًا بنبيل فى العراق.

عندما وصل محسن إلى لطيفة فى صباح اليوم التالى كنت أقوم بالسلام وتوديع الشيخ موسى وجابر وكثيرين آخرين كانوا مجتمعين فى غرفة الضيوف. كانت عملية التوديع أشق على نفسى أكثر مما توقعت، واستمرت السلامات والتوديع وقتًا أطول بكثير مما توقعت.

ووجنتين حمراوتين يرتدى جلابية زرقاء. كان يمسك الباب وهو مفتوح لى، وبابتسامة وانحناءة أشار إلى ضابط شرطة كان يجلس على المكتب بجوار المدخل المسقوف.

كان الضابط شابًا صغير السن من المحتمل أن يكون خريجًا جديدًا من كلية الشرطة، كان يراقبنى وعلى وجهه تعبير اندهاش وبعض القلق بينما كنت متجهًا إلى مكتبه.

سألنى بلهجة قد يستخدمها وهو يستجوب أحد الأشخاص ذوى الذكاء المحدود الذين يعملون تحت إمرته «وأنت بأه بتعمل إيه هنا؟».

رددت عليه «جيت هنا اتفرج على القبر، سمعت أنه كان فيه مولد هنا من فترة قريبة».

عندما سمعنى أتحدث أدرك إننى أجنبى، ولذلك طرأ تغيير مفاجئ على لهجته فى الكلام وتصرفاته. نظر إلى مبتسمًا، ثم لمعت عيناه كأنه توصل إلى اكتشاف.

سألنى «إسرائيلى؟».

عندما قلت له إننى هندى، اختفت ابتسامته وظهر مكانها نظرة دهشة بالغة، عندما تأكد مما قلته بفحص جواز سفرى، التفت إلى وهو فى حالة من عدم فهم تام. أراد أن يعرف ما هو الهدف من زيارتى، وماذا كنت أفعل عند القبر؟

أصبحت لغتى العربية الآن فى حالة يرثى لها من الارتباك، ولكننى حاولت بقدر ما أستطيع أن أوضح أننى قد سمعت عن مولد

فإن هذا المبنى لم يكن فقط غير متناسق مع المكان، فقد بدا أن مجرد وجوده كان بمثابة عمل نشاز به تحد وعدوانية.

أدى طريق طويل وضيق من مدخل المجمّع إلى مدخل مغطى أو مسقوف بمحاذاة القبر. كانت الأرض تبدو خالية عندما توقفنا عند البوابة، وعندما وصلنا إلى منتصف الطريق لاحظنا وجود بضعة رجال جالسين فى حالة استرخاء حول مكتب تحت ظلال المبنى المسقوف. كان أحدهم يلبس جلابية زرقاء، أما الآخرون فكانوا يلبسون الزى العسكرى ومعهم أسلحتهم.

عندما رأى محسن الزى العسكرى أصابه فجأة التوتر والخوف، فقد توقع مثلى أن يرى قبرًا تعلوه قبة، وربما بعض الشموع المشتعلة بالخارج وأناسًا قليلين يلتفون حول القبر، ولكن رؤية الزى العسكرى سرعان ما أثار هذا الارتياب الدفين تجاه المسئولين والعسكريين الذى كان قد نما بداخله على مدى أجيال طويلة وتوارثه من أجداده الفلاحين. كان من السهل على أن ألاحظ أن كل حواسه وحدسه كانت تصيح بداخله لكى يستدير بالسيارة ويسرع مبتعدًا. إلا إن الوقت كان قد فات بالفعل، فقد كان الرجال قد وقفوا الآن لكى يراقبوننا، وكان البعض منهم حتى يضع أصابعه على الزناد.

أحاط الرجال بالميكروباص فى نفس اللحظة التى وقفنا فيها تحت المدخل المسقوف، أمتدت يد من خلال النافذة التى أجلس بجوارها ثم فتحت قفل الباب، ثم فتحت الباب على مصراعيه. خرجت من السيارة لأجد نفسى وجهًا لوجه مع رجل ذى وجه أحمر

كان الرجل الذى يرتدى الجلابية الزرقاء يقف بجانبه، وعندما أشار إليه الضابط قام بدفع محسن للأمام.

كان محسن الآن فى حالة رعب حتى أنه لم يستطع أن ينظر ناحيتى. كانت ثقته المعتادة بنفسه وروحه المرحة قد اختفتا تمامًا، وكان آخذًا فى الانكماش التدريجى، بينما كان جسمه الضخم الممتلئ يهتز خوفًا ورعبًا وقبل أن يبدأ الضابط فى الحديث، كان قد اندفع فى إعطاء تفسيراته وتبريراته صاح وصوته يرتفع فى ذعر حقيقى «سيادتك أنا ماليش دعوة بأى حاجة. أنا ما أعرفش مين الخواجة ده، ومش عارف هو بيعمل إيه هنا. كان قاعد فى الكفر اللى جنبنا. وكان عاوز يزور القبر وهو فى طريقه للمحطة. أنا ما أعرفش أى حاجة أكتر من كده. أنا ما ليش دعوة بيه».

لف الضابط حولى لكى يتأملنى مليًا وسألنى بطريقة مباغتة «كنت بتعمل إيه فى الكفر؟ إيه اللى وداك هناك؟ قد إيه وقت أخذته فى السفر فى الأرياف من غير ما تقول للسلطات المختصة ؟».

بدأت اشرح له إننى وصلت أولاً إلى لطيفة بصفتى طالبًا منذ سنوات طوال، إلا أن الضابط لم يكن فى حالة مزاجية تسمح له بالإنصات إلى: فقد كان عقله لا يستطيع أن يجارى شكوكه الجامحة، وبدون أن يتوقف ألقى على سلسلة من الأسئلة الواحد تلو الآخر.

سألنى من هم الأشخاص الذين قمت بلقائهم فى القرية؟ هل كانوا ينتمون لأى تنظيم معين؟ ما هى المواضيع التى كنا نتحدث فيها؟ هل كان هناك أجانب آخرون يعملون معى؟

سيدى أبو حصيرة، وقررت أن أزور القبر وأنا فى طريقى إلى المحطة.

تبينت من تقطيبة جبينه التى كانت آخذة فى الازدياد أن إجابتى لم تكن مُرضية بالنسبة له. قال لى إن المولد قد انتهى وانفض، وأن السواح قد رحلوا، وأن القبر قد تم إغلاقه، وأن وقت الفرجة والمشاهدة قد انتهى منذ فترة.

فتح جواز سفرى ثم تصفح صفحاته مرة أخرى، من آخره لأوله، ثم توقف عند الصفحة التى تحمل صورتى.

سألنى «هو أنت يهودى؟».

«لا».

«مسلم»،

«لا».

«مسيحى؟»

عندما قلت له «لا» مرة أخرى أطلق زفرة تنم عن الضيق الشديد ثم ألقى بالجواز على المكتب محدثًا صوتًا عاليًا. استدار ناحية الآخرين وهو يرفع يديه متسائلاً: هل يستطيع أحد أن يفهم هذا ولا يهودى ولا مسلم ولا مسيحى ـ لابد وأن هناك شيئًا مريبًا فى الموضوع.

بدأت أشرح مرة أخرى، إلا أنه كان قد فقد اهتمامه بى الآن. وقف ثم استدار ناحية محسن الذى كان ينتظر بجانب الميكروباص،

للهجة أهل البندر. كان وهو بملابسه هذه المكونة من طاقية الفلاحين والجلابية سوف يبدو منسجمًا ومنتميًا كل الانتماء لحارات وأزقة نشاوى ولطيفة.

قاطعه محسن وهو فى حالة ثورة مفاجئة بأن قام بسؤاله عن الجريمة التى ارتكبها. كان محسن قد استعاد بعضًا من تمالكه لنفسه وهدوئها بعد أن رجع إلى الميكروباص الخاص به.

وكنوع من الرد عليه قام الرجل بتقليب وتصفح رخصة محسن وأوراقه الخاصة، ثم رد عليه بصوت ناعم به احترام متكلف ومراعاة لشعوره، مشيرًا أن التصريح الذى يحمله محسن «لا يسمح له بحمل ركاب».

وللتو انكمش محسن وتدلى كتفاه، وتبخرت ثقته بنفسه، فقد اتخذ الرجل إجراءاته بإتقان ودقة الخبير بعمله، من المحتمل أن أوراق محسن هذه قد استغرقت منه شهورًا طوالاً أمضاها للحصول عليها، وربما أيضًا كلفته مبلغًا محترمًا، بالإضافة إلى الساعات الطوال التى أمضاها أمام مكاتب المسئولين الحكوميين، فلذلك كانت فكرة أن يفقد محسن هذه الأوراق تسبب له الرعب. عندما تحدث محسن مرة ثانية كان صوته أجشّا وبه شحنة كبيرة من العصبية، قال موجهًا كلامه للرجل «واضح أنك من النواحى دى، أنت الكفر بتاعك أى ناحية؟».

أومأ الرجل برأسه وهو يبتسم ابتسامة ودودة، ثم ذكر اسم قرية لا تبعد كثيرًا عن دمنهور. بدا كأن الاسم قد أصاب محسن

أزاح جانبًا كل اعتراضاتى وتفسيراتى بإشارة من يده تدل على نفاد صبره، كان الضابط الآن متوترًا لدرجة كبيرة لا تسمح له حتى أن يُنصت قال لى إننى سوف تكون لدى الفرصة قريبًا لكى أشرح لضابط أكبر منه ـ فقد كان هذا الأمر خطيرًا للغاية لكى يتناوله شخص فى رتبته وسنه.

جلس على المكتب ثم قام بكتابة بعض الكلمات سريعًا ثم أعطاها إلى الرجل ذى الوجه المتورد ذى الجلابية الزرقاء مع جواز السفر الخاص بى وأوراق خاصة بمحسن.

قال لى «روح معاه هو حيآخذك المكان المناسب».

وجدت نفسى مع محسن مرة ثانية فى الميكروباص فى خلال دقائق، وكان الرجل ذو الجلابية الزرقاء يجلس بينى وبين محسن. كان ممسكًا بشدة بأوراق محسن وكذلك الجواز الخاص بى فى يده.

رد على عندما سألته إلى أين يأخذنا «كل حاجة حتكون واضحة بعد شوية بسيطة يا أستاذ» كان ذا بنيان قوى وكان لون شاربه يقارب اللون الأصفر، وكان وجهه من الجانب ذا ملامح محددة وذا عظام بارزة توحى بأن له أصولاً مقدونية أو ألبانية.

رفع أوراقنا إلى مستوى جبهته باحترام شديد ثم أحنى رأسه قائلاً «أنا تحت أمرك وأذنك».

لاحظت آنذاك أن كلامه، فيما عدا تعبيراته المنمقة، كانت نفس أسلوب الفلاحين فى الكلام، مع احتفاظه ببعض آثار بسيطة للغاية

كانت الغرفة لطيفة ذات طراز قديم، واسعة، وجيدة التهوية يغمرها الضوء الآتى من النوافذ التى تطل مباشرة على الحديقة. وبقدر ما استطعت أن أرى كان المبنى شبيها إلى حد كبير بما يسمى بالطراز المرتبط بالحقبة الاستعمارية (الكولونيالية) فى الهند الذى يتميز بالأسقف العالية المرتفعة والنوافذ ذات الأقواس: لم يتطلب الأمر حصافة أو ذكاء شديدا لكى أصل إلى الرأى أن هذا المبنى قد بُنى لكى يُستخدم للاستخدامات الحالية أثناء الاحتلال البريطانى على مصر.

وفى لحظة أُزيحت الستارة الموجودة على الباب جانبًا ثم دخل الغرفة رجل طويل يلبس نظارة شمسية ذات إطار ذهبى كالتى يلبسها الطيارون، كان يرتدى ملابس غير رسمية مثل جاكت خفيفة وبنطلون، وكانت هناك سمة تميزه مثل تلك التى تميز رجلاً رياضيًا بلغ مبلغ الشيخوخة ولكن فى جلال ووقار.

نزع النظارة الشمسية، ثم جلس خلف المكتب. كان وجهه نحيفا ذا لون أسمر، وكان شعره مجعدا وخاصة عند أعلى رأسه. وضع جواز السفر الخاص بى وكذلك المدونة الموجزة من الضابط أمامه، وبعد أن تفحصها مليا، جلس مسترخيا فى كرسيه، وكانت عيناه حادة لا تنم عن أى ابتسامة. سألنى «إيه معنى الكلام ده؟».

كنت أعلم أنه يتعين على اختيار كلماتى بدقة بالغة، فلذلك تكلمت ببطء وقلت له إننى قد سمعت أناس كثيرين يتحدثون عن مولد سيدى أبو حصيرة على مدى الأيام الماضية. قالوا إنه كان

بصاعقة، فصرخ قائلاً «الحمد لله! الحمد لله! أنا عارف الكفر ده، عارفه كويس قوى. ده أنا حتى رحت هناك كتير قوى».

وطوال مدة الرحلة كان محسن يبحث وينقب فى كل حنايا وعروق ذاكرته حتى يتذكر اسمًا قد يكون مألوفًا لدى الرجل الذى كان بمثابة مختطفه، فعل محسن ذلك فى محاولة يائسة لكى يستثمر روابط الجيرة والقرابة التى قد تحميه، ولكى يروض ويسيطر على إحساس الرعب الذى أحدثه هذا الموقف. قام الرجل بمسايرته وهو يبتسم، إلا أنه قام بتحويل الأسئلة التى ألقاها محسن إلى إجابات مهذبة ولكنها تفتقر إلى الكياسة كان مدربًا فى مهنته ولذلك فإنه كان يعرف تمام المعرفة أنه لا توجد وسيلة أفضل لإلقاء الرعب فى نفس محسن الفتى الريفى أكثر من استخدامه لهجته هو حتى يتجنب الوسائل المعتادة للتواصل بينهما ـ هذه التحيات الريفية القديمة قدم الأزل، والتى استخدمها الناس دائمًا لكى يكتشفوا معارف مشتركين.

عندما وصلنا إلى غايتنا التى كانت عبارة عن مبنى ذى أسوار عالية ويقوم على حراسته حراس أشداء، وكان هذا المبنى يقع فى شارع يموج بالحركة، كان محسن قد انهار تمامًا وأصبح غارقًا فى عرقه. اعترض بصوت خافت بينما كنا نُقتاد داخل المبنى عبورًا بحرس مسلح، إلا أنه لم يلتفت أى شخص إليه. أُقتيد بسرعة فى اتجاه جناح بعيد من المبنى، بينما اقتادونى إلى غرفة فى نهاية الردهة وأُمرت أن أذهب للمكوث والانتظار هناك.

أشار مستجوبى بطريقة توحى أنه ليس لديه أى نية لكى يقدم لى أى تعليل أو تفسير فلذلك سألنى مرة أخرى «إيه بالضبط اللى عجبك فى المكان ده؟ إيه بالضبط اللى وداك هناك؟».

رددت بقولى «أنا كنت مهتم أزور المكان، ده كل ما فى الأمر».

قال «ولكنك ولا أنت يهودى ولا إسرائيلى. أنت هندى - إيه بالضبط الصلة اللى ممكن تربطك بقبر رجل يهودى فى مصر؟».

لم يكن يحاول أن يرعبنى، فقد رأيت أنه كان بالفعل متحيراً. كان يبدو عليه أنه رجل ذكى وعقلانى حتى أننى فكرت لوهلة أن أقص عليه قصة بوما وبن ييچو. ولكننى أدركت فجأة، أنه لا يوجد أبداً ما يمكننى أن أشير إليه داخل هذا العالم الذى يمكن أن يضفى مصداقية على روايتى - كانت مجرد بقايا صغيرة وغير مميزة من تاريخ تاريخ الهند ومصر الذى تعانق سويا وكذلك المسلمون مع اليهود، والهندوس مع المسلمين والذى تعرض للفصل بينهما منذ أمد بعيد. لم يتبق أى شىء فى مصر الآن لكى يدحض بقوة وفاعلية عدم تصديقه، ولا شىء واحد مثلاً يوجد حتى أى وثيقة من وثائق الجنيزة. عندئذ فقط أدركت إلى أى مدى نجح هذا الفصل الذى تم فى الماضى والدليل على ذلك إننى كنت هنا جالساً عند المكتب للتحقيق معى، لأن حضورى مولد سيدى أبو حصيرة كان غير متسق مع تصنيفات الناس والمعرفة. لقد كنت فى نظرهم اتخطى حدوداً لا يجب أن أتخطاها، غير مدرك أن كتابة التاريخ كانت قد تمت بالفعل.

يتوافد على دمنهور أعداد هائلة من السياح لكى يحضروا المولد، فلذلك قررت أن أقوم بمشاهدة المكان أولاً قبل أن استقل القطار المتجه إلى القاهرة آخر هذا النهار.

استمع إلى بإنصات واهتمام شديد، وعندما انتهيت قال لى «اتعلمت العربى فين؟ وكنت بتعمل إيه وأنت بتلف فى الأرياف؟».

رددت عليه بقولى «أنا هنا من سنين طويلة» ثم شرحت له أننى بعد أن تعلمت العربية فى تونس، حضرت إلى مصر بصفتى طالب دكتوراه، وقد أحضرنى إلى هذا المكان الدكتور على عيسى، وهو أحد علماء الأنثروبولوجيا المرموقين فى مصر، ولحسن الحظ، فقد حرصت على حمل نسخة من التصريح الذى كنت قد حصلت عليه عندما ذهبت إلى لطيفة لأول مرة لكى أقيم فيها، ثم أعطيتها له كدليل على صدق كلامى.

تفحص الشخص الذى كان يقوم باستجوابى هذه الوثيقة ثم أعطاها لى، قائلاً: «ولكن برضه ده ما بيفسرش ليه كنت موجود عند القبر. إيه اللى وداك هناك؟».

قلت له إننى ذهبت هناك من باب الفضول، ليس إلا، وإننى كنت قد سمعت الناس يتحدثون عن مولد سيدى أبو حصيرة، مثلما كانوا يتحدثون عن أشياء أخرى مماثلة، وفكرت أننى أحب أن أتوقف فى هذا المكان لكى ألقى نظرة عليه. وأننى لم يكن لدى أى شك أن هذا الأمر سوف يكون له عواقب وخيمة، وإننى كنت فى حيرة من أمرى عما حدث بالضبط.

وقف ثم قام بمصافحتى ثم أعطانى جواز سفرى، ثم قال «أنا حاقول للراجل اللى جابك هنا أنه ياخدك للمحطة على طول. الأحسن لك تركب أول قطر للقاهرة. الأحسن لك تسيب دمنهور دلوقت حالا».

تركنى جالسًا عند مكتبه، ثم استدار وترك الغرفة، كان يتعين على أن انتظر لفترة، ثم حضر رجل شرطة واصطحبنى إلى الميكروباص.

كان محسن يجلس بالداخل بجوار الرجل ذا الجلابية الزرقاء، لم يكن يبدو عليه أنه أصيب بأى سوء، إلا أنه كان مستسلمًا ولكنه عصبى ولم ينظر إلى عينى مباشرة. كانت محطة القطار تبعد بضع دقائق، قام محسن بقيادة الميكروباص، ولكننا ظللنا نحن الاثنين فى حالة صمت. عندما وصلنا إلى محطة القطار، ذهبت إلى النافذة التى يجلس محسن بجوارها، وبعد أن قمت بدفع الأجرة، حاولت أن اعتذر عن المشاكل التى تسببت فيها هذه الرحلة. أخذ النقود ووضعها فى جيبه بدون أن ينبس بكلمة، وهو ينظر طوال الوقت أمامه.

ولكن الرجل ذا الجلابية الزرقاء كان ينصت باهتمام، ثم مال إلى الأمام وابتسم ابتسامة عريضة قائلاً «وأنا يا أستاذ حتعمل إيه بالنسبة لى؟ أنت حتنسانى بعد كل اللى عملته لك؟ مفيش حاجة علشانى؟».

قلت أخيرًا «أنا ما كنتش أعرف أن سيدى أبو حصيرة كان قديس يهودى. فى الكفر سمعت أن كل الناس راحوا علشان يزوروا القبر».

فرد على قائلاً «ما كانش لازم تصدقهم. أكيد أنت عارف أن فى الأرياف فيه جهل وخرافات كتير، الفلاحين بيتكلموا عن المعجزات بدون ما يكون فيه أى سبب لكده. أنت إنسان متعلم والمفروض أنك تكون عندك وعى أكتر من كده من أنك تصدق الفلاحين فى أمور خاصة بالدين».

رددت عليه قائلاً «ولكن الفلاحين متدينين جدًا، وكتير منهم متشددين جدًا فى الأمور الدينية».

تساءل بطريقة تدل على ازدراء شديد «وهو من الدين أن الواحد يؤمن بالقديسين والمعجزات والكرامات؟ المعتقدات دى كلها مالهاش دعوة بالمرة بصحيح الدين كلها مجرد خرافات، وضد الإسلام، وكلها حتختفى بالتطور والتقدم».

نظر نظرة إلى أوراقه تنم على أن الموضوع قد أُغلق بعد لحظة صمت، قام بكتابة جملتين على قصاصة من الورق، ثم قام من على كرسيه.

قال بنبرة مهذبة وإن كانت تبدو بعيدة «أنت عارف، احنا لازم نكون حذرين، احنا عايزين نعمل كل حاجة نقدر نعملها علشان نحافظ ونحمى القبر».

اكتشفت أن اسم أبو حصيرة أو أبو حدزيرة كما يكتب فى العبرية، ينتمى إلى سلالة مشهورة من «الزيديكيم» وهى المقابل اليهودى للأولياء الصوفيين المسلمين، الذين كان اليهود والمسلمون يبجلونهم ويوقرونهم بنفس القدر من الاحترام. اكتشفت أن ياكوف أبو حدزيرة الذى كان يعيش فى دمنهور كان أحد أشهر هذه السلالة، وكان صوفيًا يهوديًا ينتمى إلى الكابالا، وهى فلسفة دينية سرية عند أحبار اليهود مبنية على التفسير الصوفى للكتاب المقدس. كان قد اكتسب شهرة واسعة بسبب المعجزات والكرامات التى قام بها خلال حياته، وكان لا يزال لديه مريدون كثيرون من يهود شمال أفريقيا ومن ذوى الأصول المصرية. قرأت أن «قبر الحبر اليهودى أبو حصيرة الذى حضر من المغرب [والموجود فى دمنهور] جلب إليه أعدادًا هائلة من الحجاج، سواء من اليهود أو غير اليهود، وأن الاحتفالات التى تميز رحلة الحج هذه تشابه لدرجة كبيرة موالد الأولياء المسلمين».

بدا الأمر غريبًا إننى طوال هذه السنوات لم أكن أعرف، وتحديًا لكل من يريد إقحام التاريخ، إن جزءًا صغيرًا من عالم يوما كان مازال حيًا، ولا يبعد كثيرًا عن المكان الذى كنت أعيش فيه.

وعندما رأيت يده الممدودة فقدت السيطرة على أعصابى، فصرخت فيه قائلاً «أنت يا ابن الكلب! يا ابن الكلب! أنت مفيش عندك دم ولا خشا؟».

توقفت عن الكلام عندما وكزنى محسن بكوعه. تذكرت فجأة أن الرجل كان ما زال يحمل أوراق محسن فى يديه. ولكى لا أقوم بعمل أى شىء قد يفسد الأمور أكثر بالنسبة لمحسن، اتجهت سريعًا إلى داخل المحطة. عندما نظرت للخلف رأيتهما مازالا هناك، كان الرجل ذو الجلابية الزرقاء يلوح بأوراق محسن فى وجهه، مساومًا إياه على الثمن.

ثم اتجهت إلى الرصيف لكى انتظر القطار الذى سأستقله.

وعلى مدى الشهور القليلة التالية وأنا فى أمريكا أدركت جانبًا آخر يجعلنى احترم الرجل الذى استجوبنى ذلك الصباح فى دمنهور فقد اكتشفت أن فهمه لخريطة المعرفة الحديثة كان أفضل بكثير وأعمق من فهمى لها. فعندما نقبت فى المكتبات بحثًا عن معلومات تخص سيدى أبو حصيرة استغرقت وقتًا طويلاً فى البحث تحت عناوين مواضيع مثل «دين» و «اليهودية» ولكن بالطبع فإن هذا القبر، مثله مثل قبور أخرى مثله، قد أزيح منذ زمن طويل من فوق تلك الرفوف، كجزء من عملية إعادة صياغتهم لكى يتواءموا مع أنماط الفكر الغربى. ثم، عندما تذكرت ما ذكره الرجل الذى قام باستجوابى عن الفرق بين الدين والخرافة، فإنه خطر لى أن اتجه إلى الأرفف تحت عناوين «انثروبولوجيا» و«فولكلور». وبالتأكيد فقد أثمرت جهودى فى البحث فى تلك المنطقة عن أولى الثمار.

الخاتمة

(أبيلوج)

بعد أن وصلت إلى نيويورك بفترة وجيزة حاولت الاتصال بنبيل فى بغداد، لم يكن الأمر يسيرًا، فقد ذكر دليل التليفون كودًا للعراق، ولكن بعد محاولات عديدة عبر أيام طويلة كان كل ما استطعت الوصول إليه هو رسالة مسجلة تقول إن الرقم الذى قمت بطلبه غير موجود بالخدمة.

فى نهاية الأمر كان على أن أحجز مكالمة مع عاملة التليفون. استغرق منها هذا الأمر لكى تصلنى بالرقم الذى أريده، ثم بدأ التليفون يدق وبعد فترة قصيرة سمعت صوتًا على الجانب الآخر يتحدث العربية بلهجة العراقيين.

قال «ايوه؟» وهو يمط فى مقاطع الكلمة «أيوه؟ مين يتكلم؟».

أدركت على التو أننى كنت أتحدث إلى رئيس نبيل. تخيلت أنه رجل ضخم ذو كرش هائل جالسًا على طاولة خلف الخزينة، والتليفون بجانبه، وعلى الحائط خلفه ملصق لجبل تغطيه الثلوج. كان يرتدى جلابية وطاقية بيضاء، وكان يضع نظارة شمسية فى

سمعته ينادى بأعلى صوته «يا نبيل فيه حد يبغى (عايز) يكلمك، واحد هندى ولا حاجة زى كده».

كنت أستطيع أن أدرك من كلمات نبيل الأولى أن مكالمتى قد أصابته بالدهشة البالغة. كان غير مصدق فى بادئ الأمر، لا يستطيع أن يصدق أنه كان بالفعل أنا الذى أتحدث إليه على الجانب الآخر من الخط من أمريكا. كنت تقريبًا مندهشًا مثله تمامًا، فلم يخطر ببالى قط عندما تعرفت عليه فى أول الأمر، أننا فى يوم من الأيام قد نتحدث مع بعضنا البعض هاتفيًا، ونحن تفصلنا آلاف الأميال عن أحدنا الآخر.

شرحت له كيف أننى قد كنت فى مصر مؤخرًا وأننى زرت نشاوى، وأن عائلته قد أعطتنى رقم التليفون الخاص به، وطلبوا منى أن أتصل به فى بغداد. فجأة، أطلق صيحة تدل على أنه اكتشف شيئًا ما.

صاح «يا أميتاب! ازيك؟ أنت كنت فين؟ كنت فين طول السنين دى؟».

أعطيته تقريرًا سريعًا عن كيف أمضيت السنوات الماضية، وكان الآن دورى لكى أسأله «وأنت أخبارك إيه؟ ازيك أنت؟».

قال وهو يردد ردًا معتادًا «كله عال» فكل شىء كان على ما يرام، فهو وابن عمه إسماعيل كانوا يدبرون أمرهما بطريقة حسنة، وكانا يشتركان مع أصدقاء لهما من مصر فى المعيشة فى غرفة واحدة. ثم سألنى نبيل عن الهند، وعن كل فرد من أفراد عائلتى، وعن

جيبه الملاصق لصدره، تخيلته أيضًا أنه ذو شارب مشذب بعناية. تخيلت أيضًا أن التليفون بجانبه كان من طراز عتيق، ذو لون أسود وثقيل الحجم، وأنه كان يضع قفل نحاس على قرص التليفون، وأن الريس كان يحتفظ بالمفتاح، وأن نبيل والعاملين الآخرين فى المحل كان يجب عليهم أن يطلبوا منه المفتاح لكى يجروا أى مكالمة.

كان الوقت متأخرًا فى نيويورك، فلذلك فإن الوقت لابد أنه كان فى الصباح فى بغداد لابد أيضًا وأن المحل كان قد تم فتحه منذ فترة وجيزة، ومن الممكن ألا يكون لديهم أى زبائن حتى الآن.

سألته «هو نبيل هنا؟».

سأل الصوت «مين؟»

قلت «نبيل إدريس بدوى ـ المصرى».

زمجر قائلاً «وأنت مين؟».

رددت قائلاً «أنا صديقه ـ قل له صاحبك من الهند ـ هو حيعرف».

قال «ايش هاده؟ من وين؟».

قلت «من الهند يا ريس. ممكن تقول له وبسرعة من فضلك، أنا باتكلم من أمريكا».

صاح قائلا «من أمريكا؟ لكن أنت قلت أنك هندى».

«ايوه، أنا هندى ـ أنا هنا فى أمريكا فى زيارة. من فضلك قول لنبيل بسرعة، يا ريس».

ولكن تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن، فلم أستطع أن أنفذ وعدى له لمجموعة من الأسباب فقد اتضح أنه من المستحيل التوقف فى بغداد وأنا فى طريقى إلى الهند. وكان إخلالى بهذا الوعد مصممًا أكثر من ذى قبل أن أحافظ على وعد آخر فقد صممت أننى يجب أن أعود إلى مصر عام ١٩٩٠، أى فى العام التالى، فقد أعطيت وعدا للشيخ موسى أننى سوف أقوم بعمل ذلك.

كنت متأكدًا أنه بحلول هذا الوقت فإن نبيل سوف يكون قد عاد إلى نشاوى.

تنتهى قصة بوما فى فيلادلفيا.

عند ملتقى الشارع رقم ٤ وشارع والنت فى قلب مدينة فيلادلفيا يوجد مبنى حديث مصقول، وهو مبنى فخم ذات هيبة يمكن لأى شخص أن يخطئه على أنه المقر الرئيسى لشركة عملاقة من جنسيات مختلفة. فى حقيقة الأمر فإنه معهد آننبرج للأبحاث، وهو مركز متخصص فى الأبحاث الاجتماعية التاريخية، ويرجع الفضل فى إنشائه للثروة الضخمة التى تدرها أولى المجلات الأمريكية المتخصصة فى التليفزيون وأكثرها شعبية تى. فى. جايد T.V. guide.

تقع مجموعة ضخمة من الدراسات العبرية داخل المبنى الفخم للمعهد، تتضمن تلك المجموعة مخطوطات من أنواع مختلفة كثيرة، من ضمنها مجموعة من وثائق الجنيزة والتى كانت فى يوم ما فى حوزة فيلادلفيا دروبسى كوليدج.

عملى وعن كتبى. عندما فرغت من إعطائه أخباراً عنى، قلت له عن أخبار عائلته فى نشاوى، وعن زيارتى لبيتهم الجديد، كان شغوفاً لأن يستمع لأى أخبار خاصة بهم، فكان يسأل السؤال تلو السؤال، ولكن بصوت بدا أنه آخذ فى نبرة الهدوء أكثر فأكثر.

قلت له أخيراً «وإيه أخبارك أنت يا نبيل؟ عجباك العراق؟ العراق شكلها إيه؟».

قال «كله عال كل شىء كان على ما يرام».

«كنت أريده أن يتحدث عن العراق، ولكنه بالطبع لم يكن يستطيع أن يقول الكثير على مسمع رئيسه. ثم سمعت ضجة فى الخط كما لو أن شخصاً ما كان ينادى عليه من الجانب الآخر من الغرفة. توقف لحظة لكى يقول «ايوه، أنا جاى، لحظة واحدة» ثم قلت له بسرعة «أنا راجع الهند قريب جداً، حاحاول أنى أقف فى بغداد علشان أزورك».

قال «واحنا منتظرينك، لازم تيجى».

قلت «حأحاول بكل جهدى».

قال بسرعة «وأنا حاقول لإسماعيل إنك حتيجى. حنكون منتظرينك».

سمعت صوت رئيسه مرة ثانية، وهو يصيح فى الخلفية. وعدته قائلاً «أنا حاجى، أنا أوعدك أنى حاجى».

تذكر هذه الوثائق العديد من الناس الذين قام بن ييچو بالاستدانة منهم من أجل شراء احتياجات المنزل مثل أرغفة الخبز من أنواع مختلفة كثيرة. هناك الجزء الكبير من الوثيقة لا يمكن تفسيرها أو فك شفراتها، ولكن يوجد من ضمن الجمل التى يمكن قراءتها بسهولة ذكر مبلغ من المال كان بن ييچو قد اقترضه من بوما.

يدل هذا على أن بوما كان مع بن ييچو عندما عاد مرة أخرى إلى مصر لكى يستقر بها فى السنوات الأخيرة من حياته.

كان إذن فى فيلادلفيا تحفظ الوجبة الأخيرة التى تركها بوما، صائد السمك المحب للشراب المُسكر (التودى) الآتى من تولوناد. وللغرابة فإن فيلادلفيا المشهورة بالمسلسلات الشهيرة «دالاس» و«داينستى»، إلا أنها كانت هى نفسها التى تحمى قوات الشرطة الأمريكية الموجود بها هذا الكنز من الوثائق.

لم أستطع أن أغالب فكرة راودتنى، وهى أن بوما كان سوف يسعد للغاية إذا عرف هذا.

تشير أحد الأختام فى جواز السفر الخاص بى إلى أننى سافرت من كلكتا متجهًا إلى القاهرة يوم ٢٠ أغسطس ١٩٩٠، بعد ثلاثة أسابيع من الغزو العراقى للكويت. كانت الجرائد والأنباء تتحدث بالفعل عن خطط تعبئة مئات الآلاف من القوات الأمريكية والأوروبية، وكانت بمثابة أكبر جيش تم جمعه وحشده على مدار التاريخ.

هذه الوثائق محفوظة فى غرفة الكتب النادرة بالمعهد، وهذه الغرفة على شكل قبو كبير فى أسفل المبنى، وهى مغلقة بالصُلب ويستخدم فيها أشعة الليزر، وهى مجهزة بأجهزة إنذار لا تستغرق أكثر من ثوان لكى تستنفر أساطيل كاملة من الطائرات المروحية وسيارات الشرطة. داخل الجزء الداخلى من هذا القبو والذى تم عزله توجد خزانتان ترتفعان من الأرضية وكأنهما نعشان. الوثائق موضوعة بداخلهما، وهذه الوثائق قد وضعت داخل ألواح من البلاستيك الشفاف بأغطية مزخرفة بزخارف رائعة.

توجد ضمن أوراق أحد تلك المجلدات ورقة مقطوعة مكتوبة بخط يد بن ييجو المميز. كانت ورقة الفوليو كبيرة، أكبر بكثير من أى أوراق بن ييجو الأخرى، إلا أنها كانت فى حالة سيئة للغاية، كما أن حوالى ربع الورقة تقريبًا غير موجود. إلا أن خط يد بن ييجو على الأجزاء الباقية من هذه القصاصة لا يمكن أن يخطئها أحد، وإن كانت الحروف صغيرة للغاية وباهتة، كما لو أنها قد كتبتها يد مهتزة لشيخ عجوز.

تعتبر هذه الوثيقة ضمن إحدى المجموعات الكثيرة التى قام فيها بن ييجو بتدوين رواياته، ولكن أسماء الأشخاص والبضائع التى قام بذكرها مختلفة كل الاختلاف عن تلك التى قام بذكرها فى أوراقه السابقة، ولذلك فإن هذا يعنى ضمنًا أن تلك الأحداث التى دونها تتعلق بالسنوات التى أمضاها فى الفسطاط وهو يقترب من نهاية عمره.

الكيماوية والنووية وقاب قوسين أو أدنى من المنطقة التى تنطلق منها أشد الأسلحة فتكًا فى العالم وأكثرها تطورًا، قد يكون هو الذى يجب عليه دفع الثمن فى نهاية المطاف لوجود لهذه الأسلحة والدبابات والقنابل.

كانت فوزية واقفة عند باب منزل عائلتها، رأتنى عندما كنت أدلف عند الناحية. قالت بمجرد أن رأتنى «نبيل لسه مارجعش يا اميتاب، هو لسه هناك، فى العراق، واحنا أهو قاعدين نستنى».

سألتها «ما وصلش منه أى أخبار أو جوابات؟»

قالت وهى تأخذنى داخل المنزل «لا، ولا حاجة. ولا حاجة خالص. آخر مرة سمعنا أخبار عنه كانت لما إسماعيل رجع من شهرين».

«هو إسماعيل رجع؟».

ابتسمت قائلة «الحمد لله. رجع بصحة كويسة وكل حاجة».

سألت وأنا أنظر حولى «هو فين؟ ممكن حد يروح يخليه يجى؟».

قالت «أيوه طبعا، هو قريب جدًا من هنا، قاعد فى البيت. لسه مالقاش شغل لغاية دلوقت أهو بيلقط رزقه هنا وهناك، ولكن معظم الوقت معندوش حاجة يعملها. أنا حابعت أقول له دلوقت حالا».

عندما نظرت حولى لاحظت أنه كان هناك شىء يبدو أنه قد تسبب فى توقف العمل فى المنزل. عندما رأيته آخر مرة خُيل أن العمل سوف يكتمل خلال بضعة شهور. ولكن مضت الآن سنة

كانت أكثر الأشياء التى احتفظت بها ذاكرتى بقوة وحيوية عن الرحلة هى ما قرأته عن الطوفان الهائل من العمال المصريين الذين كانوا يتدفقون خارجين من العراق، وعن البحث عن نبيل وإسماعيل فى صالات الانتظار المكدسة بالبشر فى مطار عمّان عندما كنت أقوم بالتغيير من طائرة إلى أخرى.

فى مصر بدا أن كل من تحدثت إليهم فى حالة من القلق والتخوف والتخبط، ففى التاكسى الذى استقللته من القاهرة إلى دمنهور، كان الركاب الآخرون يتحدثون كيفما اتفق عن المصيبة التى حلت بالكويت وعن القتل والانتقام. فى الريف كان التشوش والفوضى أسوأ بكثير من المدن، كانت لطيفة فقط لديها أربعة شبان ذهبوا إلى العراق، ولم يُسمع عن أحد منهم منذ يوم الغزو. اكتشفت أن جابر لم يكن من ضمن الخمسة، فقد كان مازال فى لطيفة، على الرغم من أنه كان فى محاولات مستمرة لكى يسافر إلى العراق، فى واقع الأمر حتى يوم الغزو. كان الشيخ موسى بحالة جيدة، إلا أنه كان فى حالة قلق شديد، فلقد كان مبروك ابن أخيه أحد الخمسة الذين ذهبوا للعراق.

فى طريقى لنشاوى للاستعلام عن نبيل وإسماعيل ظل عقلى يعود إلى هذا اليوم، الذى كان قد مضى عليه حوالى عقد من الزمان الآن، عندما جاء مبروك يجرى لاهثًا إلى غرفتى، ثم قام بسحبى لمنزله لكى أقول رأيى فى «الماكينة الهندى» التى كان أبوه قد اشتراها، والآن كان مبروك على مقربة شديدة من الأسلحة

هز إسماعيل كتفيه قائلاً «ولكنه برضه كان عايز يرجع مصر. ده بقاله هناك تلات سنين مدة أطول من أى حد تانى، حاجة خلته يعجز ويكبر فى السن. حتفهم معنى اللى بقوله لما تشوفه شكله دلوقت أكبر بكتير، الحياة صعبة قوى هناك».

«تقصد إيه؟». قال وهو يكشر ويقطب وجهه «أنت عارف، العراقيين عندهم عنف.. يرجعوا فى إجازة من الجيش كام يوم ويبتدوا يتصرفوا بعنف، وغلطة يتعاركوا فى الشوارع ويشربوا الخمر. المصريين ما يخرجوش أبدا بالليل. إذا قابلك عراقيين شاربين فى الشوارع يقتلوك، بالبساطة دى، ولا حتى يدرى حد عنك، علشان هم بيرموا أوراقك ويتخلصوا منها. الحكاية دى حصلت كتير قوى، هم بيلوموا علينا وبيقولوا «انتم أخذتم وظايفنا وفلوسنا، ودلوقت أنتم بقيتم أغنيا وعندكم فلوس، أما احنا بنحارب وبنموت»».

«وإيه أخبار صدام حسين؟».

قال وهو يقلب عينيه «صدام حسين. لازم الواحد يكون حريص جدًا لما يذكر الاسم ده هناك علشان فيه جواسيس فى كل مكان، فى كل ناحية بيتصنتوا على كل واحد. كلمة واحدة عن صدام حسين وتلاقى نفسك ميت».

بعد ذلك روى لى إسماعيل قصة فى أوائل هذا العام، كانت مصر قد لعبت مباراة كرة قدم مع الجزائر، لكى يتحدد أى فريق سوف يلعب فى مونديال كرة القدم، فازت مصر على الجزائر، وكان

ونصف السنة، وكانت الأرضية لاتزال كما هى، مكان ملىء بأكوام من التراب والزلط. لم يكن البلاط قد تم تثبيته حتى الآن، ولم تكن الحوائط قد تم دهانها.

«حمدا لله على السلامة» قالها إسماعيل وهو مازال واقفًا عند الباب ضاحكًا ويداه ممدودتان.

قال بمجرد أن انتهينا من السلامات «ليه ما حضرتش؟ فاكر يوم ما اتكلمت من أمريكا؟ نبيل اتصل بى أول ما أنت اتكلمت معاه. مسك السماعة واتصل بى على طول فى مكان شغلى، قال أنك قلت له أنك حتزورنا. قعدنا ننتظرك لمدة طويلة جدًا. حضّرنا لك مكان فى حجرتنا، وفكرنا فى كل الأماكن اللى عاوزينك تشوفها. لكن، عارف الريس بتاع نبيل صاحب المحل؟ اتضايق جدًا أن نبيل حد اتصل بيه من أمريكا».

«ليه نبيل ما رجعش معاك؟ إيه أخباره؟»

«كان عايز يرجع. فى الحقيقة هو فكر أنه لازم يرجع. ولكنه غير رأيه وقرر أنه يقعد كام شهر كمان علشان يحوش فلوس، علشان يقدر يكمل بناء البيت، أهو، شايف أن نصه بس اللى خلص، كل الفلوس خلصت الأسعار طلعت فى العالى السنة اللى فاتت، كل حاجة بتتكلف أكتر».

قالت فوزية «وزايد على كده، نبيل يعمل إيه لما يرجع هنا؟ بص لإسماعيل ـ أهو قاعد فى البيت ولا شغله ولا مشغله».

رجعت بذاكرتى إلى هذه الأمسية عندما قابلت نبيل وإسماعيل لأول مرة، وكيف أن نبيل قد قال «لازم وأنت بتحط الأبريق على الوابور بكمية ميه تكفى واحد بس، افتكرت كل الناس اللى سبتهم وراك فى بلدك» كان من الصعب على أن أتخيل نبيل وحيدا، فى مدينة تتجه نحو الدمار والخراب.

بعد ذلك بقليل ذهبنا إلى منزل إسماعيل لكى نشاهد الأخبار على التليفزيون الملون الذي كان إسماعيل قد جلبه معه عندما عاد. كان الجهاز موضوعًا على الكرتونة التى كان موضوعًا فيها من قبل، فى منتصف الغرفة، وكان يتلألأ ليدل على أنه جديد، بينما كانت هناك فراخ صغيرة راقدة على بيضها فى عشة من القش بجواره. بدأت الأخبار وشاهدنا مشاهد من الهروب الجماعى الحزين، كان هناك الآلاف المؤلفة من الناس البعض منهم يرتدى البنطلونات والآخرون يلبسون الجلاليب، والبعض الآخر يحملون أجهزة التليفزيون على ظهورهم، بينما كان الآخرون يصرخون طلبًا لرشفة ماء، كان هذا المشهد يمتد كل المسافة من الآفق حتى البحر الأحمر، واقفين على الشاطئ كما لو أنهم فى انتظار معجزة وينشق البحر.

كان هناك أكثر من اثنى عشر شخصًا الآن فى الغرفة، كنا ملتفين حول جهاز التليفزيون، نشاهد عن كثب وباهتمام، مدققين فى كل وجه يمكننا رؤيته. لم نستطع رؤية أى شىء سوى حشود الناس: كان نبيل قد اختفى وفقد هويته المميزة فى هذا الخضم البشرى وأصبح نسيًا منسيًا فى غياهب التاريخ.

المصريون فى العراق يغمرهم حماس وفرح، احتشد المصريون البالغ عددهم مليونان أو ثلاثة ملايين، وكانوا كلهم من الشباب، ومن الرجال، بدون عائلاتهم أو أولادهم أو زوجاتهم، لم يكن لديهم أى شىء يفعلونه أبدًا سوى الحملقة فى أجهزة التليفزيون التى كانوا قد اشتروها حديثًا ـ بعد المباراة انطلقوا خارج الحجرات التى يعيشون فيها إلى الشوارع فى حالة نشوة من الفرح البالغ. كان فريق كرة القدم المصرى قد استعاد لهم الإحساس بالفخر واحترام الذات التى لم تستطع أجهزة الكاسيت والتليفزيون أن تمنحهم إياه. بالنسبة للعراقيين الذين لم يتمتعوا أبدًا بما يشابه الحياة السياسية الطبيعية، ومن المحتمل ألا يكونوا قد شاهدوا هذه الجماهيرالمحتشدة سوى فى موسم الحج فقط، فإن الأعداد الغفيرة من المصريين المحتشدين لابد وأنها قد بدت للعراقيين كأنها معركة نهاية الزمان. تعاملوا مع الموقف بأن قاموا بمهاجمتهم فى الشوارع، وغالبًا بالأسلحة النارية، وبما أنهم كانوا مدربين تدريبًا جيدًا بسبب اشتراكهم فى الحروب، فقد وجدوا أن هذا أمر يسير أن يهاجموا الحشود الهائلة من العمال المصريين الذين كانوا منتشين بالنصر، ولكنهم كانوا بدون أى أسلحة.

قال لى إسماعيل والدموع تلمع فى عينيه «ما تقدرش تتصور المنظر كان شكله إيه . وقتها بس قررت أنى أمشى من العراق. نبيل كمان قرر أنه يمشى، ولكن طبعًا هو كان دايما محتاج أنه يفكر فى كل حاجة، ولكن فجأة فى اللحظة الأخيرة فكر أنه يقعد شوية كمان».

المؤلف فى سطور :

آميتاف جوش

مؤلف روائى هندى. ولد فى كلكتا بالهند عام ١٩٥٦، كتب ثلاث روايات: «دائرة العقل» (نشرت فى دار نشر جرانتا Granta Books) وكذلك «الخطوط الوهمية» و «كروموزوم كلكتا» و «القصر الزجاجى»، التى نشرها المركز القومى للترجمة ٢٠٠٩.

المترجمة فى سطور :

آمال على مظهر

ـ أستاذ بقسم اللغة الإنجليزية وآدابها بكلية الآداب جامعة القاهرة. متخصصة فى المسرح البريطانى والأيرلندى والمصرى.

ـ ومن أهم ترجماتها مسرحية «باب الفتوح» لمحمود دياب مع مقدمة من العربية للإنجليزية، وكذلك مسرحية «كليوباترا تعشق السلام» لأحمد عتمان من العربية للإنجليزية.

يمثل كتاب «فى البلاد العتيقة» تاريخًا مغايرًا يأخذ شكل رواية يقصها أحد الرحالة، تاريخًا يحفل بالنوادر والقصص والتفاصيل المثيرة الحية، التى تسبغ صفة سحرية وحميمية على الحياة الخاصة لمصر، منذ الحروب الصليبية وحتى عملية عاصفة الصحراء.

وجوش يتمتع بكونه رحالة على قدر كبير من التواضع وقدرة على الفهم والإدراك، وهو بذلك يعطى صورة عكسية تمامًا لعلاقات القوى المعتادة بين الكاتب/ الرحالة الأوروبى الذى يراقب ويسجل ويبين الشعوب الأصلية.

إنه كتاب فذّ، ينتمى إلى أدب الرحلات التى تبدأ منذ القرن الثانى عشر، كما أنه يتناول أهم الأزمات فى عصرنا الحالى.

تصميم الغلاف: إيناس الهندى